

١٣٤

خارج المخطوطات

الجملة الفرنسية على مصر

في ضوء مخطوطات عثمانية

ومخطوطة «اضيانامة» للداريني

بقلم

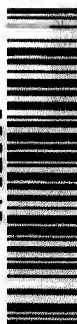
عزت همدان أفندي الداريني

دراسة وترجمة

جمال سعيد العناني



Bibliotheca Alexandrina



0097048

١٣٤

تاريخ المصريين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

بیت

عنایت سے مسیح اُختی الہ راہنہ

1944

الحمد لله

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب المهم عن تاريخ الحملة الفرنسية على مصر. والكتاب في الأصل رسالة علمية من قسم لغات الأمم الإسلامية، قدمها الأستاذ جمال سعيد المدرس المساعد بآداب حلوان، ترجم فيها مخطوطة عثمانية أصلية بعنوان «ضيانامة»، تعد هي المصدر العثماني الوحيد الذي ظهر حتى الآن، وانفردت بتقديم وجهة النظر العثمانية في موضوع الحملة الفرنسية على مصر والشام، ودور الدولة العثمانية في إخراج الفرنسيين.

ومن هنا أهمية الكتاب، إذ يضيف مصدراً جديداً من مصادر تاريخ الحملة الفرنسية غير الجبرتي ونقولا ترك، ويقدم بعداً جديداً كان غائباً

وصاحب المخطوطة هو مؤرخ عثماني عاصر السلطان سليم الثالث، ورافق الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا في حملته لطرد الفرنسيين من مصر. وقد كتب الكتاب بتكليف رسمي من الصدر الأعظم أثناء صحبته له، وهو عزت حسن أفندي الدارندلي.

وقد قدم المترجم الأستاذ جمال سعيد للمخطوطة العثمانية بمقدمة تحتوي على دراسة مهمة للمخطوطة، ولصاحبها. وهذه المقدمة والدراسة صدر بها المترجم الكتاب. ثم أتبع هذه الدراسة بترجمة المخطوطة من التركية إلى العربية، وهي ترجمة ممتازة استوحى فيها المترجم أسلوب مؤلف المخطوطة، وتظهر فيها قدرته وإمساكه بزمam اللغتين التركية والعربية.

وقد زود المترجم الكتاب بكشاف مهم للمصطلحات التاريخية والعثمانية الواردة بالمخطوط العثماني ضيانامه.

وأملئ أن يجد المؤرخون والباحثون في هذا الكتاب
ما هو جدير به من تقدير وفائدة علمية، ويجد المثقفون
فيه ما ينشدون من متعة.

والله الموفق ،،،

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

المقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على نبي الخير والمكرمات ، ثم أما بعد ...

فإن هضم التراث ثم تجاوزه هدف نبيل ينبغي على جمهرة الباحثين فى أمتنا الالتفات إليه والاهتمام به ، فإن أمة لم تستوعب ماضيها لا يمكنها أن تخطو بخطى ثابتة نحو مستقبلها ، وإذا كانت الأمم غيرنا تستجدى تراثاً فتجد أو لا تجد فإن تراث أمتنا على العكس من ذلك من المجد والفخر بمكان وحجمه من الكثرة بحيث نستطيع أن نقول فى اطمئنان أن حجم ما خرج منه للنور حتى الآن - وبرغم كل الجهود المبذولة فى ذلك الميدان - مازال قليلاً بالنسبة لما ينبغي علينا نحو ذلك التراث الإسلامى والعربى .

إن جل تراثنا ما زال إلى الآن مخطوطاً ينتظر أن تمتد إليه الأيدى الفتية مترجمة ومحققة ، لتزيل عنه غبار الزمن وتعطى لنا امتداداً حقيقياً لماض زاهر صنعناه أبوانا وأجدادنا .

إن تاريخنا الإسلامى على سبيل المثال ما يزال فيه جوانب تحتاج إلى إيضاح وتنقيب ، فالكلمة الأخيرة لم تنقل فيها بعد ، ومما لفت محفل جدل وأخذ ورد بين الباحثين . ولعل الحملة الفرنسية على مصر والشام إحدى تلك الحوادث التى اختلف حولها الباحثون ، بين قائل بأن الحملة الفرنسية كانت شعلة النور التى فتحت أعيننا على طريق النهضة . وبين قائل بأنها كانت موقد النار التى أحرقت نهضة إسلامية حقيقية كانت بذورها قد بدأت تنمو فى الأزهر الشريف وأنها كانت بداية الانحراف عن نهضة نابغة من كيان الأمة .

كل ذلك كان خير باعث لى على العمل على مخطوطة تركية عثمانية أصلية تُعد - لعلمنا إلى اليوم - المصدر العثمانى الوحيد الذى انفرد بتاريخ الدور

العثماني في إخراج الحملة الفرنسية من مصر ... وهي بذلك تسد فراغاً طال عليه الأمد دون شك أو ريبية .

والفضل في تعرّف في على هذا المخطوط القيم يعود للأستاذ الدكتور / محمد حرب ، فقد كان هذا المخطوط ضمن مجموعة من المخطوطات العثمانية القيمة التي حازها إبان وجوده في تركيا منذ سنوات عديدة مضت ، وكان لديه العزم على إخراجها للنور ولكن حالت مشاغله دون ذلك ، فكان لي الشرف أن عهد إليّ به لأقوم بذلك الواجب .

ولقد بذلت وسعي في ترجمة المخطوط ترجمة أمنية على الرغم من أسلوب المؤلف الذي كان يحاول استعراض ثقافته ، وأتعبني كثيراً حتى تعودت على أسلوبه واستطعت أن أجاريه في عباراته التي كنت أسهر على بعضها الليلي .

وقد ألزمت نفسي في هذه الترجمة بعدم الإكثار من الحواشي والتعليقات فقد وجدت كثيراً ممن يتعرضون للترجمة يكثرّون من الحواشي والتعليقات بطريقة تغطي على النص الأصلي ذاته ، لذلك اكتفيت بتخريج الآيات والأحاديث ووضعت ذلك بصنع كشاف للمصطلحات التاريخية العثمانية الواردة في النص ووضعته في ختام الترجمة لمن أراد أن يعود إليها .

ولطه كان من الصواب والأنسب قبل الخوض في الترجمة أن أقدم للمقارئ تبذة عن المخطوطة وعن صاحبها عزت حسن أفندي الدارندلي والعصر الذي عاش فيه ، ومنهجه في الكتابة وكيفية سرده للأحداث التاريخية ، وكذلك نوعية المصادر التي غول عليها في بناء مادة مؤلفه ، ثم أوضح أهمية هذه المخطوطة في دراسة العلاقات الدولية بين الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا وروسيا ، وكذلك أهميتها في دراسة التاريخ المصري في العهد العثماني وأخيراً أعرض لمكانة عزت حسن أفندي الدارندلي بين المؤرخين العرب المعاصرين له .

ولمّا كانت هذه المخطوطة من ألفها إلى يانها مكنتظة ومشبعة بالمصطلحات التاريخية العثمانية ، فقد صنعت كشافاً لتلك المصطلحات وعرفت

بها ، بعدها صنعت فهرسين أحدهما للمراجع والمصادر التى وسعنى الاطلاع عليها ، والفهرس الآخر للموضوعات .

وختاماً ... فلا يسعنى سوى التقدم بالشكر لكل آزرنى ومد لى يد العون طوال فترة إعداد هذا البحث ، وأخص منهم بالذكر الأخ الفاضل الأستاذ / أحمد طه والدكتور طارق شلبى .

وإحقاقاً للحق لا يفوتنى فى هذا المقام التقدم بأسمى آيات الشكر والعرفان لكل من الأستاذ الدكتور / عبد العظيم رمضان المؤرخ والناقد الحصيف ورئيس تحرير سلسلة " تاريخ المصريين " ، والأستاذة الدكتورة / زبيدة عطا أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة حلوان على ما لمسته فيهما من تواضع جم وتشجيع ورعاية لى ولمثلنى من الباحثين الشباب والذان لولاهما لما رأى هذا البحث المتواضع النور ، فجزاهما الله خيراً ، وأسأله عز وجل أن ينفع بهذا العمل والله من وراء القصد وهو يهذى إلى سواء السبيل .

القاهرة فى ٨ أكتوبر ١٩٩٨ م

جمال سعيد عبد الغنى

مدرس مساعد بقسم اللغات الشرقية

كلية الآداب - جامعة حلوان

التعريف بالمخطوطة

بتكليف رسمي من الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ألف عزت حسن أفندي الدارندلي مخطوطة عنوانها (ضيا نامه) ، ضمتها كل ما شهد من وقائع لضيا باشا في إقليم كردستان ، ووقائع الحملة البرية العثمانية التي قادها لطرد الفرنسيين من مصر ، مبينا خط سير تلك الحملة ، والمنازل التي نزلت بها ، وما كان يقع من أحداث ومن تمرد في صفوف الجند ، وما كان من القضاء على الخارجين عن طاعة الدولة في تلك المنازل ، وختم مخطوته بذكر تراجم عدد من الوزراء وقادة الجيش العثماني الذين ساهموا في تلك الحملة . والنسخة الأصلية للمخطوطة محفوظة في مكتبة جامعة استانبول ^(١) تحت رقم (T.Y.6115) ^(٢) وهي مدونة بخط الرقعة الجميل ، ويخط المؤلف نفسه. وتقع المخطوطة في ٢٦٤ ورقة ، تتألف الورقة الواحدة من صفحتين ومقاس الورقة ٢٣,٩ × ١٥ سم ، وتحتوي كل صفحة ٢١ سطراً ، وفي كل سطر بين ٦ : ٩ كلمات .

والمخطوطة خالية من الترقيم ، والمؤلف كتبها على نظام الورقة إذ اتخذ نظام التعقيب أي أن يكتب في هامش الصفحة الأولى من أسفل الكلمة الأولى في الصفحة التالية . والمخطوطة في حالة جيدة للغاية ، لم تطرأ عليها عوادي الزمن كالتآكل والخرم وآثار الأرضة والرطوبة . وهي نسخة كاملة إذ ختمها المؤلف بعبارة (نبت الحروف بعون الله الرعوف) ، ولا تحمل تاريخاً

١ - تعد مكتبة جامعة استانبول من المكتبات الغنية بالمخطوطات التركية والعربية والفارسية فيها نحو ١٧٧٨٤ مخطوط إضافة إلى ١٤٧٥٤٠ كتاب مطبوع .

Türkiye Gazetesi Rehber Ansiklopedisi , 1st. 1984 c.8 , s. 306 .

2- Agah Sirri Levend , Gazavat - Nameler , T . T . K - Ankara 1956, s. 158

لكتابتاتها ، ولكن بما أن المؤلف كتبها إثر خروج الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١م ، يتكليف من المصدر الأعظم الذي بقى في الصدارة إلى عام ١٨٠٥^(١) تأتي لنا أن نحدد تاريخ كتابة هذه المخطوطة بين عام ١٨٠١ وبين عام ١٨٠٥ .

ومداد المخطوطة أسود ، والعناوين مكتوبة بمداد مغاير وهو المداد الأحمر . ويبدو من المخطوطة أن المؤلف كان شديد العناية بضبط الكلمات بالشكل زيادة في الدقة وأخذاً للحبطة من الوقوع في خطأ في نطقها نطقاً صحيحاً .
صاحب المخطوطة وعصره

هو عزت حسن أفندي الدارندلي^(٢) ، لم يرد في المصادر العثمانية تاريخ ميلاد له ولا وفاة . كل ما جاء فيها أنه مؤرخ في القرن الـ ١٨ الميلادي وعاصر السلطان سليم الثالث الذي تربع على عرش آل عثمان عام ١٢٠٤ هـ = ١٧٨٩م^(٣) .

ولد عزت أفندي لأب فقير معوز هو محمد أفندي الدارندلي ، وكان محباً للعلم والمعرفة ميالاً إلى أرباب الفضيلة ، حض ابنه ورغبه في تحصيل العلم والمعرفة في المكتب وهو طفل في الخامسة من عمره ، فتتلمذ لعدد من المعلمين ، وعلى شدة فقره نال حظاً من المعرفة ، ثم تأتي له أن يشتغل بالتدريس في بلدته (دارنده) ، و غادرها ساعياً في طلب الرزق فلحق بخدمة

١- İsmail Hakkı Danişmend , İzahlı Osmanlı Kronolojisi ,Osmanlı Devlet Erkani . c.5 , s.69 .

٢- نسبة إلى دارنده ، وهي قرية صغيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة ميواس بالأناضول (تركيا) على مسافة ست عشرة ساعة .

انظر على جواد ، (ع.ك.ا) ، ص ٣٨١ .

٣- يورسلي محمد طاهر ، عثمانلى مؤلفارى ، استنبول ١٩٣٠ ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

علاقة المؤلف الاجتماعية :-

أما عن علاقة المؤلف الاجتماعية فيبدو من خلال الإشارات التي وردت في ثنايا مخطوطته أنه كان وثيق العلاقات الاجتماعية كثيرها ، حاز على محبة الجميع وثقتهم فيه ، إذ هم تحدثوا عنه في مجلس الوزير يوسف ضيا باشا إبان توليه على أرضروم ، وكان يوسف ضيا باشا إذا سمع بعالم فاضل من قريب أو بعيد استدعاه إلى مجلسه واختصه لنفسه .^(١)

ثقافته :-

أما عن ثقافة عزت حسن أفندي الدارندلي فيبدو أنه كان واسع الثقافة الإسلامية ، حاذقاً للغات الثلاث العربية والفارسية والتركية العثمانية ، وهذا ما يتجلى في أسلوبه الذي حشد فيه الكثير والكثير من الأشعار والحكم العربية والفارسية .

صفاته :-

ونحن لا نعرف عن صفات المؤلف عزت أفندي الكثير ولكن قارىء (ضيا نامه) يتضح له التواضع الشديد الذي كان يتميز به عزت أفندي ، فقد كان لا يذكر اسمه إلا بعد أن يصدره بلفظ حقير أو فقير ، كما كان يضع نفسه موضع التقصير أو العجز كنحو قوله :

"...ورغم أنني لم أكن ذا علم ومعرفة ، ولا سهم لي من البلاغة والفصاحة ، ذكر اسمي في مجلسه العالی" ^(٢) وقوله : " ما نُفِّذ من أوامر الديوان السلطاني لم يتعد خلع عبدي بك من وظيفة تشريفاتي ، وإسنادها إليّ أنا الذليل (عزت حسن) دون أن أكون مستحقاً لها " ^(٣)

١- ضيا نامه : ص ٢ ب .

٢- ضيا نامه : ص ١٣ .

٣- ضيا نامه : ص ١١٨٨ .

وهناك بعض العبارات التي تستوقف القارئ لتدله على ميل عزت أفندي إلى عدم الاهتمام بالمناصب الدنيوية ، بل كان يراها عبئاً على صاحبها . مثال ذلك قوله :

" وحزن حضرته (أى يوسف ضيا باشا) ، غاية الحزن لابتلائه بضوضاء الدنيا الدنية واستنكف من تحمل وزر الوزارة الثقيل الذى ليس يوسع بشر أن يتحملة في يومنا هذا ليوم واحد " (١)

وقوله أيضاً :

" كان المشار إليه شخصاً تقياً ديناً مستقيماً لم يؤخذ عليه أى مأخذ سوى تشوقه إلى حمل وزر الوزارة الذى كان بلاء عظيماً في أيامنا تلك " (٢)

ومثل هذه الأفكار نبعث من التدين الواضح الذى يلمسه في كثير من مواضع مؤلفه مثال ذلك وصفه لجيش العثمانيين بالمجاهدين ، وجيش الفرنسيين بالكفرة والمشركين .

مؤلفاته :-

تذكر المصادر العثمانية أن لعزت حسن أفندي الدارندلى تاريخاً بعنوان (ضيا نامه) وهو المخطوطة موضوع البحث يتناول فيها وقائع الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا فى إقليم كردستان وكيفية اسهامه فى إخراج الفرنسيين من مصر (٣) . ولم تذكر تلك المصادر مؤلفات أخرى له .

١- ضيا نامه : ص ١١٥ ، ١١٥ ب .

٢- ضيا نامه : ص ٢٢٠ ب .

٣- بورصلي محمد طاهر ، (ع.ك.ا) ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

عصر المؤلف :-

أما إذا تحدثنا عن عصر المؤلف عزت حسن أفندي والظروف السياسية التي كانت سائدة آنذاك ، نقول أنه عاش في عصر السلطان سليم الثالث الذي اعتلى عرش آل عثمان عام ١٢٠٤هـ = ١٧٨٩م والأوضاع السياسية تموج وتضطرب . فالحرب دائرة رحاها بين الروس والعثمانيين منذ عامين وهي حرب أعلنها السلطان عبد الحميد الأول على روسيا من أجل استخلاص القرم التي استولى عليها الروس عام ١١٩٩هـ = ١٧٨٤م ، والحيلولة كذلك دون الاتفاق الذي أبرمته روسيا والنمسا لاقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما بينهما . لكن دخول النمسا الحرب إلى جانب روسيا أضطر الجيوش العثمانية إلى أن تحارب في جبهتين ، مما أفضى إلى تشتيت قواتها وإضعافها وهزيمتها هزيمة ساحقة في الأشهر الأولى من الحرب ^(١) .

حتى أن السلطان عبد الحميد الأول مات، كمداً في ١٠ رجب ١٢٠٣هـ = ٦ ابريل ١٧٨٩م عندما تلقى فاجعة سقوط قلعة أوزي بـ (أوكرانيا) ، واجتياح القوات الروسية لها ، وذبحها ٢٥ ألفاً من أهلها الأبرياء في ١٨ ربيع الأول ١٢٠٣هـ = ١٧ ديسمبر ١٧٨٨م ^(٢) ، وخلفه السلطان سليم الثالث ، وواصل الحرب ضد الروس والنمساويين ، ولكن مُنيت الجيوش العثمانية بالمزيد من الهزائم المتلاحقة ^(٣) .

ثم اندلعت الثورة الفرنسية ، وأعلنت الجمهورية في فرنسا ، وأعدمت الملك لويس السادس عشر ، ونجح السفير الفرنسي لدى الآستانة في

1- Enver Ziya Karal , Fransa- MısırVeOsmanlı İptaratorluğu (1796-1802) , Milli Mecnuu Basınevi - İst , 1938, c.5 , s.14 .

2- İsmail Hami Danişmend , İzahle Osmanlı Koronolojisi , c.5 , s.67 .

3- Enver Ziya Karal , (a.g.e) , c.5 , s.14,15,16 .

إقناع الباب العالي بالاعتراف بالجمهورية الناشئة ، فاعترفت الدولة العثمانية بها في سبتمبر ١٧٩٤م ، وتبادلت الدولتان التمثيل الدبلوماسي الكامل وأرسلت فرنسا سفيراً لها إلى الآستانة يسمى (وريناك) ، وعينت الدولة على أفندي سفيراً لها في باريس^(١).

ثم بدأ السفير الفرنسي الذي قدم الآستانة يعرض على الباب العالي توقيع اتفاق تحالف بين الدولة العثمانية والجمهورية الفرنسية ، وأغراه بما سوف يعود على الدولة من فوائد إن هي وقعت هذا الاتفاق ، ومن أبرزها أنه سوف يمكنها من توسيع حدودها واستعادة القرم من روسيا ، وبذلك ضرب الفرنسيون على الوتر الحساس في نفس السلطان سليم الثالث ، ونجحوا في جعله يتحمس للمشروع . وسُودت نصوص الاتفاق في خمسة عشر مادة ، نصت على تحالف الدولتين في حروبهما في أوروبا بمجرد أن تنتهي حروبهما آنذاك ، ووقوف الدولة العثمانية على الحياد في أي حرب تنشب بين فرنسا وإنجلترا^(٢).

وقد قوبل مشروع هذا الاتفاق بمعارضة شديدة من جانب شيخ الإسلام وكبار رجال الدولة الذين أيقنوا أن اتفاق كهذا من شأنه أن يؤلب النمسا وروسيا على الدولة ، مما اضطر السلطان سليم إلى أن يوقع هذا الاتفاق سراً دون معرفة رجال دولته في ٢٤ مايو ١٧٩٦م .^(٣)

1- Mustafa Nuri Paşa , Netayic ulvukuatı Kurumları ve Orgütleriyle Osmanlı Tarıhı) sadeleştiren , Açıklamaları ekleyen Neşet çağatay T.T . K - Ankara 1979 , c.4 , s.200 .

2- Mustafa Nuri Paşa , (a.g.e) , c.4 , s. 201 .

3- Mustafa Nuri Paşa , (a.e) , c.4 , s.201 .

وبعد فترة من التوقيع على هذا الاتفاق عقدت فرنسا مع النمسا اتفاق عرف باتفاق (كامبو فورميو) ، وبمقتضى هذا الاتفاق قُسمت جمهورية البندقية بين الدولتين فكانت قورفو والجزائر السبعة وجزء من سواحل بلاد الأرناعوط (البانيا) من نصيب فرنسا ^(١) . وبذا أصبحت فرنسا وهى دولة قوية آخذة فى التوسع مجاورة للدولة العثمانية للمرة الأولى فى التاريخ ، وشرعت فى إثارة القلاقل على حدودها ، اذ بدأت تنادى بالدعوة إلى الاستقلال والحرية فى بلاد المورة ، وتؤلب الرعايا غير المسلمين على الدولة العثمانية ؛ الأمر الذى أقلق الباب العالى تجاه نوايا الجمهورية الفرنسية ^(٢) ، وزاد من هذا القلق أن نشرت إحدى الصحف الفرنسية نبأ عن أن نابليون بونابرت قد ينوى غزو مصر بما عكف على تجهيزه من أساطيل فى ميناء طولون ومرسيليا ^(٣)

كما قدم السفير الروسى إلى الباب العالى وأخبره بأن نابليون قائد الجيوش الفرنسية عبأ جيوشه وجهاز أساطيله فى ميناء مرسلية وطولون ، وأنه ربما يتوجه بذلك للاستيلاء على أملاك العثمانيين فى المورة ^(٤) .

كلف الباب العالى السفير العثمانى فى باريس باستيضاح نوايا فرنسا ، فأظهر نابليون ووزير خارجية فرنسا (تاليران) الود غير العادى تجاه السفير العثمانى ، وخذعاه بمجموعة من الأكاذيب وأوهماه أن هذه الإشاعات لا أساس

1- Ismail Soysal , (a.g.e) , s. 245 .

على رشاد : قرون جديدة تاريخى مطبعة عامرة ، استنبول ١٣٣٣ هـ ، ج ٢ ، ص ١٣١ .
٢- ضيا نامه : ص ٩٠ ب .

3- Nigar Anafarta ,Napoleon Bonaparte in Misir İşgali Hayat Tarih Mecmuasi ,sayi : 2 , Mart 1970 , , s. 27 .

4- Enver Ziya Karal , (a.g.e) , c.5 , s. 28 .

لها من الصحة ، وأن نوايا الفرنسيين متجهة إلى غزو (صقلية) ^(١) لا إلى أي جزء من الدولة العثمانية. ^(٢)

وكان نشاط الفرنسيين الحربى قد بلغ مداه فى تلك الآونة ، وكان نابليون بونابرت قد حقق مجداً عسكرياً عظيماً فى حروب إيطاليا ، فأراد أن يزيد من شهرته ومجده بمشروع عظيم كمشروع غزو مصر . وكان يهدف من وراء الاستيلاء على مصر ، إلى فتح قناة تربط بين البحر الأبيض والبحر المتوسط والسيطرة على طرق التجارة إلى الهند ، وفرض إرادة فرنسا على الإنجليز وطردهم منها وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية . ^(٣)

خرج نابليون بونابرت من طولون بجيش قوامه ٣٨ ألف جندى وخمسة عشر سفينة إلى البحر المتوسط واستولى على جزيرة مالطة فى ١٢/٦/١٧٨٩م، وظهر أمام سواحل الإسكندرية فى ١/٧/١٧٩٨م دون أن يعلن الحرب على الدولة العثمانية ^(٤) ، واستولى على المدينة ، وزحف على القاهرة ، فتصدى له واليها أبو بكر باشا والمماليك ، غير أنهم هُزموا ، وهرب مراد بك إلى الصعيد ، وهرب والي مصر وإبراهيم بك شيخ البلد إلى بلاد الشام ^(٥)

١ - صقلية : جزيرة إيطالية فى وسط البحر المتوسط ، مساحتها ٢٥٧٤٠ كم^٢ .

Hayat Kucuk Ansiklopedi , s. 1031 .

2- Turgut Isiksal , XVIII . Yuayil Sonunda Ortadogu ' da Fransiz-ingiliz çatismasi Ve Osmanli Imparatorlugu , Belgelerle Türk Tarihi Dergisi , Dnu , Bugun , Yarin , Ekim 1969 - Sayi , 25 , s. 37 .

3- Turgut Isiksal , (a.m) , s. 37 .

4- Mustafa Nuri Pasa , (a.g.e) , c.4 , s. 202 .

٥- الجبرتي : عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٨ وما بعدها

واستولى الفرنسيون على عاصمة البلاد ، وأعلن بونابرت أنه ما قدم مصر إلا للاقتصاص من المماليك أعداء السلطان وتخليص الشعب المصري من ظلمهم ، وأنه لن يمس حقوق الدولة العثمانية في مصر وكان يرمي من وراء ذلك خداع الباب العالي .^(١)

وبعد عشرة أيام من دخول الفرنسيين القاهرة ، قدم الأسطول الإنجليزي بقيادة (نيلسون) وحطم الأسطول الفرنسي الراسي في (أبو قير) شمال شرقي الإسكندرية ، وقطع بذلك صلة الحملة بفرنسا وحصر الفرنسيين في مصر .^(٢) ثم أدرك نابليون أنه لكي يضمن الاستقرار في مصر عليه أن يمتلك سوريا^(٣) ، خاصة بعد أن سمع أن الباب العالي قد أسند قيادة الجيش الزاحف لتحرير مصر إلى أحمد باشا الجزائر وأنه يعكف على تقوية القلاع والحصون من عكا إلى العريش ، وأن الدولة بدأت ترسل إليه الإمدادات من الاتاضول ، وأن الأسطول الإنجليزي قد مضى كذلك لتقديم العون إليه . فأسرع نابليون قاصداً سوريا ، فاستولى على غزة والرملة ويافا وحاصر عكا .^(٤)

وكان بونابرت قد أرسل إلى أحمد باشا الجزائر من قبل رسالة مع سفير خاص يعرض عليه فيها الصداقة ، ويذكر له أنه ما قدم لمحاربته ، ويطلب إليه إبعاد إبراهيم بك عن حدود مصر ، وفتح طرق التجارة بين مصر وسوريا .^(٥) غير أن أحمد باشا الجزائر طرد هذا المبعوث ورفض مقابلته

١- الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٤ ، ٥ .

انظر كذلك علي رشاد ، (ع.ك.ا) ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

٢- ضيا نامه : ص ٧١ - ٧٢ ب .

3- Nigar Anahtar , (a.g.m) , s. 28 .

٤- انظر كذلك علي رشاد ، (ع.ك.ا) ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

5- Ismail Hakki Uzunçarşılı : Bonapart'in Cezzar Ahmed Paşa'ya Mektubu Ve Akka Muhararasına Dair Bir Deyis , Belleten , Temmüz 1964 , c. XXVIII T.T.K- Ankara , Sayı III , s.542 :

واستمر حصار بونايرت لعكا أربعة وستون يوماً ، تكبد فيها خسائر فادحة إلى أن اضطر إلى الرجوع عنها والعودة إلى مصر في ١٥ ذي الحجة ١٢١٣ هـ = ٢٠ مايو ١٧٩٩ م^(١) ، وأدرك أنه ليس بإمكانه البقاء في مصر ، فغادرها إلى فرنسا سراً ، وترك قيادة الحملة لكليبر^(٢) . وعندما وصلت أنباء استيلاء الفرنسيين على مصر إلى استانبول قام السلطان سليم الثالث بعزل محمد عزت باشا من الصدارة العظمى وعين مكانه والي أرضروم يوسف ضيا باشا ، وقدم الصدر الجديد إلى الآستانة في جمادى الأولى ١٢١٣ هـ = أكتوبر ١٧٩٨ م ، وعقد اتفاقي تحالف أحدهما مع الروس في ٢٣ ديسمبر ١٧٩٨ م ، والثاني مع الإنجليز في ٥ يناير ١٧٩٩ لإخراج الفرنسيين من مصر^(٣) . وبناء على الاتفاق الذي وقعته الدولة مع روسيا قدمت أربع عشرة قطعة من الأسطول الروسي إلى استانبول ، وخرجت مع الأسطول العثماني لاستخلاص الجزر السبعة التي كانت في حوزة فرنسا وتهدد الدولة العثمانية على حدودها الغربية ، وتمكن الأسطولان العثماني والروسي من الاستيلاء على تلك الجزر من فرنسا^(٤) ، وإخضاعها للدولة العثمانية تحت اسم (جمهورية الجزر السبعة) على أن تؤدي هذه الجمهورية خراجاً كل ثلاثة أعوام للدولة مقداره ٧٥٠٠٠ قرش^(٥) .

1- Ismail Hakki Uzunçarşılı : (a.g.m) , s. 454 .

٢- ضيا نامه : ص ١١٣٨ .

3- Enver Ziya Karal : Fransa - Misir Ve Osmanlı Devlet , s. 98 .

وانظر كذلك على رشاد (ا.ع.ك.) ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

٤- لمزيد من التفاصيل حول العمليات العسكرية التي قام بها الأسطولان : العثماني والروسي

لفتح الجزر السبعة انظر ضيا نامه ، ص ٨٩ - ١٩٣ .

٥- على رشاد (ا.ع.ك.) ، ج ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

ومن جهة أخرى كان الباب العالي قد عهد بقيادة الجيش الزاحف لغزو مصر إلى أحمد باشا الجزار ، غير أن الصدر الأعظم عرض على السلطان استعداده للقيام بتلك المهمة ، فأنثنى رجال الدولة على هذا الإقتراح ، وخرج الصدر الأعظم من الآستانة في أوائل عام ١٢١٤هـ = يونيو ١٧٩٩م بجيش من الإنكشارية وجند بابيه ووصل دمشق ، وهناك انضوى تحت لوائه الولاة والأمراء وجنود الإقطاعيات ، فبلغ عدد جيشه نحو خمسين ألف جندي ، واستأنف الزحف قاصداً مصر ، واستولى على العريش وأسر نحو مائة وخمسين من الحامية الفرنسية وقتل الباقين ، وفي تلك الأثناء كان بونابرت قد استخلف كليبر على قيادة الحملة وأعلمه في رسالة تركها له قبل عودته إلى فرنسا ، أنه ما لم يأت المدد في غضون ستة أشهر فليفاوض الدولة العثمانية في الجلاء عن مصر .^(١) فأرسل كليبر إلى الأميرال الإنجليزي (سميث) يرجو وساطته في عقد اتفاق مع العثمانيين لتنظيم جلاء القوات الفرنسية عن مصر ، واجتمع الصدر الأعظم والأميرال الإنجليزي ومفاوضو كليبر وعقدوا اتفاقاً عرف باتفاق العريش في ٢٨ شعبان ١٢١٥هـ = ١٤ يناير ١٨٠١م .^(٢) وكان هذا الاتفاق ينص على جلاء القوات الفرنسية من مصر بكامل عتادها على سفن إنجليزية . وبدأ كليبر في إخلاء القاهرة وسوق جنده إلى الإسكندرية ، ومن جهة أخرى اقترب الصدر الأعظم بقواته من القاهرة لاستلام بعض المواقع . لكن القائد الأعلى للأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط وقف على الحالة السيئة التي وصلت إليها القوات الفرنسية فرفض التصديق على اتفاق العريش الذي وقعه الأميرال الإنجليزي (سميث) ، وأمر بأسر القوات الفرنسية

1- Mustafa Nuri Paşa , (a.g.e) , c.4 , s. 205 .

٢- عن الدور الذي قام به القائد الإنجليزي " سميث " في الوساطة بين العثمانيين والفرنسيين لعقد الصلح انظر ضيا نامه ، ص ١١٤٢ ، ١١٤٢ ، ١٤٧ ، ١١٤٨ .

وإرسالها إلى إنجلترا بدلاً من فرنسا.^(١)

وعندما تلقى كليبر هذا النبأ هاجم طلائع قوات الصدر الأعظم وألحق بها الهزيمة في المطرية وعين شمس ، واضطره إلى الارتداد بقواته إلى بلبيس ثم إلى يافا .^(٢)

وعلى الرغم من أن الفرنسيين قد حققوا انتصاراً كهذا على القوات العثمانية فإنهم في الوقت ذاته كانوا قد تكبدوا خسائر عظيمة ، وضعفت قدراتهم العسكرية حتى تمكن فدائي سوري يسمى سليمان الحلبي من اغتيال كليبر ، فخلقه مينو على قيادة الفرنسيين في مصر .^(٣)

وبعد مدة قدم الصدر الأعظم من بلاد الشام بنحو أربعين ألف جندي ودخل مصر ، كما قدم الأسطول الإنجليزي في ربيع الأول عام ١٢١٥ هـ = أبريل ١٨٠١م وأنزل عشرة آلاف جندي إلى (أبو قير) ، وقدم كذلك الأسطول العثماني بقيادة القبودان حسين باشا بستة آلاف جندي نظامي واستولى بقواته على رشيد والرحمانية بمساعدة القوات الإنجليزية ، وزحفت قوات الصدر الأعظم نحو القاهرة توارزها القوات الإنجليزية وقوات القبودان حسين باشا وضيّقوا الخناق على من بها من الفرنسيين حتى اضطروهم إلى التسليم والجلء عن القاهرة بنفس شروط اتفاق العريش .^(٤)

ثم اتجهت قوات القبودان باشا إلى الإسكندرية ومعها القوات الإنجليزية التي زحفت على القاهرة مع قوات الصدر الأعظم للتضييق على مينو

١- على رشاد : (ع.ك.ا) ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

٢- على رشاد : (ع.ا) ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

وانظر أيضاً ضيا نامه ، ص ١٥٢ ب - ١١٥٦ .

3- Mustafa Nuri Paşa , (a.g.e) , c.4 , s. 206 .

٤- ضيا نامه : ص ١١٧٥ - ١١٩٧ .

الذي كان قد مضى لتجدة الإسكندرية ، فلحقت به الهزيمة على يد القوات الإنجليزية وتحصن في قلعة الإسكندرية واضطر مينو إلى طلب هدنة ثلاثة أيام يستعد خلالها للتفاوض في الجلاء عن مصر^(١) ، وفعلًا تم التوقيع على اتفاق الجلاء وحملت القوات الفرنسية إلى فرنسا بنفس شروط معاهدة العريش وذلك في ١٢١٦هـ = ١٨٠١م^(٢).

وعندما أرسل الصدر الأعظم بشريات تحرير مصر إلى الآستانة عمتها الأفراح وأرسل السلطان الخلع إلى الصدر الأعظم والقبودان باشا وخلع عليهما لقب (غازي)^(٣). ثم عُين كتحدا القبودان حسين باشا والياً على مصر بعد أن مُنح رتبة الوزارة ، وترك له نحو ثمانية عشر ألف جندي من أجل القضاء على المماليك ، وعاد الصدر الأعظم والقبودان باشا إلى الآستانة . وبعد ثمانية أشهر بدأ الإنجليز في الجلاء عن الإسكندرية^(٤).

١- ضيا نامه : ص ١٢٠٢ ، ٢٠٢ ب .

٢- على رشاد : (ع.ك.ا) ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

٣- غازي : لقب من الألقاب السنية أطلق على الملوك والقادة المسلمين الذين حققوا انتصارات باهرة على أعدائهم في ما كانوا يخوضونه من حروب وغزوات في سبيل الله ونصرة دينه .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. 51 .

حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، النهضة ١٩٥٧م ، ص ٤١١ .

4- Mustafa Nüri Pasa , (a.g.e) , c.4.s , 208 .

منهج عزت أفندي في مخطوطه (ضيا نامه)

أما إذا تدبرنا منهج الكتابة عند عزت حسن أفندي ، وكيفية سرده للأحداث التاريخية ، ألفيناه قد أثر أن ينهج منهج التراجم المعروف ، فهو الأنسب إلى فكرة رسالته التي قامت أساساً على تدوين وقائع الحملة البرية التي قادها الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ووقائعها في كردستان قبل تبوئته منصب الصدارة العظمى .

أى أن هذه الرسالة من ألفها إلى يانها تستمد مما أحاط بيوسف ضيا باشا إبان صدارته من ملاسات وما تقلب فيه من أحوال ، وما صدر منه من سلوكيات ، وإلى هذا مرد تسميتها (ضيا نامه) .^(١) وإذا نظرنا إلى عرض المؤلف للأحداث وتنسيقها ، وجدناه قد رتب رسالته هذه على مقدمة وملحمة وخاتمة .

أما المقدمة ، فحديثه فيها عن الوزير يوسف ضيا باشا منذ النشأة ، حتى تقلده أمانة المناجم الهمايونية ، ونيله رتبة وزير ، وتولييه ولايات ديار بكر وملاطيا وأرضروم ، وما بذله إبان تلك الفترة من جهد جهيد في قمع تمردات زعماء العصبية والأشقياء واللصوص ، والقضاء على كثير من الخارجين على سلطة الدولة في تلك النواحي ، إلى أن آنس فيه السلطان وكبار رجال الدولة العثمانية الكفاءة والجدارة لتولى الصدارة العظمى والخروج على رأس الجيش العثماني لطرد الفرنسيين من مصر .

والملحمة تبدأ بعد توليه الصدارة العظمى ، وخروجه قائداً للحملة البرية العثمانية لتحرير مصر من استعمار الفرنسيين ، ثم عودته بعد أن وفق في مساعاه ، وما وقع في تلك الأثناء من أحداث في صفوف الحملة والمنازل التي نزلت بها .

١ - ضيا نامه : ص ١٥ .

أما الخاتمة ففي تراجع من ساهم في تلك الحملة من الوزراء والقادة ورجال الدولة ^(١) .

أما عن الأسلوب الذي اتبعه عزت أفندي فيذكر أنه لما أمر بكتابة مؤلفه هذا بأسلوب بسيط يفهمه العوام والخواص ، نهج نهج (حمزة نامه) ^(٢) وكتب مؤلفه هذا بلغة تركية يسيرة عارية من الفصاحة والبلاغة ^(٣) . إلا أن قارئ (ضيا نامه) يستطيع من خلال نظرة سريعة إليها أن يدرك أن عزت حسن أفندي قد خرج على المنهج الذي اشترطه على نفسه من حيث الأسلوب ، فقد حاول التأنق وركن إلى استعراض ثقافته الإسلامية متعددة الروافد، وعمد إلى أسلوب يتضمن ما لاحصر له من ألفاظ عربية وفارسية وأبيات من العربية والفارسية وآيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة ، وتجلى ذلك من أول سطور مؤلفه الذي استهل به عبارات عربية محضة يقول فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لمن تحرير في صنعه سواء ، والصلاة والسلام على سيدنا وسندنا ومولانا محمد خير خلق الله وعلى آله وأصحابه الذين هم نجوم سماء الهداية وهداية سبل السلامة بلا اشتباه وبعد" ^(٤)

١- ضيا نامه : ص ٤ - ١٥ .

٢- حمزة نامه : بمعنى كتاب حمزة ، وهو أحد نماذج القصص البطولي في الأدب التركي الشعبي ، ظهر في النصف الثاني من القرن الـ ١٤ الميلادي ، وكان يتضمن قصة أسد الله حمزة بن عبد المطلب .

انظر حسين مجيب المصري : في الأدب الشعبي الإسلامي المقارن ، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٨١ م ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

٣- ضيا نامه : ص ٢٦٤ ب .

٤- ضيا نامه : ص ١١ .

ويبدو عزت حسن أفندي من خلال مؤلفه (ضيا نامه) مؤرخاً على درجة عالية من الاتقان والوعى بالتاريخ ، وتنتضح بصماته في كل ما يكتبه ، يستوى في ذلك ما ذكره كشاهد عيان أو كناقل عن غيره من المؤرخين ، فنجدّه يشرح ويفسر ويعلق وينقد .

ومن الملامح المميزة لعزت حسن أفندي في (ضيا نامه) أنه كان لا يكتفى بسرد الأحداث بل كان يتدخل بالتعليق وإبداء الرأي في بعض الحوادث ويتخذ ذلك أشكالا عديدة منها :

أ- الثناء على التصرف في بعض الحوادث :

كنحو قوله :

"والحق أن عدم اكتراث السرداء الأكرام بهجوم ستة أو سبعة آلاف من طائفة الأرناؤوط على خيمته واعتباره ذلك كأنه لم يكن وإخماده تلك الفتنة بسهولة ببضع كلمات رقيقة دون أن يصد عن تناول طعامه ، لأمر يستحق كل ثناء واطراء ^(١) .

ب- المدح أو الذم :

ومن ذلك قوله عن الجزار باشا :

"... وإذا تأملنا ذلك ووزناه بميزان الإنصاف ، وجدنا أن الجزار باشا أنسى اسم رستم من الدنيا وأسكت راوى قصص جمشيد وعنتره ، واستحق رأسه أن يزين بطرة مرصعة بكثير من الجواهر ، وكان خليقاً بكل اطراء وثناء لقاء تلك الخدمة التي أسدها للدين والدولة ^(٢) .

وقوله كذلك عن الجزار باشا :

" غير أن سيرة المذكور لم تكن على وتيرة واحدة ، وكان شخصاً غريب

١- ضيا نامه : ص ١١٨٣ .

٢- ضيا نامه : ص ١١١١ .

الأطوار ، متلونا ، يخشى الصديق خشيتَه للغريب ، ومن ثم صدرت عنه بعض الأحوال الخرقاء ... مما أُلصق شرفه ومجده بالرغام^(١) .

وكقوله يصف أحد أنهار قرية (نبك) إحدى قرى الأناضول :
" ويخترقها نهر لطيف عذب مازَه صيفاً وشتاءً ، وهو حقاً مَاء عَذْب لذيذ يعمر الروح ، وربما أنه لم يُشاهد نظيره كذلك في أرضروم التي تشتهر بعذوبة أنهارها^(٢) .

ونحو قوله في وصف فساد طائفة الديوانكان :
" إنها طائفة فاجرة ، لاهياء لها ولا إيمان ، احتشدت من الأكراد والتركمان ، ورويداً رويداً فاقوا طائفة (اللوندية)^(٣) وسبقوهم آلاف الفراسخ في درب الطغيان والفساد ، قاتلهم الله أنى يؤفكون^(٤) " .
جـ - نقد أحوال الناس وتصرفاتهم :

تمثل ذلك في نقده لتصرف أهالى الإسكندرية عندما لبوا دعوة نابليون للقدوم إلى الأسطول الفرنسى وقت مجيئه لأول مرة ، الأمر الذى سهل على الفرنسيين الاستيلاء على البلاد بعد أن أصبح الأهالى بلا قائد يسوسهم ، يقول المؤلف في ذلك :

"وفى حين كان الدفاع عن البلاد حقاً عليهم ، انعدم فيهم وجود شخص أريب يقطن إلى حقيقة الأمر ، فاصطحب كل من وجد من كبار البلد القنصل الفرنسى الملعون واستبقوا فيما بينهم المضى إلى أسطول الفرنسيين ... ولم

١- ضيا نامه : ص ١١١ ، ١١١ ب .

٢- ضيا نامه : ص ١٢٧ ب .

٣- اللوندية : فئة من الجند كانت تعمل بالأسطول العثماني .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. 88 .

٤- ضيا نامه : ص ١١٩ ، المنافقون : (٤) .

يكن بين عامة الناس في الإسكندرية من يميز بين الغث والسمين فكانوا طائفة من الفلاحين البلهاء عديمي الفهم ، محصورى التفكير ومن ثم لم يسألوا أنفسهم عن معنى مثل هذه التداركات الحربية العظيمة وعدم عودة من مضى من رجالهم إلى الأسطول ... وعلى حين كان حقاً عليهم الدفاع عن السواحل ورد أجناد المشركين استكانوا جميعاً قريري العين في فراش النوم والغفلة ، فسر الأعداء وامتنوا من غفلتهم وحماقتهم هذه ولم يؤجلوا عمل اليوم إلى الغد وتحينوا الفرصة واعتقلوا من دعوه من كبار رجال الإسكندرية في تلك الليلة داخل سفنهم وشدوا وثاقه»^(١)

كما كان عزت أفندي يحاول الكشف عن مواطن العبرة والعظة في الحوادث التي يذكرها ، ومن أمثلة ذلك كلامه في معرض الحديث عن نساء المماليك وجواربهم اللاتي احتجزن من قِبَل الفرنسيين ثم أفرج عنهن بعد شفاعة الأعيان والمشايخ ، بعد أن جردن من ثيابهن وأوين إلى الجامع الأزهر عليهن زرق الثياب ، بعشن على صدقات أهل الخير ، يقول المؤلف في ذلك : " وهؤلاء النسوة كن منذ أسبوع يتقلبن في أعطاف نعيم الأمراء والكشاف ، إذ بهن في غضون أيام قلائل صرن يأوين في الجامع الأزهر الشريف ، حافيات متسولات ، يأكلن من صدقات فاعلي الخير ، ولما طالع ذلك أولو الألباب ، اعتبروا من تلك الدنيا الغرورة الفانية " ^(٢) .

وكذلك قوله في معرض حديثه عن أحوال المماليك : " ... ومضوا في طريق الغي إلى أبعد مدى فأنكروا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واتخذوها هزوا ، فسلط الله عليهم قوماً دهريو المذهب

١- ضيانامه : ص ٤٨ ب ، ١٤٩ .

٢- ضيانامه : ص ٦٧ ب .

كفرة معاندين هم الفرنسيون ، وذلك مصداقاً للحديث القدسي الذي جاء فيه :
 " إذا عصاتي من يعرفني ، أسلط عليه من لا يعرفني " ^(١) وكقوله كذلك في معرض
 حديثه عن المصائب التي نزلت بالجيش العثماني أثناء مقامه بصحراء يافا :
 " بيد أنه مصداقاً لقوله تعالى : " لا عاصم اليوم من أمر الله " ^(٢) ، استفحل
 الوباء ، واشتد الشتاء ، وتعظم البلاء ، وفي حين تجلى معنى المصراع القائل "
 لا طاقة لبشر على احتماله حتى ولو كان جبلاً شامخاً انجلت الغمرة بحمد
 الله تعالى وعلم أرباب البصيرة أن بعد العسر يسراً " ^(٣)

ومما يميز عزت أفندي في (ضيا نامه) أيضاً أنه كان يفصح
 عنعاطفته تجاه الأشخاص والأحداث ، فيشعر القارئ بوجود شخصيته وروحه
 في ثنايا الكلام ، مما يشعر قارئ (ضيا نامه) بالمشاركة الوجدانية للأحداث
 حسب رؤية عزت أفندي وربما ينساق دون أن يدرى إلى وجهة نظر عزت
 أفندي في الأحداث . كنحو قوله :

" انتقل والدي إلى روضة الجنة ، فأخرست فجبعتي فيه لسانى ، وانقصم
 ظهري تحت أعباء الهم والعوز " ^(٤) .

وقوله كذلك عن مراد بك الذى خان الدولة وتحالف مع عدوها :
 " أزهق الطاعون المبارك روح الملعون ، وأحله دار البوار " ^(٥) .

١- ضيا نامه : ص ١٢١١ . وقد ورد هذا الأثر في كتاب البداية والنهاية لابن كثير ، ج ١٣

، ص ٨١ .

٢- هود : (٤٣) .

٣- ضيا نامه : ص ١٢ .

٤- ضيا نامه : ص ١١٧٢ .

٥- ضيا نامه : ص ٢١١ ب .

كما لم يملك عزت حسن أفندي نفسه من غلبة سخطه على الفرنسيين أعداء دينه ، فكان يمعن في سبهم واصفاً إياهم دوماً بالمشركين والكفرة ، ولا يذكر قائداً من قادتهم إلا ويصدر اسمه بلفظة لعين أو كافر .

مصادر (ضيا نامه)

حيث إن أي مؤرخ لا يمكن أن يعتمد فيما يكتب على المشاهدات الشخصية فحسب ، بل لابد له من روافد بديلة ليكتمل له بناء الأحداث التي يسردها ، فقد اعتمد عزت حسن أفندي في بناء مادة مؤلفه على نوعين من المصادر هما :

(أ) - المشاهدات والمشاركة الشخصية :

سجل المؤلف الحوادث التي عايشها وشاهدها بنفسه ، وتتضمن مخطوطته الكثير من العبارات الدالة على أنه اعتمد اعتماداً أساسياً على عنصرَي المشاهدات والمشاركة الشخصية كمصدر يستقي منه المعلومات ، خصوصاً في تدوينه لأحداث حملة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا لتحرير مصر ، وملاساتها التي وقعت تحت ناظره ، علماً بأنه كان مشتركاً في تلك الحملة .

ومن أمثلة تلك العبارات قوله :

" ... وكنت أحضر مجالسه أينما انعقدت ^(١) " .

١- ضيا نامه : ص ٣ ب .

وقوله :

"... شرعت في في الكتابة إجمالاً عن هذه الأحداث التي وقعت تحت ناظري^(١) " .

وقوله :

" ولاشتراك في هذه العملية العسكرية فقد دونت حوادثها^(٢) " .

وقوله :

"... كما أن التشريرات الجليلة التي أرسلت إلى مختار باشا ... أرسلت معي أنا عزت حسن أفندي تامق هذه الحروف " .^(٣)

وقوله أيضاً :

"... التقيت بعلي باشا في ... وخلع عليّ هو الآخر " .^(٤)

وقوله :

"... رجعت أدرجي ومعى القادة الأسرى " .^(٥)

كذلك نقرأ :

"... فإذا بي في هذه المرة لا أجد الضريح المذكور كما سمعت عنه من قبل ... وجدته مزاراً ... ولما استفسرت عن ذلك من خدمة الضريح أخبروني أنه ... " .^(٦)

١- ضيا نامه : ص ١٥ .

٢- ضيا نامه : ص ٢٥ ب .

٣- ضيا نامه : ص ١٩٢ .

٤- ضيا نامه : ص ٩٢ ب .

٥- ضيا نامه : ص ٩٢ ب .

٦- ضيا نامه : ص ١١٥ ب .

وأيضاً قوله " ... نحتى أنقى الفقير أمريت بالمضي مع السر سمعك
... فشدت منه " (١).

ومن ذلك أيضاً قوله :

" وعند نيل المشار إليه الوزارة ، منامته منه بين يدي الحضرة النابغة
الأصفية " (٢).

وقوله :

" ... نحتى أن الشربة النقية البالية التي كانت تأويني انهدمت فوقى ...
وأخرجني من تحت أقماري الشربة ... فإذا لي أرى أن جميع السمار قد
تشوش نلهم " (٣).

(ب) ... المصادر التاريخية :

أولها : إمامان قارئ (ضيا نامه) المتخصص على المصادر التاريخية التي
استند عليها عزت أفندي أبي بناء مادة مؤلفه وهذا إذا لم يكن أديبه طوول نظر
وقراءة في مصادر تلك الحقبة التي تناوأت تلك الحدث ، حيث إن المؤلف كان
يجري على كتابة المؤرخين في عصره فيعمل الإشارة إلى المصادر التي استقى
منه ، أو أن يعتمد على مفهوم كنهى قوله :

" يذكر التاريخ فيما يذكر من أخبار الزمان وأهله أنه ... " (٤) ، وقوله أيضاً :

1380 1381 1382 1383 1384 1385 1386 1387 1388 1389 1390 1391 1392 1393 1394 1395 1396 1397 1398 1399 1400

١- ضيا نامه : ص ١١٧٩ .

٢- ضيا نامه : ص ٢٢٠ ب .

٣- ضيا نامه : ص ١٢٣١ .

٤- ضيا نامه : ص ١٤٦ .

" يذكر المتبحرون في أخبار الزمان من المؤرخين أن ... " (١) .

لم يشذ المؤلف عن هذا المنهج إلا مرة واحدة حينما أشار إلى نقله
عن كتاب (تقويم البلدان) للملك المؤيد أبي الفداء في معرض حديثه عن قلعة
(قورفو) (٢) .

وعدا ذلك لم يذكر المؤلف أى مصدر من المصادر التي اعتمد عليها
ولكن بالنظر في (ضيا نامه) والمقابلة بين ما ورد بها من مادة تاريخية ،
وبين ما ورد في المصادر العربية التي تتناول نفس الحقبة نجد أن عزت أفندي
قد اعتمد اعتماداً عظيماً على مصدر عربي شهير هو (مظهر التقديس بذهاب
دولة الفرنسيين) لعبد الرحمن الجبرتي . وليست هناك صعوبة في التعرف
على هذه الحقيقة ، إذ أن عزت أفندي كان يورد نص الجبرتي بحذافيره ،
وبنفس ترتيب العبارات ، وذلك بالنسبة للأحداث التي وقعت في مصر قبل
قدومه مع حملة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ؛ أما الأحداث التي عايشها
وشهدها فقد سجلها - كما سبق أن أشرنا - اعتماداً على مصادره الشخصية .
ولنورد الآن نصين أحدهما لعبد الرحمن الجبرتي والآخر لعزت حسن أفندي
لنتبين تلك الحقيقة ولنر إلى أى مدى اعتمد عزت أفندي على كتاب عبد
الرحمن الجبرتي في تدوينه لبعض الأحداث التي لم يتأت له رؤيتها .
- نص الجبرتي :

" ... وفيه طلب صاري عسكر بونايرت المشايخ ، فلما استقروا عنده

١- ضيا نامه : ص ٧١ ب .

٢- ضيا نامه : ص ٩٤ ب .

نهض بونابرت من المجلس ورفع بيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طيلسان أبيض وأحمر وكحلي ، فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوي ، فرمى به على الأرض واستعفى وتغير لونه ، فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباب صاري عسكر ، وهو قصده تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإنكم إذا تميزتم بذلك عظمتكم الناس والعساكر وصار لكم منزلة في قلوبهم " فقالوا له : لكن قدرنا ينحط عند الله وعند إخواننا المسلمين ، فاحتفظ بذلك ورطن بلسانه وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال - عن الشيخ عبد الله - : هذا لا يصلح للرئاسة ، ونحو ذلك ، فلاحظه بقية الجماعة واستعفوه من تلك الشالات ، فقال : إن لم يكن هذا فلأزم وضعكم (الجوكار) في صدوركم ، وهي العلامة التي يقال لها الوردية ، فقالوا : أمهلونا حتى نترى في ذلك ، وأنفقوا اثني عشر يوماً ، وفي ذلك الوقت حضر شيخ السادات^(١) باستدعاء ، فلما استقر به الجلوس بش وضحك له الصاري عسكر ، وتملق بين يديه بلطف القول الذي يعربه الترجمان ، وصار يقبل يده تارة ، وركبته أخرى ، وأهدى له خاتماً من ماس ، وكلفه للحضور عنده من الغد وقام وانصرف ؛ وفي ذلك الوقت نادى جماعة القلقاات على الناس بوضع العلامات المعروفة بالوردية ، وهي عبارة عن ظهور علامة إمرة الطاعة والمحبة عندهم ، فأنف الناس ذلك ، وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين إذ هو مكره ويترتب على

١ - شيخ السادات ، هو شمس الدين أبو الأنوار بن عبد الرحمن بن عارفين ، ولد بالقاهرة وجاور بالأزهر ، وفي عام ١١٨٢هـ خلف جده أبا الامداد في شياخة سجادة السادات (الوفاية) ، عين عضواً في الديوان الذي أنشأه نابليون في القاهرة ، ثم اشترك في ثورة القاهرة الثانية مما أدى إلى حبسه . توفي عام ١٢٢٨هـ = ١٨١٢م .

أحمد عطية : القاموس الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٣ - ج١ - ص١٨٣

عدم الامتنال مزيد من الضرر ، فوضعها ، ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطاها من العامة ، وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم حاجة بوضعها ، فكانوا يضعونها إذا حضروا ، ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم ، وذلك أياما قليلة ^(١) - نص عزت أفندي :

"... وفي اليوم التالي استدعى بونابرت كبار المشايخ وأعيان البلاد إلى مجلسه ، وأحضر عدة أوشحة ملونة بثلاثة ألوان هي : الأبيض والأحمر والكحلي ، وطلب إلى المشايخ أن يلبسوها ، فوضع واحداً منها على كتف الشيخ الشرقاوي ، فطرحه على الأرض وامتقع لونه وبدت عليه أمارات الغضب والحدة ، فقال الترجمان يا مشايخ إنما يقصد قائدنا إلى التعبير عن محبته لكم وتعظيمه ، وتشريفكم بين الناس والعساكر ، فقالوا له : ولكن هذا الأمر يتنافى مع ديننا ، ومن شأنه إسقاط قدرنا وهيبتنا لدى إخواننا المسلمين ، وعليه نحن نؤثر القتل والاستشهاد على أن نفعل ذلك ، وأبوا ارتداء ذلك النوع من الأوشحة ، فاغتاظ بونابرت وثار ثارته وقال : إن الشيخ الشرقاوي هذا غير جدير بالرياسة ولا يصلح لها ، ثم لج في إلحاحه وقال ، لابد أن تضعوا الجوكار على صدوركم ، فقالوا : أمهلونا حتى نتشاور في الأمر فيما بيننا ، وخرجوا من مجلسه . وفي اليوم التالي مضى بونابرت إلى شيخ السادات وغالي في مجاملته ، فقبل يده تارة ، وركبته تارة أخرى ، وبعدها نادوا بوضع الشارات المذكورة المعروفة بالجوكار على صدور العوام كافة شيئا وشباباً ، عظماء ووضعاء ، وبعد عدة ساعات ولحكمة لا يعلمها أحد نادوا من جديد بإبطال وضع تلك الشارات على صدور العوام وقصرها على الأعيان دون غيرهم " ^(٢).

١- الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ، تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي ، دار البيان العربي ١٩٦٩م ، ص ٥٩ - ٦٠ .
٢- ضيا! نامه : ص ٧٣ - ١٧٤ .

ويعتبر أن النصين يتضح أنهما متشابهان إلى حد بعيد جداً ، وتكاد تكون العبارات، بنسب الترتيب ، وأن صنيع عزت أفندي لا يدعو أن يكون عدداً لبعض العبارات التوضيحية والتفسيرية بأسلوبه الخاص عن بعض العبارات ، وإليك النص الثاني :

— نص الجبرتي :

" ذهب جماعة من القواسمة الذين يهيمون الفرنسيين وشرعوا في هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأوزبكية ، وتجهدها إلى الأرض ، فشاع الخمر بذلك ، وسمع أصحاب التربة بتلك الواقعة ، فخرجوا من كل حدب ينسلون وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدايح وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والحوالة والمناصرة وقنطرة أمير حسين وقلعة الكلاب ، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج واجتمعوا بالأزبكية ووقفوا تحت بيت صاري عسكر ، فنزل لهم التراجمة واعتذروا بأن صاري عسكر لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به ، وإنما أمر بمنع الدفن فقط ، فرجعوا ورفع الهدم عنهم " (١).

— نص عزت أفندي :

" شاع أن الفرنسيين شرعوا في هدم المراقد والمزارات الواقعة في الأوزبكية ، فتحزب الأهليون وتقاطرت جموعهم إلى باب بونايرت ، فنزل إليهم من أعلمهم أن سر عسكرهم لا علم له بذلك ولم يأمر به وهدأوا من روعهم وطمأنوهم " . (٢)

بعد المقارنة بين النصين يتضح لنا أن عزت أفندي تلقى تلك المعلومة عن الجبرتي وأجملها إجمالاً دونما إخلال ، وسردها بأسلوب أكثر إجمالاً من أسلوب المشاهدة الذي يسترسل فيه المشاهد في وصف ما تقع عليه

١- الجبرتي : مظهر التقديس ، ص ٦٩ .

٢- ضيانه : ص ١٧٥ .

عينه ، حيث ينساق مع الرواية فيسهب ويستطرد ، أما من يعتمد في تسجيله على مصادر غير مصادره الشخصية فيحاول دائما الإيجاز مثلما فعل عزت أفندي في تدوينه لهذه الحادثة ، وأكثرية الحوادث التي لم يشاهدها فنقلها عن الجبرتي .

أهمية مخطوطة (ضيا نامه)

أولاً : أهمية (ضيا نامه) في العلاقات الدولية بين الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا وروسيا :

تعد (ضيا نامه) وثيقة تاريخية لها أهمية كبيرة تؤرخ لفتاحة مرحلة الصراع بين القوى الاستعمارية وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا وروسيا للاستيلاء على أملاك الدولة العثمانية المنهارة ، وفرض سيطرتها على الشرق عموماً وعلى مصر خصوصاً التي كانت ولا تزال تتمتع بموقع استراتيجي هام على طرق التجارة العالمية جعلها مطعماً المغزاة والمستعمرين على مر العصور وفي الإمكان أن نتبين أهمية (ضيا نامه) في التأريخ للعلاقات الدولية بين الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا وروسيا فيما يلي :

١- تتبعت (ضيا نامه) مواقف إنجلترا إزاء الحملة الفرنسية ، منذ قدوم الأسطول الإنجليزي بقيادة (نيلسون) إلى سواحل الإسكندرية - قبيل مجيء الفرنسيين - بحثاً عن الأسطول الفرنسي ، ثم رحيله لتمشيط مياه حيفا وعكا واللاذقية والإسكندرونه ، وعودته أدرجه إلى الإسكندرية ، وعثوره على الأسطول الفرنسي وتدميره في معركة من المعارك الحاسمة في مسيرة التاريخ الحديث للعالم عموماً وفي تاريخ البحرية خصوصاً . إذ حسمت هذه المعركة مصير الحملة الفرنسية على مصر والشام ، بل حسمت الحرب بين إنجلترا وفرنسا في الأعوام التالية لها ، حيث انتهت بانتصار إنجلترا على فرنسا لانهاية القوة البحرية لفرنسا ، كما رصدت (ضيا نامه) الدور الهام للأسطول

الإنجليزي بقيادة (سدني سميث) ^(١) في مساعدة أحمد باشا الجزائر - والتي صيدا - في الدفاع عن عكا أمام غزو نابليون ، وتحطيمه السفن الفرنسية الصغيرة التي نجت من موقعة (أبو قير) ، ورسوه بالأسطول في ميناء حيفا لوعكالموالاة العون للجزار باشا ، وقطع خطوط إمدادات الفرنسيين ، مما زاد من مقاومة حامية عكا وقدرتها على الصمود ، ويأس نابليون من نجاح حملته على الشرق ، وإجباره على التراجع عن عكا والعودة إلى فرنسا سراً فيما بعد. ^(٢)

٢- تشير (ضيا نامه) على وجه التفصيل إلى ملايسات الوساطة التي قام بها الإنجليز بين جيش الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وجيش الفرنسيين في مصر بقيادة كليبر لتنظيم إجلاء الفرنسيين عنها ، فيتحدث المؤلف فيبين كيف أن هذه الوساطة بدأت بقدوم سميث - قائد الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط - إلى يافا ولقائه مع الصدر الأعظم ، وإخباره بأنه تلقى رسالة من كليبر قائد الفرنسيين ، يعرب له فيها عن رغبته في الصلح مع الدولة العثمانية ، ويطلب التوسط معها في أمر المصالحة ، وما أفضت إليه هذه الوساطة من إبرام اتفاق عرف باتفاق العريش (شعبان ١٢١٤هـ = يناير ١٨٠٠م) ، والذي كان ينص على خروج الفرنسيين وجنودهم وجميع مهماتهم إلى فرنسا على نفقة الحكومة العثمانية ، وبدء دخول طلائع القوات العثمانية مصر ^(٣) ، وهنا يذكر عزت أفندي أن سميث أرسل رسالة إلى القائد العثماني سيد مصطفى باشا ، يطلب إليه نقض المعاهدة والقضاء على الفرنسيين ، متى خرجوا للبحر

١- سدني سميث : من أمراء البحر الإنجليز ، ولد عام ١٧٦٤م ، دافع عن عكا ضد نابليون بونابرت عام ١٧٩٩م ، ووقع معاهدة العريش مع كليبر والصدر الأعظم يوسف ضيا باشا .

انظر شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، ج ٢ ، ص ١/٩٥٤ .

٢- ضيا نامه : ص ١٤٦ - ١٠٧

٣- عن الدور الذي قام به الإنجليز للتوسط بين العثمانيين والفرنسيين انظر : ضيا نامه : ص ١١٤٢ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١١٤٨ .

الأبيض المتوسط ، الأمر الذي أدى إلى تشكك العثمانيين في ولاءات الإنجليز مع الفرنسيين ، من جهة ، وتشكك الفرنسيين تجاه العثمانيين من جهة أخرى ، مما هدئ بكليير إلى المبادأة بفتح المصادرة ومداومة طاقاته قوات المصدر الأعظم التي بادرت إلى دخول القاهرة دون أن تحمل معها العتاد الحربي الكافي ، وتتخذ الضمانات الكافية ، ورابطت في المطربة وعين شمس ، هذا أجبر المصدر الأعظم على الارتداد إلى يافا (١) .

٣- تعرضت (ضيا نامه) لما قام بين إنجلترا والدولة العثمانية من تحالف وتعاون لإخراج الفرنسيين من مصر حينما طلب السلطان العثماني عون من الأسطول الإنجليزي ، ودعاها للقدوم لموازرة الأسطول العثماني الذاهب لمهاجمة الفرنسيين في مصر ، و قدوم الأسطول الإنجليزي إلى موانئ مارييس ومكري وقبرص - من موانئ الدولة العثمانية - للتأهب للزحف مع الأسطول العثماني نحو مصر ، وتشرح (ضيا نامه) بالتفصيل ما بذله الأسطولان في العمليات العسكرية لاستخلاص القلاع والحصون الساحلية الرئيسية والهامة على النيل والبحر المتوسط مثل رشيد ودمياط وإيجار من بها من الفرنسيين على التسليم ، ونقلهم إلى السفن الإنجليزية والعثمانية التي تولت ترحيلهم إلى ميناء طولون الفرنسي ، حتى تم التنسيق بين قوات المصدر الأعظم وبين القوات الإنجليزية لتنفيذ الهجوم المشترك على القاهرة ، وإجبار من بها من الفرنسيين كذلك على اللجوء إلى قائد القوات الإنجليزية (آنشف) للوساطة في أمر الصلح مع الدولة العثمانية ورحيل الفرنسيين عن القاهرة ، إلى أن خلصت الأساطيل العثمانية والإنجليزية إلى حصار مينو المحصور في الإسكندرية وتشديد الحصار عليه إلى أن اضطر إلى طلب هدنة ثلاثة أيام يستعد خلالها لتسليم الإسكندرية ، والجلء عن البلاد ، بعدها تم الاتفاق بين القوات

١- ضيا نامه : ص ١١٥٢ - ١١٥٦ .

العثمانية والإنجليزية والفرنسية على أنهيل الفرنسيين إلى بلادهم لتتدهي بذلك فترة الاحتلال الفرنسي لمصر^(١).

٤- تكشف (ضيا نامه) على نحو شديد التفصيل عن الأزمة التي طرأت على علاقات الحليفتين : الدولة العثمانية وإنجلترا ، بعد أن نجحنا في إخراج الفرنسيين من مصر ، حتى أن الحرب بين القوات العثمانية والإنجليزية في مصر كانت وشيكة الوقوع ، وذلك حينما أقدم الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا والقبودان دريا حسين باشا - بناء على أوامر صريحة وحاسمة من السلطان - على اعتقال المماليك تمهيداً لنقلهم إلى الآستانة بعد أن تطلع هؤلاء الأمراء إلى امتلاك زمام الأمور في مصر بعد خروج الفرنسيين منها ، مما أدى إلى تدخل قائد القوات الإنجليزية في مصر ، مدفوعاً بما وعدده المماليك من امتيازات ، إذا ضمن الإنجليز الحماية لهم والبقاء في مصر ، وقام القائد الإنجليزي بطرد القوات العثمانية من الإسكندرية ، وأعلن أنه مكلف من قبل حكومته بحماية أمراء المماليك ، وويخ قائد القوات العثمانية البحرية إذ قال له : " إن قتل الأمراء وحبسهم يوجب علينا حربكم " ، وأردف قائلاً : " ولقد أرسلت إلى رجالي في رشيد كذلك لتخليص من قبض عليه من الأمراء في مصر لدى بلوغه رشيد ، ولن أدع الصدر الأعظم يمر في البحر ، وليمض إذا من حيث أتى ، ومن الآن فصاعداً لا شأن لكم بنا ، وإذا ما قدمتم إلينا فسوف تتوبون وقد لطح العار وجوهكم " ^(٢).

كما أحاطت القوات الإنجليزية بالقوات العثمانية ، فتأهبت القوات العثمانية لقتالهم ، فمنعهم القبودان باشا وأطلق سراح من قبض عليه من

١- ضيا نامه : ص ١٧٤ ب ، ١٨٠ ، ١٨٠ ب ، ١٨١ ، ١٨١ ب ، ١٨٢ ، ١٨٨ ب ، ١٨٩ ، ١٨٩ ب ،

٢٠١ ب ، ٢٠٢ ب ، ٢٠٣ .

٢- ضيا نامه : ص ٢١٥ ، ٢١٥ ب .

المماليك، وتوضح (ضيا نامه) استمرار الأزمة وكيف أن الباب العالي أرسل إلى ملك إنجلترا يخبره " أنه لم يعد من الجائز أن يبقى الأمراء في مصر ، لما سبق أن أبانوا عنه من الاستبداد والطغيان وأن الدولة لا تريد بهم سوءاً ، وسوف توفر لهم كل أسباب العيش الرغد في الآستانة ، أو في أي ولاية أخرى من الولايات الشاهانية يرغبون في الإقامة بها " ، وأعرب السفير الإنجليزي في الآستانة عن عدم رضاء حكومته عن تصرفات الأميرال الإنجليزي (آنشف) وتواطؤ هذا السفير معه ، حتى مكثوا المماليك من الهرب إلى نواحي أسوان والسودان ، وفوتوا على الدولة فرصة القضاء على نفوذهم في مصر .^(١)

٥- لم تغفل (ضيا نامه) تسليط الضوء على مرحلة من مراحل العلاقات العثمانية - الروسية وهي مرحلة تحالف وصداقة لم تدم طويلاً ، وكيف أن روسيا ألد أعداء الدولة العثمانية دعتها مصلحتها وظروفها إلى عقد تحالف مع العثمانيين ، علاوة على ذلك أرسلت عدة سفن من أسطولها وعدداً من جنودها لمساعدة الأسطول العثماني في فتح جزيرة (قورفو)^(٢) وتوابعها واستخلاصها من الفرنسيين ، وقد كان هذا الفتح هاماً للعثمانيين إذ إن هذه الجزر كانت قريبة جداً ومواجهة لسواحل المورة وألبانيا ، وكان بسط الفرنسيين سيطرتهم عليها يعد تهديداً للمالك العثمانية ، إضافة إلى وصول الأنباء إلى الباب العالي بأن الفرنسيين بعد أن استولوا على مصر عمدوا إلى إثارة الفتن بين نصارى الأرناؤوط في المناطق القريبة من قلاع (قورفو) والتحريض على الدولة العثمانية والانقياد للجمهورية الفرنسية ، وتصور (ضيا نامه) العمليات العسكرية العثمانية - الروسية المشتركة ونجاحها

١- عن الخلاف الذي نشب بين القوات الإنجليزية والعثمانيين بسبب المماليك انظر :

ضيا نامه : ص ٢١٥ - ١٢١٧ .

٢- قورفو : جزيرة تبلغ مساحتها ٥٩٣ كم^٢ ، باليونان ، ثانياً الجزر اليونانية مساحة ، يفصلها خليج ضيق عن الساحلين : اليوناني والألباني ، عاصمتها قورفو .

الموسوعة العربية الميسرة ، ج ٢ ص ١/١٥٠٠ .

فيمهتها^(١)، ويذكر المؤلف أن الصدر الأعظم كلفه بالسفر إلى (قورفو) لإخضار عدد من كبار الأسرى الفرنسيين الذين أسروا في تلك العملية^(٢) .

ثانياً : أهمية (ضيا نامه) في التاريخ المصري في العهد العثماني :
ما من شك في أن (ضيا نامه) لها منزلة مرموقة بين المصادر التاريخية التي أرخت لمصر في فترة من أخطر فترات تاريخها الحديث ، وهي فترة الاحتلال الفرنسي لها (١٢١٣ - ١٢١٦ هـ = ١٧٩٨ - ١٨٠١ م) ، وفي الإمكان إيضاح هذه الأهمية فيما يلي :

١- يكفي (ضيا نامه) قيمة أنها تعد المصدر العثماني الأوحد إلى اليوم - على حد علم الباحث - الذي انفرد بتاريخ دور العثمانيين في إخراج الحملة الفرنسية من مصر ، وذلك في دقة بالغة واستيعاب شامل ، فهذا المخطوط تكملة لحقائق وتفاصيل هامة لم يتمكن الجبرتي أو غيره من مؤرخي تلك الحقبة من الإحاطة بها وتوضيحها على وجه التفصيل ، فعلى الرغم من أن الجبرتي ونقولا الترك أرخا للغزو الفرنسي لمصر ، فإنهما اقتصرنا على ذكر الأحداث التي وقعت داخل مصر فحسب ، ولم يستطردا إلى ذكر شيء عن الحملة البرية والحملة البحرية اللتين أرسلتهما الدولة العثمانية إلى مصر لاستخلاصها من الفرنسيين ، كما أنهما لم يتحدثا عن أحوال أساطيل الحلفاء وجهودها في هذا الشأن ؛ وقد كان هذا هو السبب الأساسي لتأليف (ضيا نامه) بناء على تكليف رسمي من الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا^(٣) ، ومن هنا كان تأليف (ضيا نامه) بمثابة رد الحلقة المفقودة إلى وضعها في المصادر العربية المحلية التي أرخت للحملة الفرنسية على مصر ، وحوث وفرة من التفاصيل العربية لم يتأت للمؤرخين المحليين أمثال الجبرتي ونقولا الترك ذكرها .

١- ضيا نامه : ص ٩٠-٩٣ ب .

٢- ضيا نامه : ص ٩٣ ب .

٣- ضيا نامه : ص ١٤ ، ٩ ب .

ومما يزيد من قيمة هذا المصدر أن مؤلفه عزت حسن أفندي كان مرافقاً للحملة البرية التي قادها الصدر الأعظم لإخراج الفرنسيين من مصر^(١)، مشاركاً في عملياتها^(٢)، مشاهداً عن قرب ما تتابع من وقائع، متحريراً الأمانة والدقة والموضوعية في وصف الحقائق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٢- أكسب المؤلف مخطوطه قيمة أخرى وهي ذكره المنازل التي نزلت بها الحملة البرية العثمانية لفتح مصر مع ذكر لمحات عن أحوال تلك المنازل وقت نزول الحملة بها، فتحدث عن بعض مزاراتها ونبذة عن تواريخها ووصف آثارها وجبالها وبساتينها وحقولها، كما أنه لم يغفل ظروف الحملة والأحداث التي مرت بها في طريقها منذ خروجها من الآستانة حتى عودتها إليها، مثال ذلك الفصل الذي يحمل عنوان (في بيان المصائب المختلفة والنوازل المتنوعة التي نزلت بالجيش الهمايوني أثناء مقامه بصحراء يافا) حيث صور فيه المؤلف تفشي الطاعون بين صفوف حملة الصدر الأعظم، صوره بمرارة يشعر بها قارؤه فيقول: "أثناء مقام الجيش الهمايوني بصحراء يافا - بحكمة الله تعالى - وبسبب تعفن الجيف والقاذورات والروائح الكريهة المنبعثة من أجساد الحيوانات، تفشت عديد من الأمراض ... من بينها طاعون غير مسبوق المثال، فتك فتكاً ذريعاً بالشيوخ والشباب والقوي والضعيف فتساقطوا كأوراق الخريف الذابلة ... ولم تنج خيمة من سهمه الفتاك ولم يخل موضع في مخيم الجيش في ليلة من الصراخ والعيول، ولم تمر ساعة دون سماع صيحات وأنات يذوب لها الفؤاد تأثراً وكمداً"^(٣).

٣- قدمت (ضيا نامه) صورة حية للمعارك التي دارت بين القوات العثمانية وقوات الفرنسيين منذ دخول طلائع القوات العثمانية القاهرة لأول مرة بعد توقيع

١- ضيا نامه : ص ١٣ .

٢- ضيا نامه : ص ١١٧٩ .

٣- ضيا نامه : ص ١١٧٠ .

اتفاق العريش (١٢١٤هـ = ١٨٠٠م) وهزيمتها في عين شمس والمطرية والقرين مبينة أسباب تلك الهزائم التي لحقت بالعثمانيين أثناء دخولهم مصر للمرة الأولى ، وصعوبة الظروف التي أحاطت بالعثمانيين ، وكيفية تغلبهم على هذه الظروف الصعبة وإعادة الكرة على مصر ونجاحهم في إخراج الفرنسيين منها بمساعدة الإنجليز .

٤- اشتتمات (ضيا نامه) على ترجمة إحدى الشخصيات التي تركت بصمات واضحة في تاريخ المنطقة وهي شخصية أحمد باشا الجزائر ^(١) ، وقد ترجم عزت حسن أفندي له ترجمة أمينة فذكر ما له وما عليه ، فتحت عنوان (شجاعة الجزائر باشا ودوره البطولي في هذه الحرب) نرى المؤلف يكيل آيات المديح لأحمد باشا الجزائر فيقول :

" حينما اتضح أن الجميع ياتسون من محاربة الفرنسيين ومصاولتهم ، إذا بالجزائر باشا بفتة قليلة من جنده ، وبعد طول محاصرة يلطخ وجوه أولئك الملاحين (يقصد الفرنسيين) بالعار وينال من هيبتهم واعتبارهم . وإذا ما تأملنا ذلك ووزناه بميزان الإتحاف وجدنا أن الجزائر باشا أنسى اسم رستم من الدنيا وأسكت راوي قصص جمشيد وعنترة ، واستحق أن يزين رأسه طرة مرصعة

١- أحمد باشا الجزائر : ولد في البوسنة . رحل إلى استانبول وهو في الثامنة عشر من العمر والتحق بخدمة حكيم أوغلو على باشا الذي تولى على مصر عام ١١٦٩هـ = ١٧٥٥م ، ومضى معه إلى مصر ، ثم دخل في سلك المماليك واشتهر بالشجاعة وقوة البأس ولقب بالجزائر لقتله سبعين من العربان من بينهم أربعة من كبار زعماء قبيلة الهنادي بمصر ، فدعاه على بك بلوط قبان ، وعينه رئيساً للشرطة في مصر ، فأخلص الجزائر وأبان عن كفاءة وجدارة ، فنلح عليه على بك لقب بك ، ثم عاد أحمد بك الجزائر إلى الآستانة ، ومنها رحل إلى سوريا حيث حالف ضاهر العمر ، لكنه سرعان ما انقلب عليه ووقف إلى جانب الدولة العثمانية ضده ، فكوفى على صنيعه بمنحه ولاية عكا ، ثم ولاية صيدا .

انظر أحمد جودت باشا ، تاريخ جودت ، ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ . وانظر أيضاً :

M. Çağatay Uluçay , (a.g.e) , s.89/2 .

بكثير من الجواهر ، وخليق بكل إطرار وثناء لقاء تلك الخدمة التي أسداها للدين والدولة .^(١)

بعد ذلك ينتقل المؤلف بموضوعية شديدة لإحصاء المآخذ على الجزائر باشا فيقول : " غير أن سيرة المذكور لم تكن على وتيرة واحدة ، فقد كان شخصاً غريب الأطوار متلون ، موسوس ، يخشى الصديق خشبته للغريب ؛ ومن ثم صدرت عنه بعض الأحوال الخرقاء التي أخذت عليه بخصوص غزو الفرنسيين لبلاد الشام مما ألصق شرفه ومجده بالرغام ."^(٢)

ويعدد المؤلف تلك المآخذ فيذكر أن أحمد باشا الجزائر طرد الجند العثمانيين الذين قدموا لنجدة عكا وكانوا يبلغون ثمانية آلاف ، ولم يسمح لهم بدخول عكا ولم يقدم لهم المؤن ، وكذلك تسيينه قائد يفتقر إلى الكفاءة والحنكة العسكرية على التجريدة اليسيرة التي أرسلها لنجدة العريش ؛ مما تسبب في إلحاق الهزيمة بهذه التجريدة وإفناء أغلبية أفرادها ، وامتناعه عن مساندة الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ومحاولة إثارة القلاقل ضده في الجزية العربية .^(٣)

٥- تضمنت (ضيا نامه) فصلاً طويلاً قدم فيه المؤلف معلومات قيمة عن وضع المماليك في مصر ، منذ الفتح العثماني لها على يد السلطان سليم الأول وتنظيماته وتنظيمات ابنه السلطان سليمان القانوني ، راصداً بدء اضطراب الأمور فيها إلى أن آل إلى المماليك زمام الحكم وخرجوا على سلطة الدولة وممثليها من الولاة العثمانيين ، ويعرج المؤلف على حركة على بك (بلوت قبان) للاستقلال بمصر مدينياً رأيها فيها ، ويتحدث عن انحراف المماليك عن صراط الدين وشروعهم في إبطال أحكام الشريعة المنصوصة في

١- ضيا نامه : ص ١١١ .

٢- ضيا نامه : ص ١١١ .

٣- ضيا نامه : ص ١١١ - ١١٢ ب .

القرآن الكريم، وكيف أنهم استحلوا دماء المسلمين والذميين وصادروا أموالهم وممتلكاتهم ، وكيف أبطلوا أحكام المواريث واعتبروا أنفسهم الوارث الشرعي الوحيد للمتوفين في مصر سواء كانوا مسلمين أو ذميين؛ ولذا يعد عزت أفندي الحملة الفرنسية عقاباً إلهياً أنزله بهم فيقول في ذلك : " فسلط الله عليهم قوماً دهبو المذهب ، كفره معاندون هم الفرنسيون وذلك مصداقاً للحديث القدسي الذي جاء فيه : إذا عصاني من يعرفني أسلط عليه من لا يعرفني ".^(١)

ويستمر المؤلف في إحصاء مآخذه على المماليك فيتحدث عن خيانة مراد بك واتفاقه مع الفرنسيين في مقابل تأميره على الصعيد والكف عن محاربتهم، ثم تودد المماليك في نهاية الأمر إلى الإنجليز بعد أن أحسوا أنهم الفئة الأقوى ، ووعدوهم بأنهم سوف يمنحونهم مزيداً من الامتيازات إن هم حموهم وضمنوا لهم البقاء في مصر ، بعد أن أيقنوا أن الدولة العثمانية تخطط للإطاحة بهم والقضاء على نفوذهم في البلاد ، ومحاولة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا والقبودان دريا حسين باشا اعتقال أمراء المماليك تمهيداً لنقلهم إلى الآستانة ، وتدخل الإنجليز وحمايتهم للمماليك ، حتى تمكنوا من الفرار إلى أسوان والسودان.^(٢)

٦- بالنسبة للأحداث التي دونها المؤلف نقلاً عن الجبرتي أو غيره من المؤرخين، وجدناه لا يكتفي بالنقل ، وإنما وجدناه شارحاً ، محلاً ، مبدئياً رأيه فيما ينقله ، فعلى سبيل المثال لم يقتصر على نقل المنشور الذي أرسله بونابرت إلى أهالي مصر أول قدومه إليها من (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين) للجبرتي ، بل ناقشه وتدبره ودحض مزاعمه وفضحها ، واستفاض في ذكر أحوال الفرنسيين ومذاهبهم وعقائدهم قبل الثورة الفرنسية وبعدها ، وكان يسأل ويجيب عن أسئلة لم يظن لها أحد وهي : كيف طبع ذلك المنشور ؟

١- ضيا نامه : ص ١٢١١ . وهذا الأثر أورده الإمام ابن كثير في البداية والنهاية ج٣ ص ٨١

٢- ضيا نامه : ص ٢٠٨ ب - ٢١٦ ب .

ومتى تعلم الفرنسيون الخط العربي ؟ وكيف تأتي لهم الوقوف على شئون مصر وسير أغوارها ؟ ، وأوضح قدم فكرة غزو مصر وبين أنها أقدم من نابليون وأنها تعود إلى عهد الملكية في فرنسا وليست فكرة وليدة الثورة الفرنسية ، ويذكر أن دعوة الفرنسيين للإخاء والمساواة والحرية إنما كان لخداع البلهاء والأجلاف من الناس.^(١)

٧- وأخيراً إذا كنا نعلم من خلال المصادر العربية وجهة النظر العربية في مسألة إخراج الفرنسيين من مصر ، وكذلك نعلم وجهات النظر الفرنسية والإنجليزية من خلال مصادرها التي تحدثت عن الفترة ، فإن (ضيا نامه) تعد الممثل الشرعي لوجهة النظر العثمانية الرسمية في هذه المسألة ، وهذا أمر يكسبها أهمية خاصة أكثر من كونها مجرد مصدر تاريخي عن الحملة الفرنسية على مصر .

١- ضيا نامه : ٥٢ ب ، ١٥٨

مكانة عزت حسن أفندي بين المؤرخين العرب المعاصرين له

في هذه الفقرة سنتعرض لمكانة عزت حسن أفندي بين اثنين من المؤرخين العرب الذين اشتهروا في تلك الفترة ، هما الجبرتي ونقولا الترك اللذان أرخا لفترة من أكثر الفترات تقلباً واضطراباً في تاريخ مصر ، وتعرضا لحدث هام وحساس وهو الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام . ولمعرفة مكانة عزت حسن أفندي من هذين المؤرخين ينبغي علينا أولاً أن نعرض بإيجاز لسيرة كل من الجبرتي ونقولا الترك كالتالي :

١ - الجبرتي :

هو عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم بن حسن بن علي ، حبشي الأصل، نزع أسلافه من (جبرت) - إحدى مقاطعات جنوبي شرقي الحبشة - وسميت كذلك باسم قبيلة عربية هاجرت من بلاد العرب واستقرت فيها وكانت أرقى القبائل الحبشية المسلمة ، وأرجعها عقلا ، عرفت بالتفاني في حب دينها والتفقه فيه ، وبميلها إلى تحصيل العلوم عامة والعلوم الدينية خاصة .^(١)

ويذكر المؤرخون أن والده الشيخ حسن كان من كبار علماء الأزهر الشريف ، وكان على جانب كبير من الثراء ، ومغرمًا بجمع نفائس ونوادير الكتب والمخطوطات .^(٢)

وُلد عبد الرحمن الجبرتي في القاهرة في سنة ١١٦٧هـ = ١٧٥٤م ، وقد نشأ في بيت علم ودين فشبه على حب العلم والعلماء حتى غدا من كبارهم ، واشتغل بالتدريس في الأزهر ويبدو أن عبد الرحمن الجبرتي كان

١- الجبرتي : مظهر التقديس (طبعة لجنة البيان العربي) ، مقدمة المحققين .

٢- المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

بطبيعته ميالاً إلى التاريخ فهو يقرر أنه " علم يُبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وطبائعهم وأنسابهم ووفياتهم ، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلطين وغيرهم ، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي ، وكيف كانت وفائدة العبرة بتلك الأحوال ، والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ويستجلب حيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أقوالهم ، ويزهد في الفاني ، ويجتهد في طلب الباقي .^(١)

وقد جُبل الجبرتي منذ الصغر على تسجيل ما يرى ويسمع وما يحس ، غير متأثر فيما يسجل بأراء أهل عصره ، والدهماء منهم بخاصة الذين اتهموه بميله إلى الفرنسيين على الرغم من أنه كان كارهاً للفرنسيين وسيئاتهم ولم يمنعه اختياره عضواً في الديوان في عهد (مينو) من أن ينتقد أعمالهم انتقاداً مرأ الأمر الذي جعل الفرنسيين يصفونه بأنه (شيخ متعصب) .^(٢)

وقد استهل الجبرتي أعماله بكتابه المعروف (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين) الذي أهداه للصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ثم أتبعه بعمله الأشهر (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) المعروف بتاريخ الجبرتي والذي يُعد أوثق مصادر عصره التاريخية .

وسنعرض في عجلة لكتابه الأول ، إذ أنه هو الذي يهمننا في هذا

المقام :

بدأ الجبرتي تصنيف هذا الكتاب إثر خروج الفرنسيين من مصر في أواخر صفر من عام ١٢١٦ هـ ، وانتهى منه كما يقول في سلخ شعبان من

١- الجبرتي : عجائب الآثار ، ج١ ، ص ٣ .

٢- الجبرتي : مظهر التقديس ، مقدمة المحققين .

السنة نفسها ، وأهداه إلى الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا إذ قال في خاتمته :
 " ثم في الختم به إيماءة إلى أن ألف الكتاب باسمه وحُلت ديباجته برسمه ،
 وهو مولانا الوزير دام علاه وتحلت الأيام بوجودها فيه وبقاه ... ثم لسدته
 التي هي مثلث شفاة الإقبال ومحط رحال أفاضل الرجال أهدي كاسد هذا
 التصنيف وخامل هذا الترتيف ، فإن لاحظته بعين القبول ، وذلك هو المُبتغى
 والمأمول ، راج في معالم الأدب سوقه وبطابع السعود لاح شروقه .^(١)

ومن هذا المخطوط في دار الكتب المصرية نسختان : إحداهما بخط
 أحمد رزق النساخ ، والأخرى مجهول ناسخها . ونشر محمد عطا هذا المؤلف
 تحت عنوان (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ، يوميات الجبرتي) في
 جزئين ، ضمن مجموعة (اخترنا لك) ، في القاهرة عام ١٩٥٨ م .

والجزء الأول يتضمن مقدمة تاريخية قصيرة يبدأ المؤلف بعدها
 بسرد أحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وينتهي بأحداث شهر جمادى الأول
 سنة ١٢١٤ هـ .

أما الجزء الثاني فيبدأ بسرد أحداث شهر رجب سنة ١٢١٤ هـ ،
 وينتهي بأحداث شهر شعبان سنة ١٢١٦ هـ . ويشير الناشر في مقدمة الكتاب
 إلى أنه اعتمد في نشره على (النسخ الخطية المستعارة من دار الكتب
 المصرية)^(٢) ، دون أن يُعرف بهذه النسخ .

وفي عام ١٩٦٩ م قام حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي بنشر هذا
 الكتاب وشرحه تحت عنوان (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين) في
 جزء واحد ، يبدأ بأحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، ويقف عند سلخ شهر
 شعبان سنة ١٢١٦ هـ .

١- الجبرتي : مظهر التقديس ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

٢- الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ، نشر محمد عطا (مجموعة اخترنا لك)
 دار المعارف القاهرة ١٩٥٨ م ، ج ١ ، ص ٦ .

ويشير الناشران إلى أنهما اعتمدا في إخراج هذا الكتاب على نسخة خطية بدار الكتب دون إدلاء بأية تفصيلات عن هذه النسخة ، واعترفا بأنهما لجأ إلى تصحيح الأخطاء النحوية الواردة بالمخطوط ونبها إليها في الهامش حتى يستقيم المعنى ، وتركوا الأخطاء اللغوية مع التنبيه إليها ، إلا في المواضع التي وجدا أن المعنى فيها سيتغلق على القاري ع .^(١)

وتوفي الجبرتي في القاهرة عام ١٢٤٠هـ = ١٨٢٥م بعد مقتل ابنه خليل الذي قيل أنه قُتل عام ١٢٣٧هـ = ١٨٢٢م ، ويبدو أن صدمة مقتل ابنه قد هدته ، وجعلته يبكيه بكاءً حاراً أفقده بصره .^(٢)

٢- نقولا الترك :

هو نقولا بن يوسف بن ناصف الترك ، شاعر ومؤرخ من أسرة يونانية الأصل ، وُلد في دير القمر ببلبنان عام ١١٧٦هـ = ١٧٦٣م . بدأ حياته مدرساً للقراءة والكتابة لأبناء بعض الأسر الإقطاعية في جبل لبنان ، وقد تأتى له زيارة مصر عام ١٧٨٩م وأقام بها مدة ،^(٣) وقد كان في القاهرة بالتحديد عام ١٧٩٣م ، ورجع إلى لبنان في العام التالي حيث لحق ببلاط الأمير بشير الشهابي ومدحه فعهد إليه بمهمة معرفة بعض التفاصيل عن خطط الحملة الفرنسية والخطر الزاحف على منطقته قبل أن يقدم هذا الأمير على مغامرة التحالف مع بونابرت عند قدومه الشام . وقد ساعدت الفترة التي قضاها نقولا في مصر على صقل معرفته بشئون القطر المصري ، فجاء إلى مصر وعُين كاتباً للحملة الفرنسية وأخذ يدون ما يتصل به من أخبار عن هذا الحدث

١- الجبرتي : مظهر التقديس (طبعة حسن جوهر وعمر الدسوقي) ، مقدمة المحققين .

٢- المصدر نفسه ، مقدمة المحققين .

٣- الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٨٤٦ .

التاريخي الخطير ، فجمع مادة تاريخية هامة ، صنفها في كتاب حول الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام سماه تاريخ الحملة الفرنسية على الديار المصرية والشامية^(١).

ويوجد من هذا المخطوط عدة نسخ تحت عناوين مختلفة أهمها :
 .. مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق ، وهو الذي يحمل عنوان (تاريخ نابليون الأول) . وقامت الدكتورة أمل بشور بنشر هذا المخطوط بعد تحقيقه تحت عنوان (حملة بوناپرت إلى الشرق ، مخطوط نقولا الترك) دار جروس برس بلبنان ١٩٩٣ م . وأحداث هذا المخطوط تبدأ من عام ١٢٠٧هـ = ١٧٩٢م ، وتنتهي في أواخر ربيع الأول لعام ١٢١٦هـ = ١٣ أغسطس ١٨٠١ م .^(٢)
 .. مخطوط مكتبة عيسى إسكندر المعلوف اللبناي : وهي التي تحمل عنوان (ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية) . وتمتد أحداث هذا المخطوط إلى ما بعد الحملة الفرنسية حتى عام ١٨١٥ م .^(٣)
 وبعد هذا السرد السريع لسيرة هذين المؤرخين ، وبالمقارنة بينهما وبين ما سبق ذكره عن عزت حسن أفندي نجد أن المؤرخين اتفقوا في كونهم بدأوا حياتهم بالتدريس إلى أن بزغت مواهبهم وتجلت قدراتهم العلمية والأدبية ولا سيما في مجال التاريخ ، وأتاحت لهم تلك المواهب فرصة الاتصال بالقيادة ورجال السياسة ، الأمر الذي جعل كل منهم على مقربة من مجريات الأمور في دولته وقد استطاع هؤلاء المؤرخين أن يغطوا أحداث الحملة الفرنسية ، وقدموا صورة حية لوقائعها إلى أن جلت هذه الحملة عن مصر في عام ١٢١٦هـ = ١٨٠١ م .

١- نقولا الترك : حملة بوناپرت إلى الشرق ، تحقيق أمل بشور ، دار جروس برس بيروت لبنان ١٩٩٣ م ، ص ١٠ ، ١١ .

٢- المصدر نفسه ، ص ١١ ، مقدمة المحقق .

٣- المصدر نفسه ، ص ٢٠-٢١ ، مقدمة المحقق .

منهج المؤلفين :

أما عن المنهج الذي اتبعه المؤرخون الثلاثة في تسجيلهم للحوادث فهناك فروق طفيفة بينهم ، فعلى حين نجد أن عزت أفندي قد نهج نهج التراجم المعروف الذيناسب مؤلفه الذي قام أساساً على تدوين الأحداث التي وقعت في عهد الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وأجلها خطراً على الدولة العثمانية هي الحملة الفرنسية على مصر والتي كُلف بقيادة الجيوش العثمانية لطردها منها .

أما الجبرتي ونقولا الترك فقد سارا على المنهج الحولي المعروف ، أي كتابة أحداث العام مرتبة وفق الشهور والأيام وكلما انتهى من أحداث عام يبدأ في سرد أحداث العام الذي يليه .

وقد اعتمد عزت حسن أفندي في تسجيله لأحداث الحملة الفرنسية التي لم يرها - كما سلف أن أشرنا - على مظهر التقديس للجبرتي أما أحداث الحملة العثمانية التي جاء معها فقد سجلها كشاهد عيان ورسم لها صورة صادقة تفيض بالحيوية .

وبالنسبة للجبرتي ونقولا الترك فقد أتاحت لهما الظروف تلك الفرصة أيضاً فكتب أغلب ما كتباه من خلال معاصرتهم للأحداث ، فالجبرتي كان يعمل بديوان القاهرة ، ونقولا الترك كان كاتباً مع الحملة الفرنسية .

مؤلفات المؤرخين الثلاثة في الميزان :

إذا التفتنا إلى كتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين لعبد الرحمن الجبرتي ، ألفيناه لا يقل أهمية عما كتبه المؤرخون الغربيون ، خاصة وأن أولئك المؤرخين وثقوا بهذا الكتاب واعتمدوا عليه اعتماداً تاماً وعدوه المصدر الأهم لهذا الحدث التاريخي ، فقد ترجمه (كاردان) ونشره في باريس عام ١٨٣٨م .

وهذا الكتابة مع غزارة مادته والمعلوم من أهميته لا يخلو من قصور في بعض المواضع ، ونعني بذلك أنه أغفل ذكر جهود الحملة البرية العثمانية التي قادها الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا لإخراج الفرنسيين من مصر ، ويبدو أن الجبرتي لم يشاهد تلك الحملة قبل دخولها مصر ليكتب عنها في واقعية ثابتة محددة ، ولم يتتبع تلك الحملة في خروجها من استانبول إلى مصر ، ولم يتعرض لدور الأسطول العثماني والأسطول الإنجليزي في تحرير مدن وقلاع القطر المصري من الفرنسيين ؛ ومن ثم رأبت (ضيا نامه) هذا الصدع وسدت هذا الفراغ بتركيزها على تلك النواحي التي أغفلها الجبرتي في كتابه .

أما إذا انتقلنا إلى كتاب نقولا الترك ألفيناه أقل أهمية من (ضيا نامه) و(مظهر التقديس) ، لأنه كان سطحياً فيما كتب ، وكان كلامه كلام مشاهد غريب عن المنطقة يؤدي مهمة عهد بها إليه ولم يكن في وسع هذا المتفرج أن يدرك الأحداث التي عايشها الجبرتي في مصر ، وعایشها عزت حسن أفندي وهو في معية الحملة البرية العثمانية ، فنقولوا الترك لم يكن مؤرخاً محترفاً مثل الجبرتي وعزت أفندي وهو لم يهتم بالتاريخ لذاته ، بل لإتمام المهمة التي عهدت إليه ، ووجدناه يمر على الأحداث مرور الكرام دون توضيح ولا تمحيص ، كما أنه في كثير من الأحيان لم يكن موضوعياً في نظراته ، لتحيزه للفرنسيين . وهذا التحيز وضع في كلامه ، ولا غرو فهو الأديب العربي الوحيد الذي نظم شعراً في تمجيد المحتلين الفرنسيين .^(١)

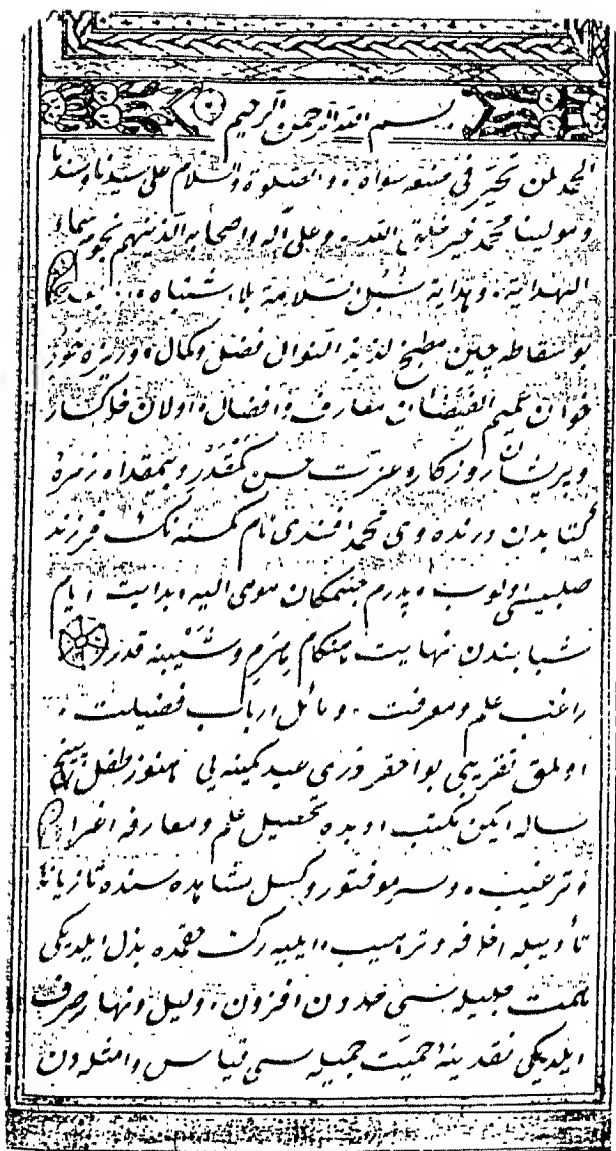
١- اختتم نقولا الترك كتابه بقصيدتين إحداهما يمتدح فيها بونايرت حين استولى على مصر ، والأخرى يرثي فيها كليبر ويؤرخ قتله .

نقولوا الترك : المصدر السابق ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ .

والرأي أن كتاب نقولا الترك لا يعدو أن يكون مصدراً هامشياً لكتاب مظهر
التقديس للجبرتي ، فتأريخه للعمليات العسكرية التي قام بها الفرنسيون في
مصر ووصفه لحملتهم على الشام استقى كله من بيانات نابليون إلى ديوان
مصر ليس إلا ؛ فمذبحة يافا التي اعتبرها جميع المؤرخين ، شرقيين وغربيين
، وصمة عار في جبين نابليون بررها نقولا الترك كما بررها مرتكبها فيما بعد
في جزيرة القديسة هيلانة .^(١)

وعلى ذلك فإن الميزة التي تميزت بها (ضيا نامه) عن المؤلفين
الآخرين هي الخروج عن النظرة المحلية الضيقة التي اتسم بها كل من :
(مظهر التقديس) و (ذكر تملك الجمهور الفرنسية الأقطار المصرية والبلاد
الشامية) ، فلم يمد أحدهما بصره خارج حدود مصر فحرما أنفسهما من مورد
غني لكتابيهما ، بينما نجد عزت حسن أفندي قد أبان في مؤلفه عن رؤية
شاملة لأحداث الحملة الفرنسية على مصر ، وكيف تحالف العثمانيون
والإنجليز في إخراجها من مصر وكيف ساعدت الأحداث العالمية آنذاك في
إتمام هذا التحالف وطرد الفرنسيين من مصر في نهاية الأمر .

١- نقولا الترك : المصدر السابق ، مقدمة المحقق ، ص ٣٥ .



۵۹

الصفحة الأولى من المخطوطة

ذات پسندیده نمود و در هر خطی که در تحریر می باشد
ترجمه کبریا و نبی بود و در آن کتاب اول و سبب اگر چه خوب و
دیوان معاصران و سبب باین دور که حاصل بدین ترجمه است
گرام و سبب از خود و اولاد و سبب اول و سبب اول
الا احترام افواغ و ترک بشو و سفر بها یونده امکا و خند ستر
سبقت ایتمش پس در بوختی که بودن زیاد و تکرار
ترجمه به تکی اول و بدینند اکثرینک محکمه و سبب نامی
یاد و خندست سبب و لری تعداد اول و بدینند بود و در جهانب
اکتفا اول و بدی نریل بو فقیر بر تقصیر وادی اکتفا است و سبب
یاد و کمال غیر و تصور اول و بدین غیر است و سبب و لری
مواص و سبب و سبب ایلیه جکی و جهانب و سبب و لری
اول و بدی سبب سبب سبب سبب سبب سبب سبب سبب
عاری سبب سبب سبب سبب سبب سبب سبب سبب
مکرر و سبب سبب سبب سبب سبب سبب سبب سبب
پوشیده زیر زبول ایلیه لری این نوشتیم تا بماند روزگار
من غم این بماند برقرار من شدم زیر زمین با در و علم
کس نماند حال من تر کر کاره مانجه بو بر شان مغالطه بزدن
صبر و زیر صفت وجود اول و سبب در کار و سبب سبب ایلیه
ذات گرام حسنه الله برقا تکرار و سبب سبب سبب
یاد و روضی شاد و ایلیه و الله با و دی و سبب سبب
وقت الحروف بمعون الله
ملکت الیوم

مخطوطة ضيا نامه
للداندي
(الترجمة العربية)



الحمد لمن تحرير في صنعه سواه ، والصلاة والسلام على سيدنا
وسندنا ومولانا محمد خير خلق الله وعلى آله وأصحابه الذين هم نجوم
سماء الهداية وهداية سبل السلامة بلا اشتباه وبعد :
إن جامع فتات مطبخ الفضل والكمال لذيق النوال ، أكمل بقايا
المائدة عميمة الفيضان للمعارف والأفضال ، ذليل زماته وتعس دهره
(عزت حسن) كان ابنا للمدعو (محمد أفندي الدارندلي) . ووالدي
ساكن الجنان هذا ، منذ مطلع شبابه إلى نهاية أيام شبابه ، كان نازعا
إلى العلم والمعرفة ، ميلا إلى أرباب الفضيلة ؛ فزين للمبدع الأحقر الأذل
تحصيل العلوم والمعارف في المكتب وهو لا يزال طفلا في الخامسة .

ولما رأى بلادته وكسله خوفه بسوط التأديب . وما بذله ليل
نهار فى تربيته من قصارى همته ، وما استفرغه من وسعه وطاقته
يجل عن الوصف والتمثيل [١ - ب] .

وبرغم ضعف استعدادى ويدي القصيرة وعجزى الذى فطرت
عليه ، نلت قسطاً من المعرفة والفضل . بيد أن ناقة أملى لم تبلغ كعبتها ،
ولم يبلغ جوادى محلة السعادة المقصودة ؛ إذ إن مسقط رأسى وهى قرية
(دارنده) ينطبق عليها قوله تعالى : { ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد
غير ذى زرع }^(١) فقد كانت خاوية من أسباب العيش ، مشحونة بالشدائد
واثقال الفقر والعوز ، وكنت مشغول البال دوماً بتحصيل الرزق . وكان
تحصيل شتى العلوم واجبا كتحصيل الرزق . وقد وفقت فى تحصيل العلم
من أربابه ، كما أتيج لى يوماً ما أن أشتغل بتسويق بضاعتى وهى
تدريس العلم .

ولما تمثلت قول :

لما لم يتيسر الرخاء والاستقرار عند الأحباب

كان لزاماً على الضيف ترك الديار

تحتم على ترك الدار والديار سعياً وراء الرزق ودفعاً لغائلة الفقر
والعوز ، واخترت لنفسى العمل بالكتابة والسياحة لزمن ، فلحقت بخدمة
بعض الوزراء العظام والأمراء الكرام وبعض المرموقين ، كاتباً لهم .

١- إبراهيم : (٣٧)

[١-٢] وعلى الرغم من تطوافى فى الولايات ، فإنه مصداقاً لقول

الشاعر :

إذا توافرت الآمال كأنها قطرات المطر
المنهمرة فإن التمس يظل خائبا خاسراً

لم أتمكن من استخلاص تلاييب أملى من قبضة الفقر .

وأثناء رجوعى ضيفاً خالى الوفاض إلى وطنى البلدة المذكورة ،
انتقل والدى إلى روضة الجنة ؛ فأخرست فجيعتى فيه لسانى ، وانقصم
ظهري تحت أعباء الهم والعوز . وفيما كنت فى حيرة من أمرى أردد :
إن كان عندك يا زمان بقية

مما تسوء به الكرام فهاتها

قدم (ملاطيا) والى ديار بكر وكافة المناجم السلطانية الذى يشبه أرسطو
فى حكمته وسداد رأيه ، الوزير الهمام ، كهف الفقراء والمساكين ،
ناصر الإسلام والمسلمين ، ضياء الدنيا والدولة والدين الحاج يوسف
ضيا باشا الغازى يسر الله بالخير ما يروم وما يشاء ، وكان يصدد التنكيل
بأشقياء الكرد فى اللواء المذكور. [٢-ب] وبحسب القرب والجوار
وصفنى بعض الأشخاص وتحدثوا عنى فى مجلسه فائض النور ، فنلت
حظاً من عطفه ورعايته.

ونظراً لما كان له من سجايا رضية وشمائل سنية ، فقد كان يخالل أهل
العلم والفضل والشعراء فى اتصال ودوام ، ولم يكن يجروء أحد فى
مجلسه على التفوه بكلمة فى غير مسائل العلم والعقيدة وما يستتبع ذلك
من أحاديث حول الحكم والرياضيات وتزكية النفس وسير سلاطين
السلف، وما يروى عن قداماء البلغاء من أقوال ومأثورات . [١-٣]

وكان إذا ما طاف بسمعه خبر عن عالم فاضل من قريب أو بعيد ، استدعاه إلى حضرته ، مجتذباً إياه بتكريمه وتوقيره وإجزال صلته . وإذا جاءه الخبر عن شاعر أو كاتب فى بلد من البلاد ، استقدمه فى التو والحال واختصه لنفسه .

ورغم أننى لم أكن ذا علم ومعرفة، ولا سهم لى من البلاغة والفصاحة، ذكر اسمى فى مجلسه العالى ؛ فاستقدمنى ، وأفاض على من إنعامه وأفضاله ، واستخدمنى كاتباً فى بابيه ، وشملنى بما لا أستحق من رعايته وحده .

ورافقته فى المناجم السلطانية و(أرضروم) وكنت موضع نظره والتفاتيه بالخدمة فى بابيه فى (آخسخه، وطرابزون ، وجانكلر) . وبينما كان مرابطاً فى صحراء (ترشمك) لدى قيامه بالتنكيل بأكراد الديسميين — على نحو ما سوف نذكره تفصيلاً — ورد خط همايونى بدعوته إلى مقر الصدارة العظمى، وعندما يعم شطر الآستانة ، تجلت آثار رحمته وشفقته؛ فاصطحبنى معه إليها ونلت منه بالغ الحفاوة وكرم المثوى حتى مضيه إلى مصر دار النصر؛ ورافقته حتى نهاية حملته عليها وقفلت معه إلى الآستانة . [٣-ب]

وبعد أن ظهر الأراضى المقدسة المصرية من دنس المشركين والكفرة بعد مشقة وعناء ، عاد منصور اللواء المظفر على الأعداء إلى الآستانة العلية، وكان شغله الشاغل على الدوام هو التفكير فى نظام الملك وصلاح حال الرعية، وكان يستنير فى كل تصرفاته بالشرع المبين والقانون المتين .

وفى لياليه كى لا يضيعها فيما لا يفيد كان يقرأ كتاب

(درر الغرر) لزبدة الفضلاء أحمد حياتي أفندي ، ولقد فرغ من الاطلاع عليه واستفاد منه ، وهو في ذلك ممثلاً لقوله صلى الله عليه وسلم :
 " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " ^(١) وكان ينهز أوقات الفراغ ليستوفيها في مسائل العلم ولطائف الشعر والنثر . وكنت أحضر مجالسه أينما انعقدت .

و ذات ليلة حدث أن أفضت شجون الكلام إلى ذكر كتب التاريخ فقال حضرة الصدر الأعظم [١-٤] :

— "إن عالماً من علماء مصر القاهرة له كتاب باللغة العربية ، أرخ فيه للغزو الفرنسي ، مقتصراً على ما وقع في مصر وحدها . وعلى الرغم من أنه ذكر في تاريخه المذكور الأحداث التي وقعت داخل القاهرة فحسب ، لم يتعرض لذكر الحملة البرية والبحرية اللتين أرسلتهما الدولة العلية العثمانية إلى مصر ، كما لم يورد ذكراً — بأي شكل من الأشكال — لأحوال أساطيل الدولتين المتحالفتين وهذا منه تقصير واضح في كتابه .
 ورغم أن ما دونه بحر المعارف — الذي كلف بتدوين وقائع الدولة العلية وأحداثها في الجرائد المطولة — يُعد درر جاد بها قلمه فإنه لا جرم من تدوين كافة الأحداث والوقائع كبيرها وصغيرها للدولة العلية قوية النظام .

١- رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ، وأبو نعيم في (أخبار أصبهان) . حديث ضعيف . راجع محمد نصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الموضوعة ، المكتب الإسلامي القاهرة ، ص ٤١٣ ، حديث رقم ٤١٦ .

ولأن تدوين كافة الوقائع المصرية والتأريخ لها تضيق به المجلدات ؛
 حبذا لو تكلفت بالكتابة عن تلك الوقعة المصرية فحسب بأسلوب عار من
 الفصاحة وتكلف العبارة ، فى مستوى فهم العوام والخواص ” .
 فصدعتُ بما أمرت به ، وعلاوة على أن الوقعة المصرية تلك عبرة لأولى
 الألباب ، جديرة بأن تدون فى صحف الآثار ، فإن وقلع الصدر الوقور
 فى المناجم الهمايونية ، وخطوبها ، طائفة من جليل الحوادث التى لم
 تصدر عن أسلافه الكرام .

ولأنها أحداث غير قابلة لأن تطرح فى زاوية النسيان ، فقد
 شرعت فى الكتابة إجمالاً عن هذه الأحداث التى وقعت تحت ناظرى
 كمقدمة موجزة متكناً على توفيق المولى ونعم الرقيق ، ملتصا العفو
 عما قد يقع فى كلامى من تقصير .

وقد رتبت رسالتى هذه على مقدمة وملحمة وخاتمة .
 أما الملحمة فحدثى فيها عن حضرة الوزير المشار إليه منذ
 نشأته الأولى، [٥ - ١] [وتقلده أمانة (كيان معدن) ، ونيله رتبة وزيو ،
 إلى أن تبوأ منصب الصدارة العظمى.

والقصة تبدأ بعد توليه منصب الصدارة ، وخروجه على رأس
 الحملة العثمانية إلى مصر ، ثم عودته مظفراً منها ، وما وقع فى تلك
 الغضون من أحداث .

أما الخاتمة ففى تراجم من ساهم فى تلك الحملة من الوزراء
 والقادة ورجال الدولة .

ولما كانت رسالتى هذه من فاتحتها إلى خاتمتها تدور حول ما
وقع من أحداث زمن صدارته ، فقد سميتها (ضيا نامه) نسبة إلى
حضرة الصدر الأعظم يوسف ضيا پاشا .
والله أسأل أن يحفظه من كل ما يحول دون تحقيق المقصود ، وأن ييسر
لى إتمامها ، آمين ، وأسأل الله التوفيق وأستلهمه السداد ، فإنه نعم
المولى ونعم الرفيق .

المقدمة

نشأة السردار الأكبر

منصور اللواء الحاج يوسف ضيا باشا

الغلازى

يسر الله بالخير ما يريد وما يشاء

كان حضرته ^(١) عبداً للمرحوم مصطفى باشا المير آخور ، والقبودان دريا ، الذى تكلفه وهو لا يزال طفلاً فى الخامسة ، فبذل الوسع فى تنشئته وكأنه ولده ، وجلب له صفوة المؤدبين والمدرسين . وما إن يقع غوده وبلغ أشده حتى كان قد ملك نواصى العلوم الشرعية ، وحذق الخط . وإضافة إلى تضلعه من العلوم والفنون فى مجال الإنشاء والمحاسبة ، فقد تحنك فى فنون القتال مثل : ركوب الخيل والضراب والطعان ، وبرع فيها وفاق أقرانه وفضلهم فى هذا الصدد . وحالما شاعت محامده وميزاته بين أصدقائه وأقرانه ، وأفى الأجل مصطفى باشا . وعندئذ انخرط فى خدمة ابنه الحاج حافظ مصطفى باشا الذى كان على وشك التحرك إلى (كبان معدن) أميناً للمناجىم السلطانية ، فمضى معه إلى هناك .

١- الترجمة الحرفية للجملة حسب النص التركي : " كان حضرة المشار إليه " وقد استبدل المترجم تعبير " المشار إليه " بنظيره العربى الفصحى ، وهو ماء الغيبة وسيكرر ذلك فى العديد من المواضع التالية .

ونظرا لما أبان عنه من استعداد صادق مترسخ فى طبيعه ، اكتسب ود المشار إليه وعطفه فى زمن قصير ، وانتشرت محامده وميزاته بين أقرانه وأشباهه ، [٦ - ١] وطاف لعدة سنوات مع حافظ مصطفى باشا فى أرجاء المناجم السلطانية وأرضروم وقارص ، ثم عزم على المضى معه إلى الحج ، وطابت نفسه من زيارة البقاع المقدسة .

ولدى عودته إلى الرقة ، حدث أن استأذن حضرته من حافظ باشا فى الفراق متعللاً ببعض الأسباب ، ووافى الآستانة العلية حيث لحق بخدمة المرحوم محمد باشا الدارندلى - الصدر الأعظم - آنذاك . وعقب خلعه من الصدارة ، جمع حضرته بين العمل كمساعد للدفتردار فى باب الباشا ، وخدمة بعض أعلام الدولة ، وفى النهاية مضى صوب (كيان معدن) مهر داراً - (جيل أمين آغا) الذى تقلد أمانة المناجم وقتذاك ، وبذل إخلاصاً وتفانياً فى خدمته ؛ ولذا عندما عُزل (جيل أمين آغا) وآلت أمانة المناجم إلى (يكن آغا) ، أسندت (المهر دارية) إلى حضرته بناء على طلب جيل أمين آغا ورغبته ، فأخلص وتفانى فى استحصال الأسباب المتعلقة بأعمال المناجم ، وعُيِّن على رأس حملة ، عندما لزم ردع بعض الأشقياء الكرد ، والعشائر التى اجترأت على العصيان ، فاستأصل شأفة كثير من أشقيائهم وقتل كثير من طغاتهم ، ومن ثم اكتسب حسن السيرة لدى العوام والخواص . [٦ - ب]

ومن بعد ذلك استأذن من يكن آغا وقفل إلى الآستانة العلية ، ولحق بخدمة المرحوم خليل حميد باشا زمن تقلده أمانة (الترسانة العامرة) .

ولم يمض طويل زمن حتى صار خليل باشا كئيدا للصدر الأعظم، ثم صدرا أعظما بعد عدة أشهر، فظفر حضرته بمنصب (مهردار) وبعد عدة أيام تقلد منصب (سلاحدار). وفي تلك الأثناء توفي يكن آغا أمين المناجم فألضت إلى حضرته المناجم السلطانية نظرا لوقوفه على أحوالها. وأخلص وتفانى فى تلك المهمة؛ ولذا فقد حظى بعطف خليل باشا وتقديره واكتسب محبة الناس كبيرهم وصغيرهم.

وعندما لزم مكافأته، على أى وجه من الوجوه، أجرى عليه راتبا مناسبا من الأوقاف، فعلا بذلك قدره وزاد اعتباره بين أقرانه. وبعد زمن، قضى الله بأن يستشهد خليل باشا، وعندئذ نفس حضرته يده من كل أمر وقبع فى ركن العزلة فى داره عندما ألمت به مصيبة فقد ولى نعمته على ذلك النحو. ولم يزل على تلك الحال من الاتزواء واعتزال الناس، [٧-١] حتى أسندت إليه أمانة المناجم السلطانية من جديد دون أن يسعى فى طلبها.

إسناد أمانة (كبان معدن) إلى حضرته

لم يوفق (ديوركلى كوسه مصطفى) باشا - الذى ولى أمانة (كبان معدن) و(آرغنى) منذ بضع سنين - إلى نيل رضا الدولة العلية. وبسبب خلافه مع محمد أفندى الأرناؤوطى، ناظر الضربخانه العامة آنذاك، لزم عزله بأى حال من الأحوال، وإسناد أمانة (كبان) لشخص

ذى كفاءة وجدارة، يقبض بيد الحزم والحسم على أزمة الأمور فى المملكة.

وبينما كانوا يبحثون عن ضالتهم المنشودة ليل نهار ، جرى قضاء الله بأن يدلهم بعض الناس على حضرته ؛ فاستدعوه . ولدى مناقشتهم له غير مرة عن أحوال المناجم آنسوا فيه رشدا وسدادا وحسن استعداد .

وبعد أن وزنوا كفايته وقوموا معدنه ، صبح منهم العزم على إسناد أمانة (كبان) إليه . وبعد أن اتفقوا على جدارته ولياقته الكاملة لتولى تلك المهمة أفصحوا له عما انتهوا إليه ، وعزموا عليه فى هذا الصدد ؛ فلم يسلك حضرة المشار وادى التهاك ، بل حمد المولى عز وجل وتوكل عليه قائلا : " إذا ما قدر الله أمرا فى دنيا الفناء باركه وهباً له الأسباب " [٧-ب]

وفى النهاية رفع محمد أفندى ناظر (الضربخانه) تقريره إلى الباب العالى بشأن إسناد أمانة المناجم إلى حضرته ، فصدر فرمان منيف بناء على ما ورد فى ذلك التقرير ، ودعى إلى الباب العالى وخلع عليه القفطان فى حضرة الصدر الأعظم ونال بعض نفحاته .

وفى التو وفى غضون أيام قضى حضرته أشغاله ومضى سويماً إلى (كبان معدن) ، فمدت له البسط لدى وصوله إلى قصر البكوية الخالص بأمين المناجم . ورحب برؤساء المناجم وعمالها وأخذ بعضهم بالوعد ، والبعض الآخر بالوعيد ، وحضهم على نقر الغيران فى شتى الجهات ، وقام بشراء عدة مئات من البغال من ماله الخاص ، وبذل قصاراه فى استخراج الفحم من (أولو قلعة) وسائر الأماكن المناسبة ، وقطع كميات

ضخمة من الحطب من (كماخ ، وكرجانيس) ونقل الفحم والحطب عبر
نهر الفرات ، [٨-١] وبذلك تكدست تلال الفحم والحطب بجانب كل
فرن ، وصهرت الأفران أضعاف ما كان يصهر في السنوات الماضية ،
وبذل حضرته وسعه في استخراج قناطر مقلطرة من الفضة الخالصة .

استئصال أشقياء (أكراد كره چورلى)

منذ فترة طويلة وأمناء المناجم الهمايونية لا يستخدمون الجند
أمثال التوفكجية والأدلاء ، ويقتصرون على استعمال واصطحاب ما بين
أربعين إلى خمسين من خدم (الأندرون) ، وما يقرب من عشرين من
(الجوقدارية) ، وعدد من الكتبة وأغوات (البيرون) . علاوة على عدد
من التتار ، ونحو مائة من (سكبانية الكرد) ، ومن ثم إذا ما حدث أن
ظهر شقى يعيث فسادا في بقاع المناجم الهمايونية واستوجب الأمر
خروج هؤلاء الأمناء بجندهم إليه ؛ كانت هزيمتهم واقعة لا محالة إذا ما
خرجوا بأولئك الجند من ذلك القبيل ؛ ولذا كان يجب أن يرسل ولاية
الولايات القريبة والمجاورة مثل : أرضروم وسيواس وديار بكر والرقّة
الجند بغرمان عال ؛ وذلك لمحو الفساد والخلل في أمور المناجم .

ولم يكن حضرته ليرضى باستهلاك عمال مناجم الفحم تحت
سنايك خيول صفوة الجند ؛ ولذا وبعد مرور عدة أشهر على قدومه
المناجم استقدم عددا من التوفكجية والأدلاء ، وعين رئيسا للتوفكجية
وأخرا للأدلاء . [٨-ب]

وكان أشقياء العشائر الذين تجاسروا على العصيان يسكنون المناطق الوعرة والصخرية من الجبال الشاهقة الواقعة بين (ديوركى ، وعربكير ، وآرغون) . وقد تعاظم شرهم وفسادهم ، فاستطالوا على السابلة ، وعسفوا بسكان البلاد وأسرفوا فى القتل وهتك الأعراض ؛ فأمر حضرته بتجريد حملة للتنكيل بهم ؛ فداهموا الأشقياء على غفلة منهم وقتلوا ما يزيد عن خمسين منهم، وأسروا الباقين ، وصارت رعوسهم المقطوعة عبرة لمن يعتبر .

وبعد أن نكلوا بهم أخذوا عليهم تعهدا بقرارهم فى أماكنهم وديارهم ، كما بثوا الرعب كذلك فى قلوب سائر الأشقياء .

واقعة قضاء (خربت) وتأديب أغواتها

منذ أمد طويل وأهالى خربت قوم عتاة ، بهم عنف وعصبية ، وكان كافة أعيان وأغوات القضاء المذكور وطائفة تجاره عموما يظهرون الأحقاد لبعضهم البعض ويعملون على إهاجة نار الفتنة بينهم ؛ وذلك لانتمائهم إلى كتائب ثلاث من كتائب الإنكشارية . وكم كان يقتل من الرجال كل عام ظلما دون وجه حق .

ولعدم إحقاق الحق بإقامة حدود الله وإجراء القصاص ، ودفع الدية ؛ تعاظم بغيهم وفسادهم يوما بعد يوم . وقطعا لداير الفتنة ؛ نقل أغواتهم وأبعدوا إلى القرى المحيطة ، ونزح كل منهم إلى قرية سكنها وبنى فيها دارا ضخمة . وظل الأهالى والتجار وأهل الحرف داخل

المدينة. غير أنهم لجؤا فى تناحرهم وتنازعهم من جديد ، وبذلت كتاب الإكشارية العون لأصدقائهم من الأغوات .

وعلاوة على عدم انقطاع مفاسدهم ، خرجوا على أمانة المناجم عندما كان قضاء (خربرت) تابعا لأمانة المناجم الهمايونية ، وأقدموا على تصرفات خرقاء بها شيء من التحقير مثل تقديمهم (مطلوبات) المناجم على أسنة الرماح .

وعندما قدم حضرته المناجم الهمايونية بعث إليهم بمرسوم طالبهم فيه بتأدية ما عليهم من ضرائب ، فامتنعوا وأقدموا على عدد من الأعمال الحمقاء ؛ فأرسل فى طلب الحاج (إبراهيم أغا) و(جوته لى زاده محمد أغا) ، وكنا من رؤساء الأغوات ، إلى المناجم وقام بتجريدتهما من قدر من توجسهما وخشيتهما ، بتشغيلهما فى بعض الأعمال ، ثم زج بهما فى السجن وقيدهما بالسلاسل .

ولما نما نبأ ذلك إلى أغوات خربرت ، ركبوا من فورهم الجياد وخرجوا على بغال المناجم التى تنقل الفحم إلى المناجم الهمايونية فى الطريق ونهبوها . [٩-ب] وعندما علم حضرته بذلك استدعى على الفور (على أغا) رئيس أدلاء (حافظ مصطفى) باشا رحمه الله ، الذى كان يقيم فى قضاء ترجان ، كما استدعى حشدا من الفرسان والمشاة من سائر الجهات ، وزحف مستعينا بالله على رأس تلك الحملة على قضاء (خربرت) ؛ ففر جميع أغواتها وأعيانها واعتصموا بداخل المدينة ، فحاصروهم بما يشبه الهالة ، وناوشهم غير مرة ، وقتل الكثير من أشقيائهم .

ولما لم تعد لهم القدرة على الصمود والمقاومة طلبوا الأمان ، فلم يعمد
حضرته إلى ترويعهم .

وعندما كانوا يستعطفونه ويسترضونه أخذ عليهم تعهدا بتسديد
أضعاف أضعاف أثمان ما كان من الممكن استخلاصه من فضة خالصة
بصهر مقدار ما تحمله بغال المناجم من خام فى الأيام التى احتجزوها
لديهم ، ثم منحهم الأمان ، وعاد أدرجه إلى المناجم
الهمايونية. [١٠-١]

وبعد فترة عاقب المدعو موطنان أغا - أحد طغاة عصابة
(جوته لى) - لتجاسره على بعض التصرفات المجافية للياقة ؛ ولذا لم
يظهر من تجرأ على الزلل أو التقصير . ومنع استخدام السلاح ؛ فلم يجد
أحد فى نفسه الشجاعة لإراقة نقطة دم واحدة ، وتوقفت دعاوى القتل
والقصاص ، ولم ترفع كذلك دعاوى القذف والتعزير .

القضاء على أشقياء الشيخ حسن فى لواء چمشكزك

ثمة جبل بجوار المناجم الهمايونية يقال له جبل
(دوجيك) يسكنه أكراد الديسميين وأكراد الشيخ حسن . وقطع أطراف
ذلك الجبل المعروفة فحسب ، يستوفى عشرين يوما . وهو جبل شاهق ،
طرقه وعرة ، تحف بها المخاطر ، أعجز خواص الناس وعوامهم
الوقوف على حقيقته . فتاريخه السالف غير معلوم ، ومنذ مائة عام فقط
وجد ولاية عظام ، ضعفت قبضتهم على تلك الجهات . وقد صدرت أوامر

أكيدة أكثر من مرة بإنقاذ الكثير من الوزراء الأكفاء نوى الجدارة والاعتدال لإعادة الأمور إلى نصابها في تلك الجهات . غير أنه لم يتأت لأحد منهم النجاح في مسعاه ، [١٠ - ب] ونزلت بهم الهزيمة جميعا واقتضوا وساعت سيرتهم .

وبعد أن قدم حضرته (كبان معدن) ، أخذ يفكر في بغى وفساد أولئك الأكراد ، وتذكر عودة الوزراء - الذين عينوا من قبله - منهزمين ، فعمل بالقول القائل : " من عجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه " وأرجأ القضاء عليهم إلى وقته المرهون ، وتشبث بالحديث الشريف : " الحـرب خـدعة " ^(١) ، وعين رجلا من رجاله يدعى (أوزون حسن) - وكان شجاعا مقتدرا - محافظا على قضاء (جمشكزك) ؛ وذلك بهدف القضاء على عصابة الشيخ (حسن) التي استفحل بغيتها وامتد شرها إلى أهالي البلاد ، وساق معه نحو مائة من صفوة رجاله.

وعندما وصل أوزون حسن إلى (جمشكزك) ملقنا بسائندابير السديدة - آتية الذكر قريبا - [١١ - ١] أذاع أنه يعد أكراد الشيخ حسن من إجلاء المملكة ، وأنهم كانوا يعتدون على سكانها في عهد أسلافه من المحافظين ، وأنه يريد عقد أواصر الود والأخوة بينه وبين زعماء أولئك الأكراد. وأشار إلى أنه سوف يخلع فاخر الخلع على كل منهم ويهديهم الجياد المسومة ، ويقضي لكل منهم خرجا يليق بمكانته،

١- البخارى ، ج ٤ - ص ٧٧ . مسلم حديث رقم : ١٧٤٠ ، ج ٣ ص ١٣٦٢ .

وأنة سوف يرتبط معهم بميثاق يقضى بعدم اعتدائهم على أى شخص مطلقا مدة مباشرته .

وبعد أيام من إشاعة تلك الأخبار وجه الدعاة إلى عشيرة الشيخ حسن لاستعجال كافة رؤسائهم ووكلائهم ، فاستبقوا فيما بينهم تنبئة الدعوة ، وقد فاضت بحور جشعهم وطمعهم . ووصل قصبة (جمشكزك) زعماء نحو ثلاثين قبيلة وما يربو على سبعين من أتباعهم ، ولما انتهوا إلى مقر محافظها (أوزون حسن) امتن لمقدمهم . وبعد أن أجابهم إلى مطلبهم ، أرسل كلا منهم وأتباعه إلى من يناسبه من أغصوات (جمشكزك)، فأوسعوهم كرما وحدبا بأكثر مما كانوا يتوقعون . وفرط عدهم بألف خدعة وحجة .

وبعد أن حل المساء استدعى الوجهاء والأعيان بحجة التشاور معهم فى أمر ما سيخلع من خلع ، وأظهر الأمر السامى الذى تلقاه سرا من حضرته بشأن مطالبة كل منهم برأس ضيفه . [١١-ب]

وحيثما أميط اللثام على أن تلك هى أوامر أمين المناجم ، استجاب لها الأهالى الطيبون عن طيب خاطر ، وصدع كل منهم بما أمر به أن يصدع ، ثم مضى كل واحد منهم إلى داره حتى إذا حل نصف الليل شرع ينفذ مهمته ودون أن يشعر ضيفه العزيز وهو فى نوم الغفلة . وفى غضون ساعتين أو ثلاث ، وبسهولة ويسر شهروا سيوفهم البتارة وأعملوها فى رقاب ضيوفهم ، وأرسلوا ما يزيد عن مائة رأس إلى مقر المحافظ ، فأرسلها مع (معروضات) البشرى إلى حضرته فى (كبان معدن) ، فأرسلها بدوره إلى الباب العالى مرفقة بتقرير عن كيفية

استتصال شأفة الطائفة المذكورة ؛ فأنعم عليه بـلقب (خوجه) وقبض
له راتباً من المصرف السلطاني .

وبفضل تلك التدابير الصائبة لم يسمع بنزول أى بغى أو ضرر
بسكان البلاد من قبل العشيرة المذكورة لسنوات عدة . وعندما شرعوا
يجترعون على أعمال السطو والسرقه ، [١٢ - ١] مضى إليهم حضرته
بنفسه على رأس حشد من جنده لتأديبهم والتتكيل بهم ، فأخضعهم
وأدخلهم فى دائرة الطاعة لعدة سنوات أخرى .
وسوف نفصل القول فى الفصول الآتية عما أذاقهم من القهر والتتكيل .

واقعة عشيرة رشوان وتأديب مجرمي حصن منصور

منذ أمد طويل ويجرى تعيين (خصاصكى) لأمهات السلاطين
العدول (يرّده الله مضاجعهم إلى يوم الدين) . غير أن الوالدة المساجدة
للسلطان عبد الحميد خان — ساكن الجنان عليه الرحمة والغفران — كانت
قد توفيت قبل تربعه على عرش السلطنة ؛ ولذلك أنعم بمقاطعة
(حصن المنصور) على (رشوان زاده سيد عمر باشا) — من المير
ميران — يتصرف فيها وكأنها ملكاً له . وفى تلك الأثناء اعتلى حضرة
سليم خان عرش الدولة ، وعندئذ سحبت المقاطعة المذكورة من رشوان
زاده ، وتم تعيين (خاصكى) لإكليل المحصنات وتاج المخدرات والدة
السلطان .

وعندما أحيلت أزمة أمور المقاطعة إلى أمين المناجم السلطانية (حضرته) ، وجه متسلما إلى حصن منصور وهو الذى يعرف كذلك بـ حصن بنى رشوان ، وأمر أغا منهم عليهم وجعله ينبه عليهم ، واستعجلهم لاستيفاء الضرائب الواجبة قبل أوانها بفترة ؛ [١٢ - ب] إلا أنه بسبب رخاوة متسلم المقاطعة المذكورة - من بنى رشوان - وما به من جبن متأصل فى طبعه ، وتقاعسه عن تأديب الأشقياء ؛ تراكت فى ذمته أموال (الميرى) ، وركن إلى المظل والتسويق عند سداد تلك الأموال ؛ تماما مثلما كان يحدث فى زمن عمر باشا .

فضلا عن هذا فقد تفاقمّت تعديات بنى رشوان على السابلة فى المنطقة من مشتاهم على سواحل نهر الفرات وحتى مصيفهم فى جبال (جبّيت جمن) ، وزادت عن الحد ؛ ومن ثم أصبح من اللازم تأديبهم والأخذ على أيديهم ؛ فنهض حضرته بجيش جرار من المشاة والفرسان وخرج من (كبان) وضرب الفسطاط عند قلعة (آعجه) بجوار (آلاجه خان) ، وحصر العشيرة المذكورة وضيق عليها فى جهات شتى ، واستوفى منها ما تراكم عندها من أموال الميرى [١٣ - ١] ، وأدب الأشقياء ومزقهم كل ممزق ، ثم عاد أدراجه منصورا إلى (كبان) .

وعلى الرغم من أنه كان قد نصب أحد رؤساء (التوفكجية) يدعى (خيررتلى أوغلو محمد) متسلما على حصن منصور - على نحو ما ذكرنا آنفا - فقد خرج الأهالى المذكورون كذلك فى وقت حكومة رشوان زاده من دائرة الطاعة ، واستشرى بغيهم وفسادهم بحيث أصبح لهم دأب على طرد متسلم كل شهرين أو ثلاثة ؛ ولذلك خرجت شرذمة من

الأشقياء على المتسلم المذكور تبغى طرده ، فبرز لهم لردهم ، فتكاثر
 عليه الأراذل حتى غلبوا عليه، وصرعوه فى نفر من خدمه .
 وعندما نمت تلك الأنباء المؤسفة إلى حضرته ، استشاط غضبا
 واتقد حمية ، فحشد كثيرا من المشاة والفرسان من شتى الأنحاء ، إضافة
 إلى صنوف جنده وخرج من (كبان) يريد القضاء المذكور ؛ فاستحوذ
 الرعب على الأشقياء وتزلزلت أركانهم ، وتفرقوا تاركين أهلهم وديارهم ،
 ولانوا بجبال الأكراد للنجاة برعوسهم . وطوى حضرته المنازل ، ودخل
 حصن منصور ، وأنزل العقاب بالمدعو (كل حسين) ، [١٣-ب] وسافر
 المقبوض عليهم من الأشقياء الذين اختبئوا فى الزوايا والأركان ، ثم
 ساق جنده كذلك إلى جهات شتى لملاحقة الفارين ، وظفر بمعظمهم ،
 وأعمل السيف فيهم ، وشئت شمل العشيرة وأشقيائها، وأرسى النظام،
 وأقر الأمن فى تلك الجهات ، وعاد إلى (كبان) بعد أن نصب متسلما
 كفنا عليها .

توجيه لواء ملاطيا إلى حضرته

منذ مئات السنين ولواء (ملاطيا) فى حوزة بنى رشوان ،
 وبينما كان هذا اللواء فى حوزة عمر باشا زاده أدركه الأجل ولم يكن له
 ولد من صلبه . ولأنه لم يكن قد أعقب سوى حفيد فى الخامسة من العمر
 يدعى عبد الرحمن بك وابن أخ مخبول ؛ فإتته بعد وفاة عمر باشا جاء
 ابن أخيه هذا ببعض التصرفات الخرقاء والأفاعيل المستفححات ، وادعى
 أن لواء ملاطيا ملكا لذرية عائلته منذ القدم ، وأن أزمة أموره حكر على

أفراد أسرته يتوارثونها أبا عن جد ولم يبال قط بالتماس التكليف من الدولة العلية ، [١٤-١] وقام باستخدام عددا من أتباع عمه وأشيعاه وشرذمة من رعايا العشائر ممن فسدت ضمائرهم وساعت سيرتهم .
وملك ابن الأخ هذا السفينة اللواء المذكور وترسم خطى آبائه وأجداده ، وأرسل المتسلمين إلى أفضية ملاطيا ، وكركر ، وشيرو .

وعندما نما إلى الباب العالي ادعاؤه الاستقلال وسطر أوضاعه الغربية والشاذة تلك ، أخطر حضرته سرا باتجاه النية نحو إسناد لواء (ملاطيا) إليه وتكليفه بطرد الأمير المذكور والقضاء عليه .

ورغم أنه كان من السهل أن يخرج إليه (حضرته) ، ويطرده من اللواء بقوة الساعد ، ويمحو اسمه من سجل الزمان ، فإن ذلك — على أية حال — كان من شأنه إلحاق الأذى بسكان البلاد إذا ما حدث وخرج هو الآخر بجنده ؛ وعليه اقترح حضرته على أولى الأمر أن يرسل (كتخدا باب) عم الأمير المتوفى أمرا إلى المير المذكور يكون مضمونه : " إن إسناد لواء ملاطيا إلى بنى رشوان أمر غنى عن الجدال . ولوفاة عمك ينبغي على أية حال إسناد ذلك اللواء إليك دون داع لالتماس ذلك من الدولة العلية (أدامها الله) . [١٤-ب] ولدى مجيئك بقدر من المال سوف ينعم عليك برتبة (مير ميران) ، ويسند إليك اللواء المذكور ، وربما صدر بشأنك العديد والعديد من التوصيات ."

وأخبرهم أنه لما كان المير المذكور أبله محصور التفكير ؛ فأنه سوف يطير إلى الباب العالي ولن يخامرهم الشك قط . وعليه وبمنة الله تدفع غائلته ، ويعتقل في سجن (باش باقى قولى) أغا ، ويصادر المبلغ الذى

فى حوزته لتغطية الديون الميرية التى تراكمت فى ذمته ، ويكون الأمر فيه لأولى الأمر .

وقد سرت الأمور على النحو المراد لها ، ووصل الأمير المذكور على جناح السرعة فتم اعتقاله فى سجن (باش باقى قولى) أعانم أسندت ملحقات لواء ملاطيا ومشتملاته إلى حضرته ، وأطلقت يده فى كل أمور تلك الجهات ، كبيرها وصغيرها ، وعلى الفور نصب حفيد عمر باشا عبد الرحمن بك على (بهسنى) وأرسل المتسلمين الأكفاء إلى نواحى كركر ، [١٥ - ١] وشيرو ومضى بنفسه إلى ملاطيا ونزل بمصيف (أسبوزي) .

ولما علم أن أهالى لواء ملاطيا ازدادوا عتوا واستكبارا وأقدموا على كثير من الفواحش والمنكرات عندما توفى رشوان زاده ؛ قام — لإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعى — بإعدام المدعو (قيرجه دلى أغلو دلى حسين) — من أهل الفساد الذى كان قد تجرأ على ارتكاب الكثير من أعمال الظلم والعدوان وادعى تفرده بين أعيان اللواء ، وقتل كذلك عددا من مثيرى الشعب والقلق فى البلاد من الأكراد فاسدى الخلق ؛ وبذلك أقر الأمن والأمان فى البلاد وحقق الرفاهية للعباد .

توجيه رتبة الوزارة السامية وإيالة ديار بكر إلى حضرته

بعد مدة من قدوم حضرته اللواء المذكور ، صدرت الأوامر السنية من الخليفة الأعظم بمنحه رتبة الوزارة السامية وهى أرفع

وأسمى الرتب ، وكان ذلك باعثاً على ابتهاج السامعين وسبباً لسرور الناس أجمعين .

[١٥-ب] وحزن حضرته غاية الحزن لابنائه بضوضاء الدنيا واستنكف من تحمل وزر الوزارة الثقيل الذى ليس بوسع بشر أن يتحملة فى يومنا هذا ليوم واحد . غير أنه صدع بمنطوق الأمر السلطاني ؛ إذ إن طاعة أولى الأمر من طاعة الله .

وعلى الفور استناب رجلا أهل كفاية واقتدار ، ووجه به إلى ديار بكر ، ولما لم يأت الإيالة المذكورة — منذ زمن بعيد — وال مقتدر على تخويفها وإرهابها؛ فقد خرجت أغلبية تلك الجهات عن دائرة الطاعة وتعاضم البغى والفساد فيها حتى بلغ غاية الغايات ؛ ولذلك أرسل حضرته (الحاج على أغا) — رئيس الأدلاء — فى حشد من الجند إلى تلك الجهات ، فقمع أشقيائها فى عدد من المواضع ، وأخضعهم ، وأدخلهم جميعاً فى دائرة الطاعة والاتقياد .

واستكمل حضرته الأسباب اللازمة لإقرار الأمن فى البلاد وأخضع ألوية مثل هانى وترجيل وأطاق وجسقه وجباقجور وهى التى لم يفلح أسلافه من الوزراء فى إخضاعها والسيطرة عليها .

[١٦-١] وعلاوة على هذا بسط هيبة الحكومة وهيمنتها — بقدر الكفاية — على أفضية مثل جزيرة ابن عمر ، وحذو ، وأسعر ، والقرى الموجودة داخل بايزيد والتى فهم من السجلات العتيقة ، وسمع من الناس أنها تابعة لديار بكر . واستدعى كبار بكواتها وأعيانها . ومضى بحق الحق ، ويقيم العدل فى الناس ، ويحكم بالقسط.

ظهور منجم (توفيق) في جبال أكراد (ملوكا نلو) وقمعهم

كان تفكير حضرته وأكبر همه موجه إلى دعم بيت المسلمين والتفاني في خدمة الدولة العلية ؛ لذلك بث المعدنين العسافرين بأحوال المناجم في شتى الجهات التي يشتبه وجود خام المعدن فيها ، وأنفق أموالا طائلة على حفر الغيران .

ولم يزل هؤلاء ينقبون ويفتشون حتى علموا بوجود غار لخام المعدن داخل الجبال التي يسكنها أكراد (ملوكا نلو) فأرسل في التو والحال عددا من المعدنين الذين يعرفون خام المعدن ، مع مباشرين أقوياء إلى تلك الجهات ، وأحضروا عدة أحمال من خام المعدن ، ولدى فحصها من قبل مهرة المعدنين تبين أنها ليست خام فضة ، واستدل على وجود الذهب فيها ، ونصبوا الموقد في الحضرة السنية لضيا باشا وقاموا بصهر الخام . ورغم أنه لم يتضح كنه ذلك المعدن كلية ، إلا أنه كان يثق في احتوائه على الذهب بوفرة . [١٦ - ب] وعليه رفع الأمر إلى الباب العالي ، وسمى المنجم بـ (منجم توفيق) ، وصدرت الأوامر السلطانية بإلحاق المنجم المذكور وإدارته بـ (كبان) وإسناده أيضا إلى حضرته ، فبذل جهده وطاقته في تشغيله .

ولوقوع المنجم المذكور في بقاع مستدودة المسالك ، كثيرة المهالك في الجبال التي يسكنها أكراد (ملوكا نلو) ، سأل في الذكر ، وخروج هؤلاء عن جادة الطاعة والانقياد منذ أكثر من خمسين عاما ، وقطعهم طريق الغدادي والرائح في تلك الجهات ؛ فقد لزم استئصال

شألتهم لتشغيل المنجم المذكور والاستفادة منه ، فحشد حضرته الجند من شتى الجهات والنواحي وأعد العدة من آلات الحرب اللازمة وخرج إلى العشيرة المذكورة وهاجمها ببضع من كتائبه وألقى الرعب في قلوب أشقيائها وقتل منهم الكثير فيما وقع معهم من معارك .

[١٧ - ١] ولما لم يعد لهم طاقة على الصمود والمقاومة استأمنوا على أنفسهم وألقوا أسلحتهم في الفسطاط الآصفي لحضرته ورجوا عفوهُ والتمسوا صفحهُ ، فلجأهم إلى ملتسمهم عملاً بقول : " العفو زكاة الظفر " وأخذ عليهم تعهداً بعدم عصيانهم وانحرافهم عن جادة الطاعة والالتقياد قط . ونصب على منجم (توفيق) أميناً أهل دراية كفاية ، وعدداً من مهرة المعدنين لتشغيل الأفران ، كما عين أميراً على العشيرة المذكورة واستكمل أسباب تشغيل المنجم ، ثم عاد إلى (كبان) وقد أقر الأمن في تلك الجهات بحيث بات بمقدور أي أحد الطواف أعزل بلا رفيق ولا مرشد في الموضع الممتد من بوابة حلب حتى سواحل (سيواس) — الذي يقدر بعشرين مرحلة — دون أن يمسه سوء .

إلحاق أماتة (كمشخانهُ) بـ (كبان) وقمع أوجنجى زاده

إن ما بذله حضرته المشار إليه من جهد جهيد في ضبط أمور البلاد ، وتوفير الأمن والراحة للرعية ، [١٧ - ب] وما صرفه من سعى وحماس في أعمال المناجم ، فلاق جهد أسلافه بمراحل كثيرة ؛ ولذلك فقد صدر الأمر بإلحاق أماتة مناجم (كمشخانهُ) كذلك بـ (كبان) وإسنادها

إلى عهده الآصفية . وعلى الفور نصب أمينا كفلا قادرا على أعمال المناجم ، مقتدرا على ضبط أمور البلاد وربطها ، وزوده بالسلاح الكافي ، ولقته بالوصايا اللازمة ، وأنفذه إلى جهة مهمته ، وأرسل معه كذلك قدرا كافيا من جند المشاة .

وصل الأمين السابق ذكره إلى كمشخانه ، واشتغل بأعمال التعدين ، ولم يكن هناك من يخالف أوامره ، ويقف في سبيل رأيه وتدبيره إلا شقى يقال له (أوجنجى أوغلو) كان قد طغى وتجبر ورفع راية العصيان في قضاء (طرول) الملاصق لـ (كمشخانه) منذ سنوات عدة .

وكان ذلك الشقى قد بنى حصنا حديديا يشبه القلعة ، وظل فترة طويلة يتمرد على أمراء كمشخانه . وكان قد غلب على زعماء القبائل من حوله ؛ وبرغم عدم تجاسره على إساءة معاملة أمين كمشخانه المذكور — كما كان شأنه مع أسلافه — لم يلبث أن عاد إلى سيرته الأولى .

وعندما نما ذلك إلى حضرته ، أرسل إليه ينتهره ، ويوبخه ، فوجه (أوجنجى أوغلو) ابنه — وكان طفلا في العاشرة — إلى (كبان) محملا بالهدايا اللينة ؛ وذلك لالتماس العفو ، [١٨-١] وطلب الصفح عما سلف من زلات . فأعاد حضرته هذا الصبى إلى والده حاملا رسالة ترهيب ونصح يقول فيها :

" اعلم أنني قد تجاوزت عما سلف من سيئاتك حتى تلك اللحظة ، لكن إذا ما حدث أن صدرت منك زلة أخرى فاعلم أن حديثي معك من بعد ، بالسيف والسنان لا باللسان " .

وإن يكن الشقي المذكور قد انصرف عن إساءة معاملته أمين
كمشخاله ، إلا أنه لم يكن يتورع عن ظلم الناس والعصف بهم . ولما
صار لزاما قمعه — بأى شكل من الأشكال — ساق حضرته كتخداه عدى
بك فى كثرة من الفرسان والمشاة والعتاد الحربى إلى تلك الجهات ،
وأرسل فى معيتهم كذلك أمين كمشخاله ، وأعيانها ، وأغواتها .
وعندئذ استدل (أوجنجى أوغلو) اللعين على أحوال الغد من
مرآة اليوم ، فأخذ عياله وفر صوب بعض (الدره بكوات) فى جبال
(جانيك) مستجيرا بهم ، [١٨-ب] وأبقى ابن أخته فى داخل الحصن
فى عدة ملات من المشاة .

وصل عدى بك بمن معه وحاصروا الحصن المذكور ودكوه دكاً
بقذائف مدافعهم ، ودام القتال سبعة أيام بلياليها . ولما بات محالاً على
الشقى المحصور داخل الحصن الصمود والمقاومة ؛ خرج هارباً تحت جنح
الظلام وأرسل عدى بك خمسين من رعوس القتلى من الأشقياء إلى
حضرته فى كبان . وبعد أن سوى الحصن بالتراب بما صبه عليه من
قذائف مدفعيته أخذ تعهداً على أهل المنطقة بعدم إدخال (أوجنجى أوغلو)
إلى قضاء (طرول) ثانية ، فأعاد بذلك النظام وأصلح الأمور بعد
فسادها ، ثم عاد منصوراً إلى (كبان) .

توجيه إيالة أرضروم إلى حضرته ومغادرته (كبان) بعد عدة أشهر

بعد أن سقطت الدولة الصفوية فى إيران شملتها الفتن والاضطرابات ، وهذا مدون على وجه التفصيل فى سجلات وقائع الدولة العلية. [١٩ - ١]

وفى النهاية تحلق الأمن والاستقرار فى ذلك القطر على عهد (زند كريم خان) الذى تولى مقاليد الحكم فى إيران إثر تغلبه على منافسيه. ولما توفى زند خان هذا اختلت الأمور فى إيران مجددا وأدركتها الفتن والقلق وظهر فى كل إيالة من إيالاتها طائفة يدعى الاستقلال، وأصبحت الخطة الإيرانية نهبا للفوضى والقلق .

وفى نهاية الأمر غلب المدعو (خدام آغا محمد خان) على نواحى دليز غنر وآستان استر أباد وطهران وبسط سيطرته على مازندران ثم أصفهان المعروفة بـ (عراق العجم) ، وحارب (ابن صادق خان) ، نجل زند كريم خان ، أقوى ملوك إيران قاطبة ، وحاصره، وضيق عليه الخناق فى قلعة (كرمان) وتمادى فى إذلاله والزراية به ، فامتد الحصار سنوات ثلاث فى اتصال ودوام.

وفى النهاية هزم (خدام محمد خان) ابن صادق خان (طائفة الزندية) وأبادهم عن آخرهم وغلب بذلك على ديار فارس ، وتنكر لأعدائه ، واستبد برأيه ، وانتهب أموال خانات البلاد التى ملكها واستقل بالملك ، ثم حدثته نفسه ودخله الطمع للسيطرة على بقية إيران حتى آرزى أن يملك كورجستان فلبس التاج الملكى فى صحراء (أردبيل) ،

وحمل خانات إيران على الاعتراف به شاه مستقلا على إيران ،
[١٩-ب] ثم عهد لابن أخته سليمان خان بإخضاع آرزنجان ، وساق
معه جيشا جرارا من خمسين أو ستين ألف مقاتل ، وانطلق هو الآخر
على رأس جيش من مائة ألف للاستيلاء على (كنجه) و(تفليس) .

ولأن تحركات أغا محمد خان بشت الرعب والفزع فى ديار
(آرزنجان) بأكملها ، و(كورجستان) ، و(طاغستان) ؛ تحالف خانات
شوش ، وكنجه ، وبعض خانات طاغستان مع عركيل خان
(خان تفليس). ومن جهة أخرى تعضد كل واحد من خانات (روان) ،
(خون) ، و(روميه) ، و(مراغه) ، و(تبريز) ، و(نخجوان) ، و(قره داغ)
مع بعضهم البعض .

وفى الوقت الذى كان فيه كل منهم مستعدا فى ميدانه ، دخل
القلاد سليمان خان آذربيجان واجتاح بنهب ويدمر كل ما يصادفه ، ولم
يكن لأحد من الخانات المشار إليهم قبل بره ؛ فتبعثروا فى طرفه عين ،
[٢٠-١] وأسرع كل منهم إلى إبالته للدفاع عن قلعته ، فتقدم القائد
سليمان لحصار نخجوان دون عناء . وعلى الفور استطاع فى غضون
يوم أو يومين إخراج متصرفها (كلب على خان) مستسلما وألحقه
بخدمته وبعد أن نصب سليمان خان على نخجوان خانا قويا ذا بأس ،
شرع يحاصر قلعة (روان) ، ويشدد عليها الحصار ليل نهار ، فاستمات
فجر محمد خان وطائفة روان ، ولم يفتروا عن الصمود والمقاومة طيلة
ثلاث عشرة يوما . ورغم هذا لم يعد بمقدورهم التصدى لرماء البنادق ،
بأى حال من الأحوال ، فاستأمنوا على أرواحهم ، وسلموا القلعة لقاء
تأمينهم على أنفسهم .

ولقد زلزلت أحداث (نخجوان) ، و (روان) الأرض من تحت
أقدام سائر الخانات ، وبثت الرعب في قلوبهم ؛ فلم يسعهم إلا الاتقياد
للخان المشار إليه وتسليم مفاتيح قلاعهم وبلادهم له .

واجتاز أغا محمد وجنده سفاكو الدماء صحراء مغان مارين
بطريق (بردع) بـ (طاغستان) وغلبوا على قلعة كنجه وعندما بدأوا
يتخذون الأهبة لتدمير تفليس ، عمد عركيل خان إلى المقاومة ، غير
أنهم تكاثروا عليه ، فاضطر إلى الفرار بأولاده إلى قلعة (كاخت) .
ودخل محمد خان وجيشه تفليس وعاثوا فيها نهباً وتخريباً ، [٢٠ - ب]
وأعملوا سيوفهم في سبعين ألفاً من أهلها ، وسبوا نحو سبعين ألفاً
آخرين من نساءهم وذرياتهم ، كما انتهبوا أموالهم وحواصلهم ودمروا
دورهم وسووها بالتراب ؛ فغدت أعشاشاً لليوم والغربان .

ورأى أهالي تفليس خراب بلدتهم بحيث أصبح ينطبق عليها قول :

وبلدة ليس بها أنيس

إلا اليعاقير وإلا العريس

فرحلوا عنها إلى مشتى مغان وهي صحراء مترامية الأطراف على بحيرة
كوكجة .

وعلى نحو ما سلف ببيان زحف محمد خان من طهران قاصداً
آذربيجان . وفي تلك الأيام ارتاعت الخلائق واستبد بهم الخوف والفرع ،
فالتجأ ما يزيد عن ثلاثين ألف أسرة إلى الثغور العثمانية ، وعندما
اجتازوا بحيرة (آرية) إلى بيروقه طلبا للأمان أرسل سكان الثغور إلى
السلطنة السنية يستجيريون بها ويناشدونها المساعدة . [٢١ - ١] وعليه
تحتم إرسال وزير همام مقدم إلى الطرف الشرقي واليا على أرضروم ،

فكر رجال الدولة وأولو الرأي والمشورة فى كل وزراء الأتاضول ،
وبرزنوا كفايتهم وقوموا معدنهم ؛ فلم يجدوا شخصا قادرا على رتق هذه
الثلمة سوى أمين المناجم السلطانية الوزير الشجاع حضرته ؛ فصرفت
إيالة ديار بكر من عهده السنية وأسندت إليه إيالة أرضروم .

ولما كانت الأوامر قد صدرت إليه بالتحرك إلى جهة أرضروم
بعده وعتاد قويين يرهب بهما محمد خان ؛ [٢١-ب] انطلق حضرته
من (كيان) بجيش جرار عدته سبعة أو ثمانية آلاف من الجند
المخصصين للمناجم السلطانية ، علاوة على ألف وخمسمائة من
(الديوانكسان) وخمسمائة من (التوفكجية) وصفوة من أغوات
(الأندرون) ، و(البيرون) ، وبث المهابة عن يمينه وعن شماله مارا
بشرق قره حصار ، وآرزنجان ، وترجان ، ثم قطع المراحل وطوى
المنازل ودخل أرضروم فى موكب حافل ، ونزل بالقصر الخاص بالولاية .

ويسبب صدور بعض الأحوال غير اللائقة من الحاج عبد
الرحمن أفندى مفتى أرضروم الذى يتحدث من سلالة مفتى أرضروم منذ
زمن بعيد ، تسببت فى إثارة البلبلة والقلق فى البلاد ، تحتم تأديب
الأفندى المذكور فنفاه حضرته إلى كيان ، وعاقب كذلك عددا من أهل
البلاد .

وقبل ذلك عندما كانت تأتي أوامر رسوم الوبر والصوف والقطن
لم يكن الولاية الكرام السابقون يجسرون على إظهارها خوفا من الفتنة .
ولم تزل هذه الأوامر فى طى الكتمان حتى فتحها حضرته وقرأها على
رعوس الأشهاد وأشاع منطوقها الجليل خارج أرضروم ودخلها ، وأمر
بتحصيل الرسوم المطلوبة ، جديدها وقديمها . [٢٢-١]

وأخذاً للحيلة في أمر حملة الثغور الشرقية في أزمنة الفتنة في إيران ، صدرت أوامر جليلة إلى ولاية جلدز ووان وقارص مضمونها :
 " إنه علاوة على أن ولاية أرضروم كانوا في جميع الأزمنة بمثابة (سر عسكر) للثغور الشرقية فإن وزير أرضروم سمير المكارم لا يضاهي ولا يساوي بسائر الوزراء . ولما كانت شفاعته وشهادته مقبولة ومؤثرة في تلك الجهات ؛ فإنه يجب على أولئك الولاية رفع كافة أمورهم كبيرها وصغيرها - التي يرفعونها إلى الباب العالي - إليه ، وعليهم معاملته كـ (سر عسكر) في كل الأمور ، وهم مسئولون أمامه عن كافة الموضوعات المتعلقة بالثغور الشرقية للدولة . " وعلاوة على التنبيه عليهم بذلك ، وضعت كافة أمراء أرضروم وديار بكر ومرعش وأهلها تحت إمرته .

وبنى حضرته داراً لصناعة المدافع الخاصة بأرضروم من صلب ماله ، وأحصى عدد مخازن المؤن والذخيرة في قلاع الثغور الشرقية .
 وبنى مخزناً ضخماً للغلال في قلعة قارص وابتاع كميات وفيرة من الغلال [٢٢-ب] لذلك المخزن وبقي المخازن ؛ فهي المؤن وعمر الثغور الشرقية من أدناها إلى أقصاها .

تأديب شاه حسين أوغلو (من أشقياء أكراد الديسميين)

عندما أسندت إيالة ديار بكر إلى حضرته — على نحو ما تقدم — خرج الزعماء وأصحاب التيمارات وكافة من ينضوى تحت لواء طائفة البكوات من ديار بكر .

وبينما كانوا قادمين إلى أرضروم نزلوا بقرية أرمنية فى سفح جبل كشمير تسمى (مكان) . وفى تلك الليلة وبسبب العداء القديم الذى كان مستحكما بين المدعو شاه حسين أوغلو — من أشقياء أكراد الديسميين — ويازيجى أوغلو محمد بك — حاكم (كيغى) ، وكون تلك القرية فى عهدة الأمير المذكور ؛ داهمها شاه حسين أوغلو بعدة منات من الأوباش ، وبادر أهل الإيالة ، دون أن يعرفوا حقيقة الأمر ، إلى صدهم وقتالهم . وفى أثناء القتال الذى استمر ساعة أو ساعتين هلك عدد من سفهاء الأكراد ؛ غير أنه حدث أن استشهد (يازيجى أوغلو محمد بك) فى نفر من رجاله . ولما علم الأكراد بذلك، انسحبوا إلى ديارهم. [٢٣-١]

ولما نما إلى حضرته نبأ ارتكاب الأكراد — خبيثي الطبع — لمثل هذه الجرائم البشعة ؛ أرسل على الفور إليهم ولى باشا متصرف منكر وأنفذ معه حشدا من الديوانكان واللاز ومقدارا من أغوات (البيرون) ، فشتتوا شمل أسرة الشقى المذكور ، وقتلوا نحو خمسين من رجاله وعادوا منصورين مظفرين إلى أرضروم ، وظفر ولى باشا بارتداء الخلعة من ضيا باشا .

توجيه إيالة جلدر إلى حضرته وإخراج شريف باشا من آخسخه

عندما توفي سليمان باشا - الوالي المستبد في إيالة جلدر - منذ أكثر من عشرين عاما ، أسندت الإيالة مجدداً إلى اسحق باشا ابن المرحوم حسن باشا - من أعرق عائلات آخسخه - [٢٣-ب] فقدم جلدر وعندما دخلها أساء معاملته شريف بك بن سليمان باشا (من رؤساء يواي الباب العالي) ؛ فخرج شريف بك إلى (ألوانه) مسقط رأس آباه وأجداده منذ أمد بعيد . وبعد أن مكث بها أياما التفت حوله شزيمة من أسافل الناس وأراذلهم .

أما كافة أمراء جلدر وبكواتها فقد زعموا أنهم عبيد سليمان باشا ، وأنه هو الذي اشتراهم بذهبه وأغدق عليهم من إحسانه ، فشايعوا شريف بك وأزروه ، وهاجموا (آخسخه) يريدون طرد اسحق باشا منها ، وكان المشار إليه وزيراً سيئ التدبير ، محصور التفكير لا يفرق بين الأرض والسماء لا يحذو حذو أسلافه من الوزراء الكرام ، فلم يكن له قبل بمقاومتهم - بأي شكل من الأشكال - ولاذ بالفرار إلى قصبة (أولطو) ، فتعقبه شريف بك ، فلم يصمد له كذلك . وبادر شريف بك إلى الاستيلاء على جلدر ، وغلب عليها بلا مقاومة ، وتجاوز على إدارة دفة الحكم فيها من تلقاء نفسه ، ثم أخذ يتقرب ويتذلل لتوجيه إيالة جلدر ورتبة الوزارة إليه بإرسال (المعروضات) إلى الباب العالي من كافة الأقضية .

ولما كانت شوائل الحروب العثمانية ظاهرة في ذلك التاريخ ؛ فقد أحييت الإيالة المذكورة إلى شريف بك ومنح رتبة الوزارة ؛ وذلك بما يتفق مع مصلحة الدولة .

غير أن شريف باشا اعتقد أنه حصل على رتبة الوزارة بمساعدة الأهالي ، [٢٤-١] ولم يعبأ بأي حال من الأحوال بكسب رضا الدولة العلية وتفاعس عن إرسال الأموال الميريّة ، وصدر منه الكثير من التصرفات الحمقاء التي استوجبت إخراجها من جلد ، وإبعاده عنها بمنحه منصب في بلاد قصية .

ولما كان واضحاً أنه لن يفارق جلد بالحسنى ، ولا يوجد وال قوى الشكيمة قادر على إخراجها منها عنوة فقد أُرْجئ تنفيذ ذلك إلى الوقت المناسب .

ولما شاعت الأنباء باعتزام أغا محمد خان الخروج من صحواء مغان وقدم كورجستان ، لم يكن حضرته قد ولى أرضروم بعد . ولما علم أغا محمد خان أن أبناء تيمور شاه — الذين استحوذوا على مقاليد الحكم في نواحي خراسان — قد تخطوا بعض حدوده ، خرج من مشتاه في مغان سريعا متجها إلى خراسان .

ولما وصل نبأ ذلك إلى الباب العالي كان قد أظف وقت قمع شريف باشا ؛ [٢٤-ب] فورد كتاب من الصدر الأعظم إلى حضرته مع اثنين من السعاة ، جاء فيه : " إنه بسبب حداثة والى جلد شريف باشا وصغر سنه لم يفتر عن تصرفاته الطائشة والمخالفة لرضاء الباب العالي ؛ لذلك صدرت الأوامر الجليلة بإحالة إيالة جلد إلى عهدتك الآصفية . وإذا حدث أن عمد شريف باشا إلى العناد والمخالفة ؛ فسوف

يصدر الأمر السلطاني بقتله ؛ ولذا عليك الإسراع بالكتابة إلى الباب العالي عن التدابير الصائبة اللازمة لتنفيذ الأمر السلطاني "

ولما بلغ ذلك حضرته ، كتب إلى الباب العالي يقول : " لما كان واضحا أن شريف باشا يرتبط بعلاق الود والألفة بأهالي إيالة جلدرد وبعض خانات طاغستان المجاورين له ، فإنه حالما يمر بسمعه أنه سيعزل ويبعد عن الإيالة المذكورة ؛ سوف يحشد أمراء الألوية وطوائف اللاز ، فيستفحل أمره وتقوى شوكته .

ولما كانت نواحي آخسخه جبال شاهقة وأدغال منيعة صعبة المسالك ؛ فبديهي أن يكون اجتيازها من العسير ، وعليه فحتى لو صدرت الأوامر بإسناد إيالة جلدرد إلى شخص آخر ، ومنح شريف باشا منصبا في إيالة قضية . فإنه على أية حال ، سوف توجه إليه أوامر التكليف خطاباً ، [٢٥ - ١] فإذا امتنع عن المضي إلى منصبه في الإيالة ينبغي إرسال أمر عال للقضاء عليه واستئصاله إلى الأمراء كل على حده ، وإذا ما أشعرت متصرف قارص نعمان باشا - من الميرميران - وأمراء الألوية ، وأرسلت إلي أوامر زحفهم سرا وبعثت الجند إلى آخسخه وشريف باشا في غفلة من أمره ، فسوف يحاصرونه ويضيقون عليه الخناق . ونسأل الله وهاب العطايا التوفيق والسداد " .

وبعد مرور عدة أيام على رسالة حضرته هذه إلى الباب العالي ، صدرت الأوامر بإلحاق إيالة جلدرد بعهدته المشيرية طبقا لما طلب فسي رسالته ، وأرسلت إليه مختومة .

واتفق أنه في ذلك الوقت كان قد كلف أحمد باشا والي سيواسي بالزحف على (ميسلا سلى قره صالح) ، [٢٥ - ب] وتواردت الأنباء

بعودته مكسوراً ؛ فصدر مرسوم قاطع بقهر (قره صالح) والقضاء عليه . ولاشترافي في هذه العملية العسكرية فقد دوت حوادثها .

وعلاوة على جند ضيا باشا الذين كانوا يبلغون نحو خمسة آلاف ، ونحو ألف فارس ، وولى باشا متصرف مجنك وألف من صفوة انكشارية أوجافات أرضروم ومعهم كافة زعماء إيلات أرضروم وديار بكر ومرعش ، صدرت الأوامر لكل من متصرف (بايزيد) اسحق باشا ، [٢٦-١] ومتصرف (موش) مراد باشا ، ويكوات ملازكرد ، وحاكم كيغى ، ومحافظي كمش وكرجاتيس ، وقوربجاي ، وقره حصار ، وآرزنجان ، وباببود ، وترجان ، واسير ، وكالكيد ، وشيران من أجل احتشادهم جميعاً في خلال أربعة أو خمسة أيام في صحراء أرضروم .

وبناءً على ذلك وفي اليوم الخامس من وصول الفرمان العالي إلى ضيا باشا ؛ خرج قاصداً قرية (لوكان) على مسافة ساعة من أرضروم ، وأحضر معه كافة وجهاء أرضروم .

وبعد أن لبثوا ليلة بالقرية المذكورة ، وفي الصباح أوضح حضرته لكل منهم مهمته ، ونصب ولى باشا قائمقاماً على آخسخه وأمره بالتمضي إليها سريعاً وإحكام قبضته عليها ، وسلمه مرسوماً بالبقاء فيها ريثما يصل إليه ، وخلع عليه خلعة القائمقامية وأرسله إلى مهمته .

وفي يوم الخروج من أرضروم ، قدم مراد باشا زاده ميرزا بك في ألف من خيرة الفرسان والكتخدا خليل بك (أشكر) فيما يقرب من خمسمائة من الفرسان ، فبعث بهم حضرته هم والحاج على أغا رئيس الإبداء في معية ولى باشا ، وزود كل منهم بالوصايا اللائقة ، وأرسل

معه خمسة آلاف فارس ، ونصب كذلك كتخذه الحاج إبراهيم أغا قائمقاماً على أرضروم .

وبعد أن دار الحديث بينه وبين كافة الأعيان ، نادى الشاويشية بالتأهب، وتحرك جيش جرار من القرية المذكورة ؛ فامتألت صحراء أرضروم — مترامية الأطراف — بجند بعدد نجوم السماء ، [٢٦-ب] وحطوا الرحال بقرية تسمى (حنث) . وقدم تلك القرية ألف من الجند أرسلهم متصرف بايزيد مع صهره تيمور بك ، وخمسمائة جندي آخرون مع إبراهيم بك ملائيرد ، وفرسان كفي في معية حاكمها ، وخلع على كل منهم خلعة فاخرة حتى فاق أقرانه .

وفي يوم الخروج من قرية (لوكان) ، أرسل الحاج ممش أغا (أغا السلام) إلى دار شريف باشا ، وأنباه بمرسوم سني بإسناد إيالة أدنه إليه ، وصرف إيالة جلدرد منه ، [٢٧-١] وإحاقها بعهدته، وصرح له بأنه إذا ما عمد إلى العناد والستردد فسوف يعامل معاملة أخرى، ومن ناحية أخرى بلغ ولي باشا بجنده قرية (بارنام) قبيل المساء قادمين من قرية (لوكان) ، وبعد أن أطمعوا الجياد ، استمروا في سيرهم ليل نهار حتى بلغوا قلع أر دهان بعد ثلاثة أيام ، فمسكروا بجوارها .

وفيما كانوا على وشك التحرك من المرحلة المرموقة ، عاد أغا السلام من جهة شريف باشا ، واخبر ولي باشا بأن المشار إليه (شريف باشا) لاذ بالفرار في نحو عشرين من خدمه إلى جهة مضيق (كورجى) ومكث في قرية يترقب الأخبار ويلتمس الأمان من الجانب الأصفى . وأوضح له أن توجهه إلى أخسغه سيتسبب في إخافة شريف

باشا وفراره ، وإلحاق الضرر كذلك بسكان البلاد ، وأنه من اللازم عليه أن يمكث في موضعه ريثما يقدم سيده (ضيا باشا) إلى أردهان .
وعندما أنهوا إلى حضرته نبأ طلب شريف باشا الأمان ، حرر في التو والحال مرسوماً لطيفاً يتضمن الأمان ، وأرسله إلى المذكور مع كتخده أحمد أفندي ، من سادة الديوان الهمايوني ، ورئيس الإدلاء السابق ذكره .

وفي اليوم الذي يليه تحرك حضرته بالجيش من قصبه (مامروان) وتوقف بقصبه (أولطو) في ترقيب ورود الخبر من كتخده المشار إليه ، ورئيس الإدلاء ، ووصول الجند المأمورين من ورائهم . ومن بعد طوى حضرته وجنده سناجق (بنك) و (كوله) ، واستقبلتهم قوات ولي باشا ، وبالتقاء الجيشين اكتظ فضاء (أردهان) من أقصاه إلى أقصاه بجيش كالبحر الخضم .

وفي يوم الخروج إلى سنجق (بسقو) ومنه إلى قرية (آلاي) على مسافة ثلاث ساعات من آخسخه ، قدم شريف باشا في نحو مائة من رجاله ، فاستقبله حضرته واساه وطمأن خاطره المحزون ، وهذا من روعه ، وأكرمه غاية الكرم ، وأخبره أنه سوف يجيبه إلى كل ما يطلب ويسعفه بكل ما يريد ، وأعادته إلى قصره الواقع في حديقة على مسافة ساعة من (آخسخه) .

وفي اليوم التالي رتب (ضيا باشا) المواكب صفافاً من الفرسان والمشاة من قرية الموكب حتى آخسخه نفسها ، ودخل آخسخه في جلبة عظيمة وأبهة هائلة وأطلقت المدافع من القلعة حتفاء بقدومه ، ونزل بقصر البكوية الخاص بالأمراء . [٢٨-١]

ولما لم يحمل شريف باشا ولم يسافر إلى أية جهة ، منذ بدء توليه الوزارة وحتى ذلك التاريخ ؛ فقد افتقد أسباب الوزارة ، حتى أنه لم يكن لديه دواب كالفرس والجمال ، ولا (مهتر خاتنه) ، إلى غير ذلك من لوازم الأبهة والعظمة ؛ ومن ثم أرسل إليه حضرته ما يقرب من مائه من الجياد والجمال على سبيل الهدية ، وأبان عن كمال مروعته معه بأن زوده بسائر لوازم السفر والحرب وأسباب الوزارة ، وأرسل إليه كل ذلك إلى (أدنه) خلال عدة أيام وأرسل معها كلاف حتى حدود سيواس كي يهيئ لها الكلفة ، وأمره بأن يوفيه التبجيل والتوقير .

ولعدم الاهتمام بإحقاق الحق حسبما يقتضيه الشرع القويم ، وعدم النظر في الدعاوى على أساس من العدل والنصفة منذ ثلاثين أو أربعين سنة في هذا البلد ؛ فقد أفسح حضرته صدره وألقى سمعه وبصره لدعاوى آلاف من الضعفاء الذين شقوا جيوبهم ، ورفعوا ظلاما تهم إليه ، وفصل في الخصومات على أساس من الحق والعدل ، وبذل وسعه في إعادة النظام إلى نصابه في البلاد .

وبعد أن لبث أربعين يوما تقريبا في البلدة المذكورة ، نصب بك (أرد هان) قائمقاماً عليها . [٢٨-ب] ولدى عودته ، فطن إلى أن جنده - وكانوا كالبحر الخضم - سوف يكونون عبأ على كاهل الرعايا ؛ ولكي يتحاشى ذلك ولكي يستعرض قواته على الحدود الإيرانية ؛ استصوب المرور على قارص . وفي يوم الخروج من (آخسخه) نقل الأثقال والأمتعة إلى قلعة (آسبنزه) ومنها إلى قلعة (خير توس) ، ومنها إلى قلعة (آخيل كلك) ، ومنها إلى سنجق (جلدر) ، ثم خرج من السنجق

المذكور قاصدا قضاء (ذار شات) — أحد أقضية قارص — ومنه
 بلغ قرية (كبد) على مسافة ثلاث ساعات من قارص .
 وفى اليوم الذى يليه دخل قارص فى موكب حافل من نحو
 عشرين ألف جندي ، وأطلقت المدافع من القلعة احتفاءا بقدومه ، وامت
 مظاهر الفرح والبهجة ، ونزل بقصر مدرس أفندي .
 وفيما كان حضرته لا يزال باسطا ظلّه على (آخسخه) ،
 أخبرته جماعة من أهالى قارص أن ثمة عشيرة كردية تسمى (كاسكانلو)
 فى الثغر السلطاني ، [٢٩-١] أشقت بظلمها العبيد . ولعدم توارد وال
 مقتدر إلى قارص ؛ لم يقدر أن يقيموا بأى حال من الأحوال ، فاستطالوا
 على الناس وعاثوا فى البلاد فسادا وبلغ طغيانهم غاية الغايات ، وحادوا
 عن جادة الصواب والاستقامة . وعليه وإبان خروجه من آخسخه عين
 رجلا شجاعا يقال له (عرب سليم) — أغا المطوعة — فى ألف من
 صفوة فرسان الديوكان الأشداء ، وساقه لاستئصال العشيرة المذكورة .
 وبعد أن أوصى الجند بالطواف من وراء جبل (صوغانلو) ،
 ومداهمة العشيرة المذكورة ليلا تقدم بسرعة بإرشاد (خاتون أغلو محمد
 بك) — من أغوات (مغازبرد) — وأشعل نار الحرب على ضفة بحيرة
 (آربه) الحد الفاصل بين الأناضول وإيران ، وابتدر أولئك الأفراد
 بالمقابلة . وبعد ساعة أو ساعتين من القتال ، لم يعد لهم قدرة على
 الصمود والمقاومة ؛ فلاذ كل واحد منهم بالفرار إلى جهة ، وقطعت
 رعوس نحو سبعين من أسراهم ، واغتنت أموالهم وحواصلهم وكان
 جزاؤهم من جنس عملهم ، وعندما دخل حضرته قارص ، أقيمت
 الرعوس المقطوعة فى ساحة العقاب ، واستحلب بذلك دعوات الرعايا .

وأقام أربعة أيام في (قارص) نزولا على رجاء متصرفها وعموم أعيانها وأهاليها ، وبذل الصدقات للعلماء والصلحاء والمحتاجين والفقراء ، ثم خرج متجها إلى أرضروم ، [٢٩-ب] وساق جنده طابوا (منكر) وقلعة حسن من جبل (صوغا نلو) ، ودخل أرضروم منصورا مظفرا بعد أن قطع مسافة سبع مراحل ، ونزل بقصر تنشرح له الصدور .

مقتل أغا محمد خان في قلعة شوش

رغم أن وقعة أغا محمد خان لم تكن من وقائع حضرته التي نحن مكلفين بالكتابة عنها ، فإن قدوم الثاني من المناجم السلطانية إلى أرضروم إنما كان أخذًا للحيلة من استفحال أمر الخان المذكور ، وكنا قد بينا إجمالاً فيما مضى كيفية ظهوره واستيلائه على الخطة الإيرانية والآن نسوق الخبر فيما آل إليه أمره وعاقبته الوخيمة .

سبق أن استولى أغا محمد خان على آذربيجان ومشماتاتها كافة ، وخرب تفليس ، ثم قفل إلى صحراء (مغان) ، وأقام في مشتهاه فيها في جماعة من رجاله ، [٣٠-١] وفي مستهل الربيع ذاع الخبر بأنه عازم على غزو كل ممالك كورجستان ، غير أن تدبيره لم يوافق ما قدر العلى القدير ، إذ استولى أبناء تيمور شاه على إقليم خراسان — على حدود (ما زندرانه) — وتخطوها كذلك ، ولما نما نبأ ذلك إلى أغا محمد خان ، لم يطق صبرا ، وخرج من صحراء مغان قاصدا خراسان ونادى بالانفير العام في كل الجهات ؛ فاجتمع له جمع عظيم وجم غفير من الجند

فى زمن يسير ، وانقض على خراسان ، وأخضع أبناء تيمور شاه ثم عاد إلى حاضرة ملكه طهران ومكث بها حتى إذا استهل الربيع اتجه صوب آذربيجان يريد اقتناص كرجستان . وكان أول ما قام به أن بادر إلى حصار قلعة (شوش) وكانت من أمنع حصون الخطة الإيرانية، ولم يأنس محافظها إبراهيم خان فى نفسه القدرة على المقاومة ؛ فأخذ زوجته وأبناءه ولجأ إلى طاغستان وذلك قبل عدة أيام من وصول خادم خان إلى القلعة.

وقدم الخان المذكور وترك جيشه على مسيرة أربع ساعات من القلعة واستولى عليها بعدة منات من فرسانه ، [٣٠ - ب] ودخلها لنهب ما بها من أموال إبراهيم خان وحواصله، فقام اثنان من خواص خدم خادم خان — ببايعاز من صادق خان — بقتله وهو نائم فى فراشه ، وهربا.

ولما كان اعتلاء ولى عهده مسند سلطنة أبيه ، وسائر أحواله خارجا عن نطاق مبحثنا ؛ فقد اكتفينا بهذا القدر.

توجيه إيالة طرابيزون ومحصلية (جانيك)
إلى حضرته وتجركه من أرضروم ، وأحوال الأشقياء

بسبب خروج أسرة المرحوم (جانكلى على باشا) من ديار جانيك وابتعادهم عنها منذ أمد ، ظهر فى كل ركن من أركانها (دره بك) حارب بعضهم بعضا فى اتصال ودوام وأشقوا بذلك الرعية والفقراء ، وبسط كل منهم نفوذه على أحد الأقضية ، وقام مجرم من حثالة الناس

يدعى (كنج مصطفى) ببسط سيطرته على نحو تسعة أفضية تابعة لسيواس كان من أبرزها القضاء المعروف بـ (كول جانيك) ، واستند برأيه وقضى على منافسيه من (الدرر بكوات) واحد بعد الآخر وانفرد بمقاليد الأمور ولما شايعه شقى خبيث الطبع يقال له (انكيزلى على أقره) أبقاه فى قضاء (بافره) .

وعندما أرسل (جديد أحمد أفندى) — من سادة الديوان العالى؛ وكتخذا والدة السلطان السابق — من جهة السلطنة السنوية محصلا للميرى ، طرده الشقى المرقوم علنا وأظهر التمرد والعصيان ؛ [٣١-١] فترتب على ذلك بالضرورة إسناد المحصلية المذكورة إلى (كنج مصطفى) متغافلين عنه مراعاة للظروف والأحداث .

ولما كان حصوله على المحصلية بالقوة على ذلك النحو مؤديا لاغتراره وتبطره ، فإنه علاوة على ازدياد تصرفاته الخرقاء ، تقاعس عن أداء مطلوبات الدولة العلية ، فاستوجب ذلك عزله .

ولما كان القضاء عليه منوطا بوجود شخص حازم ، قوى الشكيمة ، قادر على قمعه . وكانت المحصلية المذكورة قد أحييت بفرمان عال إلى والى أرضروم ، ولزم تعيين محصل كفاء من جهة الباب العالى؛ فقد أرسل حضرته (الحاج ممشأغا) — أغا السلام — فى صفوة من خدمه القدامى . وعندما بلغ الموضع المذكور لم يجرؤ (كنج مصطفى) على طرده مثلما فعل مع سلفه ، واستقبله متظاهرا بالإذعان والانصياع . ورغم هذا لم يسلم زمام الأمور إليه وعاد يستبد بالأمور ويقول للمحصل: "أسددا أنا مال المحصلية إلى حضرة والى أرضروم ، وأبذل جهد طاقتى فى خدمته ، ولا دخل لك بأى شىء ، وأنعم بصفاء البال " .

ورغم أن تصرفه المستبد هذا كان يستوجب قمعه ؛ فقد أجيب إلى طلبه ، وقسم (كنج مصطفى) قره حصار وجاتيك — من ضواحي إيالة أرضروم — بين (الدرہ بكوات) أمثال : (كديك على أوغلو) و (شيخ أوغلو) ، و (دزدار أوغلو) ، و (شيخ أوغلو) ، و (نوح أوغلو) ، [٣١ - ب] كما سيطر (كل على أوغلو) على قضاء (تيره بولى) — من لواحق كمشخانه — وفرض المغارم على أهله كما حلاله .

ولما كانت الأقضية التى سيطر عليها (الدرہ بكوات) المذكورون تدخل فى نطاق الإدارات السنبة لضيا باشا ؛ فقد تحتم القضاء على هؤلاء الطغاة واستئصال شأفتهم ، ولما كان ذلك منوطا بالوقت الشاغر والعتاد القوى ؛ فقد عمد إلى مصانعتهم ومجاراتهم .

وفى تلك الأثناء كان أحد بلوكياشية أحمد آغا — من خاصكية الأوجاق العامر ، ومن أعيان (ألوج آره) من ملحقات قره حصار — مقيما فى عشرة من خدمه فى قلعة حصينة تسمى (قواطه) ، وكسنت تحت إدارة أحمد آغا ، قدم شقى يدعى (دلي على) شقيق الحاج على أوغلو كويبه لى سليمان الذى كان يسكن فى حصن منيع يسمى (ديلكيجك) — على مسافة ثلاث ساعات من القلعة المذكورة — فيما بين أربعين إلى خمسين من رجاله إلى قلعة قواطه على أنهم ضيوف ، وبطريقة ما تأتى لهم دخول القلعة ، وعندئذ أطاحوا بمحافظها ومن معه وسجنوهم فى إحدى الدور ، وبسطوا سيطرتهم على القلعة .

واتفق أن كان أحمد آغا فى تلك الليلة ضيفا فى عدد من رجاله على قرية على مسافة ساعتين من قلعة (قواطه) ، [٣٢ - ١] ولما علم (دلي على) بذلك ، استبقى ما بين خمسة إلى عشرة من رجاله بالقلعة

للحفاظ عليها ، ومضى بالباقيين ، وداهم أحمد أغا على الغفلة وقتله .
ولما ارتفع النهار قدم ما بين مائة إلى مائتين من حثالة الناس من
أطراف القرى التابعة للقتيل ، وقصدوا داره ، وقبضوا على زوجته ،
وفجروا بها ، وبعد أن انتهبوا ما صادفوه من أموال وأمتعة ، أضرموا
النار في الدار وسبوا زوجته ، وبطشوا بأهالي المناطق المجاورة
وعسفوهم .

ولما نمت أنباء ذلك إلى أرضروم اشتد حنق حضرته واشمنزازه
من وقوع مثل هذه الأحوال البشعة ، كما كان القتيل أحمد أغا في أصله
بلوكباشياً في بابه في أرضروم ؛ فلم يقو على الصبر والاحتمال وأرسل
على الفور الحاج على أغا (رئيس الأدلاء) وساق معه مائه وخمسين
من الديوانكان وحشداً من الجند من شتى النواحي إلى قلعة قواطه ،
[٣٢-ب] ولما انتهى إليها الأغا المذكور بمن معه ، أحاطوا بها من
جميع الجهات بما يشبه الهالة ، واستماتوا في القتال ليل نهار . ولعدم
تمكنهم من فتح القلعة ما يقرب من سنة ؛ فقد تضاعفت إمداداتهم مما
أثار قلق كل (الدرہ بکوات) ، فأرسل رئيس الأدلاء إلى حضرته يخبره
بمحاولة (الدرہ بکوات) نجدة الشقى المرقوم ؛ وعليه ومن أجل سد بلب
الإمداد على (دلي علي) ، أنفذ حضرته متصرف مجنكر (ولي باشا) -
من المير میران ... وساق معه نحو ألف من الجند على (كويه لي)
سليمان شقيق (دلي علي) المتحصن في حصن (ديلكيجك) على
الشاطئ الآخر وعلى مسيرة ثلاث ساعات من قواطه ، وساق معه كذلك
أمين كمشخانه (يميني إبراهيم بك) ، وأغوات كافة أقضية كمشخانه
وأعيانها ، وأمره باصطحاب المدافع والعتاد اللازم ؛ فوافى ولي باشا بمن

معه إلى الحصن المذكور وبادروا إلى محاصرته ، ووالوا عليه طلقات مدافعهم وبنادقهم ليل نهار ، واستوفوا الوسع والطاقة في الحصار .

ولما اكتمل حصار قلعة قواطه أربعة عشر شهرا وبسبب امتداد حصار الشقى (دلي علي) ؛ بدأت تنفذ لديه المؤن والذخيرة ؛ ولم يعد له طاقة على المقاومة فيما بعد ؛ [٣٣-١] فلم يلبث أن خرج المحاصرون يستجiron بأفراد الديوانكان المتترسين بالقرب من باب القلعة ويطلبون الأمان ، غير أن استئمانهم هذا لم يعتد به لدى الجند ، وقتل جند الديوانكان ما يزيد عن ثمانين رجلا منهم بالسيوف ، وبسطوا سيطرتهم على القلعة ، وعينوا عليها محافظا شجاعا مقتدرا ، وعرفوه بدقائق أمور القلعة .

واقتضت حكمة الله أن يظاهر محافظ تيرره بولسي (كل علي أوغلو) ، أمين كمشخانه ويرافقه في الزحف على (ديلكيجك) فيما يقرب من ألفي جندي وكان هناك نحو خمسين رجلا من رجال (كل علي أوغلو) في جيش رئيس الأدلاء . وأثناء قتل دلي علي وإعدام خدمه ، اندس هؤلاء الخمسين في صفوف الديوانكان لنهب بعض الأمتعة وعندئذ وبسبب مشابهتهم لـ (اللار) في بزتهم ؛ سل الديوانكان سيوفهم البتارة فلما منهم أن أولئك من أتباع [٣٣-ب] (دلي علي أوغلو) فقتلوا عشرة منهم إلى أن تحققوا من أنهم رجال كل علي أوغلو .

ولما بلغ ذلك أغاهم في (ديلكيجك) انفتل عن جند كمشخانه معتبرا ما حدث إهانة متعمدة لرجاله ، وانضم لـ (كوبه لي) العيين المحصور في الحصن ، وسلمه مدفعين كانا في حوزته . وفي هذه الأثناء كان أمين كمشخانه قد لحق بجيش (قواطه) فتقاطرت جند كمشخانه إلى

قواطه وهاجم (كل على أوغلو) ، و(كوبه لى العين) ولى باشا الذى أبدى شجاعة وبسالة عظيمين فى القتال ، وأخذ معه المدفعين الخفيفين اللذين كانا فى حوزته وتقهقر إلى ناحية (قواطه) حيث رابط إلى جانب رئيس الأدلاء .

وفى الوقت الذى وصل فيه نبأ فتح (قواطه) مع ما يزيد على مائة من الرعوس المقطوعة إلى أرضروم وبعث هذا على السرور والاستبشار ، تواردت الأنباء الموحشة بإقدام (كل على أوغلو) على بعض التصرفات الخرقاء والحمقاء ، وعودة الجند منكسرة من (ديلكيجك) ؛ فبات من الحتم قمع (كوبه لى) الملعون و(كل على أوغلو) والقضاء عليهما بأى شكل من الأشكال ، [١-٣٤] غير أن ذلك الأمر أرجىء إلى وقته المرهون وكتب حضرته إلى قادة جنده يشد من أزهرم ويدعو لهم بالظفر والنجاح وطلب منهم تشتيت شمل الجند المحتشدة وإرسال رعوسهم إلى الباب العالى.

وفى هذه الأثناء سبت إحدى فرق الشقى (كديك على أوغلو) زوجة أحد الرجال قهرا ؛ فرفع شكواه إلى الباب العالى ، وصدر أمر عال مع (مباشر) إلى حضرته بإحقاق الحق ، وحرر أمرا آخر من جهة الأطراف السنية ، وأرسل مع مباشر آخر .

ولما وصل هذان المباشران إلى (كديك على أوغلو) وعلم بفحوى المرسومين ، تناول فى حديثه وبسط لسانه بفحش الكلام إذ قال : " ماذا يعنى إحضار رجل من جانيك إلى أرضروم ، إن لم يكن قتل الرسل أمرا مذموما بين الناس لقتلتكما . عودا أدراجكما [٣٤-ب] وإذا ما زحف على باشوات كهؤلاء فان خروجى لردهم بنفسى من العار .

ومن السهل أن أبعث إليهم برئيس فرقة أو فرقتين لكسرهم ، فإذا ما خرج على الجيش الهمايوني والسرदार الأكرم ؛ فإن تشتيت شملهم حق على ذمتي "

ولما وصل المباشران إلى أرضروم بالأخبار المؤسفة سقط في يد حضرته ؛ فكتب لغيره إلى الباب العالي ينهى إليه أفاعيل (الدرہ بکوات) المذكورين ويخبره بأن ألوية طرابيزون ، وكمشخاته ، وجانيك ، وقره في قبضتهم ، وأنهم متحدون متعاونون على العدوان والبغى ، وأنه مهما استحکم العداء واستفحل بينهم ، يسعفون بعضهم البعض وقت اللزوم ؛ مما سيكون سببا في هزيمة مأموره . وأنه إذا ما صدرت الأوامر بإلحاق إيالة طرابيزون كذلك بعهدته والقضاء على (الدرہ بکوات) فإنه يعون الباري وعنايته ، وحسن توجيهات حضرة السلطان ، يصبح استئصال شأفتهم جميعا والتنكيل بهم أمرا سهلا يسيرا وهو المأمول من الله المستعان .

ولم يصبر حضرته حتى يأتيه الرد من الباب العالي فاستناب رجلا على أرضروم فاتجه صوب قره حصار ، ونشر أوامره باستدعاء كافة الفرسان والمشاة وكل القادرين على الحرب والضراب من مرعش ، وعينتاب وديار بكر ، ووان ، وكرديستان ، وكافة الأقضية والأرجاء ، [٣٥ - ١] ثم طوى المنازل على مهل حتى إذا نزل بقصبة (كلکید) صدر أمر جليل الشأن بإلحاق إيالة طرابيزون بأرضروم وإسنادها إليه ، وقمع كافة (الدرہ بکوات) ، فاستناب على الفور شاهين زاده مصطفى باشا - من الميرميران - على طرابيزون واستدعاه من أجل تكليفه بالزحف مع جند طرابيزون الذين سينضمون إليه ، والذين قدموا مع أخيه محمد بك .

وخرج حضرته كذلك من (كلکید) وبعد أن نزل بالسهل المسمى (قره چایر) على مسيرة ست ساعات من (قسره حصار) ، أرسل إلى المحافظين (الدرہ بکوات) يدعوهم إليه وذلك للتمييز بين السقيم والمستقيم منهم ؛ وعندئذ فر كل من (حاجی بك) شريف آقشهر آباد ، و (ججن أوغلو) شريف صوشار و (أوت یقماز) — من درہ بکوات تلك الجهات — وسعيد بك ، وعثمان بك ، إلى والی سیواس سيد أحمد باشا وذلك مصداقا لقول : " الخائن خائف " .

غير أن المدعو (قره صالح) تاب ، واستغفر عما اقترف من سيئات ، وتعد بالإخلاص واستيفاء الوسع والطاقة هو وما يقرب من خمسة آلاف من صفوة جنده في خدمة حضرته فأرسل إليه عهد الأمان . ولما دعاه إلى قره چایر قدم على الفور فيما يربو على خمسة آلاف من المشاة ، ونال شرف تقبيل ذيل ثوبه ، ومكث وفيما مخلصا في معيته الأصفية .

وقدم عليه كذلك من ناحية طرابزون قالجی أوغلو ، وشاطر أوغلو ، ودملی أوغلو — من أغوات البيرون — وحاجی صالح أوغلو ، [٣٥-ب] وقوغو أوغلو ، وصقه أوغلو ، وسردار (بولادخانہ) ، ومعقول أوغلو ، ولاچین أوغلو عين (كشاب) السابق ، ودردار أوغلو دزدار كیره سون ، والكثير والكثير من أمثال هؤلاء من الدرہ بکوات ، قدموا فوجا بعد فوج في أعداد من خدمهم ، وشرفوا بلثم طرف ثوبه . وخلص عليهم جميعا فاخر الخلع ونبه عليهم بضرورة التواجد مع جنودهم في الموضع الذي ستناط بهم فيه المهام ، وأعيدوا جميعا إلى ديارهم . وأقام حضرته خمسة وعشرين مخبزا في قره چایر وابتاع

كميات وفيرة من الغلال ورعوس الأغنام . وقدم من جهة المناجم الهمايونية ما بين ألف إلى ألفين من الأكراد المشاة وكذلك أجناد كماخ وكرجانيس وقوربجاي وأرغون وآغجه داغ ؛ فاحتشد بذلك حشد عظيم وأنفذ حضرته أول ما أنفذ جند نواحى جاقراق وجوهاق ، [٣٦ - ١] كل منهم على رأس فرقة من الجند .

ورغم أن حشود الأشقياء الكثيفة ظهرت وكأنها السد المتين فإنه ما إن اشتعل القتال ساعة أو ساعتين حتى انتصرت عليهم فرقتان وأرسلتا رعوس القتلى إلى الجيش ، وفتحت الطريق لبقية القوات ؛ فحملوا على قضاء (كشاب) ، فتفرق أشقياؤه وفروا إلى (كيره سون) ، فخفف الجند المظفرون يتعقبونهم ، ولما بادروا بضرب الحصار حول قلعة (كيره سون) لم يقيم المدعو (دزدار أوغلو أحمد) — وهو الذى كلف من قبل كديك على أوغلو بحراسة القلعة المذكورة وفر ليلا إلى (كديك على أوغلو) ، ولأذ به ، فغلبوا على القلعة ، وسيطروا عليها ، وأرسلوا رعوس القتلى من الأشقياء إلى حضرته وزفوا إليه بشريات النصر ؛ فأرسل الخلع إلى قادتهم ، ثم أمرهم بالزحف على (تيره بولي) ، وزودهم باللازم من الوصايا .

ومن جهة أخرى ساق كافة أغوات طرابيزون كذلك مع شاهين أوغلو محمد بك للزحف على (تيره بولي) من جهة الساحل لإشغال نلر الحرب من الطرفين .

ثم وجه محافظ قره حصار ، ثم الكتخدا عبدى بك ، ومعهما مدافع عظيمة على (كوبه لي) اللعين المتحصن فى (تليكجك) . [٣٦ - ب] وبعد مرور عدة أيام على ذلك ترك الجيش فى (قره چاير)

ومضى بنفسه فى عدة منات من الفرسان لمعاينة الحصن المرقوم ولما انتهى إليه أخذ يعمل ناظريه فى أطرافه بدقة وإمعان ثم أعرب عن منعه وحصاته .

ولما أحاط بكل شئ عنه أدرك استحالة فتح ذلك القبر المطلسم ما لم يقدم بنفسه على ذلك ؛ فنصب فسطاطه على رأس المتراس لمباشرة الحرب بنفسه ، وأحاط بالحصن ما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل ووالوا صب نيران مدفعيتهم عليه ليل نهار ، وعلاوة على هذا كان قد جلب مائتان من المعدنين الذين تعلموا نقب الأرض ، قدموا فى معية أمين (كمشخانه) على سبيل الاحتياط ؛ فقام هؤلاء بنقب ثلاثة سراديب ، وجمع لتلك المهمة خمسمائة من الجند ، فعهد لمائتين وخمسين منهم بسحب التراب من السراديب نهارا ، وعهد لمائتين وخمسين آخرين بنفس المهمة ليلا .

وامتد الحال على هذا المنوال ثلاثة عشر يوما بلياليها وهم فى قتال شديد ، فدكت قذائف مدفعيتهم الحصن المذكور دكا وبث ضجيج طائفة المعدنين المنبعث من تحت الأرض، [٣٧-١] الرعب فى نفس (كويه لي) وأطاح بصواب كل المحاصرين ، وفى الليلة الثالثة عشرة من أيام الحصار استخلف الشقى فى داخل الحصن بلوكباشيا شجاعا يدعى (جليل أوغلو) فى نفر من المشاة . واقتضت حكمة الله أن يهطل المطر مدرارا فى تلك الليلة دامسة الظلام فترك كافة الجند المتراس وبينما كان كل منهم يلوذ بخيمته ، انتهز (كويه لي) الفرصة وخرج خفية من الباب الخلفى للحصن ومعه أربعين أو خمسين من جنده وفروا إلى (تيره بولي) .

ولما بلغ هذا النبأ حضرته على السحر ، هب لغوره ودنا من الحصن وتأسف على فرار صيد كان على وشك الظفر به ، فعمد إلى الجند يحضهم على القتال يقول لهم : " إن بغيتي ومرامى هو تدمير هذا البرج فاجعلوا باقتحامه الآن " .

فأسرع مشاة الأكراد يتحركون من كل حذب ، ودون أن يكثرثوا بطلقات المدافع والبنادق المنهالة عليهم من الحصن ، تسلقوا أسواره وكأنهم العناكب واستولوا عليه في برهة ، وأعلموا القتل فيمن بداخله من الأشقياء وصارت أموالهم وحواصلهم نهبا للجند ؛ فاشتعلت الحمية في نفوس الأكراد الشرهى إلى المغاتم [٣٧-ب]

ولوجود الماء الجارى داخل الحصن المذكور نظرا لوقوعه وسط واد عميق بين ثلاث جبال ؛ لم تنفذ مؤنة طيلة عام أو عامين كاملين ، ولم تمس من به حاجة إلى أى شئ .

إنه برج حجرى قوى البناء حصين ، صعب التسخير . وبرغم أن عددا من الوزراء العظام اعتزموا استنصاله بأنفسهم ، فقد باعوا جميعا بالهزيمة والانكسار ، حتى أن المرحوم على باشا وهو الذى ذاعت هيئته وصولته وجابت الآفاق ، [٣٨-١] لم يجرؤ يوما قط على رفع ناظره إلى ذلك الحصن ، واستطاع أن يستميل والد (كويه لى) اللعين ومن بعده ابنه المذكور بالمصانعة ؛ ومن ثم فإن جميع (الدرہ بكوات) فى وقت الفرار والشدة كانوا بضوون إلى (كويه لى) ، ويلوذون به ؛ فاشتهر الحصن المقصود بأنه (مالطة درہ بكوات تلك الجهات) ، ولذا كان هدم ذلك الحصن وتخريبه أمرا حتميا فنسفوه بالألغام وسووا جدرانہ وأسوارہ بالتراب هدمًا ، ثم عاد حضرته منصورا

مظفرا إلى مقر الجيش في (قره جاير) وبعد أن مكث بها ليلة ، اعتزم المضي إلى (قره حصار) لقرب حلول الشتاء فأقام بضعة أيام في خانات الطريق .

ومن جهة أخرى حاصر شاهين زاده محمد بك الذي سبق من طرابيزون من قبل مع أغواتها والجند الجند المكلفين بـ (كشاب ، وكبره سون) تيره بولي ليل نهار من الجهتين . وفي تلك الأثناء تأتي لذلك الملعون وهو الذي فر بصعوبة من الوزير الهمام ، اللحاق بمحافظ (تيره بولي) ، ووصف له صولة حضرته وقوة شكيمة وأنه ليس كمن رأى وخبر من الباشوات ، وأخبره بأن مصاولته بصدر مفتوح أشبه بمن يقابل عينية بالصخور الحادة ؛ فاستحوذ الفرع على محافظ تيره بولي فأخذ زوجته وعياله وركب البحر فارا مع (كويه اسي) حتى انتهوا إلى بلاد الأبخاز وتشتت جنودهم وتفرقوا فدهامت قوات شاهين زاده دورهم وأسرههم ، وأسرعوا يرسلون أنباء ذلك إلى حضرته ، فبعث إليهم بالخلع ورسائل المديح والإطراء وأمرهم بالزحف مجتمعين على (كديك على أوغلو) .

وفي هذه الأثناء كان ممش أغا (محصل جاتيك) ، وجيها كنج مصطفى قد قدما فيما يربو على ثمانية آلاف من الجند ، وحصروا المدعو شيخ أوغلو عبد الله المنحصر في قلعة ، وبعد نحو سبعة أيام من القتال الشديد ، غلبوا على القلعة ، وفتكوا بذلك الشقى الملعون في نحو مائة من أعوانه وأرسلوا رءوسهم المقطوعة إلى حضرته ، وزفوا إليه بشرى انتصارهم فأرسل إليهم الخلع الفاخرة ورسائل الإطراء والثناء ، ومن أخرى أمرهم بالزحف على (كديك على أوغلو) .

[٣٨-ب] ولما كان هجوم الجند في كثرة نجوم السماء من الجهتين على الشقى المذكور باعثا على ارتياحه وتزلزل الأرض من تحت قدميه ، اصطحب في التو (دزدار أو غلو أحمد) وفرا فيما يقرب من ثلاثين فارسا عبر السراييب والقنوات الواقعة داخل الغابات والأدغال ، ومروا من (توقاد) إلى أن استقر بهم المقام لدى متصرف (بوز أوق) عبد الجبار زاده سليمان بك ، فاستولى الجند على قلاع (بما لو) ، و (يوروس) ، و (جيويل) ، و (كوني) التي كانت في قبضة الشقى المذكور ، وبسطوا سيطرتهم عليها .

وأرسل ضيا باشا متسلمين أكفاء إلى أقضية أردو ، وتيره بولي ، ونصب أعيانا وضباطا على أقضية كشاب ، وكيره سون ، وجسماته وسائر الأقضية الأخرى ، [٣٩-١] وبث المباشرين في كل الأنحاء لهدم كل ما هو كائن من الحصون والأبراج والمزاغل الحجرية ، فسووها جميعا بالأرض في غضون أيام وأصلحوا الأمور بعد فسادها ، وأعادوا النظام إلى تلك الجهات ، وأخذوا على الأهالي تعهدا بألا يتجول أى شخص يحمل سلاحا في البلاد ، وأن يحسنوا السيرة ، ثم سمح لجند تلك الجهات بالانصراف واستدعى الأعيان والأغوات إلى قره حصار ، وتعهدها كذلك بالسير على الصراط المستقيم في العمل ، وبذل كل طاقتهم في القضاء على كل من يتعدى حدوده ويظغى ويصبح (دره بك) . وأعيدوا جميعا إلى ديارهم معززين مكرمين .

ومن بعد هذا لم يبق على حطود طرابزون ، وكمشخانه ، وقوره حصار ، وجاتيك أحد قط في حوزته قلعة أو حصن يتجاسر فيه على التمرد والعصيان ، وظهرت البلاد المذكورة من دنس الأشقياء ولوثهم ،

ولم يعد هناك ما يستوجب المكث في تلك الجهات ، كما ازداد الشتاء قوة
وعنفوانا يوما بعد يوم فترك حضرته قره حصار ويمم شطر (كبان)
طالوا المنازل حتى انتهى إليها منصورا مظفرا ، [٣٩-ب] وبسط فيها
فرش الراحة والاستجمام .

قمع أكراد ديسم وأكراد الشيخ حسن

يعرف الجبل الذي يسكنه أكراد (ديسم) ، وأكراد الشيخ حسن
بجبل (دوجيك) . ويذكر أن محيط هذا الجبل المهيّب يبلغ من خمس
عشرة مرحلة إلى عشرين مرحلة ، ويتوسط الشعب المتشابكة والعظيمة
للجبل الكثير من السهول ، منها سهل عظيم يعرف بـ (أوه جق) ، يضم
الكثير والكثير من قرى الترك وأهل الذمة من الأرمن ، فنزح أكراد
(ديسم) ، والشيخ حسن سالفو الذكر بخيامهم ، وسكنوا رعوس الجبال
وكانوا يؤدون ما عليهم من ضرائب . وكانت تلك القرى الواقعة في
الصحارى تدار وتضبط أمورها من قبل أصحاب التيمار والإقطاعيات على
نحو ما قسمت لدى تسجيلها .

ومع مرور الأيام تبدل الحال وامتنع أولئك الأكراد عن أداء ما
عليهم من أموال ميرية اتكالا على وعورة الجبال المذكورة ومنعتها ،
إضافة إلى أنهم بسطوا سيطرتهم شيئا فشيئا على تلك القرى ، وتجاسر
كل واحد من رؤساء الكرد على الاستئثار لنفسه بعدد منها ، [٤٠-١]
وامتد شرر شرورهم وعسفهم إلى الرعايا ، وعلاوة على أنهم استرسلوا
في عنادهم ، ولجوا في طغيانهم ، فقد امتنعوا عن أداء ما عليهم من

أموال ميرية وارتكبوا كثيرا من الفضائع والأفاعيل المنكرة دون التمييز بين الأكراد وسائر الرعايا.

ولقد كانت تلك القرى الواقعة فى الصحراء تلفها الجبال الشامخة وكأنها الأسوار ، ولما كانت تنحصر فى ممر صعب بين مضيق يعرف بمضيق (چمشكزك) من جهة چمشكزك ، ومضيق ميجان من جهة آرزجان ؛ فإنه منذ ستين سنة والمعبر المذكور مسدود المسالك أمام أهالى أقضية آرزجان ، وكماخ ، وقورجاي ، وآين ، وچمشكزك ، وچارسنق ، وبالو ، وكيفى ، وترجان وهى الأقضية الموجودة فى نواحي الجبال المذكورة ، فشقوا جميعا عصا الطاعة وتعاضلوا بغيرهم وفسادهم حتى بلغ ذروته .

ولما كانت الطائفة المذكورة قوما ملاحدة ، خونة لا عهد لهم ولا ميثاق؛ فقد أنكروا شعائر الدين كالصوم والصلاة ، وتهالكوا على المحرمات مثل سفك الدماء والزنا . ويوما بعد يوم سرى شرهم وفسادهم إلى من حولهم ثم كل الأرجاء .

ولما رفعت الظلمات والشكايات مرارا وتكرارا إلى الباب العالى بأنهم كانوا يجمعون إتاوات طائلة سنويا ممن حولهم من سكان الأقضية ، ويذلون أهل السنة بتصرفاتهم الخرقاء سيق عليهم ولاية أرضروم وديار بكر وسيواس غير مرة ، [٤٠-ب] غير أنه لعدم وقوف هؤلاء الوزراء العظام بقدر الكفاية على رحابة جبل (دوجيك) ووعورته ، كانوا إذا ما دخلوا من أى جهة خرج عليهم أولئك الطغاة من الأكراد ، وأحاطوا بهم من جميع الجهات ، وكسروهم وشتتوا شملهم ، حتى إن وزيراً قوياً الشكيمة مثل (چته جى عبد الله) كان قد زحف على ذلك الجبل بجيش

كثيف من إبالة أرضروم ، فقمع أولئك الأشقياء الفجرة من جهة
(قوربجاي) . وعندما دخل وسط الأدغال أحاط به مجرمو الأكراد وأوقعوا
به الهزيمة واستشهد نصف جيشه ونجا النصف الآخر بعد أن كابد ألوان
المشقة وصنوف البلاء .

ولتلك الأسباب فإن الأكراد المذكورين منذ أكثر من سبعين عاما
لا يقترون عن أعمالهم العدوانية ومفاسدهم . وعلى مر الأعوام اشتد
ظلمهم وعسفهم بعباد الله ؛ ولذا أكنم حضرته — فى مستهل تشريفه
(كيان) — لكثير من رؤسائهم من جماعة الشيخ حسن فى قسبة
جمشكزك وقتل نحو مائة منهم فبث بذلك هيبه الحكومة وصولتها .
[١-٤١]

ومرة أخرى زحف بنفسه على رأس جيش عظيم على جماعة
الشيخ حسن وتناوش معهم القتال أكثر من مرة ، فقتل عددا منهم وأسرى
عددا آخر . والحاصل أنه تمكن من إطفاء جذوة تمردهم إلى حد ما ،
ولأنه لم يكن من الممكن ألا تتسببه قبيلة (كلابى) وطائفة (جار قلو)
وأكثر منهم عتوا طائفة (ديسم) وسائر رعايهم ؛ فقد كان على الدوام
يترصد فرص قمعهم ، والقضاء عليهم ، ويستطلع تلك الجهات ويعاينها ،
ويرجى ذلك إلى حينه المناسب .

وفى تلك السنة المباركة استطاع دفع كافة غوائل نواحي
أرضروم ، وطرابزون ، وجانكلر وكمشحاته ، وقره حصار ، وقدم
المناجم الهمايونية .

ولما لم يعد هناك ما يؤرق خاطره ويشغل باله فى أى جهة رفع
أمر القضاء على الأكراد المرقومين إلى الباب العالى . ولما كان قمع

أولئك الأكراد والقضاء عليهم في أصله عين ما تريده الدولة العلية ؛ فقد صدر فرمان قطعى صريح في ذلك الشأن . [٤١ - ب]

ولما كانت الجهات الأربع للجبل المذكور تحت حكومة حضرته ، فقد أصدر الكتب على الفور إلى ضباط تلك الجهات يخبرهم أنه سوف يخرج لقمع أكراد (ديسم) في مستهل الربيع ، وطلب إليهم أن يقتلوا الغادى والرائح وكل من يقبض عليه قلة كانوا أو كثرة وإرسال رؤوسهم المقطوعة إليه ، وأن يستوفوا وسعهم في تجهيز فرسانهم ومشاتهم القادرين على الحرب والضرب ، علاوة على أنه استكثر من جند الديوانكان والتوفكجية ، وبعث برجل إلى طاغستان على جناح السرعة إلى ولى باشا متصرف (منكر) - من الميرميران - يطلب إليه جلب ألف من جند اللاز والمجىء إليه في التو .

وبعد أن سير الرجال لاستقدام مراد باشا متصرف (موش) في كثير من جنده الأكراد ، بأمر عملية قمع الاشقياء ، فساق بطلا مغوارا يدعى (سيمو) من عشيرة (عمركانلو) في نحو مائة وخمسين من الفرسان فكبس أحد سهول الأكراد المذكورين على غفلة منهم ، [٤٢ - ١] وعاد بقدر من الهام المقطوعة ؛ فكوفىء بالخلع والنفحات ، وأعاد الكرة من موضع آخر فزلزل أركان الأكراد وبث في قلوبهم الرعب . وفي هذه الأثناء خرج حضرته بنفسه من (كبان) وعطف عنان عزمه نحو الجهة المقصودة فاتته في جيش يتصدره رئيس الأدلاء الحاج على أغا في ألف وخمسمائة من فرسان الديوانكان ، وأغار على الأكراد الموجودين في نواحي (ترشمك) ، ثم أرسل (علي أغا) لمداومة القرى المحيطة بها .

وفى هذه الأثناء قدم (ولى باشا) متصرف منكر فى ألف من جند (اللاز) ، فساق رئيس توفيكجيتنه (جتناق حسين) مع الباشا المشار إليه وأرسلهم صوب مضيق (چمشرك) ، وعندما قدم بكامل العدة والعتاد (خربرت) حضر مراد باشا متصرف (موش) ومعه خمسة آلاف جندى ، ثم وصل تباعا أجناد (آرغنى ، وسيوه رك ، وجيرميك ، وأكيل ، وجونكوش ، وأبى طاهر ، وخربرت ، وملاطيا ، وبهسنى ، وحصن منصور) ، وكذلك أجناد نواحي (كركر ، وشير ، وكاخته ، وهردى ، وزيوه وبارجكان ، وآغچه طاغ ، وآرغون ، وآيوه لى) مع صوباشيتهم وزعماء عشائهم .

وعندما نزلت هذه الحشود معبر (ڤرتك) كان نهر الفرات شديد الفيضان ، فتعذر عليهم العبور بالسفينة الموجودة فى المعبر ، فأحضروا ثلاث سفن وأربعين قارباً مطاطياً وعبروا بها إلى الشاطئ الآخر ، واستغرق عبورهم أسبوعاً بتمامه ، واكتظ الوادي بجند لا يقعون تحت حصر. وفى يوم نزول الباشا فى مشارف قرية (ونك) وصلت الأنباء بإغارة رئيس الأدلاء على نواحي ترشمك وبثه الرعب فى قلوب أشقياء الأكراد فى تلك الجهات ، وفى اليوم التالى لمكنه فى صحراء ترشمك التقى به (ملاسلى قره صالح) ومعه كافة جند قره حصار وجانبك وأجناد أقضية طرابيزون البالغ عددهم نحو ثمانية آلاف من المشاة ، [٤٢-ب] فبلغت كثرة الجند حدا عظيماً ؛ فأرسل الحاج عبد الله أغا محافظ (چار سنجك) فى جم غفير من الفرسان والمشاة مع مراد باشا ، وسيقوا للزحف على رأس الأشقياء المدعو (سور أوغلو) الكافر الفاجر وبعد عدة معارك فى قرية (باغ) غلبوا عليه ، وأوقعوا به هزيمة

نكراء، وأضرمو النار فى داره وقرينته وأبقى مراد باشا ومن معه فى تلك القرية ، وتسابق كل من ولى باشا ورئيس التوفيكجية من جهة جمشكزك ، وخاضوا عدة معارك فى مضيق (جمشكزك) ثم القرى الكردية المجاورة له، وبغاية الله وعونه مضى الاثنان ومعهما الكثير من هام القتلى ، وعبرا المضيق وزفا البشريات بدخولهما سهل (أوه جق) ونزولهما به .

كما أسرع لطف الله أغا (محافظ أكين) مع جنده وجند نواحى سبطروس وبوشادى ، ومضى من شعب حسن وبوشادى ، ولحق بجيش ولى باشا عند (أوه جق) .

ومن جهة أخرى قام أمين كمشخانة الحاج أحمد أغا وكافة أغواتها وأعيان اقشهر آباد والحاج إبراهيم بك وچچن أوغلو ، [٤٣-١] وجند أقضية قره حصار ، واقشهر آباد ، وصوشهر ، ومحافظ وكماخ ، وكرجاتيس ، و (شهور أوغلو) محافظ قوريجاي عنوة بفتح واد حصين وعر تحف به المهالك والمعاطب وينطبق عليه قول الشاعر :

مررت على وادى السباع ولا أرى

كوادى السباع حين يظلم واديا

وبسطوا سيطرتهم عليه ، وأعملوا التقتيل فى عدة مئات ممن بداخله من شياطين الأشقياء، وسبوا نساءهم وعيالهم كافة ، وأغاروا على مضيق مرجان ، واشتبكوا فى معركة حامية مع أشقياء الأكراد ، وتأتى لهم عبور هذا المضيق عنوة ، وبلغوا سهل (أوه جق) . ولما زفوا بشريات ذلك إلى حضرته ؛ أرسل إليهم مراسيم الثناء والمديح على كل أولئك

القادة مرفقة بالخلع لكل منهم على قدر درجته ، وأوصاهم ببذل قصارى جهدهم وطاقاتهم للقضاء على الأشقياء فى شتى الأرجاء ، وساق محمد بك (حاكم كيفى) ومعه جند (أرضروم وكيفى وبابود وآسبرو وآرزنجان وترجان) ومعه مدفع ضخمة وعتاد حربى عظيم من قوزيجان ، فحشد الأكراد قواتهم وداهمومهم على الغفلة ليلا فاستبسل الجند المنصورون فى القتال ، وشتتوا شمل أشقياء الأكراد ومزقوهم شر ممزق ، ففروا إلى (دوجيك) فلاحقوا فلولهم وقضوا عليها .

ومن جهة أخرى خرج إسحق بك حاكم (بالو) من بولاتق على رأس جيش عظيم من المشاة والفرسان واستوفى الوسع والطاقة فى قتال الأشقياء الذين صادفهم ، [٤٣ - ب] وأرسل كثيرا من الهام المقطوعة وأسرى لا يحصون عددا مما ألهب حماسة الجيش ، وبث فيه الشجاعة والحمية.

وقد اضطر حضرة الوزير الهمام إلى ترك نصف من معه من لجند فى معسكر الجيش ، وحمل بنفسه بنحو سبعة آلاف من الجند المشاة والفرسان على قريتى (هاويك) و (وان) وخاض معركة طاحنة فى القرية الأولى ، وأعمل التقتيل فى الكثرة المطلقة من أكرادها وسبى نساءهم وذرائعهم .

ولما كانت تلك الواقعة عبرة لمن يعتبر ممن سفهاء الأكراد الموجودين فى تلك الجهات ، فقد عمل من سلم بقوله : " من نجا برأسه فقد ربح " ومر من السردابين الضيقين تحت دور (دوجيك) واعتصم بواد مخوف يبلغ طوله ساعتين تقريبا ، تحيط به القمم الشاهقة وكأنها السور المتين . وضوى سائر من سلم من الأكراد المستأصلين فى جميع

الجهات إلى ذلك الوادى وحوصروا فى معقل الأشقياء هذا هم وأولادهم ، وساق حضرته الجند كذلك إلى شتى الجهات لتدمير دور الأكراد الواقعة فى سفوح الجبال المذكورة ورعوسها ، وتسويتها بالتراب هدماً . ثم أصدر الأمر بتسخير الوادى المذكور ، [٤٤-١] غير أنه كان موضعاً غاية فى وعورته وصعوبة مسالكه ، وقهر من بداخله عن الأكراد باهرى الإلحاد والتنكيل بهم كان منوطاً باستمرار الحصار وقد اقترب الخريف ولم يعد لهم قدرة على المكث فى الجبال المذكورة ، فأدرك حضرته بنظرته الثاقبة أن دفع تلك الغائلة دفعا تاما يتوقف على حلول ربيع العام الجديد . وبعد أن فكر مليا وقلب وجوه رأى رصد خمسمائة فارس وألف من المشاة لحصار طرفى الوادى المذكور حتى حلول الربيع لقطع مؤنهم ، فلا يجدون شيئا يسدون به رمقهم عند حلول الشتاء ، ويهلكون جوعا ، واختير موضعان مناسبان لبناء ثكنتين عظيمتين لإيواء الجند فى أيام الشتاء ، وخصص لذلك عدد من البنائين والعمال ، وبعد أن أحكموا أساسهما وجدرانهما ، وشحنوهما بوافر المؤن والذخيرة سمح للجند بالانصراف شريطة العودة ثانية فى مستهل الربيع ، وقر قرار حضرته على المضى إلى كبان يكامل العدة والعتاد .

وبينما كان يبذل جهده بكل الاهتمام والدقة فى تفقد بناء الثكنتين المذكورتين ، [٤٤-ب] ولوازم الفرسان ومشاة الجند كالمؤن والذخيرة وراتب ستة أشهر، ورد ذات يوم وقت السحر خط همايوني مبارك مع (أبيش أغا) - الباش تبديل - بدعوته إلى الحضور إلى مقر الصدارة العظمى ؛ فأوصى حضرته محافظ (جاز سنجق) الحاج عبد الله ، ونبيه عليه بالمحافظة على البلاد ، والضرب على أيدي المفسدين ، والقضاء

عليهم وإتمام بناء ثكنتى الجند ، وأذن للجند بالانصراف ومكث بالموضع المذكور ثلاثة أيام .

ولما كنا سوف نصدى بالحديث قريبا عن وقائع قدوم أبيش أغا وخروج حضرته من صحراء (ترشمك) وقدمه (كبان) وسائر الوقائع الأخرى فى سياق حديثنا عن تبوئه منصب الصدارة العظمى ؛ فقد اكتفينا بهذا القدر مما ذكرنا .

بقى لنا أن نقول أن حضرته كان قد قمع أكراد آغچه طاغ مرة بنفسه ومرة أخرى بإيفاد الجند عليهم ، كما أرسل الجند مرتين لتأديب أكراد (إيزولى) وساق الجند بالمدفعية والعتاد مرتين على بك (أكيل) وأدب بكوات (بالو) ، وأنه جرد عدة حملات على أكراد هردي ، وزيوه ، وبارجكان ، وصارى ميشه ، [٤٥ - ١] وقهر أشقياءهم ودمرهم وأطاح مزارع ثلاث بأغوات (جار سنجق) ونكل بهم .

ولما ولى أمر إيالة مرعش وسنجق عينتاب ، أنفذ الحاج على أغا رئيس الأدلاء فى كثير من فرسان الديوانكان وسائر صنوف الجند الآخرين إلى تلك الجهات ، فأذاقوا عشائر الأشقياء الخسف والتتكيل ، واستوفوا الأموال الميرية المتراكمة من السنين السابقة فى ذمم عشائر رشوان كاملة وافية .

وحدث من قبل أن طغى المدعو (بكر أوغلو دلى عمر) فى قضاء أكين ، ورفع راية العصيان ، فدخل ذات ليلة تلك القصبة فى شرملة من الأشقياء واجتاحوا ينهبون الدور ويضرمون فيها النيران ، ثم طودوا أبناء محافظتها وأجأوهم إلى الفرار ، وبسط ذلك الشقى قبضته على القضاء وياشر الحكم من تلقاء نفسه ولم يزل مقبما فى تلك البلدة حتى

حملة الحاج أغا هو وكثيرا من أعوانه إلى كيان وأعدمهم وأحلهم دار البوار .

أما بالنسبة لأعمال المناجم فقد ملأها حضرته بالعمال المجتهدين، فاستخرجت كميات من الذهب والفضة فاقت ما كان يستخرج في عهد أسلافه من الوزراء .

ولما بات من اللازم القضاء على إسحق باشا (متصرف بايزيد) — الذى كان قد شايع بعض أشقياء الأكراد وقطاع طرقهم — فقد أرسل حضرته كتخداه من أرضروم فى جيش عظيم ، [٤٥ - ب] واستدعى كذلك مراد باشا متصرف موش وطلب منه الذهاب مع جيش الكتخداه ، فكبسوا إيالة إسحق باشا، ووطنوها بسنابك خيولهم واستردوا أموال الرعاة التى سلبها إياهم الأشقياء دون أن تنقص رسن بغير، ولما كانت طائفة (اللار) يغيرون على نواحي بایبود واسير منذ أمد بعيد، فقد أرسل حضرته الجند على شعبة (طوزجى أوغلو) لتأديبه وتشتيت شمله.

ولو أردنا الإسهاب فى ذكر ما لحضرته من الأعمال الجليلة وآثار عدله ورعايته للبلاد والعباد لاحتجنا إلى عدة مجلدات طوال . ومن ثم عملا بالقول المأثور : " القطرة تدل على الغدير والقليل يغنى عن الكثير " ، وقوله :

إذا وصفك أهل الفضل أم لم يصفوك ، فليسوا

تلك المشـاطة التى تزين وجهك الكريم

اكتفينا من البحر بقطرة ومن القمر المنير بذرة واختتمنا بوصف أبهته وعظمته وكان ذلك مسك الختام . [٤٦ - ١]

وتنتهى هنا مقدمة رسالتنا هذه ، وبعد أن شرعنا فى الحديث
عن الملحمة التى تشتمل وقائع الحملة على مصر ، ننضرع إلى الله تعالى
ملتجئين منه التوفيق والسداد والله الهادى عليه اعتمادى .

بدء قصة استيلاء الفرنسيين على الممالك المصرية المقدسة

يذكر التاريخ فيما يذكر من أخبار الزمان وأهله أنه فى يوم
الخميس ٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ لاحت عدة سفن فى مياه نهر
الإسكندرية ، وكانت عدتها عشر سفن ما بين كبيرة وصغيرة ، رست
كلها خارج ميناء الإسكندرية ، وبعد قليل ودون أن يعلم أهالى النهر
جنسية تلك السفن أهى لصديق أم لعدو ؛ حضرت ثمانى سفن أخرى
وألقت مراسيها ، فانتظر أهل النهر ما يريدون ، فأتى قارب صغير من
عندهم على متنه عشرة من الإفرنج فانتبهوا إلى البر واجتمعوا بأعيان
البلد وناظر جمرک النهر المدعو (محمد كريم) ، [٦٤-ب] فكلوهم
بواسطة ترجمان واستخبروهم عن مرامهم ومقصدهم ؛ فأخبروهم أنهم
إنجليز ، أوفى وأخلص أصدقاء الدولة العلية ، وأسبق الجميع إلى
الإخلاص لها؛ وتلك السفن هى الأسطول الإنجليزى وقالوا :

" لقد استحكم العداء واضطربت نار الحرب بين دولتنا والجمهورية
الفرنسية منذ طويل الأمد ، ولما كنا لا نفتر عن تحرى دقائق أمورهم
وأحوالهم ؛ علمنا أنهم عكفوا منذ زمن على إعداد عمارة ضخمة فى
مينائهم الشهير (طولون) ، شحنوها بالأجناد والعتاد ، وخرجوا بها
يقصدون جهة من الجهات ، ونظرا لما تشير إليه القرائن الحالية ، فإنهم

إن لم يكونوا ينوون غزو أي دولة أخرى أو أي موضع أو جزيرة من الروملي أو سواحل الشام ، فمن الواضح بديهيًا أنهم يقصدون غزو مصر بالذات . [٤٧-١] فعلاوة على ما بين الدولة العلية وإنجلترا — منذ قديم الزمان — من علائق الود والصداقة ، ترسمنا الحكمة القائلة : " عدو العدو صديق " ، وانتويننا الحفاظ على ممالك الدولة العلية وحراستها جهد طاقتنا ، ودخلنا البحر الأبيض من مضيق (سبتة) ، واجتهدنا في تعرف جزره وسواحلها ، ولما لم نعثر لهم على أثر في أي ناحية منه ؛ قدمنا إلى هنا في التو والحال ، ظننا منا أنهم قدموا إليكم ، ولما كان الحال هكذا ، ولم يحضروا إلى هنا ، فسوف نرحل لتجسس أخبارهم في مياه عكا ويافا وميناء حلب الشهباء والإسكندرونة ، فإن كانوا لم يقدموا إلى تلك الجهات ولم يستولوا عليها ؛ فلا بد أنهم سوف ينزلون أنقاليهم وأمتعتهم إما في ميناء الإسكندرية أو ميناء دمياط للإستيلاء على الممالك المصرية ، وعلى ذلك فسوف تعود إليكم سفننا من جديد ، لكن إياكم والغفلة ، إذ إنه على ضوء تقديرنا للحالة سوف يقصدون القاهرة ، [٤٧-ب] وقد أوفدنا أمير البحر الإنجليزي (نيلسون) إليكم للتنبيه عليكم وتوصيتكم ببذل السعي الأوفى في الدفاع والحفاظ على سواحلكم . وعادت رسل الإنجليز إلى أسطولهم بعد أن فرغوا من إبلاغ رسالتهم تلك وأقلعوا متجهين إلى مياه عكا وحيفا .

فأرسل محمد كريم — أخذا بالحزم والحيطة — إلى كاشف البحيرة ومن حوله من العربان يعلمهم بما حدث ، ويطلب منهم المجيء إلى الإسكندرية ، كما بعث بالرسول على جناح السرعة إلى القاهرة ، يخبرهم بظهور العمارة الإنجليزية وما جاءت به من أخبار موحشة ،

وأنها لم تمكث أكثر من يوم واتجهت إلى مياه عكا وحيفا ، فاشتد القلق بالأمراء المماليك وتحدث الرعاع والغوغاء فيما بينهم فى الأسواق بتلك الأخبار المروعة التى أدلى بها الإنجليز ، غير أنهم لم يكونوا قد شهدوا وقوع أى اعتداء من جهة ما على مصر منذ ما يربو على ثلاثمائة عام وهى فى الظلال السنية للدولة العثمانية ؛ فتناقضوا تلك الأخبار ساخرين مستهزئين بها .

أما الأمراء سقيمو الآراء فقد اجتمعوا للتشاور فى هذا الأمر. [٤٨-١] وبعد أن قرئت المكاتبات الواردة من محمد كريم أظهروا غرورهم واستكبارهم زاعمين أنهم القوة القاهرة والغلبة الباهرة التى طبقت شهرتها الآفاق فى جهات العالم الست ، وأنه ليس لأحد قبل بمنزلتهم وإذا ما جاءت إليهم سائر دول أوروبا مجتمعة وليس فرنسا حسب ولم يأت أى مدد من الدولة العلية (أبقاها الله) ، فإن ذلك لا يجب إقلاقهم وإزعاجهم بأى حال من الأحوال؛ إذ أنهم سوف يحققون ولكل الإفرنج بسنابك خيولهم ويحصدون رعوسهم ببوارق سيوفهم .

الملحمة

فى يوم الاثنين ١٨ من محرم رست سفن و عمارات للفرنسيين كثيرة ليس لها حد ولا تقع تحت حصر أوعد أمام ثغر الإسكندرية ، وعلى الفور أرسلوا طائفة منهم فى طلب القنصل وبعض أهل البلد من أصحاب الحل والعقد يدعونهم إلى أسطولهم ؛ فرد عليهم أهل الثغر أنهم غير مأذونين للذهاب إلى أسطول ضخم كهذا أو إدخال شخص غريب إلى بلدهم ما لم يخطروا القاهرة ويستأذنوها ، وأنهوا ما حدث فى التو إلى القاهرة .

وفى حين كان الدفاع عن البلاد حقا عليهم ، انعدم فيهم وجود شخص أريب يقطن إلى حقيقة الأمر ، فاصطحب كل واحد من كبار البلد القنصل الفرنسى الملعون واستبقوا فيما بينهم المضى إلى أسطول الفرنسيين ، ولما انتهوا إلى بونا برت اللعين (سر عسكرهم) لاطفهم واستمال خواطرم بالمكر والخديعة ونزلوا ضيوفاً عليه فى تلك الليلة بعد أن استوقفوهم فى أسطولهم بحجة التباحث معهم فى بعض الأمور الهامة فى اليوم التالى ، [٤٨ - ب] وبالغوا فى رعايتهم والحذب بهم .

ولم يكن بين عامة الناس فى الإسكندرية من يميز بين الغث والسمين ، فكانوا فى مجملهم طائفة من الفلاحين البلهاء عديمى الفهم محصورى التفكير ، ومن ثم لم يسألوا أنفسهم عن معنى مثل هذه التداركات الحربية العظيمة وعدم عودة من مضى من رجالهم إلى الأسطول ونسوا ما أوصاهم به الإنجليز ، ووعوهم إليه .

أما عقلاؤهم فقد تجافى النوم عن أعينهم فى تلك الليلة ،
 [٤٩-١] وعلى حين كان حقا عليهم الدفاع عن السواحل ، ورد هجوم
 أجناد المشركين ، تجلت مقولة : " إذا جاء القضاء عمى البصر وإذا نزل
 القدر بطل الحذر " ، فاستكانوا جميعا قريرى العين فى فراش النوم
 والغفلة ، فسر الأعداء وامتن من غفلتهم وحماقتهم هذه ، ولم يؤجلوا
 عمل اليوم إلى الغد ، وتحينوا الفرصة ، وأعتقلوا من دعوه من كبار
 رجال الإسكندرية فى تلك الليلة داخل سفنهم وشدوا وثاقه وخرجوا إلى
 البر ومعهم آلات الحرب والجند على الساحل المسمى (ميناء العجمي) .
 ولما علم أهل الثغر بعد طلوع الفجر أن الفرنسيين ضربوا
 الحصار من جميع الجهات حول قلعة الإسكندرية فى تلك الليلة ؛
 [٤٩-ب] اشتبكت عدة فصائل من الفلاحين والعربان — الذين قدم بهم
 كاشف البحيرة من الجهات المجاورة — مع الفرنسيين ، غير أنهم ما
 استطاعوا الثبات لحربهم واستشهد نفر منهم وتقهقر الباقون إلى القلعة ،
 وقد حاروا ولم يعرفوا أى طريق يسلكون ، فتعقبهم الفرنسيون وحاصروا
 القلعة من كل جانب وضيقوا عليهم الخناق واخترقوا صفوفهم وشتتوا
 شملهم ، فعول كل من فى الثغر على المقاومة من أسطح منازلهم ،
 وأبلوا خير بلاء فى القتال بالبنادق والحجارة . غير أنهم كانوا قبيلة من
 الفلاحين والعربان الذين لا عهد لهم بقذائف المدفعية الهادمة للقلاع ؛
 ومن ثم فقد شملهم الفزع والوله .

ولا اعتقال رعوس البلد وزعمائه لدى الكفار حار العامة — الذين
 لم يكن لهم من زعيم أو قائد — فى أمرهم ، إضافة إلى أن صياح الصبية
 وصراخ النساء وعويلهم قد شل تفكير الأمة المحمدية وكسر يد قدرتها .

أما الأبراج والقلاع فقد كانت خالية من آلات الحرب والبارود
فعلم الأهالي أن استيلاء الفرنسيين على الثغرات أمراً واقعاً طوعاً أو
كرهاً ، فكفوا أيديهم عن القتال ، ثم طلبوا الأمان ، [١-٥٠] فأمنوهم
شريطة أن يحضر إليهم أعيان الثغر لتسليم جميع أسلحتهم لهم وتعليق ما
يسمونه (الجوكار) على صدورهم .

وما يسمونه الجوكار كان ثلاث قطع من الجوخ وغير ذلك ،
مستديرة في حجم كف اليد سوداً وحمراً وبيضاً ، يوضع بعضها فوق
بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تحتها ، حتى تظهر الدوائر
الثلاثة وكأنها محيطية بعضها ببعض .

وخلاصة القول أنهم استولوا على الثغر المذكور بسهولة
وخسفوا بأهل الإسلام ونكلوا بهم وأنزلوا بهم صنوف الذل والتحقير
{ وكان أمر الله قدراً مقدوراً } ^(١) .

ورود هذه الرسالة الموحشة إلى مصر القاهرة

على الرغم مما وقع من حوادث لمحمد كريم فيما يتعلق بقدوم
طائفة الإنجليز وذهابهم فقد تحدث فيه الناس يوم أو يومين ، بعدها
اعتبر من قبيل الألفاظ المجردة ، وأصبح نسباً منسياً ، وعكف سكان
البلاد على الكسب والعمل غافلين ، وسكرت عقول أمراء المماليك بخمر
الغفلة والكبر والغرور .

وفيما كان كل منهم مكباً على ملذاته ، توارت الأنباء الموحشة من جهات
دمهور ورشيد بقدوم الفرنسيين على ذلك النحو بغتة ، [٥٠-ب]
واستيلاهم على نجر الإسكندرية ، وتنكيلهم بأهله ، وفي خلال ساعة
أعاذنا الله ، حصلت الوحشة والفرع في مصر القاهرة وكأنه نفخ في
الصور وقامت الساعة ، وتزلزل الأمراء جميعاً وروعوا ، فوافى كبير
أمرائهم المدعو إبراهيم بك شيخ البلد إلى موضع يسمى (قصر العيني) ،
وأرسل في طلب أمير آخر يدعى (مراد بك). إذ إن المشار إليه لم يكن
مقيماً في القاهرة نفسها ؛ بل كان منذ أمد مديد مقيماً هو وأتباعه في
موضع يسمى (الجيزة) في الضفة المقابلة لبحر النيل .

والخلاصة ، التقى الأميران المشار إليهما ، وبعد أن تحدثا فيما
بينهما في تلك الواقعة الفاجعة ، اجتمعا بقاضي مصر وباقي الأمراء
وشيوخ السادات والأعيان ورؤساء الأوجاقات ، وكل أهل الرأي ، وبعد أن
تحدثوا في أمر تلك الداهية الدهياء ، استقر منهم الرأي على أن يرسل
الحاج أبو بكر باشا وإلى مصر مكاتبة بما حدث إلى السلطنة السنية ،
[٥١-١] والتجهز لملاقاة الكفار وحربهم ، وفي التو والحال وفي
خلال ساعة أو اثنتين سطوروا المكاتبة المذكورة وأكملوها ، وأرسلوها بوا
عبر طريق غزة مع اثنين من الساعة .

وفي اليوم التالي ، أخذ مراد بك في مصادرة عباد الله ، وإنزال
الظلم والضرر بهم بحجة تعبئة الجند وتهينة اللازم من العتاد والذخائر ،
وأقام معسكراً لقواته خارج مصر ، ولبث هناك يومين ، وفي مدة تلبثه
تلك ، جلب إليه العساكر ، واستكمل الأسباب الحربية من مدافع وعتاد ،

وأركب عدداً من جند المشاة والمغاربة مع عدة من المدافع فى قوارب صغيرة وأرسلهم فى النيل، وأخذ معه عدداً من المدافع وقدرأ من البلرود وسار من الجسر الأسود مع عدد كبير من الأمراء والكشاف للقاء الكفار. وعند خروج مراد بك بالساكر ، عصمنا الله تعالى ، عمت الوحشة والفرع مصر القاهرة وانقطعت الطرق من هجوم أشقياء البدو ، وانسدت حتى أبواب مصر . [٥١-ب] .

ولقد سادت الوحشة والرعبة القاهرة ، وامتدت هجمات لصوص العربان حتى أبوابها ، فانقطعت طرق الذهاب والإياب ، وأغلقت الأسواق والحوانيت ، وانعدم الأمن ليلاً وافتقدت الراحة نهاراً ، فنادى والى مصو وشيخ البلد والأغا بفتح الأسواق وتعليق القناديل على الدور والدكاكين ؛ فبثوا بذلك شيناً من الاطمئنان فى قلوب عباد الله المسلمين .

وبعد أن أحكم الفرنسيون قبضتهم على الإسكندرية وتركوا بها قدرأ من الجند والعتاد عمد قائدهم بونايرت إلى مهاجمة رشيد ودمهور ، ففر بعض أهلها إلى المناطق المجاورة وآثر عدد منهم البقاء فى أماكنهم طالبين الأمان ؛ فأمنوهم وأحسنوا معاملتهم ، وأخبروهم أنهم ما أرادوا بهم شراً .

وإضافة إلى هذا فبأنهم أعتقوا جميع الأسرى المسلمين الذين كانوا قد أسروهم فى ماطلة واصطحبوهم معهم إلى مصر ، وأشاعوا ذلك بين الناس وكأنهم حضروا لفق أسر الأمة المحمدية لا لأسرها . [٥٢-١] وحضر هؤلاء الأسرى إلى قصبة بولاق ومعهم نسخ من منشور مطبوع، وكان مضمون ذلك المنشور لا يخلو من المكر والخديعة ، فاجتهد كبار البلد لكتمه وإخفائه لئلا يحصل اللغط وتكثر القالة . ورغم

هذا فقد شاع وذاع في شتى الأنحاء ولم يعد هناك جدوى من كتمه ،
وبين عشية وضحاها اشتهر فحوى المنشور وعلم به الناس جميعا .
ولما تحروا عن حضر بذلك المنشور من الأسرى المسلمين
حدسوا أنهم ربما كانوا جماعة من كفار مالطة الذين يعرفون اللغة
العربية مندسين في غمار الأسرى ، وتم توصيل المنشور المذكور
بمعرفتهم ، وعليه قدموا القاهرة على أنهم من الأسرى المسلمين ،
وقاموا بتوزيع ما بحوزتهم من منشورات على شتى الجهات وعادوا
أدراجهم إلى معسكرهم ، وقد تعرفوا على أحوال القاهرة ووقفوا على
دقائق أمورها بقدر الكفاية . [٥٢-ب]

المنشور للعين باستثناء البسملة وعبرة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله لا ولد له ، ولا شريك في ملكه ، من طرف
الجمهور الفرنسي المبنى على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر
الكبير بونايرته أمير الجيوش الفرنسية يعرف أهالي مصر جميعهم أن
من زمان مديد والسناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون
بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنسية ويظلمون تجارها بأنواع البلبص
والتعدي ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، واحسرتا من مدة عصور طويلة
هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازا والكرجستان يفسدون في
الإقليم الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها ، فأمر رب العالمين
القادر على كل شيء قد حتم على القضاء دولتهم ، يا أيها المصريون قد

يقولون لكم إننى ما نزلت فى هذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين : إننى ما قدمت إليكم إلا لكى ما أخلص دينكم وحققكم من يد الظالمين .

وإننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمداً والقرآن العظيم . [٥٣-١] وقولوا أيضاً إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشيء الذى يفرقهم من بعضهم بعضاً هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين الممالك ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين ؟ ويستوجب أنهم يملكون وحدهم كل ما يحلو به الحياة الدنيا حيثما يوجد أرض خصبة فهى مختصة للممالك ، والجوارى الأجل والخيال الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خالصاً ، إن كانت الأرض المصرية إلزام للممالك فليرونا الحجة التى كتبها لهم رب العالمين ، هو رءوف وعادل على البشر بعونه تعالى ، من اليوم فصاعداً لا يستثنى أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فللعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها ، سابقاً فى الأمور المصرية كانت المدن العظيمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر . [٥٣-ب] وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم الممالك ، أياها القضاة والمشائخ والأئمة وأياها الشوربجية وأعيان البلد قولوا لأنكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون خالصون ، وإثباتاً لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا ، الذى كان يحت دائمياً النصارى على محاربة السلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطا ، وطردوا منها الكواللرية ، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين

لحضرة السلطان العثملى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، وبالمقلوب الممالك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممثلين لأمره فما أطاعوا إلا لطمع أنفسهم . طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتقنون معنا بلا تأخير فيصلح أمرهم ويعلى مراتبهم ، طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين ، فإذا عرفونا بالأكثر يتسارعون إلينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع الممالك ويساعدونهم فى الحرب علينا ، فما يجدون طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر .

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها العسكر الفرنساوى ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر وكلاء من عندها لكيما يعرفون المشار إليهم أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا السنجاك الفرنساوى الذى هو أبيض وكحلى وأحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع للعسكر الفرنساوى ، الواجب عليها نصب السنجاك الفرنساوى، وأيضا نصب سنجاق السلطان العثملى ، دام بقاءه .

المادة الرابعة : المشايخ فى كل بلد ليختموا حالا جميع الأرزاق والبيوت والأمالك بتاع الممالك وعليهم الاجتهاد الزايد لكسى لا يضيع أدنى شئ منها .

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل واحد من أهل البلد أن يبقى فى مسكنه

مطمئنا، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون
بأجمعهم ليذكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك
قائلين بصوت عال : [٥٤-ب] أدام الله إجلال العثماني أدام الله إجلال
العسكر الفرنسي ، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية .
تحرير بمعسكر إسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور^(١) سنة ١٢١٣ هـ .

اعتراضى أنا الفقير على منشور الفتنة هذا وتحقيق عقائدهم الباطلة

بدعا عندما نطالع عبارة " لا اله إلا الله لا ولد له ولا شريك في
ملكه " التي تصدرت هذا المنشور ، يشيء من الإمعان ، نجد أنهم
متفقين مع الأديان الثلاثة : الإسلام والنصرانية واليهودية من جهة ،
ويخالفونها من جهة أخرى ، وهذا لا يخفى على أهل العلم ممن لهم
وقوف على عقائد الملل الثلاثة المذكورة؛ ففي الوقت الذي يزعمون فيه
أنهم يحترمون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويعظمون
القرآن الكريم ، لا يعملون بأى حكم من أحكام الشريعة الإسلامية الغراء.

١- هو الشهر العاشر من تقويم الثورة الفرنسية ويمتد من ٢٠ يونيو إلى
١٩ يوليو . أمل بشور ، مرجع سابق ، حاشية ص ٨١ .

وفى حين أن القرآن الكريم يتضمنه آية : { لا يمسه إلا المطهرون } ^(١)، نجد أنهم قوم ملوثون بشتى ألوان الدنس والنجاسة ، ويلبسون ثياب الكفر والضلالة ، واتخذوا من كتاب الله العزيز أداة لسخريتهم واستخفوا بسمو منزلة النبوة وأنكروا أحكام الشريعة وما أجدرها بالاحترام ، وهذا واضح وضوح الصبح .

وإذا ما أمعنا النظر في أقوالهم وأطوارهم وأعمالهم الباطلة ، وجدناها لا تنحصر في نبوته (صلى الله عليه وسلم) ، [١-٥٥] فهم ينكرون كافة الكتب المنزلة ويكفرون بالشرائع المحكمة ولا يدينون بأي دين ولا يتمذهبون بأي مذهب وهذا واضح جلي . وفى حين أنهم يزعمون أنهم أخلص وأحب أصدقاء الدولة العلية ، غزوا بلا سبب بلداً وسيع الأرجاء هو مصر لأنى كانت تنعم بالأمن والسكينة في ظل السلطنة السنية وهذا تناقض غنى عن التذليل .

وقضاؤهم على البابا في رومية واستيلاؤهم على جزيرة مالطة واستخلاص الأسرى المسلمين ودعاوى المساواة بين عباد الله ، كل ذلك كانوا يهدفون من وراءه إلى الاستيلاء على البلاد واستغلال الأجلاف من العباد ، وكل ذلك ما كان لينطلي على أولى المنطق الحصيف الواقفين على دقائق الدهر .

وأن يكن الفرنسيون قد شاعت شهرتهم بأنهم دهيون يذهبون إلى تناسخ الأرواح ، [٥٥-ب] فقد تأتى لي الوقوف على تفاصيل أحوالهم ، وأحطت علما بدقائقها ؛ فعلى ما تحققت من البعض أن هذه

١ - الواقعة : (٧٩) .

الطائفة الفرنسية كانت على دين المسيح (عليه السلام) ، وعلى مر الأيام أسرفوا في التوغل في الفلسفة ؛ [١-٥٦] فصبأ أكثرهم وأنكروا نبوة المسيح عليه السلام ، ولأنهم سلكوا مسلك الدهرية ، فقد أصاب الخلل مذاهبهم وعقائدهم شيئا فشيئا ، فأنكروا النبوات والرسالات كافة ، وصدوا عن أحكام الشرائع ، وعطلوا العمل بها ، وأنكروا الحشر والحساب ، وقالوا بقدم العالم وتناسخ الأرواح ، واستشترت مفاسدهم وفشتهم ، وفي النهاية أعدموا ملوكهم ووزرائهم الذين حكموهم منذ سنوات عديدة وقرون طويلة ، وأهلكوا كذلك عددا من الرهبان والبطارقة وبالغوا في امتهانهم والزرارية بهم ، وخربوا كنائسهم وأديرتهم ، وأحرقوا الكتب المتعلقة بالأحكام والشرائع ثم أعلنوا الجمهورية ، فتشتتت مسالكهم وتبعثرت مذاهبهم ، وسلك كل منهم طريق ضلالة ، فأقام عدد منهم على شريعة آبائهم وأجدادهم ، ومالت شريحة منهم في الخفاء إلى الطائفة اليهودية ، وقال ، أكثريتهم — على النحو المذكور — بقدم العالم وتناسخ الأرواح . ومنهم فئة كالأنعام لا يفرقون بين السماء والأرض . وبعد أن أشاعوا الفتن والقلق في كافة ممالك أوروبا ، امتدت شرر شرورهم ومفاسدهم في آخر الأمر إلى البلدان الإسلامية وانتشرت في أرجاء الكون العريض ولا حول ولا قوة إلا بالله .

سـؤال :

كتب المنشور المذكور وطبع باللغة العربية ، ومن ثم إذا ارتابنا وخامرنا الشك وتساءلنا : متى تعلم أولئك اللغة العربية والخط الإسلامي؟

وفى أى مدة طبعوا تلك المنشورات ؟ وكيف تـأتى لهم بين عشية وضحاها ، الوقوف على دقائق مصر وأسرارها ؟

الجواب :

كان هناك من يدعى (أنطون) وكان رجلاً محتالاً فاسد الخلق والضمير — من معلمى القبط — برع فى المحاسبة والكتابة العربية ، وسرعان ما اطلع على إيرادات الممالك المصرية ومصروفاتها وقام بتسجيلها ، ولسبب من الأسباب هرب من مصر . ولما كان بالماهر فى الفرنسية فقد مضى إلى فرنسا ، وفى ذلك التاريخ لم يكن ملكها — الداهية الماكر — [٥٦-ب] قد انتقل إلى الجحيم بعد ، فوصل أنطون أسباب بأسباب الملك وشيئا فشيئا بات من بطانة الخاسرة .

واتفق ذات يوم أن أخذ أنطون يحرض الملك المذكور ويزين له

غزو مصر فقال :

" إن مصر بلد واسع الأرجاء مترامى الأنحاء ، يتوسط ممالك المغرب وديار الحجاز والحبشة وبلاد الشام والأناضول ، ويحدها البحر الأبيض من جهة ، وبحر السويس من جهة أخرى ؛ ولذا يأتيها ما لا يحصى كثرة من نفائس أمتعة بلاد الهند والسند وإيران ، والكثير والكثير من السلع الرخيصة لبلاد اليمن والحجاز والحبشة ، وتمر عليها فى تعاقب ودوام سفن التجارة لبلاد المغرب وبلاد الإفرنج والجزيرة العربية فى ذهابها وإيابها ؛ فتتوفر بها كافة السلع النفيسة وغير النفيسة ؛ ومن ثم باتت محط أنظار وبؤرة اهتمام كافة الشعوب واشتهرت بأمد الدنيا ولقد علمت ذلك من تجارك الذين جابوا تلك البلاد ، غير أن تفاصيل أسرار البلد

المذكور موضوع آخر ، ولما كان فهم تلك التفاصيل وإدراكها غير ممكن بالسمع أو بطريق التجارة فحسب ؛ فإنه لا يخفى عليك أن ذلك منسوط بوجود من تدرس بأمور وأحوال تلك البلاد وسير أغوارها وعلم خفاياها .
مثلثي .

والواقع أن فاتح مصر ، وواليتها فيما بعد في العصور المبكرة للإسلام ، [١-٥٧] كتب إلى خليفة المسلمين آنذاك (عمر القاروق) يصف له مصر في الرسالة التي يبشره فيها بالفتح فقال : " بلدة ماؤها عجب وترابها ذهب " هذا مما يتفق مع دعواي المبسوطة .

ويخترق أراضيها من أقصاها إلى أقصاها نهر النيل العظيم ذو الخير الكثير والنفع العقيم . وأراضيها شديدة الخصوبة .

ولما كان حساب إجمالي إيراداتها مثل : الجمارك وإيرادات المقاطعات منقوش في ذاكرتي فإنه إذا ما خطر ببالك يامولاي الاستيلاء على الممالك المذكورة بسهولة فألق نظرة واحدة على هذا السجل . وأعطاه سجلا أعده بنفسه من قبل عن إيرادات مصر .

وبعد أن طالع الملك ذلك السجل اشتعل لهيب طمعه وحرصه ، واستعلم عن إمكانية الاستيلاء على بلد عظيمة كتلك واستماله قلوب أهلها وإن كانوا على ملة تخالف ملته ؛ فشرح له أنطون في هذا المجلس شتى الحيل والمكائد الخاصة بالتحرك من ميناء طولون بعمارة عظيمة والاستيلاء على مالطة وتخريبها ثم غزو ثغر الإسكندرية وتسخيرها ، [٥٧-ب] ثم الهجوم على القاهرة واحتلالها في غضون أيام ، وأطلععه على سائر ما ينبغي الأخذ به من الأسباب .

ولما كانت كل هذه الأمور تتفق مع تدابير العقل والمنطق ، فقد
تشاور الملك مع كبار قادته وأفراد بطانته ، وقلبوا وجوه الرأي
والمشورة ، فقر قرارهم بالإجماع على الشروع فى اتخاذ الأهبة وإعداد
العدة من الأسلحة وآلات الحرب ، وطبعوا تلك المنشورات العربية ، بعد
أن سودها لهم أنطون فى مطابعهم .

ولما أوشكوا على الاتجاه إلى الصوب المقصود بعد أن اتخذوا
للأمر أهبة ، شاعت المقادير أن ينفطر عقد جماعتهم ، ويختل الأمن فى
جميع بلادهم ، وتسودها الفتن والقلق ، ويعدم ملكهم فى آخر الأمر ،
وتباد الأسرة الحاكمة ، ويقضى عليها من أساسها ، [٥٨-١] ويحاربوا
دول الجوار كبيرها وصغيرها ، وينتصروا عليها جميعا ؛ فظل موضوع
غزو مصر نسيا منسيا لعدة سنوات إلى أن هدأت الأحوال وانتظم عقد
جماعتهم من جديد .

وفى نهاية المطاف عندما خمدت نيران ما أشعلوه من فتن
وقلاقل أعدوا ما أعدوا من العتاد وآلات الحرب وابتدروا إلى ارتكاب تلك
الجريمة البشعة ، وأقدموا على غزو مصر وإحتلال أراضيها ؛ غير أن
أنطون الملعون لم يكن فائدة من كل ما فعل وهلك فى السجن قبل واقعة
غزو مصر ، وهو يعد سببا مستقلا فى تلك الداهية الدهياة وسوف يأخذه
الله بالنكال يوم القيامة جزاء له عما فعل ما من شك فى ذلك . ألا لعنة
الله عليه وعلى سائر المفسدين .

واقعة مراد بك مع الفرنسيين وانهزامه

يذكر الرواة والمؤرخون أنه بعد أن استولى جيش الفرنسيين على فوه والرحمانية في ٢٨ المحرم سنة ١٢١٣ هـ زحفوا لملاقاة موار بك ، الذي سبق أن ذكرنا أنه ولى قيادة جند الموحدين مشاة وفرسانا وساقهم فى البر والنهر لصد الفرنسيين ، فوقعت مناوشات بين طلائع الجيش ، انجلت عن مقتل عدد من كلا الجانبين ، فزلزل مراد بك وجنده ، واستحوذ عليهم الفرع والهلع ، غير أن من قدم فى النيل من مشاة المغاربة وجند الفرق العسكرية راعوا آثار الحمية الإسلامية وصاتوا شرف الدين الإسلامي وهيبته واستماتوا فى القتال وأهلكوا كثيرا من المشركين . [٥٨ - ب]

وفى حين كان ذلك سببا فى تثبيت أقدام فرسان مراد بك ، إذا بقضاء الله يجرى بأن علقت النار بمخزن ذخيرة إحدى سفن مراد بك فأذرت من بها فى الهواء ، ومن بينهم رئيس الطوبجية خليل كرداسى ؛ فلم يسع الجند المشاة عندئذ إلا التشنر والتفرق ، ولم يعد للفرسان طاقة على الثبات ، فولوا منهزمين فى خوف واضطراب ، ومن عاينهم من الجند المشاة ولى الأدبار وانحاز إلى ساحل النيل تاركا أسلحته ومدافعه فى أرض المعركة .

أما مراد بك فقد تقهقر بالجند المنكسرة إلى (إمبابة) الواقعة فى الجانب الغربى من النيل بمحاذاة قصبة بولاق ، وشرع فى عمل متراس من ساحل النيل إلى قرية (بشتيل) وبادر هو ومن معه من الأمراء إلى حفر خندق .

وما إن انتهى هذا النبا المفزع إلى مصر ، [٥٩-١] حتى هاج
الأهلون ، وماجوا ، وضجوا بالصراخ والعويل ، وتحزبت طوائف العامة ،
واحتشدت حشودهم ، وكأنهم في يوم الحشر ، وحضر والى مصر أبو بكر
باشا وشيخ البلد إبراهيم بك وأتباعه من الأمراء والكشاف وسائر العلماء
والأعيان وقادة الفرق العسكرية إلى قصبة بولاق الواقعة على الشاطئ
الشرقى للنيل للتشاور في صد الفرنسيين ، فقر قرارهم على أن يتصدوا
لهم في الضفة الشرقية للنيل ، ويتصدى لهم مراد بك وأتباعه في الضفة
الغربية المقابلة .

ويعد أن أخبروا مراد بك بذلك قاموا بعمل متاريس عميقة
وعريضة من بولاق إلى شبرا ، ونصبوا المدافع في أماكن متفرقة منها ،
ورسم لعربان الشرقية أن يكونوا في طليعة معسكر شبرا ، وكذلك عربان
الغربية في طليعة معسكر بشتيل ، ولقن كل منهم بدوره في المقاومة ،
ونادوا بالنفير العام وخروج كل من في القاهرة من طائفة العسكر -
فيما عدا الأطفال والنساء والعجائز - للمتاريس ، وتحدثوا عن فضائل
الجهاد في سبيل الله ، وحضوا الناس على حرب الكفار ، [٥٩-ب]
فاحتشد ما لا يقع تحت حصر من الفلاحين وأهل السوق العزل إلا من
عصى في يد كل واحد منهم .

واجتمع على رعوس المتاريس جم غفير وحشد عظيم بالأعلام
والطبول والدفوف ، وكأنه حفل عرس أو احتفال بالمولد على الطريقة
المصرية القديمة . واكتظ بري النيل : الغربى والشرقى بالمدافع
والعساكر المشاة والفرسان .

وفى حين كانوا مرابطين بهذا الكم من العتاد والأسلحة لرد الكفار ، ثابتين مستقرين كأنهم الجبل ، فإنه من جهة أخرى شرع الأمراء سقيموا الآراء — فى الخفاء — فى نقل أموالهم وكافة أمتعتهم الثمينة إلى دورهم القصية ، فلما رأى أهل البلاد منهم ذلك داخلهم الخوف والفرع . وبدأت تسوء أحوال العباد ؛ إذ إن كافة الأسواق كانت قد أغلقت ، وتوقف البيع والشراء ، وضاق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقاتهم يوما فيوم لتعطل الأسباب ، وغلا سعر كافة ما أمكن جلبه من الجهات المجاورة من المأكولات والمشروبات فتعالت صرخات الفقراء وأناتهم حتى انتهت إلى عنان السماء ، وخاف الأغنياء من عواقب الحال ؛ فكفوا أيديهم عن مساعدة الفقراء والمساكين والعطف عليهم . [٦٠-١]

وعلى نحو ما يروى عدد من الثقة من الناس فقد بخل الأب على أبنائه ، ووجد من الفقراء من تصور جوعا ولم يعرف الطعام سبيلا إلى جوفه إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام .

أما بلاد الأرياف فقد قامت يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا ، وبادروا إلى قتل الأنفس وهتك الأعراض .

وأما عربان البادية فقد ترصدوا الفرصة واجتاحوا يقتلون ما استطاعوا إليه سبيلا من عباد الله ، ونهب أموالهم وأمتعتهم ؛ فزاد الكرب وتعظم البلاء .

وفى تلك الأثناء قبضوا على من فى القاهرة من رعايا الفرنسيين وسجنوهم فى القلعة ، وعمدوا إلى محالهم يفتشون عن الأسلحة وغيرها وكبسوا كذلك بيوت النصارى والشوام والأقباط والأورام وكنائسهم وأديرتهم ومخازنهم للتفتيش عن الأسلحة ، غير أنهم لم

يعثروا على شيء مما شكوا في وجوده ؛ ولذا لم يتعرضوا بشر لأحد من الطوائف المذكورة .

غير أن بعض المتهورين من العامة هجموا على الرعايا الفرنسيين في مصر يريدون الفتك بهم جميعا ، [٦٠ - ب] فمنعهم والى مصر وبعض عقلاء الأمراء خوفا من عاقبة ذلك ، وحاولوا بشتى الطرق تهدئة الأهالي واحتواء غضبتهم .

وفي تلك الأثناء كثرت الإشاعات والأقاويل فمن الناس من كان يقول :

" أن الكفار المشتركين قادمون من البر الشرقى .. " ، ومنهم من كان يقول : " أنهم واصلون من البر الغربى .. " ، ومنهم من كان يقول : " أن فرقة منهم قادمة من الجانب الشرقى وأخرى قادمة من الجانب الغربى " ، هذا وليس لأحد من أمراء الجند همة أن يعين عينا أو اثنتين لتجسس الأمر .

وفي ٨ صفر الخير ١٢١٣ هـ عبرت عساكر الفرنسيين الجسر الأسود ، وفي اليوم التالي انتهوا إلى الموضع المسمى (أم دينار) ، فاجتمع عندها حشد هائل من أهل تلك الجهة وما جاورها من القرى وبعض العربان ؛ غير أنهم كانوا في المجمل من الفلاحين الضعاف العزل إلا من عصى في أيديهم ؛ ولذا لما عاينوا كتائب الفرنسيين عن بعد وشاهدوا قذائف مدفعيتهم وقنابلهم ، وسمعوا دويها المهييب ؛ تشذروا وتفرقوا إلى الجوانب والجهات كالجراد الميثوث دون أن يتقدموا خطوة واحدة .

[٦١-١] أما جند الفرنسيين فلم يعنوا بهم وزحفوا لمهاجمة جيش مراد بك فاشتبكت طلائعهم معه بالقرب من قرية بشتيل ، ولما حملت قوات مراد بك على صفوف الفرنسيين دون تدبير حربى باغتهم ، وأصلوهم نيران مدفعيتهم وبنادقهم ، فلم يقدر أحد منهم أن يفتح عينيه من وابل القذائف المنهمرة عليهم من السماء واستشهد أيوب بك الصغير وعبد الله (كاشف الجرف) وعدد كثير من كشاف محمد بك الألفى ومماليكه ؛ مما كان سببا فى ارتياح الفرسان وتزلزل أقدامهم فلم يسعهم إلا أن ولوا الأبدار فى سرعة وانزعاج متقهقرين إلى معسكرهم ، فتعقب قلوبهم (ديزيه) - قائد طلاع جيش الفرنسيين بما يقرب من سبعة آلاف ، إذ إن بونابرت لم يكن حاضرا تلك الواقعة .

ولما حملوا على متاريس مراد بك ، هب الجند المشاة - فى المتاريس وكذلك جند القلنجية والمغاربة البحرية ونحو مائتين من المشاة الذين تواردوا من دمياط فى يوم أو يومين - لردهم وقتالهم غير مباليين بمدفعية الأعداء وبنادقهم ، ثابتين فى أماكنهم . ودارت رحى حرب طاحنة لا سبيل إلى تصوير ضراوتها ، وامتزجت صيحات الشجعان وزئير الأسود بدوى القذائف ، ووصلت إلى عنان السماء . [٦١-ب]

وفى هذه الأثناء هبت ريح صرصر من جهة الفرنسيين ، فلتعقد الغبار ولف الظلام معسكر المسلمين من دخان البارود وغبار الرياح ، فحجبت عنهم الرؤية ، وفيما كان الحال على هذا المنوال لحقت كتائب الفرنسيين بجند طلائعهم بقيادة ديزيه ، وتعصد كل منهم بالآخر ، ولم يتفرقوا ، وشكلوا جناحين على شكل قرنى الشاة ؛ بحيث صاروا محيطين بالساكن المسلمين من خلفهم ومن أمامهم ، وهجموا عليهم فتعاظم

الضجيج وتعالى الصخب ، وكان الساعة قد قامت بأصوات الطبول غير المنتظمة ودوى المدفعية وطلقات البنادق المتوالية بلا انقطاع .

أما عسكر الإسلام ، فدون أن يدرى أحدهم بالآخر ، راحوا يطلقون مدافعهم وبنادقهم دون تمييز بين عدو أو صديق ولما شاهد الفرسان إحاطة العدو بهم من الأمام والحلف ، [٦٢ - ١] عمد بعضهم إلى إلقاء نفسه فى النيل، وفر الباقون مع مراد بك إلى الجزيرة .

ولما رأى الجند المشاة منهم ذلك ، أثر بعضهم الغرق فى النيل والبعض الآخر وقع أسيراً فى أيدي الفرنسيين ، غير أن استشهاد بكباشية مشاة الأرناعوط، المائتين الذين قدموا من دمياط ، أشعل حمية الأرناعوط ؛ فاستبسلوا فى ميدان الوغى ولم يكفوا أيديهم عن القتال حتى استشهدوا عن آخرهم .

وكان من بين من ألقى نفسه فى النيل من الفرسان إبراهيم بك الصغير ، وقد استشهد غريقاً ، ومنهم أيضاً سليمان بك رفيق إبراهيم بك الصغير الذى نجا، إذ إن جواده كان من أقوى الجياد المصرية وأجودها ، واستشهد غالبية الفرسان، والقليل منهم نجا بعد أن تكبد شتى صنوف الصعاب والمشاق ، وهكذا غلبت جند مراد بك ولم يبق فى أرض المعركة أحد من فرسانه ومشاته إلا الأسرى .

وبعد أن غنم الفرنسيون ذلك الكم الضخم من الخيام والمدافع والأسلحة والذخيرة والنتى تكفى جندهم لشهر أو أكثر ، [٦٢ - ب] صوبوا نيران مدفيعتهم إلى البر الشرقى حيث جيش مصر وإبراهيم بك . وقد شاهد هؤلاء ما حل بجند البر الغربى من هزيمة وانكسار ، فدبت فيهم الفرقة والتشذر ، وقامت فيهم ضجة عظيمة مما حدث ولم

يأتس أحد منهم فى نفسه الطاقة على الثبات ، وعليه سار أبو بكر باشا وشيخ البلد وسائر الأمراء إلى جهة العادلية ، أما سائر الأهالى فعادوا إلى القاهرة ودخلوها أفواجا وقد استحوذ عليهم الخوف والفزع ، وكأنهم قد سيقوا والعياذ بالله إلى أرض المحشر ، واستبدت بهم الحيرة ، ولم يعرفوا أى طريق يسلكون وأى فعل يفعلون ، ولم يؤد أحد منهم صلاتى الظهر والعصر ، وما إن هبط المساء حتى أرسل وإلى مصر وشيخ البلد وسائر الأمراء والكشاف أغلبية من معهم من الرجال إلى المدينة لإحضار حريمهم وجلب أموالهم وأمتعتهم ، مما خف حمله وعظم ثمنه ، إلى جهة العادلية ، فأركبوا كثيراً من الحريم من ربات الصون والعفاف على الدواب الموجودة بغض الطرف عن كونها خيول أو جمال أو حمر أو بغال، [٦٣-١] وأخذوا كذلك كثيراً من الجوارى ماشيات .

وهرع جند القلنجية ممن هزموا فى البر الغربى فزعين إلى السفن الموجودة فى مرسى إمبابية ، ولما لم يكن لديهم القدرة على السير بتلك السفن جنوباً إلى بر السلامة ، فقد عبروا إلى البر الشرقى وأحرقوا تلك السفن جميعها كيلا يفتنمها الفرنسيون ، وكذلك لما بلغ مراد بك الجيزة بجنده المنهزمة أخذ فى تحميل ما خف وزنه من الأمتعة على الدواب ، وكان من قبل قد بنى سفينة عظيمة أدرها ليوم عصيب كهذا ، شحنها بالأموال الوفيرة ولما مشوا بتلك السفينة قيد خطوات وبحكمة الله، تعثرت بهم فى الطين لثة الماء ووقفت ، فأمر بها مراد بك فأحرقت وفر إلى جهة الصعيد بمن معه من الأتباع والخدم ، علماً بقول : "من نجا برأسه فقد ربح" .

ولما تصاعدت أسنة الذهب من هاتين البقعتين
(الجيزة وبولاق) إلى عنان السماء ، [٦٣-ب] تطير بعض الأراذل
من شاهدوا أسنة الذهب تلك من بعيد وتوقعوا الشر دون أن يتبينوا
حقيقة ما حدث .

وبعد أن وصلت حريم شيخ البلد ووالى مصر ، خرجوا من
العادية على هيناتهم فارين متجهين إلى غزة بطريق الصحراء مسروراً
بالصالحية ، وأخذ مراد بك زوجته وجنده المنهزمة ومضى إلى جهة
الصعيد ، وانحازت سائر الجند كل إلى جهة ، فخلت الساحة للكفرة
فاستولوا على الجيزة وبولاق واجتاحوا يدمرون الدور ويحرقون البيوت .
ولما انتشرت الإشاعات والأكاذيب بين الخلق فى تلك الليلة
بأن الفرنسيين بعد أن يستولوا على المدينة ويبيدوا أهلها عن آخرهم ،
وينهبوا أموالهم سوف يحرقوها ويدمروها تدميراً : هاج الأهليون وماجوا
وضج العامة : شبيهاً وشباباً ونساءً وأطفالاً بالصياح والسويل ، فنزل
شيخ السادات ونقيب الأشراف والعامة أجمعين رجالاً ونساءً إلى
الشوارع والطرق وعمد كل من له دابة ، أياً كان جنسها ، فأركب عليها
زوجته وعياله ، وحملها قدر طاقتها من المتاع . [٦٤-١]

وغلا سعر الحيوانات بحيث اشتراها القادرون بخمسة عشر
اضعاف ثمنها فى سائر الأوقات الأخرى ، فبيع الحمار الأعرج والبهمل
الضعيف — على نحو ما تحققت — بخمسمائة قرش واستؤجر حتى
الصالحية بمائتين وخمسين قرشاً ، ومن لم يحصل على دابة حمل أطفاله
على كتفيه ، أما النساء فقد أخفين الحلى والجواهر فى أحضانهن ،
وعرضت للخطبة الكثير من الحسان ، ربات الصون والعفة ، واللاتى

بحاكين القمر والشمس جمالا ولم يرهن بشر ولا حدثهن إلا في الخيال ،
وبنت يشبهن الحور ، كيلا يقعن في أسر الفرنسيين .

محصلة القول إنها ليلة لا نظير لها في ويلاتها ، وما أجدرها بأن تنطبق
عليها الآية الكريمة : { يوم يفر المرء من أخيه وأمه
وأبيه وصاحبته وبنيه }^(١).

وإلى أن طلع الفجر فر عباد الله المسلمون من داخل القاهرة فمنهم من
سار إلى جهة الصعيد ، ومنهم من مضى إلى قرى الشرقية ، [٦٤ - ب]
ومضت الغالبية إلى (الخانكاه) للحاق بوالى مصر وشيخ البلد .

والخلاصة أنه باستثناء فئة قليلة أقعدهم العجز فى مصر
القاهرة، فقد تفرق أهلها وتشدروا بدداً ، ولحكمة لا يعلمها إلا علام
الغيوب واتفاقاً لقضاء من لا معارض لقضائه ، ترصد لصوص العريان -
وهم أشد ظلماً وضراوة من الفرنسيين - الفرصة وخرجوا على جموع
المهاجرين حال وصولهم إلى المطرية فى طريقهم إلى (الخانكاه) ،
فأثخنوهم تقتيلاً وهتكاً للأعراض ، وسلبوا أمتعتهم دون أن تأخذهم شفقة
بأى شخص منهم - وعلاوة على ذلك فقد سرقوا ثيابهم وعروهم ،
وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وفسقوا بكثير من المساتير والمخدرات ،
فلم يعد لهم وسعاً للفرار إلى بلد آخر ، فرجع كثير منهم إلى مصر حفاة
عراة فى أسوأ حال وأسرع الباقون إلى الخانكاه كيلا يرون وجهاً واحداً
من وجوه الكفرة ، [٦٥ - ١] وأكثر حلى مصر وجواهرها وذهبها

١ - عبس ، الآيات : (٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦) .

انتهبه لصوص العربان في يوم النهبة هذا ، فتحصل لأنناهم مال فارون .
وليلة نزوح الناس من القاهرة متشذرين متفرقين باتت كل
أبواب دورها مفتوحة على مصراعيها ، وبقيت أموال الناس وأمتعتهم
مهيئة في الخلاء بلا صاحب ، وكان هذا هو عين ما يتمناه كثير من
العاطلين عن العمل والأراذل والأوباش والمقامرون في مدينة مزدحمة
مثل القاهرة ، فانتهزوا الفرصة وانتهبوا ما استطاعوا الوصول إليه من
الأموال والمتاع بحيث لم يسلم منهم دار ، وفجروا بمن وجدوه من نساء
المسلمين .

ولما أضحى النهار بشتى صنوف المصائب والبلايا ، سمع من
قعد عن الحركة من العلماء وبعض الأعيان بما حل بعباد الله المهاجرين
على أيدي العربان من ظلم وتعد ، وتبينوا أن الفرنسيين لم يعبروا إلى
البر الشرقي ، [٦٥-ب] فاجتمعوا في الجامع الأزهر وتشاوروا
فيما بينهم ، فقرروا على أن يرسلوا مبعوثاً إلى سر عسكر
الفرنسيين . وعثروا على شخص مغربي يعرف الفرنسية فأرسلوهما
إليهم حاملين رسالتهم ، ولما وصل المبعوثان سريعاً إلى سر عسكر
الفرنسيين ، لاطفهما وبش في وجههما وكتب لهما رسالة في طلب
الوجهاء والأشراف وطمأنة الناس وتأمينهم ، وأعاد المبعوثين أذراجهما.
وكان نص تلك الرسالة : " من معسكر الجيزة لأهل مصر..

إننا أرسلنا لكم في السابق كتاباً فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ما
حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنسية بساذل
والاحتلار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان ، [٦٦-١] ولما حضرنا

إلى البر الغربي ، خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه ، وقتلنا بعضهم ، وأسروا بعضهم . ونحن في طلبهم حتى لسم يبق أحد منهم يسألقتصر المصري ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون مطمئنين ، وفي مسكنهم مرتاحين ولابد أن المشايخ والشورية يأتون إلينا لترتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور .

ولما وصل الجواب على هذا النحو اطمأن الناس وزايلتهم وحشتهم شيئا ما ، وعلى الفور سار الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة حيث مقر سر عسكر الفرنسيين فتلقاهم حفا وبش في وجوههم وقال : " أنتم المشايخ الكبار ؟ ، ولم لم تأتوا إلى الآن ؟ " .

فأعلموه أنهم ليسوا المشايخ الكبار وأن المشايخ الكبار خلفوا وهربوا فقال : " لأى شىء خافوا ؟ اكتبوا لهم بالحضور الآن " . وأمرهم بتحرير مكاتبات بالحضور والأمان بأسماء الهاربين من العلماء والمشايخ ، ثم أرسلوها مع بعض الأشخاص ، وخرجوا من معسكر الفرنسيين مستأذنين من كبيرهم ، وعادوا إلى مصر بعد العشاء ، فاطمأن الناس برجوعهم وزايلتهم الوحشة .

ولما وصلت كتب الأمان إلى كبار المشايخ والأعيان المذكورين اطمأن شيخ السادات والشيخ الشرفاوى ومعظم الأهالى ، وعادوا إلى مصر ، ودخلوها أفواجا أفواجا . [٦٦-ب] أما عمر أفندى نقيب الأشراف (والروزنامجى) أفندى فلم يطمئنا ولم يحضرا ، ولحقا بشيخ البلد فى بلبس فى معية كثير من الناس .

وفى اليوم التالى عبر الفرنسيون بأثقالهم وعدتهم من الجيزة إلى البر الشرقى إلى مدينة القاهرة ، ونزل بونايرت اللعين بقصر محمد بك الألفى فى الأوزبكية وهو الذى كان قد بناه الأمير المذكور حديثاً من عرق جبين الرعايا وأنفق عليه أموالاً طائلة ، وفرشه بفاخر الأثاث ، وأقام عدد من كبار قادتهم كل فى دار مناسبة . أما غالب جندهم ، فقد مكثوا فى الجيزة ولم يحذوا العبور إلى القاهرة فى عدة أيام ؛ كيلا يوقعوا الفرع والازعاج بالأهالى .

وفى اليوم التالى لقدم بونايرت القاهرة مضى إليه كافة كبار المشايخ والأعيان واجتمعوا به ، فعينوا عشرة من العلماء ، والقاضى ، وكتخذا والى مصر مصطفى أغا ، أعضاءً للديوان ، وعينوا المدعو محمد أغا (أغاى مستحفظان) وولوا على أغا شعراوى منصب والى الشرطة وحسن أغا منصب أسين الاحتساب وقلدوا ذا الفقار كتخدا المسكين كتخداوية بونايرت ، وقلدوا نصرانياً يدعى (فرط الرمان) منصب كتخدا مستحفظان ، إمعانا فى إذلال المؤمنين . [٦٧-١]

وهاجموا بعض بيوت الأمراء واستولوا على ما بها متاع ونفائس وتركوها مفتوحة ، فدخلها اللئام والأوباش ، ونهبوا ما تبقى فيها من متاع وباعوه بثمان بخس ، كبيع أشياء تساوى مائة قرش بقرشين ، فامحت كثير من بيوت العائلات وشملها البوار ؛ ولهذا ظلت الأسواق مغلقة ، ولم تنزل الوحشة والفرع بالناس عدة أيام ، فنصبوا علم الفرنسيين على بيوت أعيان البلاد وأشاعوا بذلك الأمن والطائنة ، ثم علقوا مكاتبه أمان على بيوت بعضهم .

وبعد مرور نحو أربعة أيام على هذه الحال ، عبرت جند الفرنسيين شيئاً فشيئاً من الجزيرة إلى البر الآخر ودخلوا مصر أفواجاً أفواجاً ، وسكنوا البيوت الشاغرة فيها ، وأسروا غلمان بعض أمراء الممالك وجواريتهم وزوجات بعض الكشاف وأتباعهم ممن بقوا بالقاهرة ، فحضر كبار المشايخ والأعيان وتشفعوا في أسرى الممالك وطلبوا إليهم كف أيديهم عن تلك الأفاعيل المستقبحة ، فقبلوا شفاعتهم وأعتقوا تلك الجوارى بعد أن جردوهن من ثيابهن .

وإعتاقهم لأولئك الأسرى مراعاة لخطر كبار المشايخ والأعيان في وقت كانوا فيه في حكم الموتى ، تصرفت بحفظه الأهالي جميلاً لهم واعتبروه رمزاً لحسن الوفاق . [٦٧ - ب]

وتجمعت النساء المعتقات حاسرات ودخلن الجامع الأزهر عليهن زرق الثياب ، فأقمن فيه بأكلن من صدقات أهل الخير . وهؤلاء النسوة كن منذ أسبوع يتقلبن في أعطاف نعيم الأمراء والكشاف ، إذا بهن في غضون أيام قلائل صرن يأوين في الجامع الأزهر الشريف ، حافيات متسولات ، يأكلن من صدقات فاعلى الخير . ولما طالع ذلك أولو الأبواب ، اعتبروا من تلك الدنيا الغرورة القانية .

وأثناء تلك الوقائع نادوا في الناس : " من أخذ شيئاً من البيوت المنهوبة يأت ليحضره إليّ وإن لم يفعل وظهر بعد ذلك أخذناه بأشد العقاب " ، فجمعوا بذلك أموالاً كثيرة ، حتى إنهم قبضوا على شيوخ الجعيدية وعذبوهم وحصلوا منهم على أموال جزية ، ثم أعدموهم . أما زوجات الأمراء اللاتي لم يتعرض لهن أحد ، فقد علقت بأنفسهم الوسوس ولم يعرفن الطمأنينة والسكينة ، [٦٨ - ١] وخفن

من عاقبة الحال ، فحضرت السيدة نفيسة زوجة مراد بك وصالحت على نفسها وزوجات أتباع زوجها من نساء الأمراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرنسي وسكن بيوتهن سالمات آمنات . وجمعوا كذلك أموالا كثيرة من بقية نساء المماليك تحت اسم غرامة الأمن والسلامة ، كما طالبوا الأهالي بالجياد والجمال والحصار والماشية ، فتحصل لهم حيوانات كثيرة . وفتحوا دكاكين سوق السلاح بحجة التفتيش عن الأسلحة ، ونهبوا منها الكثير ولم يكتفوا بذلك ، فاجتاحوا يهشمون أبواب كثير من بيوت المسلمين ووكالاتهم ودكاكينهم ونهبوا منها أموالا لا حصر لها ، ففرح الأهالي وخافوا خوفا عظيما .

ولم يمض يوم إلا وعاثوا في البلاد ظلما وفسادا ، فمن قبل طلبوا سلفة مقدارها خمسمائة ألف ريال من تجار المسلمين والنصارى والقبض والشوم والأروام ، وتشددوا في تحصيلها فعجز الأهالي عن دفع تلك الإتاوة وتشفع كبار المشايخ والأعيان وسألوهم تخفيفا ، فحلفوها إلى النصف وأمهلوهم أياما لدفع النصف الباقي . [٦٨ - ب]

وصول رسالة حجاج مصر

في ٢٠ صفر وصلت من العتبة رسائل صالح بك أمير قافلة الحج المصرية وسائر حجاج المسلمين ، فمضى أرباب الديوان إلى بونايرت يطلبون أماتا لأمير الحج ، فامتنع ولم يجبههم إلى طلبهم وقال : " لا أعطيه ذلك إلا شريطة أن يأتي وحده ولا يحضر معه مماليك ولا جند ، وإن كنتم تريدون إحضار الحجاج المسلمين إلى مصر في أمن

وسلامة ، أرسل إليهم ببعض من جند الفرنسيين يوصلونهم إلى القاهرة". فكتبوا إلى أمير الحج بذلك فلم تبلغه تلك الرسالة حتى أرسل شيخ البلد إبراهيم بك إلى صالح بك أمير الحج يخبره باستيلاء الفرنسيين على مصر ، وينصحه بالقدوم ومن معه من الحجاج إلى جهة بلبيس ، [٦٩-١] فاصطحب أمير الحج كافة حجاج مصر وكافة تجار الحجاز وساروا نحو بلبيس وبعد أن تلبثوا بها أياماً ، أرسل إبراهيم بك الحريم إلى الصالحية وارتحل هو ومن معه إلى المنصورة واكثرى بعض الحجاج حيوانات فلاحى قرى الشرقية فأوصلتهم إلى بعض القرى المجاورة . ولحق التجار الحجازيون فى صحبة قليل من الحجاج بإبراهيم بك وتلبثت فئة قليلة منهم ببلييس يترقبون ما سيكشف عنه ستار الغيب من عجائب الحوادث .

زحف الفرنسيين على بلبيس

سمع الفرنسيون أن الحجاج والتجار — ممن لم يسبحوا قرى الشرقية بعد — فى سبيلهم إلى اللحاق بوالى مصر أبى بكر باشا وشيخ البلد ، وأن بعض الفارين من الأطراف والنواحي المجاورة فى طريقهم إلى الاتفاق مع بدو الصحراء ومنابعهم .

وكيلا يجتمع شعث الأمراء المنهزمين ، عبأ الفرنسيون صفوف فرسانهم بما حصلوا عليه من الجياد الوفيرة وأرسلوا تجريدة بمدافعها وأسلحتها لطرد المماليك وإبعادهم عن تلك الجهات ، ثم لحق بهم بونابرت ، فمروا بقرى الخانكاى وأبى زعل وطلبوا من الأهالى المنونة

فامتنعوا ، فقاتلهم ونهبوا أموالهم ، وحرقوا دورهم . وفى اليوم التالى قصدوا بلبيس واستولوا عليها بلا قتال ولم يتعرضوا مطلقا لمن بقى فيها من الحجيج والتجار ومن فر من القاهرة، [٦٩-ب] وأرسلوهم سلمين آمنين إلى القاهرة فى خفارة طائفة من فرسان الفرنسيين ؛ وذلك بقصد التظاهر بالعدل وأجابوهم إلى كل ما طلبوا ، فألقوا بذلك السكينة فى قلوبهم .

وأخبر بعض الأشخاص الفرنسيين بأن الأمراء فى المنصورة ، أما حريمهم وأموالهم وأمتعتهم ففى الصالحية ، فاشتعل تنور طمع بونايرت وجشعه، وزحف فى الصباح على جهات القرين والصالحية ، واتصل ذلك ببعض الأشخاص فأرسلوا إلى شيخ البلد يخبرونه ، فترك من صاحبه من الحجيج والتجار فى المنصورة وأسرع برجاله إلى القرين ولم يطل مكثهم بها لئلا يكون الفرنسيون قد ساروا إلى جهة حريمهم من طريق آخر ، وأسرعوا إلى الصالحية حيث التقوا بزوجاتهم وأولادهم ففسروا بذلك كثيراً . ومن جهة أخرى حضر اللصوص إلى الحجيج والتجار الذين قدموا فى رفقة شيخ البلد ووضعهم على الطريق المؤدى إلى المنصورة ، وغرروا بالمساكين فقالوا : " إن الفرنسيين لم يتعرضوا مطلقا بالأذى إلى من وجدوه من الحجيج والتجار فى بلبيس وأوصلوه بسلام إلى مصر ونحن كذلك سوف نوصلكم إلى القرين ليرسلكم الفرنسيون منها إلى القاهرة ." وحملوهم بأجور زهيدة حتى إذا انتصف بهم الطريق انتهبواهم وسلبوهم ما فى حوزتهم من متاع . وفى تلك النهبة احتوى اللصوص ثلاثمائة ألف ريال نقداً من أحمد المحروقى

رئيس التجار فحسب ، [٧٠-١] ومثلها أمتعة ، وانتهبوا كذلك أموال ومتاع سائر التجار والحجاج فجعلوهم فقراء معدمين .

وألق الفرنسيون عن بلبس وانتهبوا إلى القرين ، ووصلها كذلك أهل تلك القافلة المنهوبة ومثلوا بين بدى بونابرت وقصوا عليه ما حل بهم ، واشتكوا له من لصوص البدو ، فعنفهم قليلا قائلا : " ولم رافقت الأمراء للمضى إلى المنصورة ؟ " . ثم طيب خاطرهم وهدا من روعهم وأرسلهم إلى القاهرة صحبة جنده .

ولا يزال الأمراء يقيمون فى الصالحية مع حريمهم وأموالهم ، حتى خرج عليهم لصوص بدو تلك الجهات وغرروا بهم فقالوا : " إذا خرج عليكم الفرنسيون فى هذه الجهة ، فسوف يصعب عليكم لقاءهم ومعكم هذا القدر من الأطفال والنساء ، ومن ثم أنسب لكم أن تعجلوا عدة ساعات بلباقهم ونتولى نحن حماية أولادكم وحريمكم وأموالكم فى هذه الناحية ، ونضمن لكم ألا يصيبهم أى مكروه " . [٧٠-ب]

فوثق الأمراء بهم ومضوا جميعا للقاء العدو . فالنقوا بأحد فيالق الفرنسيين فى منتصف الطريق وكان قد تأخر مشاتهم بالمدافع ، فقاتلوهم بفرسانهم فحسب ، وإن كان فرسانهم فئة كثيرة إلا أنهم لم يكن لهم طاقة على مواجهة شجعان المماليك ، فهجموا على الفرنسيين وشتتوا شملهم وسل شجعان فدائى المماليك سيوفهم الدمشقية ، وأبلوا فى القتال فألحقوا الهزيمة والكسرة بالفرنسيين وأخذوا فى ملاحقة فلولهم ، [٧١-١] فإذا برسل الاستغاثة تحضر إلى المماليك وتخبرهم بأن البدو الذين تعهدوا بحراسة حريمهم ، قد نكثوا بالعهد واستباحوا أموالهم ونسائهم ، وتقاتلوا مع عدد من خواص الخدم المكلفين بحراسة

الحريم ، ولما أخبروا المماليك بهذا أضاعوا من أيديهم قنصاً كان جاهزاً؛ إذ إنه فيما كان من الواضح أنه لا نجاة للفرنسيين من هذه الواقعة الطاحنة ، تسبب البدو المنافقين ، بما قاموا به من أعمال عدوانية فـى ضياع أملهم . وعليه تحتم على المماليك العودة . وفيما كان أشقياء البدو يحتاطون بالحريم ويوشكون الانقضاض عليهم ، حضر المماليك وحملوا عليهم وقتلوا عشرة منهم ، فـوت فلولهم مدبرة .

ومحصلة القول فإن الفرنسيين من جهة ولصوص البدو من جهة أخرى كانوا أعداءً ألداءً للمهاجرين أولى بأساس وشدة عليهم ، فافتقدوا الموضع الآمن فى البلاد المصرية واتسدت أمامهم أبواب الأمل من كل الجهات ، فارتحل الحاج أبو بكر باشا وكافة أمراء المماليك وأتباعهم ومن صـحبهم من الجم الفقير من الفارين من أهل مصر وأولادهم وزوجاتهم من الصالحية قاصدين غـزة بطريق صحراء التيه .

[٧١ - ب]

موقعة (أبو قير) البحرية بين الأسطول الفرنسى والإنجليزى وانتصار الأميرال الإنجليزى على الفرنسيين

يذكر المتبحرون فى أخبار الزمان من المؤرخين أن الأميرال نيلسون - أميرال الأسطول الإنجليزى - قدم الإسكندرية وأخبر أهلها بأن الأسطول الفرنسى قادم إليهم ونصحهم باليقظة وأخذ الحيطـة دوماً ، ثم اتجه بأسطوله إلى سواحل الشام وتـجول فى مياه حيفا وعكا واللاذقية والإسكندرونـة ، فلم يعثر لأسطول الفرنسيين على أثر ، ففـقل راجعاً ،

وعندما بلغ مشارف الإسكندرية أدرك من السفن الفرنسية الكثيرة الراسية على سواحلها أن الأسطول الفرنسي قدم واستولى الفرنسيون على الثغر ، فأخذ كل الأسف على ذهاب ما تكلفه من جهد ففى البحث عن أسطول العدو أدراج الرياح .

ومع أن السفن الفرنسية صغيرة وكبيرها كانت راسية داخل ميناء الإسكندرية ، إلا أنه كان يضيق بالسفن ذات الإثنتى عشر عموداً وصارياً يبلغ عنان السماء ، فكان من الحتم أن ترسو تلك السفن فى مياه (أبوقير) . وكان هيكل تلك السفن من الضخامة والجساماة بحيث إذا وضع عدد من السفن والقوارب فى ركن من أركانها ، احتواها وكأنها صحراء وسيعة مترامية الأرجاء . [٧٢-١]

وهكذا كانت مواجهة سفن ضخمة من ذلك القبيل بالأسطول الإنجليزي ، الذى كان قوامه ثمان عشرة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ، يعد أمراً صعباً عسيراً ما لم يكن مستحيلاً ، فشاوور نيلسون قادة سفنه فى الأمر ، ثم أسرعوا تواءً يهاجمون مؤخرة السفن الفرنسية بغتة ، وهنأ رفع الفرنسيون مرساتهم ، وخفوا للقاء سفن الإنجليز ، غير أن دوى المدافع التى أطلقت من كلا الجانبين أحدث ضجة عظيمة ، وحجبت أدخنة البارود الزرقاء الرؤية فوق صفحة البحر ، فراحت السفن تشتبك مع بعضها البعض دون تفرقة بين عدو أو صديق .

ولما ارتفعت سحب الدخان وتصاعدت السنة اللهب فجأة من وسط سفن الأسطول الفرنسي وغرقت منها ثلاث سفن ضخمة بمن فيها ، ولما شاهد الفرنسيون السفن الإنجليزية تخترق أسطولهم وتشطره شطرين وتتجهز لتدمير ما على يمنتها ويسرتها من السفن ؛ أدركوا أنهم

هالكون جميعاً لا محالة بقذائف المدفعية إذا ما تشبثوا بالقتال ربع ساعة أخرى ، وسرعان ما نكسوا أعلامهم معلنين استسلامهم . [٧٢-ب]
وعندما شاهد الإنجليز هذا من حال الفرنسيين ، تمادوا في إزلالهم والتكتيل بهم ، ومن عاين هذه الواقعة من ميناء الإسكندرية من الفرنسيين فترت همته ووهنت عزيمته .
ولم يكتف الإنجليز بذلك ، فأرسوا سفنهم في مداخل ميناء الإسكندرية ومخارجه عن اليمين وعن الشمال وبسطوا سطوتهم وسيطرتهم عليه ومنعوا الدخول والخروج ، وحصروا الفرنسيين في ذلك الميناء .

عودة الفرنسيين من بلبيس إلى القاهرة بعد رحيل مراد بك وأتباعه إلى الصعيد ، وإبراهيم بك وأتباعه إلى غزة

نكرنا من قبل أن بونابرت اللعين سر عسكر الفرنسيين خرج
بعده وفيرة من الجند يريد الشرقية ، فالتقت أحد فيالقهم بإبراهيم بك
ومضى الأمير المذكور إلى غزة ، بعدها عاد بونابرت أدرجه إلى
القاهرة وفي اليوم التالي أرسل في طلب المشايخ والأعيان ، [٧٣-١]
واستفسر عن المولد النبوي ولماذا لم يطموه كعادتهم ؟ . ولم يكن قصد
بونابرت تعظيم النبي (صلى الله عليه وسلم) والاحتفاء بمولده ، وإنما
كان يرمى من وراء ذلك إلى خديعتهم والمكر بهم ، وجزم كبار المشايخ
بذلك ، فتعللوا بتعطل الأمور وضيق الأحوال ، فأعطاهم ثلاثمائة ريال
فرنسي وقال : " لا بد من ذلك " . وفي يوم المولد اجتمع الفرنسيون
ودقوا طبولهم ودفوفهم وركنوا إلى اللهو واللعب . وفي اليوم التالي
أرسلوا عدة عظيمة من الجند بأسلحتهم وعتادهم ومدافعهم تحت إمرة
(ديزيه) إلى جهة الصعيد ، وصحبهم قبضي يدعى يعقوب ، عينوه لجمع
المال .

وكانت زوجة المدعو رضوان الكاشف ، قد صالحت على نفسها
بألف ريال وثلاثمائة وسكنت دارها آمنة مطمئنة في عدد من جواربها ،
وفي هذا الحين كبس حشد من جند الفرنسيين دارها واتهموها بإخفاء
أسلحة وفتشوا الدار فعثروا داخل سرداب أو اثنين على أربعة وعشرين
سروالاً وغير ذلك من الأمتعة المتعلقة بالعسكر ، وبارود ورصاص وشيئا
كثيراً من الأسلحة ، علاوة على أنهم قد عثروا كذلك على صندوق به

دراهم وديناتير جزيلة ، فاحتوا كل ذلك وسبوا عدداً من الجوارى البيض والسمر وحملوا ذلك كله إلى ثكناتهم ، [٧٣-ب] وبعد أن احتجزوا تلك الجوارى لديهم ثلاثة أيام بلياليها سرحوهن وأعادوهن إلى دارهن .

وبتلك الحجة اقتحموا عدداً من الدور ونهبوا منها ما لا يدخل تحت الحصر من الأموال والأمتعة . وقتلوا مصطفى أغا كتحذا أبى بكر باشا ، الذى تليث بمصر لم يبرحها ، إمارة الحج وخلعوا عليه فى المحكمة . وقسموا ضريبة المؤن على الأقضية المجاورة وحصلوها فى غضون أيام وبذا أنهوا أمر الضرائب .

ولما كان ناظر جمرك ثغر الإسكندرية لدى حضورهم إليها من قبل ، محبوساً لديهم ، فقد أركبوه حماراً وطافوا به وهم ينادون عليه ويقولون : " هذا جزاء كل من يخرج على الفرنسيين " . ثم أعدموه رمياً بالرصاص وصادروا كافة أسلحة وأمواله .

وفى اليوم التالى استدعى بونابرت كبار المشايخ وأعيان البلاد إلى مجلسه وأحضر عدة أوشحة ملونة بثلاثة ألوان هى الأبيض والأحمر والكحلى وطلب إلى المشايخ أن يلبسوها ، فوضع واحداً منها على كتف الشيخ الشرفاوى ، فطرحه على الأرض وامتقع لونه وبدت عليه أمارات الغضب والحدة ، [٧٤-١] فقال الترجمان : " يا مشايخ إنما يقصد قائدنا التعبير عن محبته لكم وتعظيمكم وتشريفكم بين الناس والعسكر " . فقالوا له : " ولكن هذا الأمر يتنافى مع ديننا ومن شأنه إسقاط قدرنا وهيبتنا لدى إخواننا من المسلمين ، وعليه نحن جميعاً نؤثر القتل والاستشهاد على أن نفعل ذلك " . وأبوا ارتداء ذلك النوع من الأوشحة ، فاغتاظ بونابرت وثار ثأرته وقال : " إن الشيخ الشرفاوى هذا ، غير جدير بالرياسة ولا

يصلح لها"، ثم لج في إلحاحه وقال: "لابد أن تضعوا (الجوكر) على صدوركم". فقالوا: "أسهلنا حتى نتشاور في الأمر فيما بيننا"، وخرجوا من مجلسه.

وفي اليوم التالي مضى بونابرت إلى شيخ السادات وغالى فى مجاملته، فقبل يده تارة وركبته تارة أخرى، وبعدها نادوا بوضع الشارات المذكورة المعروفة بـ (الجوكر) على صدور العوام كافة: شيبا وشبابا، وعظماء ووضعاء. وبعد عدة ساعات ولحكمة لا يعلمها أحد نادوا من جديد بإبطال وضع تلك الشارات على صدور العوام وقصرها على الأعيان دون غيرهم.

وأرسلوا عدة من جندهم بمدافعهم وعتادهم على جهات الشرقية وفتكوا بمن صادفهم من العربان.

وأرسل القائد (ديبوى) فى طلب زوجة عثمان بك البجوقدار، بتهمة إرسال نقود وأشياء إلى زوجها الهارب مع فرّاش، [٧٤-ب] وعندما أخذها بالإرهاب والوعيد، حضر عدد من العلماء والمشايخ وتشفعوا لها، فلم تقبل شفاعتهم وأرسلوا فى طلب الفرّاش لاستجوابه ولما لم يجدوه قال له المشايخ: "خلوا سبيلها ودعوها تذهب إلى دارها وفى غد نأتى بها ونحقق فى القضية"، فرفض، فوضعوا فى صحبتها بعضا من نساء المسلمين العجائز وباتت عندهم فى ركن الدار حتى الصباح. ولما أضحى النهار، مضى العلماء - المشايخ كافة إلى بونابرت وعندما أحضر ديبوى والسيدة والفرّاش لم يثبت شيء عليها من تلك الدعوة، فأطلقوا سراحها.

وفى اليوم التالى نادوا فى الناس بتنظيف الأسواق والدكاكين وإضاءة الطرق والسبل بالقناديل ليلا ، وقلدوا المدعو إبراهيم أغا قبطانية السويس ، وصحبه عدد من الفرنسيين ، فخرج عليهم العربان فى الطريق ونهبوهم وقتلوا القبطان المذكور ومن معه من الفرنسيين ، ولم ينج منهم أحد يأتى نبأ ذلك ، فاستنطقوا عربان تلك الناحية وسألوهم عما حدث كيف حدث .

وأخرجوا كافة سكان القلعة من منازلهم وأنزلوهم إلى المدينة ليسكنوا هم بها وقتلوا رجلين بتهمة التجسس لحساب المماليك [١٧٥ - ١] وطافوا برأسيهما وهم ينادون عليها ويقولون : " هذا جزاء من يأتى برسائل من المماليك " وبذا أزهبوا الأهالى وخوفوهم .

ونادوا على الناس بنشر ثيابهم بالأسطح ثلاثة أيام ، وتطهير البيوت من الداخل والخارج وتبخيرها بالبخور المذهب للعفونة .
شاع أن الفرنسيين شرعوا فى هدم الأضرحة والمزارات الواقعة فى الأوزبكية ، فتحزب الأهليون وتقاطرت جموعهم إلى باب بونابرت ، فنزل إليهم من أبلغهم بأن قائد جندهم لا علم له ولم يأمر به وهدأوا من روعهم وطمأنوهم .

كتب الفرنسيون كتابا على لسان المشايخ والأعيان ، ليرسلوه إلى شريف مكة ذكروا فيه أن الفرنسيين على الدوام من أحياء الدولة العلية ، وأنهم يعظمون الإسلام والقرآن ويجلون النبى (صلى الله عليه وسلم) وأنهم أوصلوا الحجاج المسلمين سالمين وأركبوا الراحل وأطعموا الجائع وتصدقوا على الفقراء والمحتاجين واحتفلوا بالمولد النبوى الشريف ، وأوفوا سائر الحقوق الإسلامية ولم

يصدر منهم ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية الغراء . [٧٥-ب] ثم طبعوا من هذا الكتاب عدة نسخ ونشروها بعد أن حملوا المشايخ والأعيان على التوقيع عليها .

تره أحد الفضوليين من الرجال بأن قال : إن المرحوم الشيخ أحمد البدوي بالشرق والشيخ إبراهيم الدسوقي بالغرب يقاتلان النصارى .

واتصل ذلك ببونابرت فأرسل وقبض على ذلك الرجل ، ولما علم كبار المشايخ بهذه الحادثة من الناس ، وتشفعوا للرجل والتمسوا له العفو ورجوا له الصلح على أنه مخبول ، فأطلقوه على أن يؤدب فى بيت شيخ السادات بمائة جلدة ، ثم أخلوا سبيله .

وعقد الفرنسيون العزم والنية على إرسال تجريدة على مراد بك ، فأرسلوا عدة كثيرة من جندهم تحت إمرة (ديزيه) الذى أنفذ من قبل بمقدار من المدافع والأسلحة ، ولأنهم عدوا القضاء على الأمير المذكور وشيعته أهم آمالهم ، فقد التقوا معه فقتلهم مراد بك برجاله إلى الخلف فى أول الأمر ، فطمع فيهم الفرنسيون وتعقبوهم حتى إذا وصلوا إلى سفح جبل (اللاهون) ، كر عليهم شجعان المماليك فجأة ، وأبلسوا خير بلاء فى قتالهم ، وبهمة وشجاعة استدرج فرسان مراد بك جنود الفرنسيين إلى كمين لم يفتنوا إليه [٧٦-١] .

وعجز الفرنسيون عن صد هجوم غزاة المسلمين ، فجأروا بطلب الأمان كعادتهم عند الهزيمة ، غير أن ذلك لم يجد أذنا صاغية من شجعان المماليك ، فأبادوا ثلاثة أرباعهم بسيفهم الصارمة ، أما من

نجوا من القتل وتمكنوا من الهرب فقد خرج عليهم العربان وقتلوا أكثرهم، واستطاع ديزيه الهرب فى فئة قليلة من رجاله .

اندلاع الفتنة فى مصر ومقتل القائد ديبوى وطلب الأهالى الأمان بعد الحرب وانعقاد الصلح

ابتدع الفرنسيون ديواناً جديداً وأعلنوا للناس أنهم بصدد وضع قانون جديد حول أمور البيع والشراء والمعاملات وقسمة المواريث والنكاح وسائر الأمور الشرعية وذلك حسب أفكارهم وتدابيرهم ، [٧٦ ب] واستفسروا عن كيفية إدارة المقاطعات والأراضى والعقارات والبيوت والخانات والدكاكين والطواحين والوكالات والرُّبُط ، وطلبوا الناس بإحضار حجج وسندات أملاكهم.

كما سألوا عن أمر المواريث قائلين : " نحن عندنا لا نورث الولد ونورث البنات ، لأن البنات ليست لها القدرة على العمل والتكسب مثل الولد ؛ وعليه عليكم أن تكتبوا لنا كيفية القسمة الشرعية لديكم " .
فحرر العلماء صورة مجملة فى اليوم التالى لكيفية قسمة المواريث وفق مبادئ الشرع الشريف ، وسلموها لبونابرت ، فترجموها له وأطلعوه على مفهومها الشريف ، فاستحسنها وأمر بتقسيم المواريث على نسقها ، ونبه على ضرورة تسجيل سائر عمليات البيع والشراء لدى ديوان مصر ، وفرض المقررات على الدور والعقارات والدكاكين والخانات والربط وحتى الأضرحة والمقابر ، بحسب أحوالها وبحد أقصى

أربعين ريالاً وهد أدنى ريالين ونبه على أداها شهرها ، فسكت المشايخ
وقد بهتوا وعادوا إلى ديارهم .

ولما أشيع ذلك في الناس خرجوا خروجا عاما دون أن يتفكروا
في أنهم في قبضة الفرنسيين الذين بيدهم الأمر بما لديهم من المدافع
والعتاد الحربى والذخيرة ، [٧٧-٩] وعزموا على الجهاد والكفاح ،
فحضر المدعو (السيد بدر) وبصحبه حشرات الحسينية وثلة عظيمة
من المغاربة وهاجموا بيت القاضى وتبعهم خلق كثير من العامة وهم
يهتفون : " نصر الله دين الإسلام ولعن الكفرة اللئام " ، فخاف القاضى
العاقبة وأغلق أبوابه ، وعندما حاول الرد عليهم رشقوه بالحجارة وبدوا
وكأنهم أعلنوا الحرب على الفرنسيين .

واجتمع بالأزهر كذلك العالم الأكبر ، وفى تلك الأثناء اصطحب
ديبوى حشدا من جنده ومضى إلى دار الشيخ الشرفاوى للاستعلام عما
يجرى ، ولما لم يجده فى داره ، [٧٧-ب] سار إلى بيت القاضى ودخل
وسط الزحام فبادروا إليه وقتلوه فى نفر من جنده .

وعلى الفور تسلح الجميع وعمدوا إلى نصب المتاريس ، فخرج عليهم
قليل من الفرنسيين ، فبادروا إليهم وقتلوهم وفتح الجند المصريون
نيران بنادقهم على الفرنسيين وقتلوا بعضهم وتعلق الباقون بأذيال
الفرار فالتهبت حمية الغوغاء وأخذتهم الحماسة وهاجموا بيوت المغاربة
والفحامين والفلاحين والأورام والقبط واعتدوا على العباد وقتلوا وهتكوا
الأعراض .

وانقضت تلك الليلة والحال على هذا المنوال واتخذ الفرنسيون
للحرب أهبتها فى القلاع والأبراج ، ووقفوا ينتظرون أمر سر عسكريهم ،

فأرسل بونابرت إلى المشايخ يستفسر عما حدث ، فلم يرجعوا جوابا ، علاوة على أن بعض المتهمين من العامة سلوا سيوفهم على جند الفرنسيين ، وهكذا اتسع نطاق القتال وحمل وطيس النزال حتى إذا حل وقت العصر أعطى بونابرت الأمر بالضرب ، فأطلق جند الفرنسيين قذائف مدفعيتهم وينادقهم من القلعة وأبراجها على البيوت والحارات ، [٧٨-١] ووالوا الضرب على الجامع الأزهر وسوق الفحامين ، فاستولى الفرع على بسطاء الناس من هذه الحرب التي لا عهد لهم بها ولم يشهدوا مثلها من قبل في حياتهم ، فتشذروا بددا ، ومضى العلماء والمشايخ إلى بونابرت وطلبوا منه الأمان فانتهرهم وأشبعهم تأنيبا وتعنيفا على تأخرهم واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا له بأنهم لم يجدوا الفرصة من هجوم الناس ، فقبل عذرهم ومنحهم الأمان وأمر جنده بكف أيديهم عن الضرب ، غير أن أهالي الحسينية والعطوف الخارجية ثبتوا على القتال حتى نفذت ذخيرتهم وغلب عليهم الفرنسيون وانتهبوا أموالهم ومتاعهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ثم دخلت طائفة من الفرنسيين الجامع الأزهر بجيادهم وربطوها في قبلته منتهكين حرمة هذا الصرح الإسلامي العظيم .

وعلاوة على هذا فقد كسروا دواليب وأرفف الكتب وطرحوا ما بداخلها من نفائس الكتب والمصاحف أرضا وكأنهم بذلك [٧٨-ب] — حسب زعمهم الباطل — قد نالوا من قدر الإسلام وحقوقه . ثم نادوا بعد ذلك بالأمان في الأسواق وأظهروا تلطفهم بأمر الناس وأبطنوا لهم الحقد والعداء ، واجتاحوا يخربون عددا من الدور ويعذبون كثيرا من المسلمين مختلفين الحجج والمعاذير .

وفى هذه الأثناء وردت مكاتبات من الجزار باشا وأمرأه المماليك يعلمون فيها أهل مصر بأن الدولة العلية أعلنت أنها سوف تتفد حمتين أحدهما برية والأخرى بحرية لطرد الفرنسيين من مصر ، وتحتم على المشايخ إخبار بونايرت بأمر تلك المكاتبات ، فلما طالعها عمد إلى مغالطتهم قائلا : " إن ذلك مكيدة من الجزار باشا والمماليك ، فالجزار وزير سفاح عاص للدولة العلية وهو يرمى من وراء ذلك إلى الاستيلاء على مصر ونهب أموال فقرائها وقتل الكثير من أهلها بالاتفاق مع المماليك " .

وبسبب ما اندلع من أحداث أوجس الفرنسيون خيفة ؛ فركزوا قواتهم وجمعوها حول الأروبية ؛ وصاروا يخافون الناس حتى إن شخصا منهم لم تكن له الجرأة على التجوال بلا سلاح ، وخافوا كذلك من التجول مثنى وفردا .

[٧٩-١] عثر الفرنسيون فى أحد البيوت على عدة صناديق كانت لكريمة إبراهيم بك وكان بها كم هائل من الدراهم والدينانير والحلى فاحتوا كل ذلك .

وقاموا كذلك بدس السم لكلاب السكك والأسواق بحجة أنها تزعج الناس بنباحها، وهكذا لم تسلم حتى الحيوانات من شرورهم .

أيضا أقاموا دارا للفلكيين والرياضيين والمهندسين والنقاشين والرسامين والكتاب والمحاسبين والمصورين ، وأقاموا خارج المدينة طاحونا ، وشادوا الكثير والكثير من الأبراج وشحنوها بالجنود المشاة والمدافع والأسلحة .

ومن قبل كان أهل السويس قد تركوا ديارهم لئلا يلغهم نيا
مجيء الفرنسيين ، فمنهم من فر إلى جبل الطور ومنهم من لاذ ببدا
البادية . ولما مضى الفرنسيون إلى تلك الجهات ووجدوها خالية، نهبوا
بيوتها وهدموا دورها، ولما سأل بونايرت اللعين عن إجمالى الدخل من
جمر مينا السويس ، أجابه بأن ذلك منوط بوجود أهل السويس ،
وعليه اضطر إلى المسير إلى السويس على رأس حملة من نحو
ستمائة من الجند بمدفعيتهم وعتادهم الحربى ، [٧٩-ب]
وصحبه أحمد المحروقى وإبراهيم أفندى (كاتب البهار) وذلك من أجل
منح أهالى السويس الأمان وإعادتهم إلى ديارهم ، فأرسل إلى الفارين من
الأهالى فى جبل الطور لدى البدو وطيب خاطرهم بأن رد عليهم قدرا مما
نهبه الفرنسيون من أموالهم من قبل . ثم تفقد الميناء ، ووقف على
حالته بقدر الكفاية ثم قفل راجعا بمن معه إلى القاهرة .

ألقي القبض على ثلاثة من الفرنسيين بتهمة السطو على الدور
ليلا ، وأحضروا إلى بونايرت فأمر بأخذهم بأشد النكال ، فاستعرضوهم
رميا بالرصاص على مرأى ومسمع من الناس ، وفى تلك الأيام أنفذوا
كتيبة من الجند الفرنسيين إلى (قطيا) على بعد مراحل ثلاث من
الصالحية فى اتجاه الشام ، وهو موضع كثير النخل ، [٨٠-١] فبنوا
هناك قلعة ونصبوا متاريس ، وأسكنوا فيها قدرا وافيا من الجند
بمدفعيتهم وعتادهم الحربى .

وفى تلك الغزوات سيروا كتابهم غير مرة على عربان الشوقية
فاستاقوا كثيرا من لصوهم أسرى واستخلصوا منهم ثلث ما انتهبه

أشقيأؤهم من قوافل الحج ، ثم قتلوا نحو مائتين منهم ، وقتلوا كذلك
 قرابة تسعين ممن ظفروا بهم ، وبذا ثأروا لقتلهم فى واقعة مراد بك .
 واتفق أن كان هناك شيخا شجاعا من المغاربة يقال له الشيخ
 الكيلانى وكان مجاورا بالحرمين الشريفين ، ولما جاء إليه نبأ استيلاء
 الفرنسيين على مصر ، خرج مجاهدا فى سبيل الله ، فتحلق حوله بعض
 الأتباع من أهل الحجاز ، وعبر بهم بحر السويس إلى القصير فالتف حوله
 ثلثة من أهل الصعيد والمغاربة والفايرين من المماليك ، ولما وصل ذلك
 إلى الفرنسيين ، توجهوا إليهم خوفا من أن يستفحل أمرهم ويكثر
 جمعهم ، [٨٠ - ب] والتقى الجمعان وقتل كثير من الفرنسيين واستشهد
 كذلك عدد من الفزاة المسلمين ، وتشنت فلول المماليك والمغاربة .
 ووقعت الحرب غير مرة بين البقية الباقية من الحجازيين والمغاربة
 والفرنسيين ، غير أنها كانت تضع أوزارها دون طائل .
 وبنى الفرنسيون (كرنتيلة) فى بولاق ، ونبهوا على نقل
 المرضى إليها .

وصول خبر استيلاء الفرنسيين على مصر من جهة القاهرة إلى السلطنة السنية وعقد المشاورات فى ذلك الصدد

تأتى للدولة العلية العلم بما حدث من خلال جملة رسائل
 الاستغاثة التى وصلت إلى الباب العالى من والى مصر أبى بكر باشا
 وكافة أهلها . وقد عرض مجمل تلك الرسائل على السلطان ، ولما تحصل

له الوقوف على مضمونها أمر بعقد مشورة في مجلسه للتشاور في هذا الأمر ، وبذل الهمة لتطهير الأراضي المصرية المقدسة من دنس المشركين ولوثهم ، [٨١-١] فدعى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام والقبودان باشا وسائر العلماء ورجال الدولة وقادة الجند إلى الحضرة السلطانية ، وأعلم الجميع بالباعث على الاجتماع وسبب المشورة ، فاستنكر جميع الحضور ما حدث واعتبروه تطاولا من أعداء الدين .

ولما كان الجميع يعرف حق المعرفة أن مصر بلد مترام الأطراف وسيع الأرجاء ويصل البرين ويفصل البحرين ، ويلقب بأمة الدنيا ويعد مفتاح الحرمين ومصباح القبلتين ؛ فقد أذن لهم حضرة السلطان بأن يقول كل منهم ما يعرفه وما يراه من تدابير صائبة للاقتصاص من العدو والثأر منه . فأجمل أهل الرأي المشورة ما ينبغي إجماله من اللوائح والمسودات وفصلوا ما ينبغي تفصيله منه وانتهت آراؤهم بالإجماع إلى أن الجمهورية الفرنسية منذ أن استشرت فتنتها وتعاضمت مفاسدها ما حاربت دولة من الدول النصرانية المجاورة لها إلا وقهرتها وأخضعتها لسيادتها ، [٨١-ب] وقد جاهرت الآن بعدائها للدولة العلية وأعلنت الحرب عليها .

ولما كان لا يخفى على أرباب الدقة وأولى المنطق الحنيف أنه من غير الممكن قهر أولئك الجمهوريين الذين ركبهم الغرور واحتواهم الكبر بإرسال قادة العسكر إليهم فحسب ، فالأمر يحتاج إلى تعبئة جيوش جرارة قوية العتاد ، لإرسالها برا وبحرا واستنفاد الوسع والطاقة لكسر غرورهم . بيد أن ذلك لما كان يتطلب تنصيب وزير قوى مقتدر ، شديد التدبير ، يعرف كيف يسوس الجند، وتدبير ما يلزم من المشاة والفرسان

من الروملى والأناضول لإرسالهم صحبته ، وتدارك كافة صنوف الأسلحة وآلات الحرب والذخيرة ، فإنه يتحتم علينا إعداد العدة لذلك واتخاذ الأبهة من الآن .

غير أن تعيين سر عسكر من الأناضول أو الروملى وإرساله إلى مصر لما كان سيستغرق أياما طويلة لبعده مسافة البلد المذكور ، [٨٢-١] فقد استصوبوا توجيه إيالة مصر إلى أحد وزراء الجزيرة العربية وتنصيب سر عسكر لمصر ، وتسيير فرسان دمشق وحلب وسائر البلدان العربية ، مع ذلك القائد ؛ وذلك كيلا تمتد يد العدو بالعدوان إلى بلاد الشام المتاخمة لمصر ريثما يصل السر عسكر المذكور .

ولما كان عبد الله باشا العظم ، الذى عزل من قبل من إيالة دمشق وإمارة الحج وأسندت إليه إيالة مرعش ، لم يبرح الشام بعد ، فإنه كان يجمع بين أسباب الوزارة من الكفاية والجدارة وحسن تدبير الأمور ، إضافة إلى كونه من وزراء الجزيرة العربية وتولى الوزارة منذ زمن بعيد كابرا عن كابر وتقلد إمارة الحج أبا عن جد ونشأ وترعرع فى الشام ، وعليه فقد كان وثيق الصلة بمصر بحكم مجاورته لها ومن ثم رأى الجميع إمكانية الاستفادة به فى أمر التخابر السرى والعنى مع أهل مصر وطوائف عرباتها ؛ ولذا صدر الأمر السلطانى بتوليته على مصر وتكليفه بالاتفاق مع سر عسكر مصر الوزير آتى الذكر . [٨٢-ب]

وقد رأى المؤتمر كذلك فى اجتماعهم هذا أنه لا يوجد فى الجزيرة العربية وزير همام ، له المقدرة والحنكة العسكرية ، وتتوفر فيه الشروط اللازمة للقيام بمنصب سر عسكر مصر ؛ ومن ثم كان من الواضح أن أحمد باشا الجزائر ، والى صيدا وعكا منذ زمن بعيد ، كان قائدا محنكا

قديرا ، له الصدارة بين أقرانه وخلق بقيادة الجيوش فى هذا الخطب
الجسيم .

غير أن الوزير المذكور كان متلونا لا يثبت على رأى ، به شىء
من البطء والمطل ، ومن ثم فقد استصوبوا أن يرسلوا إليه فى السر
لمعرفة رأيه فى إحالة سر عسكرية مصر إليه وإمداده بالجنود والمال
والعتاد والذخائر ، حتى إذا ما اعتذر عن القيام بتلك المهمة ، عهدوا بها
إلى غيره من أهل الكفاءة والمقدرة، [١٨٣-١] وبالفعل أرسلوا إليه
سريعا السعاة بالمكاتبات المفصلة على النحو المذكور.

بعدها لم يضيعوا وقتا ، وشرعوا يدبرون الأسلحة والذخائر
وسائر آلات الحرب ، وابتدروا إلى إخراج المشاة والفرسان من الروملى
والأناضول وإنقاذهم، وصرفوا الهمهم لإشاعة الأوامر السلطانية اللازمة
لإعلام الجميع بإعلان الحرب على الفرنسيين .

ولم يمض وقت طويل حتى عادت السعاة الذين أرسلوا إلى أحمد
باشا الجزائر، وفى رده على أمر تقليده قيادة جيوش مصر اعتذر مختلفا
أثمه المعاذير وقال إن وجوده فى عكا حتمى وضرورى؛ إذ إن طائفة
الدروز كانت متأهبة دوما للعصيان ، وعليه التمس إحالة مهمة قيادة
الجيوش إلى وزير آخر مناسب.

ولما لم يكن فى تلك الجهات وزير شجاع ، حسن التدبير ، له
القدرة على قيادة الجيوش فى هذا الخطب الجليل ، فقد آنسوا فى إبراهيم
أغا ، الذى تولى محصلية حلب الشهباء منذ زمن بعيد وتولى قائمقاميتها
غير مرة ، الكفاية والجدارة ، وحسن تدبير الأمر وحصافة العقل ؛
[٨٣-ب] ومن ثم منح رتبة الوزارة السامية إضافه إلى قيادة الجيوش

الزاحفة لغزو مصر ، ولما ظهر أنه يحتاج إلى إيالة الشام لتسهيل مهمته، أسندت إليه كذلك أمانة الحج وأدرجت في مهامه، هذا وقد صدرت الأوامر والتوصيات بإرسال طوائف الجند من الروملى والأناضول بالأسلحة وآلات الحرب والذخائر فى البر والبحر إلى إبراهيم أغا لطرده الفرنسيين من مصر ، وعدم السماح بأى شكل من الأشكال للركون إلى التقاعس والتهاون فى تهينة الظروف اللازمة للشد من أزره فى مهمته ، وإسراعه إلى مأموريته وسلك طريق الاتحاد مع عبد الله باشا الذى أسندت إليه إيالة مصر هذه المرة ، وضبط أمور ما يرسل إليه من جند ومهمات حربية ، واستفراغ الوسع والجهد فى طرد المشركين من البقاع المقدسة ، والمبادرة إلى إرسال كافة التقارير لازمة الإرسال إلى الباب العالى على وجه السرعة .

وما إن اتصل بأحمد باشا الجزائر نبأ استقرار قباء الوزارة على كتف إبراهيم أغا وتقلده إيالتى دمشق وطرابلس وإمارة الحج وقيادة الجيوش الزاحفة لمهاجمة مصر ، حتى دبت فى نفسه نار الغيرة والحسد وأخذته الندم على عدم قبوله قيادة الجيش من قبل ، [٨٤ - ٩] فكتب إلى الباب العالى يكشفه بصارحه بأنه سوف يقبل منصب القيادة العامة للجيوش على ما تنطوى عليه من أعباء ، معتبرا أن إبراهيم باشا وعبد الله باشا ليسا من رجال الحرب ، وغير جديرين بتولى إيالة مصر والقيادة العامة لجيوشها ، وأنه يحتاج إلى إسناد كافه المناصب المذكورة إليه لتقوية عضده فى مهمته .

وعليه بات من الواضح أنه سوف يظهر الحقد والعداء للمشار إليهما إذا لم يسعف بطلبه ويجلب إلى حاجته ، كما أن منافسة أولئك

الوزراء لبعضهم البعض في مقابلة الأعداء من شأنه أن يثلم صفوفهم ويغلب أعدائهم عليهم . وبناء على ذلك ومراعاة لأصول المصلحة العامة، صدر خط همايوني بإلحاق إيالات مصر ودمشق وطرابلس بإيالة صيدا - المتصرف عليها في الأصل - وإسنادها إليه وتقليده منصب قيادة الجيوش المتوجهة لغزو مصر وإطلاق يده كل الإطلاق في كافة الأمور، [٨٤-ب] وأرسل إليه ما طلبه من الأموال والأسلحة والذخائر والجند بأكثر مما طلب.

قدوم يوسف ضيا باشا مقر الصدارة العظمى

تواترت الأقوال والروايات في دعوة منصور اللواء ، شيخ الوزارة ، رب السيف والقلم ، معدن الجود والهمم ، فريد العصر ، فاتح مصر دار النصر، الوزير زينة الدنيا يوسف ضيا باشا الغازي ، إلى الباب العالي لتقليده منصب الصدارة العظمى على النحو التالي :

لم تكن هناك توصية من أحد أو تدخل في دعوة ضيا باشا إلى منصب الصدارة العظمى ، غير أنه لدى مطالعة رجال الدولة لذلك الخطب الجسيم والحادث الجلل وبمقتضى الحكمة القائلة : " أرباب الدولة ملهمون " ، رأى البعض بالمعية أذهانهم أنه حتى ولو أسند إلى إبراهيم باشا وعبدالله باشا ولاية مصر وقيادة جيوشها ، وبذلا الاهتمام فوق المتوقع في إعداد العدة اللازمة لدفع غائلة الفرنسيين عن أرض مصر ؛ [٨٥-١] فإن طرد عدو عنيد ذي بأس مثل الفرنسيين بإرسال قادة العساكر ورؤسائهم ، أمر ليس في الإمكان ، إذ إن دفع هذه العادية

وتسوية هذه الداهية الدهياء سوف يحتاج - على أية حال - إلى إرسال سردار أكرم بعناد عظيم.

أما الوزير سعيد الطالع المتعين تنصيبه سردارا أكرم وتسييره إلى مصر، فينبغي أن يكون وزيرا شجاعا من أهل الحصافة والعقل ، قادرا على حل ما قد يستشكل من الأمور بفكره الثاقب وتدبيره الصائب ، قادرا على تدبير أمور المهمات والذخائر على خير وجه ، قادرا على سياسة الجند وربطهم وضبطهم .

ولما كان ذلك أمرا لا يخفى على أولى المنطق الحصيف ، فقد عددوا الوزراء واحدا واحدا ببنان الإصاف ، ووزنوا كفاية كل منهم وقيموا معدنه لمعرفة أيهم كفيلا بالاضطلاع بهذه المهمة وتسوية هذا الخطب العظيم ، فاتفق رأيهم على أن الغازي يوسف ضيا باشا والى أرضروم يفضلهم جميعا مائة ألف مرة في كفايته وجدارته بالصدارة العظمى . [٨٥-ب]

وبناء عليه ودون إفشاء هذا السر لأى إنسان ، صديقا كان أو غريبا، أرسلوا المير آخور أول لاسترداد خاتم الملك من عزت محمد باشا الصدر الأعظم ، ونزع الأمانة الكبرى من يده ، ثم صدر خط همايوني مبارك باستدعاء والى أرضروم يوسف ضيا باشا إلى مقر الصدارة العظمى ، أرسل مع الخاصكى أبيش آغا (الباشا تبديل) إلى كيان .

[٨٦ - ١] وفى ذلك الوقت كان ضيا باشا قد خرج بجيش كثيف إلى الجبال الشامخة المعروفة بجبال (وسيم) و(دوريك) التى يسكنها أشقياء الشيخ حسن والديسميين الأكراد لاستئصال شأفتهم والقضاء عليهم . وبينما كان مرابطا فى الوضع الذى يقال له (ترشمك) وكان

يصدد سوق الجند وإرسالهم على الأشقياء في جهات شتى ، إذا به يسمع
بنزول الخاصكى (أبيش أغا) بقرية على مسافة ساعتين من ترشمك ،
ويعلم بجلية الأمر ، [٨٦-١] فأرسل على الفور كتخداه في نحو سبعة
آلاف من المشاة والفرسان لاستقباله ، فقدموا به في موكب حافل ، فخف
إليه ضيا باشا مرحبا وتسلم منه الخط الهمايونى المبارك وانحنى له
تعظيما ، وبعد أن فتحه ولثمه سلمه إلى كاتب ليقراه على رأى ومسمع
من كبار رجال دائرته وطوائف جنده ، وعقب إعلان منطوقه الجليل عمت
مظاهر البهجة والفرح وأطلقت المدافع والبنادق ، وخلع ضيا باشا على
أبيش أغا خلعة فاخرة وأوسع إطراء وإكراما ، وأرسل السعاة إلى شتى
الجهات لاستدعاء الأجناد ، ومكث يومين بترشمك ريثما يستدعون إلى
حضرته ، وأرسل محافظ (جارسنقى .) عبد الله أغا وكان رجلا شجاعا ،
على أشقياء الشيخ حسن والديسميين الأكراد ، وبعد أن أملى عليه
وصاياه وتعليماته ، وسوى له الأسلحة والذخائر اللازمة غادر ترشمك
عائداً بعدته وعتاده إلى كبان ، وعلى هامش تسوية مسائل المناجم
الهمايونية وإدارتها لبث يومين آخرين بها ، وبعد أن أطلع على كافة
أمورها وسدد كلا منها على النحو المطلوب ، عهد بوكالة المناجم إلى
الحاج أحمد أغا - من رؤساء بوابى الباب العالى - وأملى عليه كافة
الوصايا اللازمة والمتعلقة بأعمال المناجم ، واستوقف كتخدا عبدي بك
ليلحق به بحريمه وخزائنه وأكثرية خدمه وقصد هو الباب العالى في نحو
مائة أو مائتين من خاصة خدمه .

ولما كان أهالى كبان كبيرهم وصغيرهم منذ سنوات عديدة وهم
ينعمون بالعيش الرغد والأمن والسكينة فى ظل عناية ضيا باشا ، علاوة

على أن أغلبهم قد شمله بجوده وكرمه ، فإنه يوم مغادرته (كيان) ،
جزع أهلها وفرعوا وكانهم قد دهوا بداهية ، فضجوا جميعا بالصياح
وجأروا بخير الدعاء له حتى بلغت أصواتهم عنان السماء .

وبعد أن ودعوه بلغ (سراي حق) على مسافة ثلاث ساعات
فأمسى بها ، ثم طوى مراحل البطريق ، وحكىمى خان ، وآلآجه خان ،
وديكلى طاش ، ويوم قدومه قرية (أولاش) — على مسيرة ست ساعات
من سيواس — استقبله والى سيواس فى ثلة من رجاله . [٨٧-١]
وحينما التقيا خف إليه والى سيواس لحظة ترجله عن فرسه يريد تقبيل
ذيل ثوبه ، فجذب ضيا باشا ذيل ثوبه تواضعا ، وبعد أن أجريت مراسم
الاستقبال والترحاب أنعم عليه وبره ، ثم وصل إلى قرية (أولاش) ، وفى
اليوم التالى دخل سيواس برفقة واليها ، ونزل ضيفا عليه ، ومكث بها
يوما طلبا للمؤمن ، وفى اليوم التالى خلع على الوزير المذكور ونجله
علاء الدين بك واستوفى الليل فى قرية (قارخين) .

وفى اليوم التالى نزل (توقاد) فلبث بها يوما . وفى اليوم الذى
يليه سار إلى قسبة (تورخال) ، ولدى وصوله صحراء (قاز آباد) ،
استقبله محافظ (بيكى ايل) ومتصرف لواء (بوز أوق) عبد الجبار زاده
سليمان بك وابنه عبد الفتاح بك فى نحو خمسمائة فارس ، ولما أسرع
عبد الجبار زاده يريد تقبيل طرف ثوبه السنى ، تلقاه الصدر الأعظم
ملاطفا وأخبره أن ذلك أمر لا يجوز لمن هو مثله ، وشرف بمرافقته فى
المرحلة المذكورة وقرية (أوز) ، وفى اليوم التالى خرج منها قاصدا
مدينة أماسيا . [٨٧-ب]

وفيها أسبغ على عبد الجبار زاده جوده وإحسانه . ويوم قدومه (مرزيفون آباد) قادمًا من أماسيا ، فإن المير المشار إليه وإن يكن يد من رعيل رؤساء بوابي الباب العالي ، فإنه كان وزيرًا عالي القدر . ولما كان قد تفتأ في خدمة الدولة العلية في كثير من الأمور والخطوب ، فقد خلع عليه ضيا باشا فروا سموريا أفخم من فروه ذاته ، كما خلع على نجله عبد الفتاح بك وأتحفه بخنجر مزدان بالجواهر ، وبعد أن ودعها أذن لهما بالعودة إلى ديارهما .

ثم واصل المسير ، فقطع منازل عثمانجق ، وحاجي حمزة . ويوم قدومه (طوس) استقبله سيد محمد أفندي — من كبار رجالات الدولة العلية — وكتخدا البوابين في الباب العالي ، وقد تقلد المشار إليه منصب كتخدا بوابي الباب العالي منذ أمد مديد ، وذلك لحسن سمته واستقامته في مباشرته ، [٨٨ -- ١] علاوة على إخلاصه وتفانيه فيما نيظ به من مهام ؛ ومن ثم كان لا يقاس بغيره من الأشباه ؛ فهو متمرس بخفايا الأمور وساهر لأغوارها ، منقطع الند بين أساطين رجال الدولة أولى الحصافة وحسن التدبير ، وعليه فإن احترامه وتبجيله واجب ولازم على أية حال ، فلم ينس ضيا باشا في أي لحظة أن يرعى خلطه ويتلطف معه ويبره .

وأقام يوما كذلك في طوسيه ، ثم طوى منازل قوجه حصار وقره جه لر وجرکش ، وبابندر ، وكره ، وعندما انتهى إلى قصبة (بولي) ، خرج لاستقباله سلحدار الحضرة الشهريارية بخط همايوني مبارك ، وبعد أداء الطرفين المراسم اللازمة وفي اليوم التالي خلع ضيا باشا على الأغلا المشار إليه ومن قدم معه من الأغوات على حسب مراتبهم ، ثم أعادهم

سريعا إلى جهة الباب العالى بعد أن أخذق عليهم المنح والنفحات ، وبعد أن أقام صدر الصدور الوقور يوما فى قصبة (بولسى) ، طوى بسط الإقامة وحول شكيمة مقاصده إلى الصوب المقصود ، وفى الطريق استقبله متصرف لواء (قوجه إيلى) حسين باشا ، من المير ميران ، والخزينة دار باشى عبدى بك — من موظفى تشرىفات الديوان السهاميونى فى الباب العالى — وشرفا بتقبيل قدمه .

[٨٨-ب] وبناء على القاعدة المرعية التى تنص على أن كافة ما يخلع من خلع وكسى بدءا من خروج الصدور العظام إلى تشرىفهم مسند الصدارة العظمى ، يكون من خزانة الميرى ، كان الخزينة دار باشى الأغا المشار إليه قد جاء بالكثير من الخلع ، غير أن ضيا باشا لم يمد يده إليها وعفت نفسه عن قبولها بأى حال من الأحوال ، وكان ما بذله من منح وخلع — والتي لا تقع تحت حصر — من صلب ماله ، وصان بذلك خزانة الميرى وأبى الإثقال عليها.

وأثناء الطريق لم يسمح لأى أحد من خدمه بتحصيل (آقچه) واحدة من الضرائب والمقررات ، فاستجلب بذلك دعاء الفقراء والرعية له بالخير .

وبعد أن قطع مراحل دوسجه ، وحندك ، وضع أثقال سفره فى مدينة (أرנקى) ، وبعد أن لبث بها يوما ، مضى إلى قصبة (ككوزه) ، ثم قرية (مال دبه) حيث خلد فيها للراحة . وفى اليوم التالى الموافق ١٥ جمادى الأولى تحرك ليلا بأمر السلطان كى يوافق وصوله ساعة مباركة محددة ، وبعد أن أدى صلاة الصبح فى حديقة (البستانى باشى) ، [٨٩-١] استقبله القاتمقام باشا وشيخ الإسلام أفندى وطائفة من كبار

رجال الدولة العلية بجوار (عين الفراق) ، وبعد أن نزل بخيمة الطعام التي أعدت بجوار العين المذكورة ، وتناول طعامه بها ، شرف المرفأ في موكب حافل ، وركب السفينة التي هيئت فيه من قبل ، ومضى في البحر ومعه شيخ الإسلام أفندى وعندما انتهى إلى جوسق السلطان على الساحل ، أجريت له مراسم التوصول .

ولما مثل بين يدي الحضرة العلية السلطانية شرف بتقبيل طرف ثوبه المبارك ، فبره وأكرمه ، وجلس بالإشارة السنية ، وبعد أن لقته السلطان بكافة الوصايا اللازمة ، أنعم عليه بخاتم الصدارة العظمى ، فتسلمه منه ضيا باشا ولثمه ، وقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام عمر دولته ، ثم خرج من مجلسه ، [٨٩-ب] وشرف باب الباشا ومعه شيخ الإسلام .

ولما هنأه كافة أركان الدولة العلية وقبلوا ثوبه — جرياً على القواعد والتقاليد المعتادة — خلع عليهم جميعاً على حسب مراتبهم ، وعقب إجراء مراسم التهئة طاف متنكراً ، فعاقب البعض ممن يستحق العقاب ، وكافأ من ظهرت نزاهته واستقامته من الموظفين .

فتح جزيرة قورفو وتوابعها

أعلنت الجمهورية الفرنسية الحرب من قبل على أكثرية الدول الأوربية المجاورة لها وانتصرت عليها جميعاً ، واستولت بآلاف الحيل والذساتس على جزيرة (قورفو) وتوابعها التي كانت من قبل خاضعة لحكم البنادقة منذ قرون طويلة ، والواقعة داخل مضيق البندقية ، ويقال

وإضافة إلى كون تلك الجزر قريبة جدا ومواجهة لسواحل المورة وألبانيا، فإن بسط الفرنسيين نفوذهم على تلك القلاع على ساحل الروملى، كان يعد تهديدا للممالك السلطانية ورغم هذا يزعم أولئك الملاعين دوما الوفاق والإخلاص للدولة العلية ويتظاهرون بأنهم من أكثر الدول ودا وإخلاصا لها .

وقد اجتمع أهل الرأي والمشورة في الباب العالي لكي يتحاشوا وقوع غائلة أخرى بالسلطنة العلية ، وذلك بعد ما وصلتهم الأنباء من سكان الحدود الخاقانية بأن الفرنسيين بعد أن استولوا على مصر ، عمدوا إلى كثير من الحيل والدسائس لإحداث الاضطرابات والقلق في ساحل الروملي ، وإرسال جواسيسهم سرا إلى نصارى الأرنؤاعوط العصلة في مناطق (سولوز) ، و(خماره) ، و (سيواسيل) القريبة من القلاع الأربع التي في حوزتهم ، وربما أرسلوا كذلك إلى الرعايا النصارى المؤيدن للجزية في مناطق المورة ، ويانية ، وقارلى إيلى ، وترخاله ، ويكى شهر ، وسائر تلك الجهات والنواحى ، يحرضوهم على الدولة العلية ويحضوهم على الانقياد للجمهورية الفرنسية ، وبعد المشاورة أوصوا بإرسال (بطرونة) عبد القادر بك ، بسفن الأسطول الهمايونى إلى

مضيق البندقية ، [٩٠-ب] وتقليد (رائف محمود أفندى) نظارة الأسطول ، كما عهدوا إليه بالاهتمام بكافة أمور الجند المرسلين فى البر والبحر ، ومراقبة تحركات الجمهورية الفرنسية وسائر دول أوروبا ، والمبادرة بإنهاء كل الأنباء المقتضية لتلك الدول وأمورها إلى الباب العالى ، ولقنوه شتى الوصايا والتدابير اللازمة فى ذلك الخصوص . ورائف أفندى هذا هو أحد (سادة الديوان الهمايوني) ، والذي أرسل من قبل فى سفارة إلى إنجلترا ومكث فيها أربع سنوات وقف خلالها على كافة دقائق أحوال أوروبا ، وأصبح على دراية تامة بدسائس الأوربيين والاعبيهم .

وعلاوة على ذلك فإن استنطالة فرنسا على ممتلكات الدولة العلية فى نفس الوقت الذى تزعم فيه أنها صديقة حميمة لها ، أمر شجيبته كافة الدول ، وعليه وبمقتضى ما تم من تحالف بين روسيا والدولة العلية فى هذا الشأن ، قامت الأولى بتعبئة عدد من القطع البحرية وأرسلتها مع أميرال وعدد من القادة الروس ، وأعلنت أنها ليس لها غرض من ذلك سوى إبراز صداقتها للدولة العلية .

وبعد مطالعة هذا الأمر وبحثه من كل الوجوه ، اتفقوا رأيا على إرسال تلك الإمدادات الروسية . [٩١-١] مع (بطرونه بك) إلى الصوب المقصود ، وتأمير (تبه دنلي علي) باشا — من المير ميران ، متصرف (ياتيه) — على القوات البرية ، غير أنه فى تلك الأيام كان فى مهمة فى ناحية (ودين) ، فأعفى منها وأمر بالتوجه إلى السواحل الألبانية فى أقرب وقت ممكن .

ومن جهة أخرى وصل الأسطول الهمايوني والأسطول الروسى وضربا الحصار على قلعة (ضاتنه) ، وبعد عدة أيام من الاشتباكات ، صبوا قذائف مدفيعتهم عليها وملكوها ، وأسروا من بداخلها من النصارى ، فأصبح أولئك الأسرى عبرة لقلاع جوقه الكبرى ، وجوقه الصغرى ، وكفلونيه وإياموره ، فسلموا جميعا مفاتيح قلاعهم واحدة تلو الأخرى ، وعينت السلطنة السنية على كل منها مجموعة من الضباط لضبط أمورها ، وبعد ذلك استطاع الأسطول الهمايوني والأسطول الروسى الرسو قبالة جزيرة (قورفو) أكبر الجزر السبع المذكورة ، ومن جهة أخرى زحف (تبه دنلى على) باشا من ديين إلى البانيا ، [٩١-ب] ولما لمس آثار القلاقل التى أحدثها الفرنسيون بين رعايا الدولة ، قام بإعدام عدد من رؤسائهم منتحلا أنه المعاذير ؛ وذلك لإرهاب الرعايا النصارى وتخويفهم .

ثم أصدر الكتب إلى الأرناءوط يعلمهم أنه بصدد الزحف على الفرنسيين ، فتحصل له فى غضون أيام نحو عشرين ألفا من مشاة الأرناءوط ، ولما حمل بمن معه على قلعة (بيراوزه) ، تصدى لهم من بها من الكفرة خارج القلعة وحاربوهم أحر قتال ، إلى أن هب نسيم النصر المبين من جهة المسلين ، فقتلوا نحو ألف من المشركين واقتحموا القلعة مع من ظفروا بهم من الأسرى وقيدوا وثاقهم ، وغنموا أموالهم وأثقالهم ، وعندئذ اعتبر عصاة النصارى فى قلعتى (وينجه ، وبارغه) ، مما لحق بنصارى (بيراوزه) ، فأرسلوا مفاتيح قلاعهم إلى على باشا ، وفر كذلك سكان قلعة (بوجترين) إلى ساحل قورفو ، بعد أن دمر قلعتهم البارود .

وهكذا فتحت السلطنة السنية القلاع الأربع وملكتها وعينت عليها ضباطا أكفاء ، وقامت بتشديد كافة الاستحكامات اللازمة لتلك القلاع ، وأرسل نحو ألف وخمسمائة من الرعوس المقطوعة ومثلهم من الأسرى مع مفاتيح القلاع المذكورة إلى الباب العالي . [٩٢ - ١]
وهكذا دفعت غائلة تلك الجهات وبثت الطمأنينة في قلوب سكان المملكة الوجلة .

وفيما بعد جاءت البشريات بمباشرة فتح قلعة قورفو وبذل اهتمام كبير بحصر المشركين والتضييق عليهم مع تقارير عديدة من جانب محمود رائف أفندي ناظر الأسطول الهمايوني ، و(بطرونة) عبد القادر بك وأميرال الأسطول الروسى و(تبه دلتلي علي) باشا .
ولما كان الأخير قد احتجز في سجنه ثلاثة من كبار قادة الأسرى المذكورين ، وتسعة من الياوران فقد أبلغ ذلك إلى الباب العالي لمعرفة أى أمر سنى يصدر بشأنهم ، فأرسلت الخلع السنية إلى كافة القادة المسلمين ، كما أن التشریفات الجليلة التى أرسلت إلى مختار باشا من المير میران والذى أبدى بسالة وشجاعة فى ببراوزه ، أرسلت معى أنا (عزت حسن) - نامق تلك الحروف - وعهد إلى الصدر الأعظم بإحضار القادة الأسرى المذكورين إلى الباب العالي ، فأسرعت بتنفيذ ما أمرت به .

ولما كان مختار باشا فى ياتيه ، فقد خلع على ، [٩٢ - ب]
والتفتت بعلی باشا فى قلعة بوجترين الواقعة فى محازاة قلعة (قورفو)
وخلع على هو الآخر ، وبعد أن حثنى على بذل موفور السعي فى مهمتي ،

رجعت أدرأجى إلى الباب العالى ومعى القادة الأسرى والياوران المتقدم ذكرهم .

بعد ذلك حاصر الأسطول الهمايونى والأسطول الروسى قلعة قورفو من جهة البحر ، وتولى على باشا بمن معه من مشاة الأرناؤوط أمر حصارها من جهة البر ، ودام القتال على أشده ليل نهار ، واخترقوا صفوف الكفرة وشتتوا جمعهم ، وعلاوة على هذا أنزلت الأساطيل عددا لا بأس به من الجند إلى البر ، فبنوا طابية كبيرة خلف الجانب الأيسر من القلعة ، وشحنوها بالمدافع والذخائر وأسكنوا بها عدة عظيمة من المشاة ، وأبلوا فى حصار القلعة والتضييق عليها بلاءا حسنا ، وغير مرة خرج المشركون على الغزاة المسلمين ، غير أنهم كانوا يولون الأدبار فى كل مرة ولا يخرجون من القلعة ثانية ، وامتد الحصار واشتد ، وبنى المسلمون طابية أخرى فى الموضع المسمى (سائته لونه) ، فضاغفوا بذلك من حصارهم والتضييق عليهم. [٩٣-١]

وعلاوة على انسداد أبواب الأمل أمام المشركين من كل جانب ، فقد فتحت جزيرة (ويدو) المجاورة لقلعتهم والمقابلة لها وعندئذ ظهر جليا أن فتح قلعة قورفو وامتلاكها بات أمرا سهلا ، وهنا عبأوا سبعمائة وخمسين من جند الأسطول الهمايونى ، ومثلهم من الرعوس وشحنوهم فى قوارب وساقوهم إلى الجزيرة المذكورة ، وبسطت سائر قطع الأسطول أشرعتها وصبت نيران مدفعيتها من البحر على المشركين ، وبعد أن روعوهم بقدر الكفاية ، لم يعد لهم القدرة على المقابلة والصمود ، وبهجمة صادقة شجاعة فتح الغزاة المسلمون الجزيرة عنوة ، وبعد أن قتلوا منهم الكثير ، ظفروا بمائة وسبعين من الأسرى . وفى ذلك

اليوم هاجم بطروته بك قلعة (صالو اندره) - أحد أجزاء قلعة قورفو والواقعة بمحاذاة طابية المير المرقوم - واستولوا على خنادقها واستمر القتال حتى أقبل المساء ، وفي الساعة الثانية من نهاية تلك الليلة ألقوا النار على مخازن البارود التي أعدها الكفرة من قبل ، فأهلكت السنة الذهب خمسمائة من الفرنسيين وأوردتهم بنس المورد ، [٩٣-ب] وهكذا نفذ الغزاة المسلمون هجومهم برا وبحرا على القلعة المذكورة وملكوها في طرفة عين .

ولما رفعت أعلام النصر على أبراجها وأسوارها ، تحصن الكفرة المعاندون في داخل القلعة . وفي النهاية بسط المسلمون سيطرتهم على كل القلعة في الداخل والخارج ، ونصبوا عليها ضباطا من جهة السلطنة السنية .

وصف قلعة قورفو

كانت قورفو غاية في منعتها ومتانتها ، والمعبر لسفن البندقية وروما وأنابولتان ، ومن ثم اعتبرت مفتاح أوروبا وصارت مطمعا لكافة الدول ، فاستولى عليها البنادقة منذ أكثر من خمسة قرون وأحكموا عليها قبضتهم ، وشحنوها بما لا يدخل تحت عد من المدافع والذخائر وسائر آلات الحرب .

وعلى الرغم من أن سلطان عظيم ، وفتاح جليل مثل السلطان سليمان خان - تغمد الله برحمته وغفرانه - شحذ همته وشمر عن ساعده ومضى لفتحها بنفسه وشدد الحصار عليها بقدر الكفاية ، فإنه لم

يتيسر له فتحها . ولعدم استطاعة الجمهورية الفرنسية التغلب على تلك القلعة بالقوة ؛ فقد عمدت إلى الدسائس والحيل لبسط سيطرتها عليها ، [٩٤ - ١] وضاعفت من عدتها الحربية السابقة وزادت من أسباب متانتها ومنعتها ووضعت بداخلها أجناد كثيفة فعدت القلعة، وكأنها أتون ملئ بالنار .

وفيما كان الحال على هذا المنوال إذا بقضاء الله يجرى بأن
تفتتح القلعة المذكورة عنوة في عهد سلطان البرين وخابقان البحرين ،
مالك مفتاح القبلتين ، وخادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان -
أدام الله دولته ما دام الزمان - وبهذه الغزوة الغراء استحق أن يذكر
بقلب غاز على جميع المنابر .

وباعتبار القلاع الأربع والجزر السبع سالفة الذكر إيالة ، فقد أدخلتها الدولة العلية تحت رابطتها ببعض الشروط كجمهورية مستقلة تؤدى الجزية لها مثل (دوبره ونديك) ، غير أنه لعدم وقوفنا على تفاصيل تلك الشروط فقد ضربنا صفحا عن ذلك الباب . [٩٤ - ب]

وجاء في الكتاب المسمى (تقويم البلدان) أن (قورشو) جزيرة تقع في بحر الروم بالقرب من شرق جبل (شيمر)، وتبلغ مساحتها مائة وعشرين ميلا.

ولما كانت تغذ بمثابة مفتاح خايـج البندقيـة ، فقد جعلوها مستحكمة على الدوام ، ويطلق عليها (بره) ، و (ريتور) ، ويستخرج منها كميات هائلة من الملح ، وتسمى حاضرتها (كورفو) ، بمعنى الخليج ، وهى مدينة كبيرة تتوسط الساحل الشرقى ، وتعداد أهلها

نحو عشرين ألف نسمة ، وتبلغ فى الطول سبعا وثلاثين درجة ، وتبلغ فى العرض ثمانى وثلاثين درجة ونصف الدرجة .

توجيه إيالتى مصر ودمشق إلى أحمد باشا الجزائر

ذكرنا فيما مضى أن الجزائر باشا لما اشتم أن النية متجهة فى الباب العالى إلى تقليده القيادة العامة للجند ، اعتذر بواهى الأعذار عن تلك المهمة ، وبناء عليه آل أمر القيادة العامة للجند إلى والى دمشق إبراهيم باشا ، فأخذ يعد العدة اللازمة لتلك المهمة وخرج من حلب الشهباء فى عدد من جند بابيه ودخل دمشق ومكث فيها ، ونظرا للمجهود الكبير الذى بذله هو ومن معه من الجند لإعداد العدة والتوجه على جناح السرعة إلى المهمة المكلف بها ، فقد قلد - دفعة واحدة - [٩٥ - ١] إيالة طرابلس ودمشق وإمارة الحج وهى مناصب تتوق إليها نفوس الوزراء ، كما عهد إليه كذلك بقيادة فرق (الجردة) والقيادة العامة لجيوش مصر ، فتوطد أساس مهمته .

وولى عبد الله باشا كذلك ولاية مصر ومضى فى نحو ألفين من صفوف الجند إلى غزة وأقام فيها يترقب قدوم إبراهيم باشا إلى تلك الجهات ، وقد زاد كل ذلك من هم الجزائر باشا ، وشيئا فشيئا اتقدت فى نفسه نار الحقد والحسد وندم على عدم قبوله القيادة العامة للجيوش الزاحفة لمهاجمة فكتب إلى الباب العالى يصارحه بأن إبراهيم باشا وعبد الله باشا ليس أهل حرب ولا يصلحان لولاية مصر وقيادة جيوشها،

ويلتمس صرف المناصب المذكورة من عهديهما وإحالتها إليه ، ويعرب
عن استعداده قبول قيادة الجيوش شريطة إمداده بالجنود والعتاد .

[٩٥ - ب]

وكان واضحا أنه في حالة عدم قبول طلب الجزار باشا فإنه
سوف يظهر التنافس للمشار إليهما ، ومنافسة أولئك الوزراء بعضهم
البعض في مقابلة الأعداء من شأنه أن يثلم صفوفهم ويغلب عليهم
عدوهم .

وعلاوة على ذلك لما كان الجزار باشا منذ زمن طويل واليا ،
مستبدا في تلك الجهات . فإن كلمته كانت نافذة فيها وحكمه جاريا عليها ،
فإذا ما ركن إلى العصيان وإثارة القلاقل ، فإن نار الفتنة سوف تسرى
إلى جهة مصر وكافة عربان البادية . ولما كان ذلك أمرا واضحا للجميع ؛
فإنه رعاية لأصول المصلحة العامة صدر الفرمان بمنح إبراهيم باشا إيالة
ديار بكر ، ومنح عبد الله باشا إيالة مرعش وأمر بالتوجه إلى
منصبيهما ، وأسعف الجزار باشا إلى طلبه وألحقت إلى عهديه إيالات
مصر ودمشق وطرابلس ، إضافة إلى إيالة صيدا التي كانت في عهديه
أصلا ، وقاد كذلك القيادة العامة لجيوش مصر وأرسل إليه المال
والذخائر والعتاد والجنود ضعفى ما طلب وسبق إليه نحو ألفين من صفوف
الجنود المشاة ، وإسعف الجزار باشا بحاجته وإجابته إلى طلبه قد شد من
أزره ، وإمداده بالجنود الكثيرة عبد له الطريق كى يبلغ غايته . [٩٦ - ١]
ولصعوبة التغلب على العدو إذا هوجم برا فحسب ، فإنه كان من
اللازم أن يهاجم من البحر كذلك ، ولذا أسندت إيالة الأناضول إلى الوزير
المكرم (كوسه مصطفى) باشا متصرف (ترخاله) ، وحشد له عشرة

آلاف من مشاة الأتاضول والأرناووط وأرسل مزودا بكم من المدافع والعتاد الحربي والسفن ، وانتشر السعاة للتنبيه على الجند المأمورة بالركوب من ميناء سلاتيك وذلك لسرعة توجههم إلى مهمتهم .
وفى هذه الأثناء تشفع الصدر الأعظم لدى الخليفة لمنح رتبة الوزارة السامية لـ (باسبان زاده عثمان باشا) ، و (ديه دلتلي) على باشا ، فأنعم الخليفة عليهما برتبة الوزارة .
ولما كانت رسالتنا المختصرة هذه تهدف إلى بيان الواقعة المصرية فحسب ، وكان الحديث عن مثل هذه النوعية من الوقائع خارج نطاق مهمتنا ، فقد تحاشينا الإسهاب في تفصيل ذلك .

استيلاء الفرنسيين على سواحل بلاد الشام

بعد أن استولى بونابرت اللعين (سر عسكر) [٩٦-ب]
الجمهورية الفرنسية على مصر ، واستوفى كافة الأسباب اللازمة لإحكام قبضته عليها ، عقد العزم والنية على الاستيلاء على بلاد الشام ، فخرج من مصر بعناد قوى وعدة عظيمة من الفرنسيين وفئة من أسافل القبط والفلاحين والعربان ، وسلك طريق الصحراء يريد غزة وبافا .
ولما وصل خبر ذلك إلى الجزائر باشا فإنه بسبب خوفه الدائم من طائفة الدروز ، وربما توجسه كذلك من الصديق والغريب وعدم ثقته حتى في خاصة رجاله ، اعتقد أن عكا هي دار الأمان لا يحتمل أن يتزحزح عنها قيد أنملة ولذا أرسل خمسمائة من الأرناووط والمرتزقة الترك من المشاة للدفاع عن قلعة العريش .

ثم أمر (بلوك باشى) مجهول النسب كامل الذكر يدعى (تكة لى قره محمد) على جيش من جند بابيه وفرسان الديوانكان ومشاة الأرناعوط والمغاربة ويوسف أغا كتحذا المرحوم صالح باشا والى ديار بكر الأسبق ، وطائفة الأمراء المماليك الفارين من مصر والمقيمين فى العريش ، وعلى باشا عقيق سيد على الجزائرى - من الميرميران - ومن احتشد من النواحي والجهات المجاورة من الجند والبالغ عددهم فى المجل سبعة آلاف من الفرسان والمشاة ، [٩٧-١] وقام بتزويدهم بقدر لا بأس به من المدافع والذخائر وآلات الحرب ، وأرسلهم للقاء الفرنسيين .

أما الفرنسيون فبعد أن شحنوا بعض عتادهم فى قوارب مصرية صغيرة أرسلوها إلى جهة سواحل يافا وعكا ؛ ساروا برا وبلغوا قلعة العريش فأحاطوا بها من جميع الجهات وعكفوا على ضربها بقذائف مدفيعتهم ليل نهار ، ولما تناسى ذلك إلى مسامع قائد غزوة (تكة لى قره محمد) استبقى فيها ثلث من معه من جند الموحدين ، وبعد أن هدا من روع أهلها وطمأنهم سار بباقي جنده إلى العريش لتجديتها ورابط بهم على ساحل البحر على مسافة نصف ساعة من قلعة العريش ، وأعلن لجنده أنه سوف يبادر إلى قتال الفرنسيين فى اليوم التالى ، أما الفرنسيون فلم يمهلوهم إلى الغد ، وداموهم ليلا وقد جعلوا أرض المعركة تضيق عليهم بقذائف المدفعية وأعبرة البنادق .

وفى المقابل كان جند الموحدين قد قدموا من فورهم منذ بضع ساعات ليلا حيث لم تتح لهم فرصة التعرف على أرض المعركة ولم يعرفوا من أى جهة يجب أن يقابلوا الفرنسيين ، [٩٧-ب] علاوة على

افتقدهم القائد الكفاء ذى الحنكة ؛ مما أدى إلى تشوش نظامهم واختلاط صفوفهم مشاة وفرسانا ، ولم يعد لهم طاقة على الثبات فى وجه العدو ، وفيما كان حالهم على هذا المنوال إذا ببعض حثالتهم يفرون من الهولة الأولى ، فتبعهم سائر الجند وولوا مدبرين بلا قتال ، وقطعوا فى تلك الليلة مسافة خمس عشرة ساعة حتى استقر بهم المقام فى غزة .

ولما كانت كافة حريم أمراء الممالك وأثقالهم فى غزة فقد عولوا على نقلهم إلى جهة القدس الشريف لافتقدهم الإحساس بالأمن والطمأنينة فيها ؛ مما كان سببا فى ارتياح أهالى غزة وتزلزلهم ، فأسرعوا رجالا ونساء يأخذون ما يستطيعون حمله من أخف الأمتعة ففر بعضهم إلى خليل الرحمن والبعض الآخر إلى القدس الشريف .

واستمر الجند المحاصرون فى قلعة العريش يحاربون سبعة عشر يوما وتحملوا وطأة الحصار ، فى حين أن من قدم لنجدتهم من الجند قد فر بلا قتال من هول دوى قذائف المدفعية والقنابل ، ولما شاهد أهل القلعة ذلك منهم ضعفت نفوسهم عن المقاومة ولم يعد هناك احتمال لأن ينجدهم أولئك الجند المنهزمون فاضطروا إلى تسليم القلعة للفرنسيين ليأخذوها بالجند المنهزمة فى غزة ، واستولى بونايرت اللعين على قلعة العريش ، [٩٨-١٠٠] وبعد أن أرسل من كان بها من المحاصرين إلى جهة غزة سالمين آمنين ؛ ترك بالقلعة مائة أو مائتين من الفرنسيين للمحافظة عليها ، وأسرع بكافة جنده لمهاجمة خان يونس ، فوجدها خالية من سكانها ، فسار قاصدا غزة .

ولما علم جند المسلمين بمهاجمة الكفرة لغزة على هذا النحو أسرعوا لملاقاتهم خارج المدينة على مسافة ساعة من خان يونس

وتناوشوا معهم القتال، فاستشهد عدد من فرسان المسلمين وتقهقرت سائر جندهم - الذين افتقدوا التنظيم والقائد الكفاء الذي يقودهم - إلى غزة ، ألا أنهم لم يتجاسروا على دخولها فاستبقوا الفرار إلى يافا ، ثم وصل الكفرة غزة واستولوا عليها بلا عناء ولا قتال.

وبعد أن احتوا ما وجدوه بها من المدافع والعتاد والذخائر ، زحفوا في اليوم التالي إلى قرية (مجدل) ومنها إلى قصبة (الرملة) ، [٩٨-ب] ولأن سكانها كانوا قد فروا أجمعين ؛ فقد سقطت تلك القصبة ، وسقطت كذلك قصبة (لوط) ، التي تبعد عنها بنحو ساعة ، وفي اليوم التالي شرعوا يحاصرون قلعة يافا ويضيقون عليها ليل نهار ، فاستبسل من بداخلها من الجند المشاة المكلفين بحراستها ، ومعهم من قدم من العريش وغزة بالإضافة إلى من أرسل من جهة السلطنة السنية من رجال المدفعية وبعض من المشاة المغاربة البالغ عددهم جميعا نحو خمسة آلاف من الجند ، وجلهم من المجاهدين الشجعان الأشداء ، استبسل هؤلاء جميعا في الدفاع عن يافا واستفرغوا في ذلك وسعهم وطاقتهم ونالوا كثيرا من الفرنسيين .

غير أنه قد وجد بين مشاة المغاربة جماعة من المنافقين تخابروا سرا هم وبعض السفهاء ممن قدم من مصر مع الفرنسيين ، ودعاهم على الطريق من خلال الثغرات التي أحدثتها قذائف مدفعية الفرنسيين في أسوار القلعة ، وعليه اقتحم الفرنسيون القلعة ، فلما علم غزاة المسلمين بهذا وعاینوه اضطروا إلى تسليم القلعة غير أن الكفرة لم يقدروا تسليمهم هذا ، [٩٩-١] فاجتاحوا المدينة يهبون ويدمرون واستاقوا ما يربوا على ثلاثة آلاف من المجاهدين أسرى إلى أرض

حصباء بحجة إرسالهم إلى مصر ، وطوقوا أولئك المؤمنين واستعرضوهم بنيران بنادقهم من جميع الجهات فأبادوهم عن آخرهم .
ثم قام بونايرت بتقسيم جيشه إلى فرقتين أنفذ إحداها إلى جهة القدس الشريف وسار بالأخرى وكانت الأكثر عددا إلى عكا ، وبعد أن استولى على حيفا بادر إلى حصار عكا دون توقف وضرب عليه حصارا وببلا ، فخرج الشيخ جرار أوغلو يوسف في عدد من المشاة على من أرسل من الملاحين إلى ناحية القدس ، وسلبهم بعض مدافعهم وكشجهم إلى جهة (جنين) .

ومن جهة أخرى قدم عدد من جند دمشق مع أغا متطوعى دمشق ، وفيلق ملاطيا وقائده عبد الجبار زاده ، وأخذوا يراقبون من بعيد النصارى فى محافظة (كنعان) ، [٩٩-ب] فاتضم أولئك النصارى إلى الفرنسيين المحاصرين لعكا ومالئوهم على حصارها فعاد جند دمشق أدراجهم .

وعلاوة على أن الجزار باشا لم يدخل جيش الفرسان إلى القلعة ، فقد قطع عنهم الرزق والميرة وطردهم ، وأرسل إلى كتخدا بابيه فى الباب العالى يخبره أنه يقاوم الحصار بألف وخمسمائة من المشاة فقط ولهذا فهو فى حاجة إلى المدد من السلطنة السنية .

وقفل أمراء المماليك جميعا إلى دمشق مع الفرسان الذين طردهم الجزار باشا ونصبوا ثكنتين ليقيموا بهما .

تكليف السردار الأكرم يوسف ضيا باشا بالسفر إلى مصر وتعبئة الجيش الهمايوني

تقاطرت صيحات الاستغاثة من غزة والرملة ويافا من استيلاء
الفرنسيين عليها واحدة تلو الأخرى بعد استيلائهم على مصر ، علاوة
على هذا فقد استبان من الرسالة التي بعث بها الجزار باشا إلى
(كتحدا بابيه) فى الباب العالي ، أنهم حاصروا عكا عقب اجتياحهم
للممالك المذكورة ، واتضح من فرط استغاثته واسترحامه أنه فى مسيس
الحاجة إلى العون والنجدة .

وقد ظهر جلياً أن الفرنسيين سوف يعمدون بعد ذلك إلى غزو
القدس والحجاز وبلاد الشام رويدا رويدا حتى يجتاحوا ديار الإسلام كافة
ويقوضوا بنيان الدين وقد اجتمع رجال الدولة الأخيار فى دار شيخ
الإسلام أفندي للتشاور فى ذلك الخطب ، [١٠٠ - ١] وبعد أن بحثوه
برمته وفى سلخ شوال المكرم دعى الصدر الأعظم والقبودان باشا وكبار
رجال الدولة إلى الحضرة العلية السلطانية ، وحظوا جميعا بقسط وافر من
بر السلطان وعطفه ، وأخبروا بدواعى الاجتماع ، وأطلعوا على تصرفات
الفرنسيين الجائرة والمتجاسرة .

ولما أذن لكل منهم بأن يفصح عما يعرفه فى هذا الشلن ، أورد
أساطين أركان الدولة آراءً سديدة وتدابير حسنة منطقية تتفق مع
المصلحة العامة وأصولها ، ولكن هناك من أورد تدابير غير منطقية لا
يقبلها عقل ، وفى النهاية لما انتهت مداولاتهم ومشاورتهم إلى حيث

بدأت دون أن تسفر عن أى نتيجة ، وجه السلطان خطابه إلى الصدر الأعظم فقال :

" إن أساس دولتنا مشيد بخدمة الحرمين الشريفين وصرح سلطنتنا مؤيد بالمقصورة الشريفة لرسول الثقلين (صلى الله عليه وسلم) . [١٠٠-ب] وإذا كان استيلاء المشركين على مصر وهى باب الحرمين الشريفين ، قد آلمنا وأدمى قلوبنا ، فإن اقتراهم من القدس الشريف وتفكيرهم كذلك فى غزو الحرمين الشريفين كرب فوق كربنا وبلاء فوق بلائنا ، إن هذه السلطنة وهى الملك الفاتى والعرض الزائل فداء لحفنة من تراب الحرمين المباركين ، وسوف أجود بحياتى فى سبيل هذه الغزوة الغراء الجليلة ، وعليه إما أن أحمل بنفسى راية الجهاد أو تذهب أنت بالجيش الهمايونى للقاء الأعداء ."

ولما قال السلطان تلك الكلمات الحكيمة ، نهض الصدر الأعظم من مكانه وخف يقبل الأرض بين يدى السلطان ثم قال والبكاء يخالط كلماته :

" مولاي السلطان إنك قادر منقطع الندبين القادرين ، ليحفظ الله سلطنتكم من صروف الدهر وليدم ظلكم على العباد والبلاد كافة ، فكم من عصابة فاجرة مثل الفرنسيين ظهرت فجأة وشملت الدول بفتنتها وقلاقلها، وشتتت شمل جموعها وفرطت عقد وحدتها ، [١٠١-أ] واستولت على الممالك الإسلامية فى غضون أيام على حين غفلة من أهلها ، وعليه فالحاجة ماسة إلى أن يتفضل مولاي السلطان ويسمح لعبده العاجز الذليل يوسف ضيا بأن يبذل جهده وطاقته ويتفانى فى سبيل

جلالتكم . ولما كان من غير الجائز أن يتحرك مولاى السلطان بالجيش بنفسه ، فليأذن لعبده بأن يمضى هو بالجيش الهمايوني " .
ولما قاتل الصدر الأعظم ذلك معربا عما فى ضميره استصوب أركان الدولة رآيه ، وبناء عليه صدر الأمر من الخليفة بإتفاذ الصدر الأعظم بالجيش الهمايوني والبدء فى تسوية أمور السفر واتخاذ أهبتة من ذلك اليوم ، ورفع إمام السلطان الأول — وكان من بين الحضور — أكف الضراعة وطفق يدعو الله أن ينصر أهل الإسلام ويكسر أعداءه ، ثم انفض المجلس . [١٠١ - ب]

استيلاء الأسطول الإنجليزي على السفن الفرنسية أمام ساحل الإسكندرية

سبق أن حطمت السفن التى قدمت مع نيلسون أميرال الأسطول الإنجليزي اثنتى عشرة بارجة من بوارج الأسطول الفرنسى فى ميناء (أبو قهر) ، وظلت فترة طويلة تسد مخارج ميناء الإسكندرية ومداخله وتقف فى وجه الذهاب والغادى من الفرنسيين الملاعين وتقطع عليهم سبيلهم ، حتى لم يعد بمقدورهم التحرك قيد خطوة واحدة .
ولم يعد لهم كذلك قبل بالخروج للقاء العدو ، فخرجوا لصيد سرطان البحر من الساحل ولم يطق الإنجليزي صبراً عليهم ، فحملوا — ذات يوم — خمسين مركباً من المراكب الموجودة فى أسطولهم ووضعوا فى كل مركب منها نحو عشرة رجال وأملوا عليهم الأوامر والوصايا الحربية اللازمة .

وفضلاً عن أنهم شحنوا تلك المراكب بصنوف الأسلحة والقتال، فقد كدسوا مركبين منها بالنفط والبارود واصطحبوا كل تلك المراكب ودمموا ميناء الإسكندرية خفية تحت جناح الظلام الدامس وأطلقوا مدافعهم على (مراكب النار) الفرنسية، [١٠٢-١] فأضرموا فيها النيران، ولما عم الحريق كل سفن الفرنسيين، لم يقع في خلدكم أن ذلك خدعة حربية من العدو، ولم يفتنوا إلى أنها مكيدة منه، فارتاعوا وشملتهم الحيرة وفترت همهم ووهنت عزائمهم ولم يسعهم إلا أن يفروا جميعاً إلى بر الإسكندرية، تاركين ما عكفوا على إعداده - منذ أمد بعيد - من السفن مختلفة الأحجام، وما استولوا عليه من سفن المسلمين في سواحل الإسكندرية، نهياً للدمار والخراب.

وقد بدأ الحريق بإصابة مركب من مراكب النار المذكورة بجذوة نار، فسرت فيها النيران واحدة تلو الأخرى وأتت عليها جميعها، ولما وقعت النار على مخازن البارود، سمع الرعد وشوهد البرق، وغرقت جميع سفن الفرنسيين دون أن ينسحبوا إلى أسطولهم الراسى خارج الميناء.

وفي اليوم التالي بعد أن رأى الإنجليز السفن المحترقة عين اليقين، ولما لم يعد للفرنسيين أية سفينة من شأنها الذهاب برسالة لهم، مضوا صوب المياه القبرصية للصيد.

[١٠٢-ب] ومع أن ما بذلوه من جهد كان لخدمة مصالحهم وأغراضهم الشخصية، فإنهم كذلك قد أسدوا خدمة جلييلة للدولة العلية، وفقهم الله تعالى إلى الهداية بالإسلام، أو ليخفف عنهم عذابهم يوم القيامة، آمين.

ورود الخط الهمايوني مع التشریفات السنية إلى السردار الأكرم یوسف ضیا باشا وتأكد خروجه بالجيش الهمايوني

نظراً لتأكد خروج الجيش برأً وبحراً ، ولأن بر السردار الأكرم وإتحافه ببعض التشریفات وخط همايوني يتضمن بعض الوصايا ، سنة من سنن السلطنة السنية ؛ فقد انعقد الديوان فی الباب العالي فی ٥ من ذی القعدة ، وفی حضور رجال الدولة والجيش ، ورد خط همايوني من الذات السلطانية - زاهرة الشرف - فاستقبل الحضور الصدر الأعظم بالتعظيم والاحتفاء ، وخلعوا على كتفه فرو السّمور وعلقوا السیف المرصع بالجواهر فی خصره ، ثم فتحوا الخط الهمايوني وقرعوه على رعوس الأشهاد فشنف ما تضمنه من دراري الحکمة آذان أرباب الحمیة، ودعوا بدوام عمر الخلیفة ودولته ، ونصرة فرسانه، وشحنوا همهم لإعداد العدة للمضى إلى القتال .

[١٠٣-١] وكان من بین رجالات الدولة المزمع رحيلهم مع الجيش الهمايوني كتحدا الصدر الأعظم سلیمان بناه زاده عثمان أفندي ، ورشید مصطفی أفندی الدفتردار ، ورئيس الكتاب راسخ أفندي ، والمکتوبي سيد صادق أفندي ، وجمركجي حسن أغا أمين النزل ، وطوسون محمد أغا رئيس الجبجية ، وعمر أغا - أغا الإتكشارية - وصدرت التنبيهات والتوصيات لكل من هؤلاء تحنهم على بذل السمي والجهد للتأهب للسفر .

إخراج (طوغ النصر الآصفي) إلى صحراء حيدر باشا

لما حان وقت تسيير (طوغ النصر الآصفي) مستعينين بالله تعالى ومستمدين العون من روحانية رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وردت في يوم ٨ ذى القعدة أطواغ فرق الإنكشارية والجبجية على السحر إلى الباب الآصفي، وعندما حلت الساعة المختارة، خلع على عثمان أفندي كتحدا الصدر الأعظم، فسر كذلك وابتهج، ثم امتطى صهوة جواده وعبر البحر في موكب عظيم وصحبته سائر أطواغ الفرق العسكرية، ولما بلغوا صحراء حيدر باشا - التي كانت مخيما للجيش - قرأ الأئمة والمؤذنون الفاتحة، ونحرت الذبائح، ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين. [١٠٣-ب]

ثم أقيم فسطاط الصدر الأعظم في ساحة ينشرح لها الصدر، وأقيم عن يمينه فسطاط الكتخدا بك، وعلى يساره فسطاط (رئيس الكتاب أفندي)، وبموجب قانون التشريعات ضربت خيام سائر الكتبة والموظفين وعينت كذلك مواضع مناسبة للفرق العسكرية، ويبين لكل منهم محله.

وبموجب قانون التشريعات كذلك خلع على من جرت العادة أن يخلع عليه، ثم عادوا إلى الآستانة لاستكمال ما يلزم إعداده من العدة وآلات الحرب.

وفى يوم الخميس ٢١ من ذى القعدة ، مرت الكتائب المرتبة من الفرق العسكرية للباب العالي من تحت جوسق الموكب ، وخلع على رؤسائهم وأجزل لبعضهم العطاء السلطاني ، ولما قدم أغا الإنكشارية نائباً عن الجميع تحت جوسق الموكب ، شرف بالدخول إلى الحضرة العلية السلطانية بواسطة كبير الشاويشية وكتخدا البوابين ، فخلع عليه ومضى بحراً متجهاً إلى صحراء حيدر باشا بعد أن لقن بالوصايا اللازمة، وعكف على بذل قصارى جهده لإنجاز ما كلف به من مهام .

وفى اليوم التالى وبترتيب بديع مرت فرق الجبجية والطوبجية والعرجية واللغمجية من تحت جوسق الموكب ، [١٠٤-١] ومضوا إلى المخيم المعد لهم فى (حيدر باشا) بعد أن خلع على رؤسائهم وأنعم على بعضهم بالمال .

خروج السردار الأكرم إلى جهة أسكدار

بتوفيق البارئ ثم توجيهات السلطان أعادت أسباب الرحيل واستكملت المهمات الحربية ، ولما كان خروج السردار الأكرم بجيوش الموحدين للقاء أعداء الدين متوطاً بصدور الأمر السلطاني الحكيم ؛ فإنه فى يوم ٥ ذى الحجة صدر الأمر السلطاني بحضور كل من القبودان باشا والقائمقام باشا وشيخ الإسلام أفندى إلى الباب العالي ، لمرافقة الصدر الأعظم فى أسكدار .

ولما وصل إلى الباب العالي نبأ تشريف الحضرة السلطانية لجوسق الموكب ، جاء السردار الأكرم على الفور ، وسر لذلك سوورا لا

نهاية له واستمع لوصاياه السنية فيما يتعلق بخصوصيات الرحيل وأمره، ثم خلع عليه خلعة سمورية، [١٠٤-ب] وبعد أن خلع كذلك على مفتى الأنام فرو أبيض، أقيمت مراسم الوداع.

وركب السردار الأكرم البحر مصوباً غان عزمه نحو ساحل أسكدار، فبلغها في الموكب الذي كان قد أعد في السابق، ويعد أن شرف أرباب الموكب بتقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم، بقى المسافرون، وقفل الآخرون إلى الآستانة، وبادروا إلى أداء ما كلفوا به من مهام.

خروج السردار الأكرم من صحراء

حيدر باشا متوجها إلى مصر

أقمنا مع السردار الأكرم عدة أيام في صحراء حيدر باشا لاستكمال أسباب الارتحال، وفي أيام إقامتنا تلك زف القبودان باشا والقائم مقام باشا وكتخدا الركاب السلطاني ودفترداره وسائر رجال الركاب المستطاب وسائر خدمة الباب المقيمون في الباب العالي وسفراء جميع الدول الذين يقيمون في كنف الآستانة، زفوا التهانى للسردار الأكرم وتمنوا له الظفر والنجاح. ولما أصبحت البعير والبغال، التي أعدت من أجل تشهيد الأمتعة والأثقال على أهبة الاستعداد، لزم تحرك الركاب إلى الصوب المقصود، ومن ثم وجريا على القاعدة القديمة - ابتداء جيش الإنكشارية التحرك، [١٠٥-١] وردد الجند:

أى أمسن للعيش لى فى منزل الحبيب

والجرس يدق قائلاً احملوا أحمالكم
القناء وصوت الطبل يزين الدنيا
ونحن نمضي إلى محلة الحبيب
نحن في رفقة نسيم الصبح نمضي إلى الربيع
نحن لا نذهب إلى مصر بل نذهب إلى منية القلب

وفي يوم ٧ من شهر ذي الحجة غادر السردار الأكرم منصور اللواء
صحراء حيدر باشا ، وودع ضيا باشا وسائر رجال الدولة المسافرين
معه، شيخ الإسلام مصطفى عاشر أفندي وقبودان دريا حسين باشا
والقائمقام أبا بكر باشا . ولما أركخوا عنان عزمهم صوب المنزل
المقصود ، احتشد أهالي استانبول وأسكدار : رجالا ونساء شيوخا
وصبيانا على جانبي الطريق الرئيسي وكانهم البحر الخضم ورفعوا
أصواتهم بخير الدعاء قائلين : " الله يحرس مجدك العالي فسر ، في
حفظه فالله خير حافظ . "

[١٠٥-ب] وقد تابع السلطان (رفيع المقام) مسير الصدر
الأعظم وسائر عساكر الجيش الهمايوني ، من جوسقه الواقع في
المكان المسمى (عين الغراق) ، ودعا لفزاة المسلمين بخير . وفي ذلك
اليوم حططنا الرحال وأقمنا الفسطاط في الطرف الأعلى من قرية
(مال دبه) على مسافة ساعتين وهي أول منزل للجيش الهمايوني ،
وصرفت لنا الميرة في القرية المذكورة أيضا ، وفي اليوم التالي رفعنا
الفسطاط من المحل المذكور وقصدنا (ككبوزه) على مسافة نصف
ساعة، ونزلنا بقرب حدائق الكرز المجاورة للبحر للاستراحة.

وفى اليوم الذى يليه زايِلنا ذلك المحل وقطعنا مسافة نصف ساعة وحططنا الرجال بظاهر (ككبوزة) سابقة الذكر ، [١٠٦ - ١] وبعد يوم آخر رفعنا لواء النصر وعرجنا على منزل (هرکه) على مسافة أربع ساعات ونصف ، وضربنا الفسطاط فى سفح الجبل قبالة المرفأ ، وعلى جانبى الطريق على شاطئ البحر .

ثم خرجنا من هرکه ، وفى الطريق خرج لاستقبالنا متصرف (قوجه إيلى) حسين باشا — من الميرميران — وبعد أن شرف بتقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم ، مضى برفقته من داخل (أزنكميد) فى موكب حافل ، ونزلنا خارج المدينة فى الساحة المطلّة على البحر ، ومكثنا بها يومين لاستكمال ما نقص من البعير والدواب ، وأعيد سيد محمد أفندي — كتحدا السردار الأكرم فى الباب العالى — من هذا المنزل إلى الآستانة . ولما كانت الأوامر العلية قد بثت فى شتى الجهات بشأن تسارد رؤساء الديوانكان والتوفكجية إلى الجيش الهمايوني ، فإنه ما إن توصل بعلمهم فحوى الأوامر السنية حتى تقاطرت إلى الجيش الهمايوني حشود الديوانكان والتوفكجية الموجودة فى الأناضول والروملى من معابر استانبول وغاليبولي ، ووصلوا جميعا إلى الحضرة الآصفية فى ظاهر (أزنكميد) ، فخلع عليهم جميعا وصرفت لهم المرتبات والعطايا والأرزاق. [١٠٦ - ب]

وكان من بين مشاهير رعوس الجند المشار إليهم : (سرچشمه) حسين أغا ، وسرت محمود ، وصقر أغلو ، وملاطيا لي أوغلو ، وعرب سليم — من رؤساء الأدلاء الذين استخدمهم السردار الأكرم فى نواحي أرضروم والمناجم — وسيوسلى سليمان ، وأيوب أغا ،

وممش أغا — من رؤساء التوفكجية — والكثير والكثير من أمثال هؤلاء
من رؤساء الأوجاقات والأوده باشية ، وانضوى كل هؤلاء تحت لواء
الجيش الهمايوني ، فزادوه سطوة وبسطا.

ومجمل القول أننا بعد أن لبثنا يومين بالمنزل المذكور ، تركناه
وأقمنا المخيم في بعض الأماكن المكشوفة داخل الغابة على مسافة ساعة
من (صباتجه) ، حتى إذا كان الغد عبرنا بحيرة صباتجه وسرنا من داخل
القصبة متجهين إلى ساحل نهر سقاريا ، فبلغنا جسر (كيوه) بعد
مسيرة ست ساعات ، وأقمنا المخيم في مقدمته .

وفي اليوم التالي نزلنا بمرج أخضر قبالة قصبة (آق حصار)
بنصف ساعة ، [١٠٧-١] وفي هذا المنزل قلد (كوجك راشد) أفندي
أمانة الدفتر ، إذ إنه كان قد قدم مع الجيش الهمايوني برغبته الشخصية
دون أن يكلف بذلك ، فطيب ذلك كثيرا من خاطره .

ورود بشرى هزيمة الفرنسيين فى عكا فى حربهم مع الجزائر باشا

ذكرنا فيما مضى أن بونابرت سر عسكر الفرنسيين بعد أن استولى على قلاع العريش وغزة والرملة ويافا ، فرض الحصار على قلعة عكا ، ونصب حولها المتاريس والطوابي وحفر الخنادق وعكف على ضربها بالمدافع والقنايل .

ومن قبل أحرق الأسطول الإنجليزي الأسطول الفرنسى بأكمله ودمره فى ميناء الإسكندرية ، وعندما سمع نيلسون أميرال الأسطول الإنجليزي - الذى كان قد مضى للصيد فى البحر الأبيض - أن الأعداء مضوا لغزو عكا ، وأتهم أرسلوا العتاد الحربى اللازم بالسفن فى البحر ، وجه القائد (سميث) إلى سواحل عكا لنجدتها ، قبلبها على جناح السرعة وأحاط - بما يشبه الحلقة - بسفن الأسطول الفرنسى الصغيرة التى نجت من مخالب الإنجليز والتى كانت راسية فى ميناء عكا وحيفا ، [١٠٧ - ب] وحمل عليها بلا هوادة فأغرق عددا منها واستولى على الباقي ، واجتث بذلك شوكتهم من رياض الإسلام ، علاوة على هذا فقد أرسى بعض قطع الأسطول الإنجليزي - التى تشبه الجبل فى ضخامتها - فى ميناء عكا وحيفا ، وفرض حصاره عليهما .

أما من بداخل عكا فقد أرسل إليهم صنوف العساكر من شتى النواحي إضافة إلى ما عكف أحمد باشا الجزائر على تجهيزه وتعبئته من قبل من الذخائر وآلات الحرب وأفراد المدفعية والعربية ، فبات أمرهم

فى قوة من النجداث التى كانت تأتئهم كل يوم ، فماربوا بشجاعة واستبسال .

وخلال سبعة وعشرين يوما بلىالها دارت رضى حرب عئفة طاحنة ، عمد فئها بونابرت اللعن من آن لآخر إلى حض جنده ومن صعبه من القبط ومنالقى البدو على اقتحام عكا ، فحصلوا على القلعة وأبراجها وأسوارها أربعين مرة ووضعا سلامهم عئها ، غير أنه بفضل عئرة المجاهدين وحمية الغزاة الموحدين ، أبىد كئبر من أولئك المشركين فى كل هجمة من هجماتهم .

[١٠٨-١] وفى اليوم الخامس والخمسين من الحصار اغتر الكفرة بقوتهم ، فتسللوا لئلا إلى المتاريس والطوابى الموجودة خارج القلعة ، ونفذوا إلى داخلها ، مهاجمين الأمة المحمدية ، ثم ألقوا النار على لغم كئبر كانوا قد زرعهو تحت البرج المسمى (برج على) فأنسفوه بأسواره وتأتى لعدد من أولئك الكلاب النفاذ إلى داخل القلعة . وفيما كانوا على وشك الاستئلاء عئها ، تكاتف عساكر الموحدين بفضل روحائفة سئدنا فخر المرسلين (صلى الله عئله وسلم) ، مرددين قول :

كل من يهرب من صفنا لئس رجل حرب

ذلك الذى لم يقتل لئس منا

وأعملوا فئهم سئوفهم وأصلوهم نيران مدفعئتهم وأطلوهم دار البوار . وقبل أن تتسبب الهجمات المتعاقبة للفرنسئين فى تشتت أحوالهم ، أضرم المسلمون النار فى لغمين كئبرين كانوا قد أعدوها ، فستزلت الأرض وطارت الأبنئة بأساسها فى الهواء وحل ألف من الفرنسئين الجحيم .

وقد ثبت أنه في ليلة الاقتحام - فحسب - قد أطلقت خمسون ألف حزمة بارود ، ويتضح من هذا الإحصاء مقدار ما أطلقت المدافع من مقنوفات ، ولأن عشر ما أطلقت المدافع لم يخطئ هدفه وأصاب أجساد العدو المحتشد ، فإنه عندما نزن الأمر بميزان العقل والمنطق نعلم على وجه اليقين كم هلك من الفرنسيين ، [١٠٨ - ب] ولما كان عدد من حصدهم المسلمون بسيوفهم لا يقل عن عدد من قتلوهم بشر نيرانهم ، فإننا نجزم بأن من هلك من المشركين فاقت أعدادهم الحصر .

وبعد هذه الكرة أرسل بونايرت اللعين مكاتبة باللغة العربية إلى الجزائر باشا بعد الهدنة حتى ترفع جثث القتلى، ويتبادل الطرفان الأسرى؛ فما كان من الجزائر باشا إلا أن طرد مبعوثي بونايرت وأبى إلا الاستمرار في القتال ، وفي تلك الأثناء حمل الفرنسيون مجددا على القلعة المنكوبة وقد تأتي لبعض فدائييهم التسلسل شاهري سيوفهم من الثغرات التي فتحت في أسوار القلعة ، فتلقاهم عدد من شجعان الموحدين وأهلوا في صدهم حتى أتوا على آخرهم بسيوف الجهاد في طرفة عين .

[١٠٩ - ١]

واتفدت الحمية في قلب من شاهد تلك الواقعة من سائر المجاهدين الموحدين ، وأثناء تمزيقهم للفرنسيين ، ووسط أصدااء التكبير المنبعثة من كل مكان ، قدم حسن بك متصرف رودس ومعاونو القلاع التسع وأجناد أزمير البواسل ، فتحصل للمجاهدين من ذلك قوة فتية ، فتعقبوا الأعداء حتى متاريسهم ونالوا من أكثرهم وأوردوهم الجحيم . وبهذه الخسارة دب التشنت والتضعع في صفوف العدو وأيقنوا أنهم إذا أمسوا في أماكنهم فإنهم حتما سيصبحون طعنا لسيوف المجاهدين .

وبلغ عدد قتلى الفرنسيين - حسب الإحصاءات الرسمية -
 عشرين ألف قتيل ، هذا وقد جرت رأس عدد وافر من قادتهم وضباطهم ،
 فاتحلت عزائم من بقى منهم حيا وضطعت نفوسهم عن القتال ، فأسرعوا
 تحت جنح الظلام الدامس لتلك الليلة ، يفجرون كافة ذخائرهم
 ويتخلصون من أمتعتهم ويدفنون آلاتهم صعبة الحمل ، وفروا حتى طلع
 عليهم النهار فى يافا ، فهذا روعهم شيئا ما وتنفسوا الصعداء ، وأيقنوا
 أنه إذا ما تنامى ما حدث إلى مسامع جند الإسلام الأشداء المحتشدين فى
 دمشق والقادمين لمؤازرة إخوانهم من المجاهدين ، فإنه لن يسعهم
 التحصن فى قلعة متهدمة كقلعة يافا ، [١٠٩ - ب] كما أنه لن يكون لهم
 قبل بصد الجند الموحدين ، وأدركوا أنهم إذا ما فارقوا يافا وتعقبهم أهل
 الإسلام ، فسوف تدوسهم سنايك خيل المسلمين وتحصدهم سيوفهم فى
 هذه الصحراء المترامية حتى مصر ، وعليه لم يتوقفوا لحظة ،
 واستحضروا ما تركوه من حراس فى قصبتى الرملة ولوط وأسرعوا
 بالفرار إلى غزة ، ولم يتجاسروا كذلك على التوقف بها ، وذهبوا عنها
 ظلما منهم أنهم مطاردون ، وتركوا من نال منه التعب وأعباء النصب منهم
 فى الصحراء ، وتخلوا كذلك عن جراحهم فى الطرق واعتصموا بقلعة
 العريش ، وبعد أن استبقوا بها نحو خمسمائة من جندهم وما يلزم من
 الذخائر وآلات الحرب ، نقلوا عتادهم وأثقالهم إلى مصر .

وقد وردت طائفة من رسائل البشرى بذلك مرفقة بأربعة عشر
 رأس من رعوس كبار قادة الفرنسيين ، وثلاثمائة رأس من رعوس
 ضباطهم مع (باش جوقدار) الجزار باشا إلى مخيم الجيش الهمايوني فى
 (آق حصار) ، فأطلقت المدافع والبنادق يوما كاملا ابتهاجا وسرورا ،

ونفح السردار الأكرم (الباشا جوقدار) المذكور خمسة آلاف قرش وخلع عليه سمورية فاخرة ، [١١٠-١] وأنفذه على جناح السرعة إلى الركاب السلطاني ، فسر السلطان سرورا جما بتلك الأخبار ، وقد كان من قبل في ترقب وانتظار لرسائل البشري بالفوز والنصر ، فخلع على (الباشا جوقدار) خلعة سمورية فاخرة وزين رأسه بطرة مزدانة بالجواهر . ولما كانت شجاعة الجزار باشا - التي أسهمت في رفع الروح المعنوية للجيش الهمايوني وتقوية عضده - محل تقدير من السلطان ، فقد أرسل إليه خطا هاما يوثقها متضمنا الثناء والإطراء ، وثوبا من فراء السمور وطررة مزدانة بالجواهر وخمسائة كيس من الآقجه ، وذلك بخلاف ما بعثه إليه من قبل من أموال للإلتحاق على الأمور العسكرية . وأرسل السلطان كذلك إلى (دباغ زاده) قاضي الجيش خلعة فاخرة ، كما أرسل إلى كل من محمد أفندي (دفتردار) الجيش ، وحسن بك (متصرف) رودس ، و(أوخريلي إسماعيل) بك رئيس البوابين فروا وطررة مزدانة بالجواهر ، [١١٠-ب] كما بعث إلى أميرال الأسطول الإنجليزي ثوبا ثمينا من فراء السمور وثرية قيمة على سبيل الهدية .

شجاعة الجزار باشا ودوره البطولي في هذه الحرب

لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار نجدة الدولة العلية للجزار باشا ، ودعمها له بالمال والعناد والرجال ، وما ظهر من مؤازرة الأسطول الإنجليزي له في الدفاع عن السواحل وتدمير أسطول

الفرنسيين، وعدم تهاونه فى قطع كل إمدادات كانت تأتي إليهم ، بيد أنه فى أولى أيام الحصار لم تكن النجدة قد وصلت الجزائر باشا ، وبينما كان محاصرا فى عكا فى فئة قليلة من المشاة ، إذا به يتصدى ببسالة وشجاعة لهجمات أعداء الدين المتعاقبة ، وما أمطروا به عكا من وابل قذائف مدفعيتهم وبنادقهم ووطيس الحرب يشتد معهم ليل نهار ويدوخهم من جهة القلعة .

وبعد أن طالأت أيام الحصار بالمناوشات والاشتباكات عن كثب وعن بعد هلك ثلثا الفرنسيين وأدبر الباقي فى ذلة وانكسار تائهين فى الصحراء . ومع أنه منذ اندلاع نيران فتن الجمهورية الفرنسية وهم يتغلبون فى نهاية الأمر على أية دولة صغيرة كانت أو كبيرة تحاربوا معها ، [١١١-١] وبهذا أربهاوا كافة دول الشرق والغرب ، وفى الوقت الذى اتضح فيه أن الجميع يأسون من محاربة الفرنسيين ومصالبتهم ، إذا بالجزار باشا بفئة قليلة من جنده وبعد طول محاصرة ، يلطخ وجوه أولئك الملاعين بالعار وينال من هيبتهم واعتبارهم.

وإذا ما تأملنا ذلك ووزناه بميزان الإنصاف ، وجدنا أن الجزار باشا أنسى اسم (رستم) من الدنيا وأسكت راوى قصص (جمشيد) و(عنقرة) ، واستحق رأسه أن يزين بطرة مرصعة بكثير من الجواهر ، وكان حليفا بكل إقطاع وثناء لقاء تلك الخدمة التى أسداها للدين والدولة . غير أن سيرة المذكور لم تكن على وتيرة واحدة ، وكان شخصا غريب الأطوار متلون ، بخشى الصديق خشيته للغريب ؛ ومن ثم صدرت عنه بعض الأحوال الخرقاء التى أخذت عليه بخصوص غزو الفرنسيين لبلاد الشام ، مما ألصق شرفة ومجده بالرغام. [١١١-ب]

ومن أبرز تلك الأحوال أنه حقد على إبراهيم باشا وعبد الله باشا وكان سببا مستقلا في طردهما من الجزيرة العربية وإبعادهما عنها ، وكنا وزيرين لكل واحد منهما ما بين ثلاثة إلى خمسة آلاف من صفوة الجند ؛ ومن ثم خلت الساحة للفرنسيين ، فدخلهم الطمع في الاستيلاء على بلاد الشام .

وثاني تلك الأحوال أنه في الوقت الذي دبر فيه ذلك القدر من الجند الكثيفة ، أرسل بلوكباشيا في عدة منات من المشاة إلى قلعة هامة مثل العريش كانت تعد مفتاحا لسواحل بلاد الشام ، وحينما لزم تنصيب قائد على نحو سبعة آلاف من المشاة والفرسان — أرسلهم كذلك إلى غزة — لم يكن بجانبه شخص كفء يعهد إليه بهذه المهمة بسبب ما هو مترسخ في طباعة من الغدر والعنف ؛ وعليه عين رجلا أبله لا حنكة له في دروب القتال ، ولا دراية له بتدابير الأمور يقال له (تكه لى قره محمد) ، وأنفذه .

[١١٢-١] وبسبب سوء تدبير ذلك القادة التالفه وقعت الهزيمة والانكسار على جند المسلمين في الوهلة الأولى ، وقتل كثير منهم ، وهذا ما ذكرناه فيما مضى .

مما يؤخذ عليه من سيئات كذلك أنه لما وصل عكا نحو ثمانمائة ألف من الفرسان بعد استيلاء الفرنسيين على غزة ويافا ، لم يقدم لهم الجزار باشا حبة قمح واحدة ، علاوة على أنه طردهم جميعا ولم يسمح لهم بالبقاء في عكا ، وطالبهم بالمضي إلى جهة دمشق ، وأثر البقاء معاصرا في نحو ألف من المشاة بينما عاد إلى دمشق ذلك القدر من الفرسان خزايا مشتتين لا صاحب لهم ولا قائد .

وحينما كان جند إقطاعيات إيلالات سيواس ومرعش وديار بكر والرقّة وحلب - الذين تواردوا إلى دمشق وتعبأت صفوفهم فيها بأمر وتكليف من الدولة العلية - وفيلق فرسان سيواس وقائده عبد الجبار زاده وحسين أغا متسلم عينتاب وشريف باشا ، وإلى حلب ، ومن احتشد من دمشق وحلب وسائر تلك النواحي والجهات من الجند البالغ عددهم في المجمل نحو عشرين ألفا من المشاة والفرسان ، حينما كان كل هؤلاء في دمشق على أهبة الانضمام للجزار باشا ومما لأنه على لقاء الكفار ، إذا به يقطع الميرة والمؤن عن معه من الجند ويشتهد بين طوائف الجند أنه قال إنه لا حاجة به لجيش من الخارج ، ومن ثم تحرير ذلك القدر من الجند وتوقفوا جميعا بدمشق لا يعرفون أى طريق يسلكون ، [١١٢ - ب] ومن بعد عندما لحقت الهزيمة بالفرنسيين أمام عكا بعناية الله تعالى ، لم يكن هناك من الفرسان من يتعقب فلول العدو ، فرحلوا سالمين ، وكان الجند الفرسان سببا في اجتياز عساكر الملاحين صحراء يافا ووصولهم إلى مصر .

ولما كان بحوزة الجزار باشا من المؤن والذخائر ما يكفيه لعشر سنوات من الحصار ، فإنه لو منح الفرسان المحاصرين المؤنة والميرة ، وأمرهم وقتها بقطع السبل على فلول الفرنسيين ومداهمتهم من الخلف ليلا في جهات شتى ، لما كان هناك جرم من أن يأتى كذلك الجند المحتشدون في دمشق للانضمام إليه ، ومهاجمة الفرنسيين ، وبذل طاقاتهم في أمر تعقبهم ومطاردة فلولهم عند هزيمتهم ، ولبات من السهل اليسير إبادة كتائب الفرنسيين (أعداء الدين) والقبض على كبيرهم بونابرت ولدفعت غالتهم في الوهلة الأولى . [١١٣ - ١]

قدم الآستانة (الباشا جوقدار) الذى أرسله الجزار باشا بالبشرى إلى الركاب السلطانى ، ولما وصل إلى الجيش الهمايونى من بعد لفته السردار الأكرم بعض الوصايا والنصائح اللازمة ، وأرسل معه رسالة ملاطفة وإطراء مع خنجر مرصع بالجواهر .

أخبر السردار الأكرم من قبل بخروج والى الأناضول (كوسه مصطفى) باشا بنحو عشرة آلاف من المشاة بسفينة لإرسالهم من جهة البحر ، فأرسل إليه السردار الأكرم رسالة مطولة يعظه فيها ويوصيه ، ويحذره ألا يغتر بهزيمة الفرنسيين على ذلك النحو؛ فيقوم بمهاجمة السواحل المصرية وينزل جنده إلى برها ؛ إذ إن حيل الفرنسيين ومكاندهم غنية عن التدليل أو الإتيان بالبراهين . وإنه برغم هلاك الجم الغفير من جندهم ، فإنهم لا يزالون فئة كثيرة لم يفت كثيرا ما حدث فى عضدهم ، [١١٣ - ب] ولو حدث والتأم شتات العدو وثأر لنفسه ونال من شرف السلطنة وهيبته ، فإنه سوف يبيوء بوخامة الدنيا والآخرة ، وأمره بالمضى بمن فى معيته من الجند إلى سواحل عكا والاتصال بالجزار باشا القائد العام للجند ، والانتظار ريثما يصل الجيش الهمايونى إلى تلك الجهات .

وهكذا أعلن السردار الأكرم صراحة اعتزامه الخروج إلى مصر بالذات وعلى وجه التخصيص ، بيد أنه " لا يمنع حذر من قدر " وظن الوزير المشار إليه (مصطفى باشا) أن الفرنسيين لحق بهم الاتكسار الشامل ، فمضى - دون أن يأتية الجيش الهمايونى - لفتح مصر وتطهيرها من لوث المشركين دون تبصر بعاقبة هذا الخطب العظيم ،

وأُسرع بإيعاز من بعض السفهاء - من تلقاء نفسه - إلى مهاجمة السواحل المصرية وإنزال جنده في بر (أبو قير) .

[١١٤-١] وسيكون لنا عما قريب إن شاء الله لبنة على ما ألحقه بنفسه من ظلم وخسارة وما جرّه على مجد السلطنة السنية من خزي وعار ، ولنرجع من جديد إلى ما كنا بصدد الحديث عنه .

في ٧ من شهر المحرم خرجنا مع السردار الأكرم من أقحصار ، وانتهينا إلى سهل (لفكة) على مسافة أربع ساعات ، فضربنا فيه فسطاطنا ، وفي اليوم التالي خيمنا على ضفة النهر الجارى من القصبة المعروفة بـ (خان الوزير) على مسافة أربع ساعات .

وفي اليوم التالي قطعنا مسافة ست ساعات وخيمنا قبالة قصبة (سكود) ومكثنا فيها يومين حسبما اقتضى الحال . ولما كان (المير آخور) ثان أسعد بك كلف من قبل بحشد الجند من نواحي الأناضول وإبصالهم إلى دمشق ، فقد رجع بعد أداء مهمته في المرحلة المذكورة وقبل الأرض بين يدي الصدر الأعظم .

قتل عين (سكود) ونفى نائبها

اتفق أن كان هناك عين من أعيان سكود يقال له عبد الحليم ، وكان رجلا خبيثا من أرباب الفساد ، شايع منذ فترة طويلة نائب القضاء المذكور علي أفندي في الطمع والجشع ، [١١٤-ب] وجارا على الفقراء والرعية وظلماهم ، وقد نهبا منهم أموالا طائلة ، فجأر طلاب العدل والنصفة من الرعايا بالشكاوى ورفعوا تظلماتهم للباب العالي .

علاوة على ذلك ، حينما كان حقي محمد باشا فى طريقه لتولى منصبه فى حلب قبل سنة ، خرج عليه عبد الحليم عين سكود يمنعه من المرور منها ، فتفاهم معه حقي باشا بالحسنى ، غير أن المذكور جنح إلى الصرامة والعنف ، وفى نهاية الأمر وقع شجار بين الطرفين انجلى عن مقتل كثير من الرجال واحتراق الأسواق وتهدمها .

وبات عين سكود المذكور سببا فى قطع طريق القضاة ومن ثم لزم تأديبة وأخذته بالنكال . وعلاوة على تقصيره فى خدمة الجيش الهمايونى ، أرسل البارود والرصاص إلى المدعو (جمر كجي عبد الله) من طغاة الأشقياء والذى جاهر بالعصيان فى جزيرة (سقاريا) ، فبات واجبا استئصال شأفتهم ، فقبض على عين سكود ، ونائبها ، وبعد أن صودرت أموالهما قتل الأول ونفى الثانى إلى (ماغوسه) ، وخلع على المدعو (منزلجى مصطفى) خلعة الأعيان .

وفى اليوم التالى نهضنا مع السردار الأكبر من (سنكود) وخيمنا فى قرية (كسكين) على مسافة ست ساعات ، [١١٥-١١٦] وفى اليوم الذى يليه ضربنا القسطنطينية على الضفة الأخرى من مدينه (أسكى شهر) على مسافة ثلاث ساعات ، وبعد أن رعبنا حيواناتنا بها يوما ، سرنا ثلاث ساعات فبلغنا ظاهر قصبه (سيدى غازى) ، وعسكرنا بها ولأنه يوجد هناك أضرحة كل من : سيد بطال غازى ، وجويان دوده ، وصقا بابا وهم من الأولياء المقربين فقد اغتطنا زيارتهم واحدا واحدا .

وفى اليوم الذى يليه سرنا أربع ساعات فبلغنا ظاهر قصبه (برادقجى) ، فأمسينا بها ، وفى اليوم التالى انتهينا إلى قصبه (بيات)

على مسافة خمس ساعات ، وفى يوم آخر وصلنا إلى الضفة الأخرى من قصبه (بولاوادين) ، بعدها بيوم بلغنا أعلى قصبه (إسحقلو) على مسافة ست ساعات ، وفى اليوم الذى يليه أنخنا بعيرنا بظاهر (آقشهر) على مسافة أربع ساعات ، ومكثنا بذلك المنزل لإراحة حيواناتنا ، ثم زرنا الضريح المغمم بالأنوار لنصر الدين خوجه — رحمه الله — فى ظاهر قصبه آقشهر ، [١١٥-ب] استمددنا العون من روحه .

بقى أن أقول أننى قد سمعت فى أيام صباى أن ضريح نصر الدين خوجه كان ذا جدار واحد فى أحد جوانبه ، أما الجوانب الثلاثة الأخرى فكانت خلو من الجدران ، وكان فى الجدار المبنى فى طرف واحد باب متين ، محكم الصنع ، معلق فيه حديدى ، لكننى فى هذه المرة لم أجد الضريح المذكور كيفما سمعت عنه ، بل وجدته مزارا مسورا له أربعة جدران وباب عظيم ، ولما استفسرت عن ذلك من خدمة الضريح ، أخبرونى بأنه فيما كان لا علم لأحد منهم بالحكمة من ورائها إذا بـ (سيوه ركلى) علوى باشا يلى قرمان عام ١٢٠٩هـ ويأمر أثناء رحلته — قاصدا قونيه — بهدم تلك التربة الشريفة وينائها من جديد بأربعة جدران ، فمر بخاطرى هذان البيتان :

بنى مسجدا لله من مال محرم . . . فتم بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها . . . فياليت لم تزن ولم تتصدق

وعندما خرجنا من آقشهر ، بلغنا ظاهر (خان برقيد) على مسافة خمس ساعات ، وفى اليوم التالى وصلنا إلى قصبه (إيلغين)

على مسافة ست ساعات، وفي اليوم الذى يليه وبعد مسيرة ست ساعات وصلنا أعلى قرية (قادين خاتى) ، وفي اليوم الذى يليه تقدمنا أربع ساعات فبلغنا ظاهر قصبه (لاديق) ، وخيمنا بها . [١١٦ - ١]

وفي اليوم الذى يليه طار عبد الله باشا والى قرمان لاستقبال حضرة أمير الجيوش ، فشرّف بتقبيل ذيل ثوبه ، ورافقه إلى سهل قونية. وعندما بلغناها خرج أغا الإنكشارية - عمر أغا - بموكب عظيم لاستقبال السردار الأكرم ، حيث إن جيش الإنكشارية كان قد مكث بسهل قونية عدة أيام طلبا للراحة والتقاط الأنفاس ، ومرت العساكر المنصورة من داخل قونيه فوجا بعد فوج فى ترتيب عجيب ، وخرجنا منها ، فانتهينا إلى ساحة واسعة الأرجاء على ساعة تسمى (مرعى البكوية) ، ونصبنا فيها مخيمنا .

بقى لنا أن ننوه بأننا لم نركن إلى الإسهاب فى وصف المراحل التى قطعناها والمنازل التى نزلنا بها من يوم خروجنا من كنف الآستانة العلية إلى يوم نزولنا بسهل قونية ، ولم نبتدر - مثل بعض المؤرخين - إلى الحديث عن طقوسها وجبالها وصحاريها ومساحاتها ، إذ إن رسالتنا المختصرة هذه ليست متعهدة ببيان جغرافية تلك الأماكن ، ولما كانت معنية بتسجيل الواقعة المصرية؛ فقد اكتفينا بذكر ساعات كل مرحلة وبعض مزاراتها ، [١١٦ - ب] ولم نجنح إلى التفصيل والإسهاب .

ثمة موضع جميل يعرف بمحلة (نكه) فى قونية وهو موضع تهفو إليه القلوب ، يضم المزارات المباركة لمولانا جلال الدين الرومي (قدس سره العزيز) ووالده سلطان العلماء بهاء الدين

وابنه سلطان ولد ، ومن اهتدى بهديهم وترسم خطاهم جلبى حسام الدين وسائر أولاده، والشيخ حيدر الدين القنوي قدس سره .

ولقد زرنا تلك المزارات واحدا بعد واحد والتمسنا العون من روحانياتهم المقدسة ، وبجوار التربة العطرة لمولانا جلال الدين الرومى توجد المدرسة الجديدة التى بناها يوسف أغا كهف الفقراء وملاذ الضعفاء حسبة لله وابتغاء لمرضاته .

ويحلى عقد تلك المدرسة الحديث النبوى الشريف : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " . وبالمدرسة كذلك مكتبة لطيفة ، ينطبق عليها قوله عز من قائل: { فيها كتب قيمة }^(١) . [١١٧ - ١] وقد انشُرحت قلوب النظار من مشاهدة الأبنية المذكورة ، وصفت أرواحهم ، واتبعث فى نفوسهم الشعور بالارتياح .

وببركة روحانيات أهل الحال فإن من يقعد من طلاب العلم فى داخل المدرسة المذكورة أسبوعا — مهما بلغت درجة جهله وبلاهته — فإنه يشرف وجوده بها يصبح عالما فاضلا منقطع النظر ، وذلك من بركات الأنفاس القدسية للأولياء المشار إليهم ؛ ولا غرابة فى ذلك .

ولما كانت القبة العتيقة التى تعلو التربة التى دفن فيها مولانا جلال الدين الرومى توشك أن تنقض ، شمر (يوسف أغا) عن ساعد الجد وقام بتجديدها ، فكان ذلك منه محل تقدير وإجلال من كبار رجال الدين وأهل الحال.

١ - البينة : (٣) .

ولما كان المذكور دائم التفكير والانشغال بتحري أحوال الفقراء والعجزة في كل من الجهات والنواحي ، وتطبيب خواطرهم وإسعادهم ؛ فقد شمل كثيرا من المحتاجين ببره وعطفه ، [١٧٠ - ب] وامتدت صدقاته إلى كثير من المشايخ والمساكين . ولما كان هذا واضحا وباهرا لدى الجميع ويعرفونه حق المعرفة ، فإن سرد الأدلة في هذا الباب أمر لا طائل من ورائه .

وقعة الديوانكان في سهل قونية

أثناء وجود الجيش الهمايوني خمسة أيام بسهل قونية حدث أن وقعت مشادة بين جند (سر جشمه) سرت حسين — من رؤساء الديوانكان — بسبب لعب الميسر ، انتهت بأن مالا كل واحد منهم رفاقه وتحزب زعماء الديوانكان إلى حزبين ، تبادلا السباب والشتائم ؛ مما أدى إلى وقوع مشاجرة ، أفضت إلى قتال ، وامتطى كل منهم صهوة جواده وتأهبوا لقتال بعضهم البعض . وحالما اتصل ذلك بالسردار الأكرم ، أرسل على الفور سلحداره بهرام أغا وعددا من أغوات (الأندرون) المقتدرين ، وجتاق حسين رئيس التوفكجية وتمكنوا من إطفاء نار الفتنة رغم أنه قد قتل بينهم عدة رجال .

ولما كان وقوع مثل هذه الأحوال غير اللائقة في الجيش الهمايوني يعد خروجاً على الأدب ، فقد حملوا جسيما إلى حضرة السردار الأكرم ، فاستفسر عن من كان السبب في اندلاع الفتنة .

[١١٨-١] ولما تحقق له أن سبب الفتنة هم بنو سقر وعدد من أرباب الفساد من المتعصبين والمفرضين ، أمر بأخذهم بصنيعهم وإنزال العقاب بهم ، غير أنه تشفع لهم بعض من أساطين الرجال واجبي الأجل ، فصفح عنهم وسامحهم في زلاتهم ، وأصلح ذات بين المتنازعين ، فعانق كل منهم الآخر في فسطاط (التوفجى باشى) .

تذييل عن أحوال الديوانكان

وجدت زمرة الديوانكان منذ قدوم الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الشام، ويبدو أن صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رضوان الله عليهم أجمعين قد عينوا عددا من الفرسان الأدلاء العارفين بالطرق للقيام بمهمة الإرشاد والدلالة ، وهكذا تحدثت الذمرة المذكورة من أولئك الأدلاء، وهذا ما سمعناه من بعض معمرى تلك الفرقة وشيوخها .

وعلاوة على أننا لم نسمع بذلك ولم نره فيما طالعناه من آثار السلف ، وما سمعناه من أخبار الخلف ، فإنه لم يتأت لنا سماع كلام يتعلق بهذا الموضوع من رواة القصص في المقامى ، ولا حتى حكايات النساء العجائز في مجالس الأطفال . [١١٨-ب]

بيد أنه في عهد السلطنة السنية للمغفور له السلطان عبد الحميد خان — عليه الرحمة والغفران — كان قد تعاظم طغيان زمرة (اللوندية) واستشرى فسادها ، فقطعوا طريق العباد وعاثوا فسادا فى الممالك

والبلاد ، وعليه صدر أمر السلطان بالقضاء عليهم واستئصال شأفتهم ،
فقهرروا في أماكنهم ونكل بهم .

وإلى أن اتاحت معسكراتهم وتكناتهم وبيدت عن آخرها ، ظلت
فئة الديوانكان طائفة من أهل الأدب والشرف ، يدينون بالولاء والطاعة
لأولياء نعمهم وساداتهم من الوزراء العظام والميرميران الكرام في الحل
والترحال ، ويعهد إليهم بمهمة حراسة خزان الوزراء العظام وحریمهم .
وبعد القضاء على طائفة (اللوندية) ، انخرط جم غفير من المقامرين
وقطاع الطرق والأوباش وفلول اللوندية ، في صفوف الديوانكان .

ومنذ زمن بعيد وفي الوقت الذي كان يجب أن يضم كل لواء من
ألويتهم عشرة من صفوة الفرسان ، فإنه عندما أسندت إيالة صيدا إلى
أحمد باشا الجزائر وقت وقعة (ضاهر العمر) ، استكثر من عساكره ،
[١١٩-١] فعين نحو رئيسين أو ثلاثة رؤساء للأداء ، ولقد كان
إبراهيم باشا - الذي وصل إلى رتبة الوزراء بترقيته من رئاسة الزمرة
المذكورة - تربية الجزائر باشا وغرس يمينه ، علاوة على أنه كان قد نشأ
في زمرة الديوانكان ؛ ومن ثم سرى تقليد تعيين أربعة أو خمسة رؤساء
للأداء ترسما لخطى الجزائر باشا على مر الأيام إلى سائر الوزراء
والميرميران والمتسلمين ، فصار لكل باب ثلاثة أو خمسة رؤساء
الأداء . كذا فإن كل من ينضم إلى هذه الزمرة كان يمنح تذكرة اللواء مع
رتبة بلوكباش فتلاشت جندهم وانقرضت . والآن يبلغ عدد فرسان رئيس
الأداء ، الذي له خمسون لواء ، مائة فارس فقط .

لقد أصبحت طائفة فاجرة لا حياء لها ولا إيمان ، احتشدت من
الأكراد والتركمان ، ورويدا رويدا زادوا على طائفة (اللوندية)

وسبقوهم آلاف الفراسخ في درب الطغيان والفساد ، { قاتلهم الله أنى
يؤفكون }^(١) .

ولنعد من جديد إلى ما كنا بصدد الحديث عنه :

حضر السردار الأكرم مجلس ذكر في تكية مولانا جلال الدين
الرومي وبعد أن التمس النصر والظفر من روحانياته السننية وأنفاسه
القدسية ، أنعم على كافة الفقراء والدرأويش وبرهم .

وإضافة إلى ذلك رصد مبلغ خمسمائة قرش من مال مقاطعة
(صمصاد) - التي في عهده - للإففاق على طعام التكية المذكورة ،
 وخمسمائة قرش أخرى من جزية قونية ، [١١٩-ب] وبذلك استجلب
الدعوات للخليفة الأعظم .

وبعد أن انتهت إقامتنا بالمنزل المذكور ، وجريا على العادة ،
تحرك جيش الإنكشارية في المقدمة ، وبعد أن أمضى الجيش
الهمايوني خمسة أيام ، رفع الخيام ونزلنا بـ (شومره) على مسافة
ست ساعات ، وفي اليوم التالي نهضنا عنها ، ونزلنا (قارغين) على
مسافة خمس ساعات ، ولشح الماء في ذلك المنزل ؛ قمنا بحفر نحو
ثلاثين بئرا وسقينا دوابنا ، إلا أنه لم يستطع أحد منا الشرب من مياهها ؛
إذ إن أرضها كانت سبخة ذات ملح .

١- المنافقون : (٤) .

ولما كان الحال في تلك الليلة يبعث على الملل والضجر ؛ فقد
خيّمنا في اليوم التالي في قصبة (أسميل) على مسافة ثلاث
ساعات ، ولظهور ملح البارود في أرض تلك القصبة ، فقد خلت من أي
نبات أو عشب ، وتواتر الخبر عن هبوب ريح السموم في أماكن متفرقة
وأرجاء شتى في الصيف شديد الحرارة، فكان العلى القدير قد نقلنا
وصيرنا إلى تلك البقعة من أرض التيه .

ولما غادرنا ذلك المكان نصبنا المخيم في الطرف العلوى من
قصبة (قره بيكار) على مسافة تسع ساعات ، وفي اليوم التالي سرنا ست
ساعات فنزلنا بالقرب من قرية (أولطو) . [١٢٠-١]

ومن المشهور أن المسافة بين استانبول ودمشق تنتصف في
منتصف الطريق بين أولطو ومرحلة قره بيكار ، إن هذه المقولة في ذلك
الخصوص لم نطالعها في كتب علماء المساحة ، وإنما هي ذائعة فقط
على أسنة العوام .

وعندما تحركنا من مصيف (أولطو) ، قطعنا مسافة ثلاث
ساعات ونزلنا قصبة لطيفة تسمى (هرقلي) ، وتشتهر بين العامة
بـ (أركلى) ، كما تشتهر تلك القصبة بكثرة مائها الزلال وطيب
نسيمها، وبها حدائق وبساتين كثيفة الأشجار ينطبق عليها {جنات عدن
تجرى من تحتها الأنهار}^(١) ، وهي نادرة من نوادر الدهر باعتراف أولى
الأبصار .

١ - الفتح : (٥) .

لقد طالعنا فى التواريخ العلية العتيقة أنه قبل ظهور الدولة الإسلامية كان هناك ملك عظيم يقال له هرقل قيصر الروم ، وهو الذى كان مهيمنا على الشام والأناضول . وهرقل هذا هو قيصر الروم الذى أرسل إليه (دحية الكلبي) رضى الله عنه برسالة فخر الرسل (صلى الله عليه وسلم) [١٢٠ - ب] أثناء إزاحة نور شمس النبوة لظلام الشرك المخيم على ديار الكفر والضلال .

ولأن ذلك الموضوع الذى يقع فى منتصف الطريق بين القسطنطينية وبين دمشق ، التى كانت خاضعة لحكم هذا الملك ، موضعا طيب النسيم ، وفير الماء؛ فقد أثرها أركان الدولة لتكون حاضرة للسلطنة؛ وعليه بنى هرقل تلك القسبة واشتهرت باسمه إلى اليوم . ولما خرجنا من أركيل ، نزلنا بقرية (جنان) على مسافة أربع ساعات ، وفي اليوم التالي نزلنا بـ (أولو قشلا) على مسيرة ست ساعات .

ولقد توارد فى هذه المرحلة ثلاثة آلاف من المشاة والفرسان مع قائدهم عبد الله أغا وكانوا قد أرسلوا إلى الجيش الهمايوني بمعرفة عبد الجبار زاده سليمان بك متصرف لواء (بوز أوق) ، وتوارد معهم كذلك محمد صادق أغا من الأغوات الأكفاء ، واصطف هؤلاء الجند لعددهم واحدا واحدا ، فوجدوا تامين غير منقوصين . وتوارد أولئك الصفوة من الجند ، زاد الجيش الهمايوني سطوة وبسطة ، فخلع على المشار إليهما (عبد الله أغا ومحمد صادق أغا) ، وصرف لجميع جندهما الرزق والعطايا . ولما تحركنا من مرحلة (أولو قشلا) ، مررنا من خان (جفته)

على مسافة ست ساعات وأقمنا المخيم على مسافة نصف ساعة جنوب ذلك الخان .

النزاع بين التوفكجية والأرناؤوط ، وطرد السردار الأكرم
 — (جتاق حسين) وكيفية قتله بعد عدة أيام عند
 المناجم الهمايونية

[١٢١-٩] وفي هذه المرحلة تجاورت جند التوفكجية وجند
 الأرناؤوط ، فوق نزاع بين جند الطائفتين على نصب الخيام ، وقبل
 قدوم السردار الأكرم إلى أرض المخيم تشاجر (كوجيك جتاق) — أوده
 باشي رئيس التوفكجية جتاق حسين — مع عدد من قادة فرق
 الأرناؤوط. وبينما كانوا يتعاركون ويضرب بعضهم رقاب بعض قدم جتاق
 حسين ، ومع أنه كان من واجبه — بحكم رياسته — السعى لفض
 الاشتباك واحتواء الموقف إلا أنه — بإيعاز من جنده — ابتدر إلى
 المحاربة ، ولما قتلوا عددا من مشاة الأرناؤوط في هذه الأثناء ، وصل
 بعض قادة الجند. وفصلوا بين المتحاربين ومشوا بينهم بالصلح .

وتحاشيا لتجدد النزاع بين جند الفئتين المذكورتين نظرا
 لاقتربهما من بعضهما واختلاطهما ، أمر الصدر الأعظم بنقل جيش
 التوفكجية إلى موضع آخر مستقل .

وعلى الرغم من تحقق رجالهم من سوء عاقبتهم إذا ما ركنوا
 إلى مخالفة هذا الأمر ، إذا بهجتاق حسين يعد إلى العناد والمخالفة ، حتى
 إن عثمان أفندي كتخدا الصدر العالى ركب إلى فسطاط جتاق حسين ،
 ونبه عليه بضرورة الانصياع لأمر الصدر الأعظم ومغادرة مكانه في التو

والإقامة في مكان آخر ، غير أن ذلك لم يجد شيئا ، وعهد جتاق حسين إلى الصرامة والشدة مع عثمان أفندي ؛ مما أثار عليه حفيظة السردار الأكرم ، [١٢١-ب] فأمر على الفور بقتله ، وعندئذ ودون أن يعلم الشقى المرقوم عاقبة أمره ، استنجد بجيش الديواتكان وأخذ يستنفر فرقهم ويطلب معونتهم ، فمالأه البعض .

ولما رأى السردار الأكرم أن نحو ستة آلاف من الديواتكان ونحو ألفين من التوفكجية لن ينساقوا وراء الشقى المذكور ، صرف النظر عن القضاء عليه واكتفى بوقف راتبه ومؤنه .

ومضى جتاق حسين في حماية جند الديواتكان حتى حماة ، ولما تأتت الأخبار للسردار الأكرم بأن ذلك الشقى يسعى لإثارة الفتن والقتل في الخفاء بين صفوف الجيش الهمايوني ، عمد إلى المكر والخديعة فتظاهر بتنصيب جتاق حسين على المناجم الهمايونية ، وأرسله إلى عدي بك وكيل المناجم ، وأرسل من ورائه في التو أمرا له بالقضاء عليه .

ولكنثرة أشباع جتاق حسين من الفرسان فقد أرسله السردار الأكرم على بعض الأكراد لتأديبهم وبينما هو في طريقه لتنفيذ تلك المهمة ، [١٢٢-١] إذا به يؤخذ بالنكال بمعرفة متسلمي ملاطيا وحصن منصور وبعض البكوات الأكراد ، وصودرت أمواله وأرسلت رأسه في عدد من رعوس أعوانه إلى دمشق لدى وصوله الجيش الهمايوني إليها ، فأسمى هؤلاء عبرة لمن يعتبر من المخطئين .

وخرجنا مع السردار الأكرم من المحلة المذكورة وعبرنا الجسر العظيم المسمى (مشهوراق) ، ونصبنا القساطط في الموضع المسمى

(زانتى) ، وكان محلا كثير الأنهار ، وفير المروج والمراعى . وفى اليوم التالى سرنا ثلاث ساعات ، فنزلنا مصيف (رمضان أوغلو) الشهير . ولم يكن بذلك المصيف سكان كالأشأن فى سائر القرى والقصب ، غير أنه كان قد بنى به عدد من البيوت الخشبية ، يبيع فيها سكان النواحي المجاورة ما يجلبونه من مأكولات ومشروبات للحجيج المسلمين فى ذهابهم وإيابهم ، واشترينا منهم بعض ما أحضروه من أطعمة من تلك النواحي .

وفى اليوم الذى يليه خرجنا من المصيف المذكور ومررنا على موضع قوامه عدد من الدكاكين والدور ، كان يعد نقطة للجمر ، ثم سرنا فى الشعب الذى يخترق جبل كركه ، وكمر وهما أضخم من جبل البرز وقمتاهما تتساوى مع قمم جبل (قاف) ، وشاهدنا قلعة (كوك) فى رأس الجبل ، وما حولها من جبال متصلة ببعضها البعض بصورة تحير الألباب .

ثم نزلنا بـ (جنتال أولوق) على مسافة ست ساعات ، وشرينا خيامنا بهذا الموضع ، وفى اليوم التالى مررنا من أمام المنازل العتيقة المعروفة بـ (قيز أولوغى) ، وشرينا من مائها الزلال . [١٢٢ ب] وتجولنا بين أبراج الصوفية فى رأس الجبل ، ثم توقفنا بضفة نهر (جاقيد) طلبا للراحة . وفى اليوم التالى نزلنا بخان جاقيد على مسافة أربع ساعات . وفى اليوم الذى يليه الموافق ٢١ من صفر الخير صوبنا عنان العزم إلى بلدة (آدنه) ، وهى المنزل الحادى الأربعون ، فاخترقناها وخيمنا على ضفتى نهرها (نهر آدنه) .

إبقاء إبراهيم باشا فى الوزارة

من قبل تم عزل إبراهيم باشا والى دمشق السابق من الوزارة لسبب معلوم ، غير أنه فيما بعد لاحت حقيقة الأمر لمرآة عقل السردار الأكرم واتضح له أن إبراهيم باشا برئ الساحة من كل ما نسبته إليه بعض المغرضين من مرضى النفوس كذباً وبهتاناً ، ودون أية شفاعاة أو وساطة من أحد ، أمر السردار الأكرم بإبقاء المشار إليه فى الوزارة وأرسل إليه سرّاً فى حلب الشهباء يزف إليه البشرى بذلك .

توجيه كتحداوية بوابى السلطان إلى سروري محمد أفندى

سعد كل من سروري محمد أفندى — من رؤساء بوابى الباب العالى — ومتسلم آدنه حسن باشا زاده أحمد بك أحمد بك ، بنيل خلعة من فرو السمرور ؛ وذلك لما أبانا عنه من صدق وتفان فى خدمة الجيش الهمايوني ، وتضاعف فرح سرورى أفندى بنيل رتبة كتحدا بوابى الحضرة السلطانية . [١٢٣ - ١]

وبعد أن مكثنا مع السردار الأكرم يومين فى آدنه ، خرجنا معه منها وعبرنا الجسر الكبير الذى يعلو نهر (جيحان) والذى يخرق قصبه (مصيصه) القديمة على مسافة ست ساعات ، فخيمننا بالضفة المقابلة للنهر ، والجسر المذكور كان قد بنى بأموال طائلة وهو

جسر حديدى غاية فى المتانة والضخامة، بيد أنه مع مرور الأيام تداعى
اثنتان من عقود وأشرقا على الانهدام.

ورغم أنه رُمّ بالخشب إلى حد ما إلا أنه كان مسلكا محفوفاً
بالمهالك والمخاطر ؛ بسبب زحام الأجناد وعليه ، قر السردار الأكرم عدة
ساعات على رأس الجسر حتى تناوب الجند المرور من عليه . وبحمد
الله تعالى لم يصب أى واحد منهم بمكره .

وخرجنا من مصيصة واجتازنا صحراء (جقور آباد) واسعة
الأرجاء والتي كانت منذ أمد مديد موطيء قدم ومشتى لمختلف عشائر
الرحل من التركمان والأكراد ؛ وشاهدنا القلعة المنيعة المعروفة بقلعة
(شاه ماران) الواقعة فى نزوة الجبل فى طريق الميمنة . [١٢٣ - ب]
وعبرنا المضيق المعروف بمضيق (الباب المظلم) وعسكرنا على ضفة
نهر (بورناز) على مسافة عشر ساعات . وفى اليوم التالى سرنا على
ساحل البحر وضرينا الخيام فى صدر قلعة (بياس) على مسافة ست
ساعات .

قدوم كوجك على زاده خليل باشا إلى موطيء قدم السردار الأكرم

بعث السردار الأكرم بمحمد راشد أفندى - أمين الدفتر ووكيل
رئاسة المحاسبة بالجيش الهنابونى - إلى كوجك علي
زاده خليل باشا (متصرف آقشهر) والمقيم فى قصبة بياس ؛ وذلك
لتهيئة وتدبير الميرة اللازمة لمرحلة بياس تلك . ولدى وصول محمد

راشد أفندي إلى خليل باشا أبان الثاني عن اهتمام تام في تدبير الميرة وتنظيمها وتسليمها وأقية إلى أمين نزل الجيش الهمايوني . وعلاوة على هذا أرسل إلى السردار الأكرم وسائر رجال الدولة عدداً من الجياد المطهمة وبعض الهدايا مع ابنه الأصغر ، ورشد أفندي .

بيد أنه بناء على ما سبق إحصاؤه من قبل على خليل باشا من مأخذ ، كان قد صندر بشأته عدد من الفرمانات للقضاء عليه ؛ ومن ثم سيق عليه عدد من الوزراء والمير ميران . وعندما حاصروه وضيقوا عليه ، استأمن وتاب وندم عما فعل . [١٢٤-١]

وشاءت المقادير أن يتصادف ذلك مع أكثرية غوائل الحرب الهمايونية ، فصُفح عنه وتجويز عن زلاته . غير أنه لما كان الخائن خائف " فقد غلب الوهم عليه وكبر لديه الخوف من سطوة السردار الأكرم وسيفه البتار الذي طبقت شهرته الآفاق في نواحي أراضروم والمناجم الهمايونية ، وتزلزل من آلاف الملاحم المشهورة للسردار الأكرم مثل إبادته لكثير من الطغاة والعصاة وتخريبه لدورهم ومساكنهم ؛ فلاذ بالحصن المسمى (قار بياض) الواقع في رعوس الجبال الشاهقة وراء قلعة بياس والذي كان يحتاج عدة وعتاداً قوياً لفتحه والسيطرة عليه .

وتشفع خليل باشا لنفسه لدى رجال الدولة العلية ، فمُنح الأمان بشفاعاة العظماء وبحسب الوقت كذلك .

وفي اليوم التالي بينما كان ركب السردار الأكرم يمر من داخل قلعة (بياس) ، بلغ خليل باشا إربه بتقبيل الركاب الأصفي وعندئذ قال له السردار الأكرم يعرض به : [١٢٤ب-] " يقولون أنك شجاع جسور

يا باشا ، وكما هو واضح أن الخوف على حياة مصيرها الفناء ليس من شيم الرجال وطباع الشجعان " ، فرد عليه خليل باشا ردا كيسا لبقا فقال :
 " مولاي إن شجاعة عبدك فاقت شجاعة أقرانه وأمثاله . وجرأتى وجسارتي فى الذهاب إلى الوزراء العظام غير هيبا خبرها الجميع وشهدوا بها ؛ غير أن الخوف من سطوة قائد مغوار وأسد همام مثل مولاي ، لا ينال من شرف ممالكه ولا ينتقص من اعتبارهم . وهذا أمر يدهي غنى عن التدليل والإتيان بالبراهين".

ثم أستاذن فى العودة مقبلا القدم الآصفية ورجع أدرجه .

وتحركنا مع الجيش الهمايوني والسردار الأكرم وسرنا مع ساحل البحر وحططنا الأتقال وضرينا الخيام بظاهر ميناء الإسكندرونه الذى يبعد خمس ساعات عن حلب الشهباء والذى كان يقيم فيه قنصل لكل دولة .

وفى اليوم التالى استقبل مصطفى باشا - من المير ميران ، ونجل المرحوم بلاكلى عبد الرحمن باشا - السردار الأكرم فى موضع الطعام وشرف بتقبيل قدمه الآصفية .

ولوقوع (قصة بلاك) [١٢٥ - ١] تلك فى ممر ضيق للغاية فى واد عميق فقد عبرناها فرارا وسرنا بين الحدائق والبساتين على جانبى الوادى المذكور وتوقفنا طلبا للراحة بالتلة الباذخة المعروفة بـ (بقراض بيلي) فى ذروة الجبل .

فى اليوم التالى نصبنا المخيم فى الموضع المسمى (قبة الأشجار) قبالة خان قره موط . وفى موضع الطعام بتلك المرحلة قدم شيخ زاده سيد إبراهيم باشا والى الرقة ومحافظ أنطاكية وشرف

بتقبيل ذيل ثوب السردار الأكرم ، وتحصل له من ذلك عظيم السرور والحبور . وفى اليوم الذى يليه نزلنا بالساحة الواسعة الواقعة قبالة قصبة أنطاكية . وتبيننا من أهل المراحل الثلاثة المذكور أن مسافة كل منها تقدر بخمس ساعات .

ويوم دخولنا أنطاكية استقبل إبراهيم باشا - الذى كان قد خلع من الوزارة ثم أعيد إليها ثانية - الجيش الهمايوني وحظى بتقبيل الركاب الأصلي .

وبعد بسط الأسمطة الحافلة وتبادل كلمات الود والملاحظة دخل المشار إليهما (والى الرقة شيخ زاده سيد إبراهيم باشا ، وإبراهيم باشا) أنطاكية برفقة الصدر الأعظم وأُفرد لكل منهما موضع مناسب فى مخيم الجيش الهمايوني .

وتعد مدينة أنطاكية من أقدم وأعرق المدن على وجه البسيطة . وسور قلعتها لا مثيل له ولا نظير فى سعة وجسامته ومتانتها ومنعته . وإن كانت أكثرية مواضعه قد تداعت وأوشكت على الإنقاض ، فإن كثيراً من مواضعه لا تزال رصينة الأساس ، ركيئة البنيان ، وبعضها لم يتعرض لأى خلل قط وكأنها قد بُنيت لتوها .

ويجرى نهر العاص من أمام سور القلعة وقد صُنِع عليه عدد من الدواليب غريبة الأشكال ، تدور ليل نهار . ولأن ماء ذلك النهر يجرى حتى يبلغ الحدائق والبساتين التى لا نهاية لها داخل السور ، فإن الجميع يروون حقولهم وبساتينهم من مائه العذب كيفما شاءوا طالما جاء دورهم . [١٢٥ - ب]

وفى البلدة المرموقة دُفن حبيب النجار ، وشمعون وهما من
حواريي سيدنا عيسى عليه السلام ، فزارهما أكثرية جند الجيش
الهمايوني والتمسوا الشفاعة من روحانيتهما .

إسناد إيالة ديار بكر إلى شيخ زاده إبراهيم باشا ،
وإيالة حلب إلى الحاج إبراهيم باشا

لما كانت أعز أماني شيخ زاده إبراهيم باشا (والي الرقة)
تتصدر في التماس الإنعام عليه بإيالة ديار بكر وهي وطنه الأصلي ، فقد
أسعفه الصدر الأعظم بملتمسه وعزله من إيالة الرقة ، وأسند إليه إيالة
ديار بكر ، وخلع عليه، وأذن له بالرحيل إلى منصبه . كما أنعم على
والى دمشق السابق الحاج إبراهيم باشا بإيالة حلب الشهباء وخلع عليه ،
وأذن له بالمضي إلى منصبه .

وقد قدم إلى الجيش الهمايوني جابري زاده سيد عبد الله أفندي
مفتي حلب الشهباء ، ومحصلها محمد بك نجل إبراهيم باشا وعرضا
بعضاً مما أعدته حلب من الميرة والمهمات الحربية ، [١٢٦-١] فلمس
السردار الأكرم إخلاصهما وتفانيهما؛ فبرهما وخلع عليهما فاخر الخلع
وأذن لهما بالعودة إلى ديارهما .

حبس أبى بكر أغا متسلم أنطاكية ومصادرة أملاكه

كان الحاج أبو بكر متسلم قضاء أنطاكية منذ مدة مديدة ، وكان له كرم النسب العريق فى تلك البلدة ، وهو عبد قديم للدولة العلية وكان أيضا ذا همه عالية وإذعان لما يكلف به من مهام للسلطنة السنية ؛ فإذا به يظهر فتورا وتقاعسا فى تدبير ميرة (قره موط) . علاوة على أنه لم يسعف واليا حلب وديار بكر المذكورين بمطالبها ؛ ومن ثم ترصدا الفرصة للكيد له والوشاية به واشتكياء للسردار الأكرم بشأن ما بدر منه من تخاذل وفتور فى تدبير ميرة قصبية (قره موط) ، وكالا له عددا من التهم زورا وبهتانا ، فأتار عليه حفيظة السردار الأكرم وحنقه فأمر بسجنه ومصادرة أملاكه ، وعهد بذلك إلى خفاف زاده أحمد اغا وهو من رؤساء بوابى الباب العالى ، ونفى الحاج أبى بكر إلى قبرص ، [١٢٦ بـ] رغم أنه كان برئ الساحة مما نسب إليه .

غير أنه حالما اتصل بالسردار الأكرم استقامته وحسن سمته ونزاهته صفح عنه سريعا وأخلى سبيله ، وأعاده إلى وطنه وآواه فى داره .

وخرجنا من أنطاكية ومكننا بقرية (زنباقية) على مسافة ثمانى ساعات . وفى اليوم التالى قطعنا مسافة ثمانى ساعات أخرى ونصبنا مخيمنا على ضفة نهر العاص قبالة قصبية (شغور) . وعندما علم متسلم (شعور) المدعو (رستم أوغلو) بما حل بمتسلم أنطاكية ، جزم بأنه سوف يقتل إذا ما اتصل بالسردار الأكرم ظلمه

للفقراء وبغية عليهم . وذلك قياسا بنفى متسلم أنطاكية ، فأسرع — قبل وصول الجيش الهمايوني — وفر إلى جبال (نصيرى) ، فختم على بابه ، وصودرت أمواله ، ونصب مكانه المدعو (رستم أوغلو أحمد اغا) من بنى عمومته .

وفى اليوم التالى نزلنا قبالة قلعة (مديف) على أربع ساعات ، ثم قطعنا مسافة خمس ساعات فنزلنا قبالة قلعة (شجر) وبعد ذلك غادرناها وحططنا الرحال وضررنا الخيام فى الضفة المقابلة لقصبة حماه على مسافة ست ساعات .

[١٢٧-١] ولوجود عدد من المرافد المنورة والقبور المعطرة فى حماة فقد شرف خلق كثير من الجيش الهمايوني بزيارتها وشاهدنا الدواليب الكبيرة التى لا مثيل لها ولا نظير فى سائر بلاد الدنيا .

وخاصة أكبر تلك الدواليب والذى يقال له (الدولاب المحدث) . ومكثنا اثنى عشر يوما فى حماه من أجل استكراء الإبل من عرب البادية، لنقل ما تحصل لنا من نواحي حماه وحمص من ميرة ومهمات .

وبعد أن قضينا أشغالنا نقلنا مخيمنا إلى قرية (بسطام) على مسافة أربع ساعات واغتنمنا زيارة تربة (أبو يزيد البسطامى) رحمه الله المدفون فوق رابية مرتفعة فى القرية المذكورة .

وتُعرف تلك القرية بين العوام بقرية (الملحمة) ، حتى أن الجسر العظيم الواقع على نهر العاص الذى يجرى فيها ، اشتهر بجسر (الملحمة) . ويلتصق بالجسر المذكور عدد من الطواحين . وبجواره كذلك نُزك عظيم لاستراحة قوافل الحجيج الغادية والرائحة .

وفى الطرف الآخر من المرحلة المذكورة على مسافة ثلاث ساعات تقع قرية ذات قلعة صغيرة تسمى قرية (تلبيس) وكان حرها لاحقاً ، فمكثنا فيها ليلة واحدة . وفى اليوم التالى نصبنا القسطنط فى قسبة حمص على مسافة ثلاث ساعات . وزرنا جميع ما بها من مراقد الصحابة العظام والأولياء والتمسنا الشفاعة من أرواحهم . [١٢٧ - ب] ونظرا لما أظهره متسلم أدنه أحمد بك من إخلاص وتكافؤ فيما كُلف به من مهام للدولة العلية ، فقد لاقى تقدير السردار الأكرم ورفع قدره بمنصب رئيس بوابين فى الباب العالى .

وعندما غادرنا المرحلة المذكورة ، قطعنا مسافة تسع ساعات وحططنا الأثقال فى قرية تسمى (بنك) . ويتصدر تلك القرية عدد من الطواحين ، ويخترقها نهر لطيف عذب مأؤه صيفاً وشتاءً على الدوام . وهو مشهور بين الناس دون أن يكون لأحد علم بمنبعه ، وهو حقاً ماء عذب لذيق ، يعمر الروح . وربما أنه لم يشاهد نظيره كذلك فى أرضروم التى تشتهر بعذوبة أنهارها .

ونهبنا من المنزل المرقوم وقطعنا مسافة ثمانى ساعات ونصبنا القسطنط فى الخان المسمى (قطيفة) ، [١٢٨ - ١] وفى اليوم التالى عبرنا مرأً يسمى (مضيق قطيفة) وسرنا ست ساعات فبلغنا القرية المسماة (دومه) والمشهورة بقرية (الموكب) ، فانتجعنا فيها الكلاً يوماً .

وأُسرع كل من والى الرقة شريف باشا ، ووالى سيواس بحوى رجب باشا وعظم زاده نصوح باشا المخلوع من الوزارة ، لاستقبال السردار الأكرم ، فبلغوا جميعاً أربهم بتقبيل ذيل ثوبه الأصفى .

وفى اليوم التالى الموافق ٢٧ ربيع الأول جرى ترتيب موكب عظيم حافل ، فجاء واليا الرقة وسيواس لاستقبال من قدم فى معية الجيش الهمايونى من فرسان الديوانكان والتوفكجية وقد احتشدت فرقتى الديوانكان والتوفكجية المشار إليهما وكذلك فرق الأرناعو ط والمغاربة وسائر صنوف العسكر وتراصت فيالقوم فى موكب ؛ وذلك إضافة إلى شجعان البكتاشية الذين توافدوا مع أغا الإنكشارية الذى كان قد قدم مسن قبل .

وتراصت جموع من قدم من تلك الجهات والنواحي وشكلوا الموكب وتصدرتها إبل الجيش الهمايونى وسائر أمتعته وأثقاله ومن ورائها جميع الجند كل فى محله طبقاً لدفتر التشريعات الهمايونية .

وحينما وصلت مقدمة الجيش فيلق فيلق من قرية (دومه) -- سائلة الذكر -- إلى ساحة المخيم التى يقال لها (كوك ميدان) ، إذا بمؤخرة ذلك الجيش لازالت تتحرك فوجاً فوجاً من تلك القرية . [١٢٨ ب] وفى المسافة من القرية المذكورة إلى (كوك ميدان) والثى تقدر بنحو ثلاث ساعات ونصف لم يكن هناك موضع خال ولو بقدر راحة اليد ، وكان الأمواج المتلاطمة لخضم البشر قد تراكت بعضها فوق بعض بصنع الخالق البارئ .

وفى هذه الأثناء ركب الأكرم وسار على مهل حتى انتهى إلى موضع المشار إليهم (شريف باشا ، ورجب باشا ، ونصوح باشا) ، واصطف سائر رجال الدولة وخدام السلطنة كل فى محله ، وكانوا يبعثون الهيبة فى نفوس النظار ، واصطف كذلك على اليمين وعلى اليسار ما يربو على أربعائة من أغوات الأسدرون كمائة بدروعهم المعدنية .

وشجعان الإنكشارية وكانهم البنيان المرصوص المحكم ، وتحركوا على تلك الحال . وعندئذ تراص السواد الأعظم من أهل دمشق : رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً على جانبي الطريق لمشاهدة عساكر الموحدين " .

[١٢٩-١٣٠] في حين كان حراس القلعة يطلقون مدافعهم إطلاقاً متوالياً احتفاءً بقدومه الميمون ، وحيا السردار الأكرم من على يساره ومن على يمينه وبث الطمأنينة في قلوبهم ببشاشة وجهه ، وبر الفقراء وطيب خاطرهم بأن حفن لهم الدنانير والدراهم . ومر داخل دمشق ونزل بالمخيم الذي نصب في ساحة (كوك ميدان) ، وبعد أن استراح هنيهة ركب إلى أسواق دمشق وطاف بها كيلا يقع أي اعتداء من أسافل الجند على أي فرد بها ، وبذل سعيًا مشكوراً في استحصال أسباب راحة العباد.

وقوع كوسه مصطفى باشا أسيراً في يد الفرنسيين بعد الاستيلاء على قلعة (أبو قير)

ذكرنا فيما تقدم أنه لما كان لزاماً على الدولة العلية أن تحمل
براً وبحراً على الفرنسيين أداء الدين ، فقد تم تعبئة عشرة آلاف من
الجند المشاة من نواحي الأناضول والروملي وتولى عليهم والى الأناضول
سيد مصطفى باشا .

ولما وردت الأنباء من طرف الجزائر باشا بانتصارات عكا ،
أرسل الصدر الأعظم إلى مصطفى باشا هذا يؤكد عليه بعدم الاغترار
باتدحار الفرنسيين ، ويحذره من إنزال الجند إلى بر مصر ، ويطلب منه
الرسو في مياه عكا وبإفا ريثما يصل الجيش الهمايوني إلى تلك المناطق
قريباً ، [١٢٩ ب] والتخاير مع الجزائر باشا ، غير أن المشار إليه ألق
هو ومن معه من الجند من ميناء (فنكه) بالأسطول الهمايوني قاصداً
نغر الإسكندرية ورسا قبالة قلعة (أبو قير) على مسافة ثلاث ساعات
ونصف من الإسكندرية .

وعلاوة على حصانة قلعة (أبو قير) ومنعتها فقد شيد بها
الفرنسيون الطوابى والأسوار وحفروا الخنادق وشحنوها بالجند والمدافع
وآلات الحرب ، ولذا تشاور مصطفى باشا مع رعوس جنده وفي النهاية
وفي يوم ١٣ من الشهر المذكور أنزل على السحر أربعة مدافع وعدداً
من الجند في موضع مناسب على مسافة ساعة من تلك القلعة ، ولى

عليهم خزينه داره وعثمان آغا ، كما وضع المدافع فى السفن الصغيرة والكبيرة وشحنها جميعاً بشجعان الجند ، وبادر إلى حصار القلعة .

ولقد استبسل من بها من الفرنسيين ، وجدوا فى صدهم ، ودارت رحى حرب طاحنة ما يربو على سبع ساعات . وفى النهاية هجم غزاة الموحدين على الطوايى غير آبهين وأعملوا سيوفهم فيمن بها من الفرنسيين ، [١٣٠-١] ولقى رئيسهم الملون حتفه أثناء المعركة وظفر الموحدون ببعض الفرنسيين وغنموا كافة أموالهم وأثقالهم . غير أنه قد حدث وقت اقتحام القلعة وأثناء القتال أن استشهد ما بين خمسة إلى عشرة من المجاهدين بنيران ما زرعه الفرنسيون من ألغام ، واستشهد كذلك عدد من شجعان الموحدين فى الاشتباكات التى وقعت خارج القلعة .

وفى اليوم التالى لفتح القلعة دخلها سر عسكر باشا وأقام بها وعكف على زيادة استحكاماتها وتحصيناتها ، وأشاع ما حدث إلى سكان الديار المصرية وعربان البرية . كما أرسل بشرىات تحقق ذلك الفتح الجليل على وجه السرعة إلى الباب العالى .

وبرغم أن سفن الأسطول الهمايونى وعدداً من سفن القائد (سميث) قائد الأسطول الإنجليزى وسفينة رودسلى حسن بك ، كانت راسية فى صدر قلعة (أبو قير) لتزيد الغزاة الموحدين قوة وثقة ، فإنه لكثرة جند الفرنسيين وقوتهم المفرطة ، [١٣٠ ب] استجاش مصطفى باشا السلطنة السنية وناشدها العون والمدد .

وعندما بلغت تلك الأخبار الباب العالى احتشد على الفور جمع كثير وجم غفير من جند الإنكشارية والتوفكجية وغير ذلك من صنوف

جند الباب العالي ، وصدرت الأوامر بالإتعام على أحمد باشا — من المير
ميران ، والموجود بقرص — بلواء (إيج إيلي) مجدداً ، وكان في
السابق متصرفاً عليه ، ومضيه سريعاً لنجدة مصطفى باشا بالجند المشاة
الذين سيجمعهم محصل قبرص من تلك الناحية ، إضافة إلى من في معيته
من الجند .

وصدرت الأوامر أيضاً بمضى أخيه سريعاً إلى إيج إيلي لتعبئة
ألف من الجند الآخرين وإرسالهم وراء أحمد باشا ، وإتخاذ قره عثمان
زاده ومتصرف (علائية) ومتسلم (تكة) بعساكر كثيرة ؛ وكذلك
إرسال المؤن إلى الجند الموحدين ، وإرسال خمسين ألف قرش إلى
مصطفى باشا لقضاء حاجات الجند ، وخمسين ألف قرش أخرى لأمين
النزل وذلك لتغطية نفقات إطعام الجند ، ودفع رواتبهم ، [١٣١ - ١]
وبذل السعى الأوفى للشد من أزرهم في مهمتهم .

ومن جهة أخرى وبمجرد أن علم الفرنسيون باستيلاء الغزاة
المسلمين على القلعة على ذلك النحو وإبادتهم لمعظم من بها من
الفرنسيين وأسر بقايتهم ، تعبوا تعبئة عظيمة واحتشدت حشودهم
الموجودة في القطر المصري ، وفي غضون نحو خمسة أيام حاصروا
قلعة (أبو قير) ، وناجزوا السر عسكر المشار إليه (مصطفى باشا) ،
وعلى الرغم من أن كثيراً من الفرنسيين قد لقوا حتفهم ، فقد تخاذلت
العساكر الإسلامية وفترت همهم بسبب احتدام القتال ، واستنجدوا
بالأسطول الهامبوني ، فما كان منه إلا أن تقاعس واعتذر بأعذار واهية
وتعلل بأن إنزال جندي واحد من سفنه منافق لقواعد الأسطول ؛ فكان ذلك
سبباً حذا بأعداء الدين إلى مهاجمة جند الموحدين من جميع الجهات .

وهنا ركن بعض الجبناء منهم إلى الفرار إلى الساحل قاصدين سفن الأسطول الهمايوني ، ولما رأى مصطفى باشا ذلك منهم امتطى صهوة جواده ، وأثناء صده للفرارين وإعادتهم إلى القلعة تصيد الفرنسيون الفرصة واحتاطوا به من جميع الجهات بما يشبه الحلقة وجرحوه في موضعين من جسده ، وظفروا به وقيدوه في وثاق ، وقد استشهد ما يربو على ألفين من أبطال الموحدين .

وتحصن ابن المشار إليه وكتخذه مع من بقى من الجند وكانوا قرابة ثلاث آلاف في قلعة (أبو قير) ، ولم يفتروا عن الصمود والثبات في وجه أعداء الدين مترقبين وصول النجدة . [١٣١ - ب] غير أنه لعدم وصول إمدادات الدولة العلية إلى (أبو قير) والتقاعد غير المتوقع من الأسطول الراسي في عرض البحر عن نجدتهم ؛ فقد اعتري الضعف والتضعف الجند المحاصرين كليةً وبات واضحاً أمامهم أنهم هالكون إذا ما ثبتوا للأعداء وصمدوا في مواجهة يومياً أو يومين ، وعليه سارعوا إلى تسليم القلعة — صلحاً — إلى الأعداء .

عزل الجزائر باشا من ولاية دمشق وإسنادها إلى عبد الله باشا

كان الجزائر باشا متصرفاً على إيالة صيدا منذ دفع غائلة ضاهر العمر — ملتزم عكا في السابق — وقد مكث بعكا واستقر بها .
ومن قبل ذلك وفي العهد الأسعيد للسلطان عبد الحميد خان — طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه — صدر أمر سلطاني قاطع بالقضاء التام

على فرقة (اللوندية) ، فأبيدوا في كل الجهات التي كانوا يقيمون فيها ، وفرت فلولهم إلى عكا .

وفي تلك الأثناء كان الجزار باشا متصرفا على إيالة صيدا فاستمال أولئك الجند الأشداء وكانوا نحو ألف من الجند ، [١٣٢ - ١] واستعان بهم على مصالوة أعدائه والخارجين عليه ، فظهر على من جاوره من طائفة الدروز وتغلب عليهم .

أما الطائفة المذكورة فكان أدناهم يمتلك مالا جزيلاً ، وقد جلبوا ما في حوزتهم من أموال وكنزوها مثل قارون ، في حين أنهم لم ينفوا الدولة العلية شيئا ، وكانوا إذا ما كلفوا بأمر يرتضونه ، صدعوا بما أمروا ، وأبرزوا الطاعة والالتقياد وتوفروا على الاضطلاع به . أما إذا حدث وظهر أمر ليس على هواهم ولا يروقهم ، فقد كانوا يركنون إلى العناد والتمرد . وإن كانت الدولة العلية قد أدركت كل هذا عنهم إلا أنها تجاوزت عن زلاتهم عسى أن يكونوا مع الوقت علاجاً لأحد جراح الدولة أبدية الدوام .

وغير مرة أحييت إيالتي طرابلس ودمشق إلى عهدة الجزار باشا إلخافاً ، وأسند إليه كذلك لواءى القدس وغزة وجمارك يافا ولوط وكافة أوقاف تلك الجهات ومقاطعاتها ، وأغدق عليه الكثير والكثير من النعم الشاهانية في ظل الدولة العلية .

وإضافة إلى كل ذلك عندما طلب في السابق صرف إيالة مصر والقيادة العامة لجيوشها من عهدة إبراهيم باشا وعبد الله باشا وإحالتها إلى عهده ، بذلت الهمم لإسعافه بكل ما طلب ، [١٣٢ - ب] وأعين

باللزام من الأموال والعتاد والرجال ، فى حين أنه كان واضحا أنه بنفس
بهذه المناصب على المشار إليهما. ولقد ذكرنا كل ذلك وبيناه من قبل .

وحينما كان الحال على هذا المنوال ، علم الجزار باشا باقترب
الجيش الهمايونى من حدود الجزيرة العربية ، فطرد المتسلمين من حملة
وحمص ، وفيما كان حق عليه وعلى ذمته تقديم كافة الخدمات
والتسهيلات اللازمة للجيش الهمايونى ، إذا به يسعى فى الخفاء ليتسبب
فى حدوث عجز فى ميرة الجيش الهمايونى ومؤنه ، ويبث الفرقة بين
جند الموحدين ويحرض الطائعين فى أرض العرب على التمرد والعصيان ،
وبسبب هذه التصرفات الخرقاء تشوش نظام الجيش الهمايونى ، وعليه
أصبح من الواجب معاملة الجزار باشا بالمثل .

ولدى وصول الجيش الهمايونى إلى دمشق بعث الجزار باشا إلى
السردار الأكرم يعتذر له عن عدم استطاعته مفارقة عكا لقرب قلعتها من
طائفة الدروز ، [١٣٣-١] ويطلب منه البحث عن سر عسكر آخر
لمصر وأمير لحجاج الشام ، وتنحيه عن هذين المنصبين ، وتشاور
السردار الأكرم فى ذلك الأمر مع خبرة رجال الدولة ، وأرسل إليه جملة
من المكاتبات المفصلة والمشملة على النصيح والمصانعة ، فما كان منه
إلا أن ركن مجددا إلى العناد واعتذر بواهى الأعذار ، فأرسل إليه السردار
الأكرم من جديد رجلا عاقلا يقال له (ممش أفندى) الأرنأوطى ، وكان
من أفندية الديوان وخدم فى منصب أغا السلام ، وجد هذا الرجل فى
مصانعته واجتهد لاسترضائه واستمالة خاطره . وعلى الرغم من هذا لج
الجزار باشا فى عناده على النحو السابق .

ولما اتفقت آراء أصحاب الرأي والمشورة على أن الفرقة واختلاف الكلمة سوف يجعل أعداء الدين يتشبثون بالمقاومة ؛ أسندوا إيالة دمشق إلى عظم زاده عبد الله باشا ، [١٣٣ - ب] وإيالة مصر إلى نصوح باشا من أنجال العظم كذلك .

وبمجيء السردار الأكرم إلى الجزيرة العربية فإنه وفقاً للقول

المأثور :

" وعند طلوع الشمس يغيب النجم " ، بات تعبير سر عسكر مجرد لفظ ؛ وعليه لم يهتم بأى شكل من الأشكال بتتصيب سر عسكر .

وصدرت الأوامر تباعاً إلى الجزائر باشا بإرسال من فى معيته من الجند وما فى حوزته من عتاد حربى ، وبذل السعى والتوفر على مد الجيش الهمايونى بالمؤمن والذخائر ؛ فإذا به يمتنع عن إرسال الترتيبات المذكورة وينفض يده من دعم أسباب الجهاد الذى هو سبب نجاة الدنيا والدين ، وبناء عليه جرد الجزائر باشا مما فى عهده من مقاطعات وأوصى بالاهتمام بخدمة الدولة العلية .

ولقد طبقت شهره أحمد باشا الجزائر وشجاعته فى قلعة عكا الآفاق ، والآن وفيما كان حقاً عليه كسب رضا السردار الأكرم وبذل العون اللازم للجيش الهمايونى ومؤازرته وبذل السعى الأوفى فى أمر تطهير مصر من لوث المشركين ، [١٣٤ - أ] إذا به يتبجح فى أسلوبه مما طمس ما أبلاه فى قتال الفرنسيين ، وظهر جلياً أن ما بذله من جهد وما أبلاه من بلاء لم يكن خالصاً للمحافظة على الدين ونيل رضا الدولة ، وإنما كان للدفاع فحسب عما اكتنزه من أموال وخزائن ، ومهما قال وزعم السفهاء أن الجزائر باشا كان مضطراً إلى ذلك ، فإنه لا يخفى

على أولي الألباب وذوي المنطق الحصيف أنه أضاع كل مساعيه
وجهوده سدى .

قتل أبي حمزة وأشياعه في دمشق

منذ أمد بعيد والمدعو أبو حمزة في دمشق يتجبر ويظفي ، وبعد
أن طرد والي دمشق السابق إبراهيم باشا ، ملك زمام المملكة وسير دفعة
الحكم فيها من تلقاء نفسه ، وأذاق الفقراء والمساكين صنوف الظلم
واللوان الاعتداء .

وفي الخفاء تواطأ مع كل من مفتى دمشق محاسنى زاده ،
ومفتيها السابق الشيخ مراد زاده ، ثم سلك طريق الظلم والبغى .
[١٣٤-ب] وعلاوة على ذلك تحالف مع أغا مطوعة دمشق المدعو
(خونفساد أو غلو على) ، وكان في خلقه فسوق وفجور ، فطغى بعشيرته
في البلاد وأكثر فيها الفساد ، وتعاضدوا جميعاً وتعاونوا على قتل الأئفس
وسفك الدماء وهتك الأعراض وتعكير صفو حياة العباد إلى غير ذلك من
حركات البغى والعدوان .

وإن كان ذلك قد وصل إلى أمير الجيوش ، فقد تغافل عنه
وسعى بالخدعة للإيقاع به ، ولدى قدوم الجيش الهمايوني دمشق لوح له
برتبة (زغرجى باشى) ، غير أن الشقى المرقوم (أبا حمزة) لم يأبه
بذلك وتحصن

بقلعة دمشق ونسى قوله تعالى : أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم

في بروج مشيدة^(١) ، ولم يبرح القلعة قط .
 ودُعِيَ وجهاء البلدة للتشاور في أمر محاربة لطغيانه وتجبّره ،
 وهنا حملوا المذكور في عدد من رجاله إلى مجلس السرّدار الأكرم ،
 وهرب أعوانه وأنصاره خوفاً من بطش الصدر الأعظم ، وقتل أبو حمزة
 وخونفساد أوغلو بسيوف الجند المشاة الماضية ، كما أنزل العقاب بسيد
 عبيد — من رؤساء عبيد الباب — ونحو خمسة وعشرين من أعوانه
 الأشرار ، وأصبحت جثثهم الخبيثة عبرة لمن يعتبر ، وختم على دورهم
 وصودرت أموالهم ، واكتفى بنفى الشيخ مراد زاده إلى حلب وأبعد
 محاسنى زاده إلى (بئر الفرات) لما أحصى عليهم من سيئات .
 [١٣٥ - ١] كما عوقب كاتب محكمة دمشق هو الآخر بالنفى إلى بئر
 الفرات لما صدر عنه من قبيح الكلام عند أداء الحصّة المعينة على قريته
 من الميرة .

وفاة صادق أفندي (مكتوبي) الصدر العالي

مرض سيد أفندي مكتوبي الصدر العالي في المرحلة الثانية ،
 ولما بلغ قضاء (كوميدان) على محفة اضطربت حمته وتبالغ به
 المرض ، فأرسله الصدر الأعظم إلى دار لطيفة في دمشق وعين كبير
 الأطباء (بوزارى) لخدمته والعناية به ، غير أنه لم ينجع فيه دواء وظل
 طريق الفراش عدة أيام ، ثم سافر بعدها السفرة التي لا ينوب منها

١- النساء : (٧٨) .

الذاهبون ودفن بجوار تربة بلال الحبشى - رضى الله عنه - فى موضع يقال له (سوق الشياة) .

شغل الفقيد منصب (باش خليفة) فى صدارة شريف حسن باشا الصدر الأسبق ، ومنصب مكتوبى الصدر الأعظم فى عهد صدارة يوسف باشا الصدر الأسبق ، وكان قد خرج من الآستانة مع الجيش الهمايونى ، [١٣٥ ب] وعندما عاد الجيش إلى الآستانة مع ختام الحملة الهمايونية شاعت الأقدار أن يكدر ويقتم بعزله من المكتوبية ، ثم طُيِبَ خاطره ببعض المناصب وفى هذه المرة لدى تأكد الخروج إلى مصر ، طُيِبَ خاطره مجدداً بمنصب المكتوبى .

لقد كان شخصاً قويم الخلق حميد السجيا ، مجداً فى عمله ، مكباً على مرضاة ولى نعمته ، محباً للفقراء ، ومؤلفاً لقلوب الضعفاء ، سخياً جواداً .

ولما بلغ السردار الأكرم أن ما تراكم عليه من ديون يزيد عسا أعقبه من إرث ، وأنه ترك أما عجوزاً فى حاجة إلى العناية ، رصد لها يومية قدرها مائة وعشرون (آقجه) من جمر استانبول ، فطيب بذلك خاطرها الكسير .

فساد زمرة الديوانكان

بعد جلب أكثرية زمرة الديوانكان الموجودين فى الروملى والأناضول ، أصبحوا كثرة عظيمة فى الجيش الهمايونى ، وتزايدت فضائحهم وتعاونوا على الفساد والطغيان . [١٣٦ - ١] وليلة وصول

الجيش الهمايوني إلى المرحلة الثانية هاجم عدد من جند الديوانكان فرقة
 له (سقر أوغلو) رئيس الأدلاء ، فقبض على عدد منهم لاسترداد ما
 انتهبه هؤلاء ، وقطعت آذانهم وأوقفهم ، وطردها من الطائفة المذكورة .
 كان له (سر چشمه) سرت محمود خادما شابا حدث أن سرق
 مع قهوجيه مقدارا من متعلقاته وأمواله ، وبينما كان على أهبة الركوب
 فارا ، استيقظ القائد المشار إليه من نومه ، ولما أحس خادمه أنه قد
 فطن لما حدث ابتدره بالهجوم وعاجله برصاصة من بندقيته استقرت في
 ظهره ، فاستيقظ سائر الجند وقبضوا على الغلام ، وقيدوه في وثاق ،
 ومات سرت محمود متأثرا بجرحه بعد عدة أيام من دخول دمشق ،
 فدفنوه وأخذوا قاتله بالقصاص جزاء ما فعل .

قدوم الحاج علي أغا رئيس الأدلاء وتوليته منصب (سر چشمه)

منذ أن ولي السردار الأكرم أمارة المناجم الهمايونية والحاج
 علي أغا - رئيس أدلائه وخادمه القديم - يرافقه في مأمورياته في
 المناجم وأضرروم وجانكلر ووسيم ، ويبدى إخلاصا وتفانيا وحسن
 سمته .

وقد دُعي للقدوم إلى الباب العالي من المناجم الهمايونية ، ولدى
 تشريفه هناك ، اعتذر واستأذن في الرحيل ؛ [١٣٦ - ب] إذ إنه كان
 شيخا طاعنا في السن ، ومضى قاصدا لواء ترجاته حيث لزم داره هناك .
 وتم استدعاؤه لتكليفه بالذهاب مع السردار الأكرم إلى مصر .

ولما كان المذكور لا يرضى بأى حال من الأحوال أن يكون سيده وولى نعمته القديم يحوب الصحارى المصرية بينما هو مطمئن فى داره ؛ فإنه بعد أن عهد إلى اثنين من رؤساء الأدلاء من تلاميذه هما عرب سليم وسواسلى سليمان باستقبال الجيش السهاميوني فى خمسمائة من الفرسان ، وملازمته حتى (أزكميد) ، أسرع فى اللحاق بالجيش السهاميوني فى نحو سبعمائة من صفوة تلاميذه الأشداء من فرسان أكراد كردستان وآرزنجان وترجان .

ولما أصبح على مسافة مرحلة من دمشق استقبله كافة رؤساء الديوانكان والتوفجكية ، وفى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الرؤساء لا يحترم صغيرهم كبيرهم منقال ذرة احترام ، ويضرب كل منهم رقبة الآخر ، ارتضوه رئيساً لهم وتفاخروا بتقبيل ذيل ثوبه وائتمروا له وجاعوا به فى موكب حافل — وسط مظاهر التعظيم والإجلال — إلى العتبة الأصفية ، فنال شرف تقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم ، وخلع عليه بما لم يخلع على أحد من أقرانه ، وعينه (سرجشمه) لطائفة الديوانكان ، فسر بذلك سروراً عظيماً .

ولما كان الحاج على أغا شيخاً بلغ من الكبر عتياً فقد اضمحلت قوته وتآلت شدة عزيمة بسبب الحر اللافح فى الصحارى المصرية ، [١٣٧-١] ثم لحق بالرفيق الأعلى بعد عدة أيام من وصوله إلى داره . كان رحمه الله متديناً تقياً ورعاً ، لم يجد الزمان بمثله منذ أن وجدت طائفة الديوانكان ، وكان رحيماً بالفقراء ، رعوفاً بالرعايا والبرايا ، له القدرة على ردع رؤساء الأدلاء كثيرى الاتباع . وكان كل من كلف بالزحف عليه يأتيه مستأمناً . ولأن أكثرية مأمورياته انتهت

بالصلح، فقد عذ بعض البلهاء محصورو التفكير ذلك عيباً فيه ، فسماه
(الشيخ المصالح) ، يقصدون مذمته والانتقاص من شأنه . غير أنه
مهما قالوا فإنه في النهاية رجل صالح أهل لأن يدعى رئيساً للديوانكأن .
وأثناء إقامة الجيش الهمايوني في ساحة (كوك ميدان) في
دمشق وبينما كان رشيد مصطفى أفندي الدفتر دار ذاهباً من خيمته بعد
المغرب قاصداً خيمة السردار الأكرم ، اتفق أن كان مهرج التوفكجية قابلاً
في خيمته ينظف بندقيته ، فانطلقت منها رصاصة اخترقت كم قميص
رشيد أفندي . ولما بلغ ذلك الصدر الأعظم أمر بمعاينة الرجل ، غير أن
مصطفى أفندي كان رجلاً لين العريكة ، دمث الخلق ، [١٣٧-ب]
أدرك أن ما وقع له كان محض قضاء وقدر ، وليس للمهرج المسكين
ذنب فيه ، فتشفع له عند السردار الأكرم فشفع وعفى عن الرجل .

فرار بونايرت من مصر إلى فرنسا

عندما استولى بونايرت على مصر وملك زمام أمورها احتواه
الكبر والغرور كفرعون ، وجزم فيما بعد بأنه قادر على انتزاع أية جهة
يمضي إليها، وفي الوقت الذي ادعى فيه أنه قائد بغير نظير في دروب
الفتح والحرب ، إذا به ينهزم في وقعة عكا على أيدي الغزاة المسلمين ،
وعلاوة على ذلك وبرغم انتصاره في النهاية في ملحمة (أبو قير) ، فقد
هلك من جنده الجم الصغير ، مما روعه وأفزع .

لقد لاحظ مشكلات حصار الأسطول الإنجليزي لموانئ
الإسكندرية، والحروب في قورفو وإيطاليا ، وهلاك قائد أسطوله الذي

وفى تلك الأيام والسبب لا يعلمه أحد إلا الله أبحرت السفن الإنجليزية صوب قبرص ، فترصد بونايرت فرصة خلو الميناء وأسرع بالهرب إلى فرنسا، وكان ذلك فى الساعة الثالثة نهار يوم الجمعة الموافق (٢١) ربيع الأول.

وقعة جزئية

بعد أن كتبت النجاة لنحو ثلاثمائة من الجند المشاة الذين طرخوا أنفسهم فى البحر وسبحوا إلى السفن الهمايونية يستجبرون بها ، وصلوا ميناء (ليمسون) — من سواحل قبرص — وكان هناك كذلك عدد غفير من الجند النظاميين فى الميناء المذكور ، لكن حدث أن عبد الفتاح بك عاقوة على أنه لم يرسل النجذات إلى قلعة (أبو قبر) ، فإنه لم ينتشر مثل كذلك الجند الذين استجاروا بالسفن من الماء ، مما كان سبباً فى غرق الكثير من زملائه الأبطال ؛ ومن ثم هرضوا الجند ، [١٣٩ - ١٤٠] فاندفعوا على المسكين واغتالوه بسيف الغدر ، حتى إنهم أصابوا القسائد إسماعيل بك وأمين النزل زعيم مصطفى أغا بجراح طفيفة ، وقدم الضباط فى الحال وجدوا فى دفع الفتنة وبينوا سوء عاقبة تلك الأحداث غير اللاتقة ومقبتها ، وعندئذ أظهر الجند أنهم يطيعون الأوامر بأكمل وجوهها، وأن عداوتهم تنحصر على عبد الفتاح بك فحسب بسبب إهانتته لبنى دينه، وأنه إذا ما نصب عليهم سيد على (قبودانا) فسوف يتفادون له ويطيعوه. وهكذا أبرزوا إذعائهم وانقيادهم ، ونصب سيد على قبودانا

عليهم بالتفاني الجميع واستصوبت قلند الأسطول الإنجليزي (سـمـيـث) ،
وقطع بذلك دابر الفتنة.

زيارة بعض المزارات المباركة في دمشق ونبذة عن أوصافها

من الأماكن المباركة الموجودة في دمشق : المرقد المعظم
والمزار المنور للذي يحيى (عليه السلام) داخل الجامع الأموي وقد
زرناه مع السردار الأكرم ، كما زرنا المرقد المبارك للشيخ
ابن عربي الأندلسي بجوار (سوق الشبابة) ، وكذلك المقامات المسماة
(مقامات الأربعين) في الجهة العلوية من جبل قيسون ، والمزار لأمير
الأنوار لخير سلاطين الأتاتكة ومؤسس التربية النبوية المباركة المتفرد
له (نور الدين الغازي) ، [١٣٩ ب] وزرنا الكثير والكثير من مزارات
ومراقد المشايخ والأولياء واستمددنا بفريض روحانيتهم وآثار أنفاسهم
المباركة .

وجو دمشق بحر الروح ، وحدائقها وبساتينها تدفع النعم عن
النفوس ، وتشرقها سبعة أنهار جارئة ، يسرى ماؤها العذب إلى بيت
الغنى والفقر ، ومن المحال هناك أن تجد منزلاً بلا فسقية أو شادروان .
وأسواقها وحوائطها عامرة مزدهرة ، ورطبتها ونزلتها ملجأ وملاذ
للمسوفة وأهل الحال ، ومقاهيها تسر روادها ، وحرارة مياه حماماتها
ولطافتها منقطة النظير على وجه المسورة .

وجملة القول أننا مهما استبحرنا وأسهبنا فى مدح دمشق
والثناء عليها فإنها جديرة بكل مدح وثناء ، علاوة على أنها قد اكتسبت
رونقاً وبهاء جديدين بتوارد الجيش الهمايونى إليها .

تعيين رجب باشا محافظاً على يافا وشریف
باشا محافظاً على غزة

صُرِفَت القيادة العامة للجيش المتوجهة لغزو مصر من عهدة
الجزار باشا ولم يعد هناك ضرورة لتعيين سر عسكر ، وبالتالي لم يعد
هناك اهتمام بذلك الخصوص. [١٤٠-١] ولما كان من الحتم تعيين
محافظ لكل من يافا وغزة كل على حدة ، فقد عُيِّن رجب باشا - والى
سيواس - محافظاً على يافا، وعُيِّن شریف باشا محافظاً على غزة وخلع
عليهما، وأمر بالمضي إلى منصبيهما.

خروج الجيش الهمايونى من دمشق

فيما بعد ، وعندما لم يعد هناك ما يستدعى مكث الجيش
الهمايونى فى دمشق ابتدأ جيش الإنكشارية الزحف منها جرياً على
القاعدة القديمة . وبعد ثلاثة أيام وفى يوم الأربعاء (٥) من تشرين الأول
الموافق (١٨) من جمادى الأول خرج السردار الأكرم بالعدة والعتاد
بالجيش الهمايونى بعد أن استوفوا ثمانية وأربعين يوماً بدمشق . وخيماً
بقرية يقال لها (مجزة) على مسافة ساعتين ، وشرُفَت الكثرة المطلقة

من الجيش بزيارة (دحية الكلبي) رضى الله عنه المدفون فى تلك القرية.

وبعد أن انتجعنا الكلاً يوماً ، نزلنا فى اليوم التالى بالمنزل المسمى (صعصة) على مسافة ثلاث ساعات ، وفى اليوم الذى يليه عبرنا طريق (طيء) ونزلنا بخان (قنيطرة) ، وفى اليوم التالى مضينا من بين غابات البلوط وجبنا مواضع ومعابر كثيرة الصخور ، وفيرة الشجر حتى أقمنا للمخيم فى طرف الجسر المشهور بـ (جسر يعقوب) على مسافة سبع ساعات .

منح محمد باشا — وكيل الخرج — رتبة مير ميران

أنعم حضرة السلطان على الحاج محمد آغا — الذى استخدمه السردار الأكرم فى منصب وكيل (الخرج) — [١٤٠ ب] بلواء القدس الشريف ، وعطف بإحسانه إليه برتبة مير ميران ، وقد خلُع عليه فى المنزل المذكور وكرم بعظيم التكريم .

ومن قبل استخدام الصدر الأعظم الباشا المذكور فى أمانة الشخير ووكالة الخرج والعديد من الأمور المماثلة ، فأبان عن كفاءة وتهان . وعلاوة على هذا فإنه بسبب عزل الجزار باشا من إيالة دمشق وإعاقته من القيادة العامة للجند ، فقد خلست مقاطعات غزة وبافا وجماركهما وأضيت ملكيتها إلى الحكومة ، ولأنه لم يكن هناك طالب آخر غير المشار إليه وهو من أهل غزة ومن وجهائها وأشرافها، فقد أهيلت إلى عهده — بناء على رغبته الشخصية فى تلك المقاطعات — أثناء مقام الجيش الهمايوني بدمشق .

وقد أظهر المذكور إخلاصاً وتفانياً فى كافة المسهام المتعلقة بإعداد ميرة الجيش وتهيئة اللازم من الجند ، وقد هزت مدسه الكثير والكثير من الأحوال والتصرفات المرضية للسلطان مثل جلبه أمراء الدروز أمثال : مير بشير أوغلو وعربان الأطراف من أجل الوساطة فى الأمور المتعلقة بالترام للمقاطعات التى نُزعت من عهدة الجزار باشا ، وعليه فقد أنعم عليه — على النحو المحرر — برتبة مير ميران .

ولما غادرنا جسر يعقوب خيمنا فى طبرية على مسافة ست ساعات ، وفى طريقنا إلى ذلك المنزل زرنا (جب يوسف) الذى ابتلى

فيه سيدنا يوسف الصديق عليه السلام . [١٤١ - ١] وفي اليوم التالي نزلنا بصدر الخان الشهير — (خان التجار) على مسافة ست ساعات ، وفي اليوم الذى يليه قطعنا مسافة سبع ساعات وحططنا الرحال على أطراف قصبة (جنين) ، وبعد أن لبثنا بها يومين غادرناها إلى الموضعسمى (خان المنارة) على مسافة خمس ساعات ، ويطلق على المنطقة من جسر يعقوب حتى هذه المرحلة اسم (ديار كنعان) . وفي اليوم التالي نزلنا من خان المنارة ونزلنا يظهر قرية (عين أسادر) ، وفي اليوم الذى يليه الموافق (٧) جمادى الأولى خيمنا فى موضع يقال له (كؤل باشى) ، وبعد هذا الموضع المرحلة الواحدة والسبعين من الآستانة . وبعد أن مكثنا فى ذلك الموضع خمسة عشر يوماً — حسبما دعت الضرورة — سرنا لمدة ساعتين وذلك فى يوم (١٢) جمادى الآخرة ، وأقمنا القسطنطين فى ساحة حصباء مظلة على النهار على مسيرة نصف ساعة من يافا .

حبس توقان زاده أحمد بك

فى الوقت الذى كان فيه الجيش الهمايونى مقيما بدمشق لم يبرحها بعد ، ثم استدعاء توقان زاده أحمد بك — من عائلات نسابلس — وجرار زاده الشيخ يوسف وأخذت عليهما تعهد بابتغاء البعير والمؤن اللازمة للجيش الهمايونى ونقدا الثمن مقدما . [١٤١ - ب] والحالة هكذا نزل الجيش الهمايونى يافا وأعد جرار زاده ما تعهد بإعداده من المؤن والبعير كاملة غير منقوصة وقام

بتسليمها وبذلك أدى مهمته على خير وجه ؛ فى حين أن توفان زاده لم
يفب بعقال بعير مما كلف به . علاوة على ذلك أنه كلما شدد عليه دفستردار
أول رشيد أفندى وأكد عليه ضرورة إنجاز مهمته ، أغلظ له الرد بيايعاز
وتحريض من الجزار باشا . ولما تم التحقق من ذلك الأمر ، باتت من
اللازم ردع توفان زاده وتأديبه ، فأودع فى السجن إلى أن توفى فيه بعد
فتح العريش ، وعهد إلى أخيه خليل بك بنفس المهمة . والحقيقة أن البك
المذكور لم يأل جهداً فى أداء الخدمات اللازمة للجيش الهمايوني فحسنت
سيرته ؛ ومن ثم كرم بمنصب رئيس بوابين فى الباب العالي .

مجيء حسين باشا ومصطفى باشا إلى الجيش الهمايوني

جاء (ذكرمنجى زاده مصطفى باشا) والى مرعش — من
الوزراء العظام — [١٤٢-١] وفندق زاده حسين باشا والى أدنه فى
جم غفير من الفرسان والمشاة إلى الجيش الهمايوني ، والواقع أنهما كانا
موضع تقدير السردار الأكرم ، فلع على كل منهما فرواً سمورياً ثميناً
وأغدق عليهما العطايا وقبض لكل منهما فسطاطاً يقيم به .

قدوم القائد سميث - من القادة الإنجليز - إلى الجيش الهمايوني ، وطلب الفرنسيين التفاوض بشأن الجلاء عن مصر

فى تلك الأيام ركب (سميث) ، قائد الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض وهو من أساطين القادة الإنجليز ، البحر وحاز شرف تقبيل ذيل ثوب السردار الأكرم فى صحراء ياغا .

وبناء على ما كان بين الدولة العلية وإنجلترا من تحالف وعلاقات الصداقة والود بالإضافة للخدمات التى أداها (سميث) بهمة عالية فى نجدة عكا والقضاء على ما استطاع القضاء عليه من السفن الفرنسية ، فقد خلع السردار الأكرم - حاتمى الكرم - عليه خلعاً سمورية ثمينة وأهداه جواداً مطهما مزينا وصندوقاً من الجواهر وصرة ثقيلة بها أمتعة متنوعة ، إلى غير ذلك من هدايا تليق بذلك القائد ، كما أجابه إلى طلبه بزيارة القدس الشريف ، وقضى له من يقوم على خدمته وإيقاء كل ما يلزمه ، [١٤٢ب] وأمر بإكرامه غاية الكرم .

وزار القائد (سميث) القدس الشريف ولما عاد أدرجه إلى الجيش الهمايوني تلقى رسالة من (كليبر) سر عسكر الفرنسيين بعد رحيل بوناپرت إلى فرنسا ، يعرب له فيها عن رغبته فى التصالح مع الدولة العلية والجلاء عن مصر ، ويطلب منه التوسط معهم فى أمر المصالحة ، وعليه استأذن سميث السردار الأكرم فى هذا الباب قائلاً :
" إذا ما أذنتم لى بإجابة الفرنسيين إلى رجائهم ، أستدعى منهم الجنرال مينو فى عدد من عقلائهم ورؤسائهم " .

ولما كان من الممكن أن تندلع حرب تراق فيها دماء المسلمين
وتزهق فيها أرواح المجاهدين، لم يكن السردار الأكرم يحبذ إشعال نـار
القتال عيـثا ، وعليه تشاور مع رجال الدولة وأولى الرأى والمشورة
واضعين فى الاعتبار أنه " لو كانت المشاجرة شجراً فلن تنـثر إلا
خنجرًا"، فاتفق رأيهم على السماح للقائد سميث باستدعاء المذكورين
للتفاوض فى عقد الصلح . وأنعم الصدر الأعظم على القائد المذكور -
من جديد - بفروسورى من متعلقاته الشخصية ، فمضى إلى سفينته
مطيب الخاطر واتخذ طريقه إلى الإسكندرية للتفاوض فى عقد الصلح.
وبعد أن مكث الجيش الهمايونى ستا وعشرين يوما أخرى فى
صحراء يافا ، [١٤٣-١] لم يعد هناك ما يستدعى بقاءه فيها ،
فغادرها فى (١١) رجب . وخيمنا فى الموضع المسمى جسر دوبيل على
مسافة ست ساعات وزرنا المزار لامع الأنوار لـ (دوبيل) من أخوة
سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، واستمددنا ببركاته وآثار فيوضاته .
وفى اليوم التالى وجب علينا المضى إلى غزة على مسافة تسع
ساعات ، وفى الطريق زرنا ضريح أبى هريرة رضى الله عنه ، وعندما
بلغنا طرف جسر على مسافة ساعتين من غزة تراصت فبايق الإنكشارية
على اليمين وعلى الشمال كسد من حديد وأدوا التحية طبقا للمراسم
العادية ، ونزل الوزراء والعظام وسائر خدمة الباب العالى وقادة الجند كل
فى موضعه ، ونصبنا المخيم فى الموضع المسمى (حدائق الزيتون)
بظاهرة غزة .

فتح واسترداد قلعة العريش

مكث السردار الأكرم عدة أيام انتظارا لورود خبر من القائد سميث الذى توسط فى أمر الصلح مع الفرنسيين ، ولما طال به الانتظار فى غزة ولم يأت أى خبر ولم يظهر أى أثر ، جدد النية على الجهاد ووطد العزم على استرداد قلعة العريش المجاورة له ، فسير مصطفى باشا والى مرعش ، وحسين باشا والى أدنه ، ونصوح باشا والى مصر لفتح الموضع المسمى (بر المسعودية) على مسافة ساعتين جهة مصر؛ [١٤٣ - ب] وذلك لقطع شرايين إمدادات الفرنسيين من جانب مصر عن حراس القلعة المذكورة ، وتم استيفاء اللازم من آلات الحرب والذخائر .

وبعد أن نصب المشار إليهم خيامهم فى المنزل المذكور ، أسندت القيادة إلى رجب باشا والى سيواس ، وسبق كافة الوزراء العظام والمير ميران الكرام وأغا إنكشارية الباب العالى وجنده كافة وسائر الفرق الأخرى من طوبجية وتوفكجية ولغمجية ومعهم كامل أسلحتهم وعتادهم . وبعد أن أحاطوا بالقلعة من كل جانب دعوا من بها من الفرنسيين وقائدهم إلى التسليم بلا حرب على أن يسمحوا لهم بالانصراف أينما راموا آمنين سالمين ، وأخبروهم أنهم إذا ما أبوا إلا القتال ، فإتاه لن يلتفت إلى استئمانهم فيما بعد ويقتلون عن آخرهم .

وهنا زعم قائد الفرنسيين الموجود فى القلعة أنه لما انتخب فى مقدار من الجند للمحافظة على تلك القلعة تكفل بالصمود أربعة أشهر على الأقل من الحصار الوبيل ، حتى إذا زحفت عليه دول التحالف

مجتمعة وبأى مقدار من الذخائر وآلات الحرب . [١٤٤ - ١] واغتر
بمتانة القلعة وحصانتها فأعرب عن عظم قوته فى أمور المؤن والذخائر
وآلات الحرب والجند ، وهنا أشعلوا نار القتال من الجهات الأربعة ،
ورفعوا الأمر إلى السردار الأكرم ، فنفذ صبره من تجبر قائد العريش
وتطاوله على ذلك النحو ، واستعان بالله واستمد بروحانية رسوله
(صلى الله عليه وسلم) ، واستبقى الجيش الهمايوني بأكمله فى غزوة
وخرج بنفسه منها على رأس عدد من جند بابه ومشاة الأرناعوط ،
وصوب عنان فرسه جهة قرية (خان يوسف) على مسافة ست ساعات ،
وفى اليوم التالى حول شكيمة مقصده نحو منزل الشيخ (زويد) على
مسافة أربع ساعات .

وفى اليوم الذى يليه الموافق (٢٧) من رجب قطع مسافة ست
ساعات ، فأصبح على مقربة من العريش ، وشرف باستقباله كافة
الوزراء العظام والميرميران الكرام وأغوات الإكشارية وسائر قادة الجند
وضباط الفرق ، [١٤٤ - ب] ووصلوا به فى مكتب حافل إلى أرض
حصباء مطلة على البحر على مسافة ساعة من العريش حيث أقيم
الفسطاط . وبعد أن تشاور السردار الأكرم مع أرباب الحرب والضرب
وبحث - بقدر الكفاية - كافة الأمور معهم ، انتنوا القتال وحملوا على
العدو من كل جانب ، وبادروا إلى إقامة المتاريس العريضة والعميقة فى
شتى أطراف القلعة المذكورة .

ومن ناحية فقد تترس أسود ساحة الوغى وأبطال الإكشارية
بمتراس دائرى بجوار القلعة ، ومن ناحية أخرى دنا كثير من الجند الذين
أبدوا شجاعة فى القتال وحصدوا بسيفوفهم الهام ، وحفن السردار الأكرم

كذلك لأسود المجاهدين حفنة من الدنانير خالصة العيار فلم يغفروا لحظة عن القتال .

وامتد القتال عدة أيام على ذلك النحو ، وذات يوم رأى السردار الأكرم بالمعية ذهنه وإشراق نفسه أن وإلى مرعش مصطفى باشا المقيم معه في مرحلة المسعودية سوف يكون سبباً مستقلاً في تذليل تلك العقبة وانفراج تلك الأزمة ، لما آنسه في المشار إليه من صلابة وشجاعة وإقدام ، فأمر بمجيء الباشا المذكور في عدد من جنده والتقدم لمحاصرة العريش ، فصدع بما أمر به ، مردداً " الأمر منك ومنا الإجابة " ، وزحف للحال في ظلام تلك الليلة الدامس وأصبح على بعد خطوات من قلعة العريش .

ولما ورد ذلك الخبر على السحر إلى السردار الأكرم (منصور اللواء) سجد لله وتضرع للواحد الأحد الذي لا شريك له وسأله النصر ، ثم بذل للجند ما قيمته مائة ألف قرش من الدنانير خالصة العيار ، وأخذ يحض غزاة الموحدين على القتال وبذل لهم الدنانير خالصة العيار ، [١٤٥ - ١] والتي ينطبق عليها قوله عز من قائل { صفراء فاقع لونها تسر الناظرين } [البقرة: ٦٩] .

وقصف غزاة المسلمين أبراج القلعة وصبوا عليها قذائف مدفعيتهم ولم يعد للفرنسيين قدرة على الاحتمال ، غير أنهم لجأوا في عنادهم ، وبينما كانوا يقاومون أشد المقاومة شن مصطفى باشا عليهم حرباً شعواء وأعطى علمه إلى علمداره وهجم بالهند مترجلاً ، وشاهد سائر طوائف الجند هذا منبه فاشتعلت حميتهم وقى التو والحال اقتحموا القلعة من كل جانب بقتة مع أصداء التكبير ، غير مباليين بما

صبه عليهم الفرنسيون من نيران مدافعهم وينادقهم وتقدموا وانقضوا على أبواب القلعة كملك الموت وهشموها بمعاولهم . [١٤٥ - ب]
وعاين المشركون ذلك وأيقنوا أنه لا قبل لهم بالثبات في القتال فجأروا بطلب الأمان وهم في خوف واضطراب وهوان ، غير أن استماتهم هذا لم يقبله المجاهدون بناء على ما سلف من المفاوضات ، وفي التوصل غزاة المسلمين الأبراج والأسوار كالعناكب وفي غضون ساعة من هذا اليوم المبارك الموافق يوم الإثنين (٣) من شعبان ، ركزوا أعلام النصر عليها وأسروا نحو مائة وخمسين من جنود الفرنسيين وأعملوا سيوفهم في البقية .

وفيما بعد قدم مصطفى باشا بمفتاح القلعة إلى السردار الأكرم وزف إليه البشري بالفتح وقبل ذيل ثوبه ، فأوسعه كراماً وهدباً ، وطيب خاطره بفرو سموري من متعلقاته الشخصية ، [١٤٦ - ١] وعينه محافظاً على القلعة لحراستها وضبطها ، وأعاد أدرجه للإقامة بها .
فقدم المذكور إلى القلعة وأقام بأحد أبراجها ودقت الطبول وعسم الفرح والاستبشار ، وفي هذه الأثناء فجأة ، ولسبب لا يعلمه أحد حدث اتفاقاً لقضاء المقدور - أن وقعت النار على مخزن البارود في أحد أبراج القلعة ، فنسف البرج الذي كان يقيم فيه مصطفى باشا والبرجان الآخران الملاصقان له وانهدمت من أساسها ، ومات المشار إليه وأغلبية خدمة بابيه وكثير من خدمة أندرون الصدر الأعظم . ولما علم السردار الأكرم بذلك تأسف أسفاً شديداً على مصرع وزير غاز مشوار ، وتوالت أمور ~~التي~~ بنفسه وبذل الصدقات على روحه ، وخاضع على قسامة جنود

الموحيدين وكل من أحضر أوعية الهام من الغزاة المجاهدين وحقق لهم
حفنة من الدنانير .

ومن صباح ذلك اليوم إلى رواجه لم يفتر للحظة عن إفاضة
سوابغ بره وإتعامه على جنده ، وسير عثمان بك ، [١٤٦ ب] وهو
من المشهود لهم بفطش الشجاعة والبسالة في فتح تلك القلعة ، إلى الباب
العالى بمفتاحها و(معروضات) تشتمل على كيفية فتحها ، وعلى هذا
النحو زف البشائر إلى حضرة السلطان .

ولقد اشتهرت تلك القلعة في الآفاق وذهب لها صيت بعيد
بمتانتها ومنعتها ، إنها حصن متين مكين ، بنى بما لا يحصى كثرة من
الصخور الصماء وزبر الحديد — كسد الإسكندر — من أجل دفع أيدي
ياجوج وماجوج عريان البادية عن ممالك الشام .

ولكى لا تتشذر دائرة مصطفى باشا رحمه الله ، تشفع كافة
الأركان وقادة الجند وعموم الضباط لإعطاء الوزارة إلى كتحذاه إسماعيل
أغا ، غير أن الصدر الأعظم لم يجز منحه رتبة الوزارة السامية ، ورقاه
إلى مير ميران ، فعاود المشار إليهم التشفع مرة ثانية ، فمنحه إيالة
مرعش ورتبة الوزارة السامية وخلع عليه خلعة فاخرة.

كما أن ما أبان عنه متصرف لواء القدس الشريف محمد باشا
من الميرميران ، من إخلاص وتفان في خدمة الجيش الهمايوني ،
[١٤٧-١] كان موضع تقدير واستحسان السردار الأكرم ورجال الدولة ،
وعليه أبقى في منصبه ونال رتبة الوزارة السامية .

تاريخ فتح العرش

كان هناك تواريخ لا نهاية لها لكثير من الشعراء يزيد عددهم
عن نجوم السماء حول فتح واسترداد قلعة العرش ، أقتبسُ منها
تاريخين لسروى أفندى وهو فى رأى سلطان المؤرخين وقدوة الشعراء
المتأخرين :

قدم الصدر المختار بتراب قدمه . لا تحسبن
العرش هوجمت من قبل فرقة يستهان بهم
ظل العداة تحت القدم فقلتُ تاريخها
وطئَ الفرنسيون بالقدم واستردت العرش

تاريخ آخر :

عندما السقى (سرورى) السممع
فإن قائد أول الفتح دبج تاريخين فى دعائمه
غلب الوزير على العسريش فلبسط حسامه
المسلول بالعرش افتح يا يوسف مصر فى ظل العزيز
وبعد فتح قلعة العرش أرسل السردار الأكرم فى طلب كتخداه
ودفتر داره ورئيس الأفندية الذين كانوا قد أبقوا فى غزة ، ونصب رئيس
وكلاء المحاسبة محمد راشد أفندى ناظرًا للجيش السهاميونى .
[١٤٧ هـ] وفيما بعد قدم سائر خدمة الدولة وأرباب الجيش تباعا
ويلقوا جميعا العرش ، ونزل كل فى موضعه .

عقد الصلح مع الفرنسيين

بث مجيء الجيش الهمايوني الرعب في بر مصر ولم يعد للفرنسيين وسع بالصبر والاحتمال ، فأرسلوا في طلب الصلح وتخلية مصر مرة رشدي أفندي من أفندية الديوان العالي والذي كان قد أسروه في (أبو قير) ، ومرة أخرى أرسلوا بوساطة مصطفى باشا ، خزينة داره ، وجاءت مكاتباتهم تشف عن الود والصدقة ، غير أنه فُطن إلى بعض المحاذير في حديثهم عن الصلح ، فكتب السردار الأكرم إلى كليبر سر عسكر الفرنسيين أن كل ما تفوه به مصطفى باشا ورشدي أفندي إلى الآن حول الصلح كان من تلقاء أنفسهما ، وذكره أنهما لم يفوضا من قبل الدولة العلية قطعاً ، وكتب إلى مصطفى باشا يفيد بنفس الأمر .

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الهمايوني معسكراً في بافا من قبل ، قدم القائد الإنجليزي سميث إلى مخيم الجيش الهمايوني وأوضح أنه اتصل بالفرنسيين ، وتباحث معهم من أجل تخلية مصر ، [١٤٨-١] وذكر أنهم سوف يوجهون مبعوثين مفوضين من طرفهم ، وتبادل الرسائل غير مرة مع سر عسكر الفرنسيين ، وأنهم سوف يعينون اثنين من كبار قادتهم للتفاوض .

وتم تعيين موضع مناسب للتفاوض ، وفوض مصطفى رشيد أفندي الدفتر دار ومصطفى أفندي رئيس الكتاب من جهة الصدر الأعظم ؛ فسي حين حضر من طرف الفرنسيين القائد (ديزيه) و(بوسليغ) وآخرين من رؤسائهم ، وعين الصدر الأعظم مكتوبية مصطفى شجاع أفندي مضيفاً للمذكورين ، ووصاه بإكرامهم غاية الكرم والحذب بهم كل الحذب .

تبادل طرفا التفاوض وثائق التصديق على الاتفاق في حضور السردار الأكرم .

وفي يوم الاثنين (٩) رمضان عقد ديوان عال مخصوص ، وفي القسباط العظيم للسردار الأكرم ، اصطف بانتظام الوزراء العظام ورجال الدولة العلية ... أيدية الدوام ... وقادة سائر الجيوش المنصورة وضباط الفرق العسكرية وأرباب الدولة عن فكرة أبيهم ، واصطف كذلك أغصوات الصدر العظم منقلدين أسلحتهم المرمعة ، وكذلك سائر جنود الفرق العسكرية ، كل في موضعه في سكون وهدوء .

وفي تلك الأثناء قدم مفوضو الطرفين وأجريت المراسم اللطيفة حسب آداب التشریفات العثمانية وقواعدها المرمعة ، وبعد احتساء القهوة والأشربة ، خلع عليهم خلع السمور الثمينة ، وألبس تراجمه الفرنسيين وكبارهم الفرو على حسب مراتبهم ، وخلع كذلك على القائد الإنجليزي سميت فرو سمورى ، وأعيد الجميع إلى سرادقاتهم على جساد مطهمة ، وأطلقت المدافع والبنادق ابتهاجاً بذلك ، وزفت التهاني إلى جند الغزاة المسلمين ، [١٤٩ - ب] ووجهت وثيقة الاتفاق مشفوعة بتحيةة السردار الأكرم إلى جهة السلطنة السنية لرف بشریات ذلك إلى أهلها .

غير أن الفرنسيين وإن كانوا قد تظاهروا بالإصرار على العودة إلى بلادهم بسفن الدولة العلية في موعد لا يتجاوز المهلة المعينة لتخليصة مصر ، وقاموا بتسليم وثائق الاتفاق المنتظر توقيعها من قبل الدولة ، فإنه لم يكن من الجائز الاطمئنان إلى موثوقيتهم والاغترار بمصالحتهم وهم قوم لا يطابق قولهم فعلهم ، لا يتورعون عن ارتكاب الفواحش والمنكرات ، علاوة على أن تطهير أرض مصر من غناء الأجانب كان منوطاً بإرسال

الدولة مدداً جديداً . وقد كتب السردار الأكرم بذلك إلى العتبة العلية الشاهانية ، ثم أذن لمفوضي الفرنسيين بالانصراف .

خروج الجيش الهمايوني من صحراء العريش ونقض الفرنسيين الاتفاق ، وهزيمة الجيش ورجوعه إلى غزة

لم يعد هناك مجال للشك في الصلح في الظاهر ، ولم يعد ثمة ما يستوجب مكث الجيش الهمايوني ، فأرسل السردار الأكرم نصوح باشا وإلى مصر في العدة المتعينة من الجند والعتاد لتسلم قطيعة والصالحية المقرر إخلاصهما من الفرنسيين في البداية ، [١٥٠ - ١] ثم شاور أولى الرأي والمشورة في توجه الجيش الهمايوني صوب مصر . ولما اتضح للسردار الأكرم أن الفرنسيين قوم أهل لؤم وخسة ، لا يطابق قولهم فعلهم ، ولا يوافق يومهم غدهم ؛ أصبح لا يثق ولا يطمئن إلى الصلح معهم ، فكان كلما أعد العدة واتخذ الأهبة ، تردد بين المكث والتحرك قائلاً : " إن الاستعجال أمر مستجلب الندامة " .

غير أن بعض الرجال من أولى المنطق الحصيف بينوا له أنه لم يسبق أن نقض الاتفاق بعد ميثاقه بين الدول منذ قديم الأزل ، وأن ذلك أمر غير مسبوق المثال في أي تاريخ من التواريخ السالفة . إضافة إلى هذا ، فقد صرفوا نظره عما كان يقلقه من طول فترة نقل المدافع وسائر آلات الحرب وتعويض ما نقص من الجمال في الجيش الهمايوني .

واضطر إلى التحرك سريعاً بعدد من المدافع الخفيفة وقدر من الأسلحة والعتاد ، وأمر محمد صادق أغا - بيك باشي - عبد الجبار زاده على عدد وفير من فرسانه للحفاظ على قلعة العريش ، وبعد أن زوده بكافة الوصايا اللازمة ، لزم التحرك إلى الصوب المقصود ، [١٥٠-ب] فقام للسير في المقدمة حسين باشا وإسماعيل باشا - من الوزراء العظام - ، وجيش الإنكشارية وسائر الفرق العسكرية ، ومن ورائهم خرج السردار الأكرم بالعدة والعتاد من صحراء العريش مصطحباً الجيش الهمايوني ، وتوقفوا عند (آبار المسعودية) على مسافة ساعتين ونصف لإفاضة قريتهم بالماء .

ولما كان ذلك الموضع أرضاً حصباء على شاطئ البحر ، فإنه أينما احتفرنا شبراً واحداً ، [١٥١-١] انبجس منه الماء أعذب من كافة مياه الآبار في تلك الجهات ، فشربنا جميعاً وأفضنا القرب . وفي اليوم التالي انتهينا إلى صحراء وسيعة الأنحاء عديمة البركة يقال لها (برقت) ، وكانت صحراء جرداء غير ذات زرع ولا ماء .

ولما كانت تلك المفازة منزلاً موحشاً ، فإنه من غير المحتمل أن يكون قد سكنه من قبل كائن حي من وحش أو طير منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا . إنها صحراء مهولة سبخة ، والقول بأن صحراء (نصيبين) مقارنة بها ، تعد روضة من رياض الجنة ، قول خال من المبالغة أو الإطراء .

وفي اليوم التالي برحنا ذلك المكان وسرنا ست ساعات متواصلة إلى أن بلغنا حصباء تسمى (بئر العبد) ، كانت عبارة عن بضع آبار

آسن مأوها ، غير صالحة إطلاقاً للشرب ؛ ومن ثم سقينا الدواب وكفى ، حتى إذا كان الغد حططنا الرحال في قطيا على مسافة خمس ساعات . وتنتشر بالمرحلة المذكورة الآبار وغابات النخيل ، وعلى مسافة ثلاث ساعات يبدو مرفأ يسمى (طينة) ، وهو مكان أهل بالسكان ؛ ولذا فإن بعض البدو ممن هم كالأنعام ، كانوا يتخذون ذلك الموضع مصيفاً ، فيختلفون إليه وقت نضج التمر ويقيمون به . ولما كان موضعاً كثير الرمال ، فإن ملاعين الفرنسيين كانوا يحتفرون فيه الخنادق لمداومة عسكر المسلمين وقطع طريقهم ، وكانوا قد شادوا أكثر من ثكنة لإيواء عدد من شياطينهم .

والعالة هذه أخلى الفرنسيون قطيا طبعاً لشروط الاتفاق ، وانكشحو عنها عالدين إلى مصر . [١٥١ - ب]

ولدى مغادرتنا قطيا غاصت سفن الصحراء في رمال بحرهما العميق مسافة ست ساعات إلى أن حططنا الرحال بمرحلة تسمى (بنر دويدار) ، ومياه المرحلة المذكورة مرة كالخنظل أو هي أشد مرارة ، أما ينبوعها فهو كينبوع (يحيى باشا) ، ليس به قطرة ماء . لذا سقينا دوابنا بعد طول مشقة وعناء ، وقضينا الليلة هناك ، وفي اليوم التالي نصبنا القسواط في موضع يسمى (قناطير) . وبذلك المرحلة بحيرة متشعبة عن النيل ؛ ولذا تكون مياهها - في بدء الفيضان - صالحة للشرب ، ثم تصبح فيما بعد مرة ، كريهة الطعم بسبب ملوحة التربة ، فسقينا الدواب العطشى منذ ثلاثة أيام ، ثم اتجهنا إلى قصبية الصالحية على مسافة ست ساعات ، وخيمنا في ساحة كثيرة النخيل تقع لمصق الصالحية .

ولما كان من اللازم الإبطاء عدة أيام ريثما يحل اليوم المتفق عليه لتخليفة مصر والذي كان قد تحدد بيوم (٢٧) من شوال حسبما نص الاتفاق : أرسل السردار الأكرم طوسون محمد أغا رئيس الجبجية إلى جهة مصر ، [١٥٢-١] لالتياع سائر المؤن والكلف والمآكل اللازمة للجيش الهاديوني في مصر ، وكذلك تسوية بعض الأمور المتعلقة بالجمارك .

كما أصدر أمراً لجليل الشان باستنابة سيد مصطفى باشا عنه لضبط أمور المملكة وإعادة الانضباط اللازم لها ريثما يدخل مصر ، كما عين نائباً على المحكمة وناظراً للضربخانه ، وبذل جهداً مشكوراً في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء .

وبعد عدة أيام من مقام أمير الجيوش في الصالحية ، غادرها إلى القربن على مسافة ست ساعات وأقام بها عدة أيام ، ثم اتجه إلى قصبه بلبيس على مسافة ست ساعات ، وأقام بها أياماً عدة بنية إتمام أيام المعاهدة ، ثم مضى صوب قرية (الخاتكاه) على مسافة خمس ساعات .

وبعد مزايلته بلبيس بساعة جاءه خطاب من سيد مصطفى باشا الموجود في مصر يخبره فيه أنه تلقى رسالة من القائد (سميث) قائد الأسطول الإنجليزي في ميساه إسكندرية يطلب إليه فيها أن يقتلك بالفرنسيين فتكاً ذريعاً بلا هوادة متى خرجوا إلى البحر الأبيض : [١٥٢-ب] ويؤكد له أن القائد المذكور قد توافق مع الفرنسيين ، وبذا أفاده أنه لن يمكن تخليفة مصر ما لم تدفع هذه المشكلات الصعبة ، وأشار عليه بحتمية بحث التدابير اللاحقة ، وبناء عليه ، بعد أن قطع أمير

الجيش ساعة من بلبس ، فطن إلى أن عودته إليها ثانية مثار للغط والأراجيف والوحشة بين الجند ، فأثر أن يتكبد المشاق حتى حظ الرحال في الخانكاه .

ولا يزال الحلفاء^(١) يبسطون المقدمات ويقيمون الدليل بعد الدليل على أنه لن يظهر من الدولة العلية أى تصرف يخرق ذلك الصلح ، حتى ورد إخطار من كليبر يطلب فيه إعادة التفاوض ، ومن أجل تبديد مخاوفه وبث الطمأنينة في نفسه، تم تعيين مفوضى الدولة العلية كالسمايلى .

هذا في حين أنه في ليلة (٢٤) شوال بعث كليبر — سر سوار الفرنسيين — رسالة مهورة إلى الوزير نصوح باشا الذى كان يقيم شمسى مسافة ساعة من القاهرة ، لإيصالها إلى الصدر الأعظم وعاد حامل الرسالة فى الحال دون أن يلتفت إلى تلقى الرد عليها ، فأرسل نصوح باشا بدوره الرسالة المذكورة إلى معسكر .

الجيش الهمايوى ، [١٥٣-١١] وعندما أمعن فى ترجمتها ، تبين أنها من كليبر وأنه يفسخ فيها المعاهدة من جانبه ، ويتنصل منها ؛ وعليه لم يعد هناك بد من التصرف على هدى وبصيرة قدر الإمكان .

وقد بدا من تحركات أعداء الدين أنهم ينوون الإغارة على غزة الموحدين ما بين عشية وضحاها ، فبات لزاماً إخطار الوزراء العظام وأغا الإتكشارية وسائر قادة الجند فى شتى الجهات بما حدث ، وأرسل السعاة على جناح السرعة إلى نصوح باشا المقيم على مقربة من القاهرة

١- يقصد المؤلف بالحلفاء هنا الدولة العثمانية وإنجلترا .

وأغا الإنكشارية والوزير حسين باشا وإسماعيل باشا القريبين من جيش الإنكشارية ولم يتراخ في إحاطة الجند بما حدث .

غير أنه إلى أن وصلت رسالة كبير الملعون إلى نصوص باشا ومنه إلى الصدر الأعظم على مسافة ست ساعات أخرى ، وترجمت واطلع على فحواها كان قد تضحى النهار ، فتزامن وقت وصول هذا النبأ المريع مع هجوم الفرنسيين على المسلمين .

وبينما كان المسلمون لا علم لهم بنقض الفرنسيين المعاهدة ، مطمئني البال إلى الصلح ، [١٥٣ - ب] دهم الفرنسيون جيش الإنكشارية المرابط في المطرية على حين غفلة ، ففترسوا بالمتاريس وناوشوهم القتال وأرسلوا على الفور إلى أمير الجيوش يعرفونه بال الحال ، فهب بمن معه من الجند وساروا مبادرين بنجدتهم . غير أنه قبل أن يصل المدد إلى جيش الإنكشارية كانوا قد استبد بهم التشتت والتضعف ، وجرح حسين باشا الذي كان قد هرب لنجدتهم واستبسل في قتال الفرنسيين ، وجرح كذلك جم غفير من جند إسماعيل باشا وحسين باشا .

ولما عاين السردار الأكرم هذا وأدرك أن جميع الجند قد تشذروا واهتفت بهم الوباءة ، سعى في حفضهم على القتال والتشبثات في وجبه الأعداء ، وأقسم لهم بتخليط الأيمان أنه لا قدرة للفرنسيين على مهاجمة الإسلام ، وأدغم ليدن بوجهم الصمود في مواجهة غزاة الموحدين ، وأن النصر للجند المسلمين ، ثم المنيكرين إن كانوا يستبجرون والتشبثات . غير أن الجند كانوا قد تشذروا وانفردت عقدهم وتركوا مدافعهم واستدار عندهم الخريص نهياً للعدو : [١٥٤ - ب] هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ،

أُخبرني في بعض الجند الجبناء معدومو الحمية قاصدين الخانكاه ، فلهحق
بهم الفرنسيون وقتلوه ثم ان ساعات .

وفيما كان السردار الأكرم رابط الجأش وفي مهيته القليل من
خاصة خدمه أقبل عليه ممش أفندي الأرناؤولى - بلوك باشى البوايزين
يستغيث به ويخبره بأن أعداء الدين قد تحاقوا حولهم من كل جانب ،
[١٥٤ - ب] وأطلقوا عليهم المدافع إطلاقاً مروعاً . ولما أصر الأفندى
المشار إليه على التضحية بنفسه قائلاً : " لم يعد لى من أرب سوى نعمة
الاستشهاد فى سبيل الله ! " ، واتفق مع سائر خدمه على الخروج إلى
العدو واستقر منهم العزم على ذلك ، حملوه على جواد قسراً قائلين له :
" أترضى أن تكون أنت السبب فى هلاك هذه الوفرة من خلق الله " .
وأرجعوه أدراجه ، وولاه السردار الأكرم طليعة الجيش ، واهتم بنفسه
بشدة عزائم الجند والشدة من أزرهم . وبقيت فئة قليلة من جند المؤخرة
ريثما يصل السردار الأكرم إلى بليس ، ويعد أن استرحنا مع السردار
الأكرم والجيش الهمايونى فى المرحلة المذكورة ، مضينا إلى القريين .
ولعدم قدرتنا على التلث بها ، فإنه لم يسعنا إلا مواصلة السير إلى
المصاحبة .

ولما كان من قصد الصحراء فاراً قبل وصول السردار الأكرم إلى
الموضع المذكور ، يبلغ ثلث مقدار الجيش الهمايونى ، فقد أخذ الثلثان
الباقيان بالوعد تارة ، وبالوعد تارة أخرى ، ونُصِب رجب باشا - من
الوزراء - قائداً على نحو أربعة آلاف من الفرسان وجند المشاة ، لملاقاة
الفرنسيين ، وأمر بالمضى إلى القرين ، فاشتبك ومن صاحبه من السير
ميران والجند بكتيبة فرنسية على مقربة من القرين .

ولما التقى الجمعان ظهر المسلمون على الفرنسيين بعون خير
الناصرين وسلبوهم مائة طلقة مدفع ، وثلاثة مدافع ، وأوشك الكفار
على الفرار ونكسوا أعلامهم ورفعوا بيض الرايات خدعة . ولما لم يكن
لقائد الجند المسلمين رجب باشا الحنكة فى دروب الحرب والقتال ، ولم
يكن على دراية بمكائد العدو الماكر ودسائسه ، فقد انطلت عليه تلك
الخدعة ، ولم يظن إلى حقيقة الأمر، فكف يده عن القتال ، وعندئذ لم
أعداء الدين شعث جندهم ونظموا صفوفهم ، ودهموا المسلمين بغتة ،
وأطلقوا عليهم نيران مدفعيتهم إطلاقاً ذريعاً ، فوهنت عزائمهم وثبطت
همهم ولم يسعهم إلا الفرار والارتداد إلى الصالحية ، وذلك مصداقاً لقول
القاتل :

إن ربط الجأش فى وقت الحيرة أمر عسير
وليس فى الإمكان السيطرة على الجيش المتقهقر

اجتمع السردار الأكرم برجاله لندراس الموقف وتبادل الرأى
والمشورة ، وفيما كانوا يتشاورون ويأتمرون ، برز عمر أغا - أغا
انكشارية الباب العالي - [١٥٥-١٠] وقال : " سيدى لا ينبغي
الاشتباك مع العدو فى حرب بهذه العساكر المقهورة ، أما تدبير المضى
إلى مصر عن طريق الجبل ، فتدبير عقيم ، لا طائل تحته فى وقت نجول
فيه أحوال مصر وسكانها ، ولا نملك فيه ما يفى بالحاجة من الزاد
والمؤن ، وبقطع النظر عن أن لقاء العدو بجند منهزمين لن يجدى فتىلاً ،
فسوف يلحق العار والشنار مجدداً بالدولة العلية ويسقط هيبتها ، وعليه
لا بد لنا من القفول إلى غزة ، لأن هذا أنسب لنا وأفضل الآن ، هذا هو

رأى كافة العساكر ومطلبهم ". ولم يكن ثمة مناص من ذلك ، فأمر الصدر الأعظم بالرجوع إلى غزة .

ولما لم يكن فى الوسع تديير أى نوع من الزاد والمؤنلة فى الصالحية ، فقد اقتات كل منا بما تبقى فى قعر خرجه من فئات الخبز وقصدنا الصحراء فى تشتت وانكسار ، وطويناها متجهين صوب غزة ولم نكن نحفل بتعيين المنازل والمراحل ، وأسرعنا فى السير ولم نكن نتوقف إلا قليلاً للصلاة وقضاء بعض الحاجات . وفى اليوم الثانى من شهر ذى القعدة ، وافينا غزة ولبننا بها . وما تكبدناه من مشاق وصعاب فى عودتنا هذه إلى غزة ، وشدة حرارة الصحراء بعد أمراً لا سابقة له فى التاريخ ، [١٥٥ - ب] وكان رغيى من الشعيى فى حجم الكف غاية ما ترومه الروح ، كما كان قدح ماء مكدر بالطين ، أثر عند الجند من ماء الفردوس .

حتى إن السردار الأكرم كذلك كان يسد رمقه بكسرة خبز طيلة يومين ، وكأنه يصوم صوم الوصال واغترف غرفة ماء من ماء الآبار الآسن فى صحراء التيه سائلة الذكر ، ليطفىء نار ظمأه ، وخلق كثير من الجند فاضت روحهم فى تلك الصحراء المهولة المهلكة .

قطبنا طريق الصحراء بعد أن قاسينا شتى صنوف العناء والشدة ، ولما اقتربنا من غزة أرسل السردار الأكرم يستعجل محمد باشا منصرف لواء القدس — الذى كان أحد خاصة خدمه القدامى — ليلأتى لاستقباله ، فصدع بالأمر ، وبلغ أربه بتقبيل ركاب الصدر الأعظم ، ولا يزال يجتهد ويتفانى فى تديير اللازم من الكلف والمآكل والجياد للجيش السهليونى ،

وإهداء الهدايا المناسبة إلى سائر رجال الدولة ، وخدمة الدائرة السنوية ، حتى أدى مهمته كأحسن ما يكون أداء المهمات .

ولما توارد الجيش إلى غزة ، فإن اشتداد الحال بالجند وشعورهم بشدة الضيق لتأخر رواتبهم وتراكمها ، وتضرعهم إلى السردار الأكرم ليسمح لهم بالعودة إلى ديارهم ، [١٥٦ - ١] قد ألان عريكته لهم وحرك شفقتة عليهم . ولما أدرك السردار الأكرم أنه من غير المأمول أن يظهر من أولئك الجند المقهورين المكودين أية أمانة للشجاعة ، أذن لكافة قادة الألوية وجند الإقطاعيات وفرسانهم وبيكباشيتهم بالانصراف ، وسيرهم إلى ديارهم محققاً آمالهم في لقاء زوجاتهم وذراتهم .

ومع أن الحاج محمد باشا قد تفانى في تدبير المؤن وسائر الأمور الأخرى ، غير أنه لوحظ أن جلب المؤن لن يكون سهلاً وذلك بسبب بعد محمد باشا عن مرفأ غزة ، وعلى الرغم من أنه لم يأل جهداً ولم يتقاعس مطلقاً لدى صدور الأمر الآصفي له ، فقد خرجنا مع السردار الأكرم من غزة بعد أن لبثنا بها اثني عشر يوماً ، وقصدنا يافا ، وفي (٥) ذي القعدة نصبنا القساط في الطرف العلوى منها في أرض حصباء مظلة على البحر .

أحوال وزراء الجيش الهمايوني

تبين جلياً أن رجب باشا وحسين باشا وإسماعيل باشا وشريف باشا ، من الوزراء العظام الموجودين في الجيش الهمايوني ساقطي الهمة عديمي النفع ، لن يغتوا عن الجيش الهمايوني فتيلاً ، هذا في حين أنهم كانوا يمثلون عبئاً ثقيلاً بمؤنهم ومآكلهم ومرتببات جندهم .

[١٥٦ - ب]

وكان في كل يوم يصدر منهم فعل السوء والتفانص ، وبسبب ذلك أذن لهم السردار الأكرم في الرحيل جميعاً إلى مناصبهم . ولدى توجه كل منهم إلى منصبه ، أقدموا على ارتكاب الكثير من الأفاعيل المستقبحات التي تتنافى مع رضا الدولة العلية ، كما استطلوا على عباد الله وأرهابهم ظلماً وعسفاً ؛ ولذا استصدر الصدر الأعظم فرماناً بعزل رجب باشا من الوزراء بتهمة اخذاعه بتتكيس الفرنسيين أعلام مكيدتهم ، حينما اشتبك معهم على مشارف القرن وأوشك الفرنسيين على الاتحاد والفرار ، مما بث روح التراخي والفتور في نفوس الجنود وأدى إلى تفرقهم وتشذروهم بعد أن كانوا في بداية المعركة ظاهرين على عدوهم . وتم تحديد إقامته في حلب الشهباء .

وعندما وصل إسماعيل باشا إلى منصبه في مرعش ، كان السردار الأكرم قد بعث برجاله سرّاً إليها حاملين أوامره إلى متسلمها بايزيد زاده ووجهاء المملكة وزعماء عشائر التركمان والأكراد الرحل ؛ وعليه ما إن انتهى إسماعيل باشا إلى الموضع المسمى (قيو جام) بالقرب من مرعش ، حتى احتاطوا به من كل جانب وهاجموه ، فلم يقدر

على ردهم ، هذا فى حين أنه كان بجواره ما يربو على ألفين من جند
بابه ، [١٥٧-١] غير أنهم لم يجدوا متنفساً للنجاة من حصار
الأرناؤوط الثمانمائة الذين وفدوا من جهة الروملى مع المرحوم دكرمنجى
زاده مصطفى باشا ، فأعمل السيف فى رقابهم جميعاً وفر شععتهم إلى
النواحى والأطراف حفاة عراة .

غير أن نحو خمسة من فرساتهم تآتى لهم تبديل بزتهم
والانسلاخ من بين الجند والفرار معتمدين بالمدعو
(عينتابى على حسين) ، وتمسحوا به وأظهروا له ذلهم وضعفهم ،
فبعث بهم إلى شقى طالح آخر يسمى (فتاح أغلو) من أكراد جبل
(كلوير) ، فى خفارة عدد من رجاله ، وبعد أن لبثوا عنده زمناً تسالوا
إلى سفينة فى سواحل (بياس) ، حملتهم إلى الجزار باشا يستجيرون به
فأجارهم .

ولما وافى حسين باشا كذلك ضواحى حلب اتفق أن شايخ
إسماعيل باشا على الإثم والعدوان ، ونهضا لإثارة الفتن والقتال . غير
أنه فى نهاية المطاف حبطت مساعيها ولم يسفر ما دبراه عن أية
نتيجة ، ومضى إسماعيل باشا إلى جهة مرعش ، ومضى حسين باشا إلى
منصبه فى إيالة الرقة .

وإن كانت تصرفات حسين باشا وأحواله تستوجب القضاء عليه
واستئصال شأفته ، فإن الظروف لم تكن مواتية ؛ [١٥٧-ب] ولذلك
غُض الطرف عن مساوئه لفترة وأسندت إليه إيالة ديار بكر ، ولا يزال
يتحایل وينصب له الفخاخ بزخرف القول ، حتى أسند إليه منصب والى
سيواس ، فقدم إليها . وكان قد أرسل من قبل أمر القضاء عليه إلى طيار

محمود باشا والى طرابيزون ، وكوسه مصطفى باشا والى سيواس ، وعبد الجبار زاده ، فزحفوا عليه من كل حذب وحاصروه وضيقوا عليه الخناق فى قرية (بكى خان) ومعه عدة آلاف من فرسانه ومشاته ، وبعد بضعة أيام من القتال هرب فى نحو عشرين من فرسانه ، فتعقبه فرسان عبد الجبار زاده ، وظفروا به وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى الباب العالى .

وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك نية سوء بشأن شريف باشا ، فإنه عندما كان ذاهباً إلى منصبه فى إيالة آدنه ، ذهبت به الهواجس مذهبها ، فأنصرف عن الذهاب إلى منصبه وعطف عنان عزمه نحو مسقط رأسه (آخسخه) ، مخالفاً بذلك أمر الصدر الأعظم ؛ ولذا خلع من الوزارة ، ثم أعيد إليها ، ثم خلع ثانية . وفى آخر الأمر عندما أسندت إيالة (جلدري) إلى (آجارلى وزير سليم) باشا ، لم يضمن المشار إليه فى تلك الجهات ، ففر إلى إيران ، ولطخ شرفه بعار اللجوء إلى الخوانين الخاسرين حرصاً منه على عرض الدنيا الفانية واستقر به المقام بجهة (روان) .

وحيث أن تفصيلات تلك الأحداث مدونه ومسجلة فى سجلات وقائع الدولة العلية ، [١٥٨ - ١] اكتفينا بهذا القدر الموجز .

ذهاب رشيد مصطفى أفندى إلى الآستانة

أرسل السردار الأكرم الدفتردار الأول (رشيد مصطفى أفندى)
 — الذى عُرف باستقامته ونفائيه فى خدمة الدولة العلية — إلى الباب
 العالى لإخبار السلطان بعودة الجيش الهمايونى إلى يافا منكسراً ،
 وإطلاعه على كافة الوقائع والأحداث جملةً وتفصيلاً . وقد أرسل الأفندى
 المذكور إلى العتبة العلية السلطانية شريطة أن يذهب وينوب فى غضون
 شهرين ، وتولى راشد أفندى الدفتر دارية بالوكالة .

وسير السردار الأكرم حشداً من الجند فى معية على باشا شقيق
 سيد على القبودان — من المير ميران الذين مع الجيش الهمايونى — إلى
 جهة مصر القاهرة لتجدة الكتخدا عثمان أفندى . واقترب المشار إليه من
 أبواب القاهرة غير أنه لم يتأت له إتمام مهمته ؛ إذ إن الفرنسيين كسأوا
 فى ذلك الحين يحكمون قبضتهم على أبواب القاهرة ويبسطون سيطرتهم
 عليها ، وعليه اضطر إلى الارتداد على عقبه ، بيد أنه قد نالته شدة
 بسبب كثرة ترحاله فى الصحراء ، فأذن له الصدر الأعظم بالسفر إلى
 الآستانة .

دخول كتحدا عثمان أفندى ونصوح باشا القاهرة وخروجهما منها بعد معارك تعاقبت مع الفرنسيين

على نحو ما تقدم ذكره ، نقض الفرنسيون العهد ، [١٥٨ - ب]
ودهموا جيش الإنكشارية وبعد أن تصدى لهم الإنكشارية زمناً يسيراً ولوا
الأهبار إلى الخاتكاه ، وعندئذ انقُلت عدد من مشاتهم الشجعان ، وتتحوا
عن جهة الفرنسيين واتحازوا إلى المطرية ، وأخبروا السردار الأكرم أن
أهل مصر يترقبون قدوم المجاهدين لدرجة أنهم فتكوا بمن وجدوه داخل
البلدة من الفرنسيين وأعلنوا الجهاد فى سبيل الله ، وأن خلقاً كثيراً من
مشاة الإنكشارية على أهبة الاستعداد ، فشرح السردار الأكرم ذلك الأمر
لكتخده عثمان أفندى واجتمع بنصوح باشا وأمراء مصر وقال لهم :
" حينما تُشغل فيالق الفرنسيين بملاقاتنا ، أسرعوا أنتم من طريق
الجبيل واستعينوا بمشاة الإنكشارية التى قيل إنهم رابطوا بالمطرية ، ولو
بذلتكم الطاقة فى دخول مصر القاهرة واستبسلتم للاستيلاء عليها ففى
يَقينى أن دخولها أمر جد يسير " .

وأمرهم بالسير إلى القاهرة ، فاصطحب عثمان كتحدا كذلك
نصوح باشا وأمراء مصر وتعاونوا على المضى صوب مهمتهم ، فعظم
جمعهم وقوى عضدهم باتضمام سائر الشجعان إليهم واتضم إلى تلك
الجماعة كذلك مشاة الجند الذين اتبعث فيهم الروح من جديد بروية
كتخدا عثمان أفندى ، ودخلوا القاهرة من باب النصر . [١٥٩ - أ]

فتحوها ، وجمعوا كذلك عدداً من المدافع من مواضع أخرى ونصبوها في أماكن متفرقة ، وشرعوا يقاتلون عدو الدين .

والحق أن عثمان كتحدا كان له جهد مشكور في ذلك ، وأحضر مصلحي البنادق ، والحدادين والنجارين وسائر أرباب الحرف المتعلقة بآلات الحرب والقتال وعمل عربات للمدافع ، واستحضر مهرة الصناعات ممن لهم مهارة خاصة بصناعة البارود ، وابتاع كميات هائلة من الفحم وملح البارود ، وحفن لكل من جاء بقذائف المدافع حفنة من دراهم ودنانير ، وبر بغزاة الموحدين وأغدق عليهم العطاء بلا حساب ، وسير عساكر المسلمين إلى جهات شتى .

ولقد قبض على كتحدا مستحفظان مصطفى أغا بتهمة التسرير على جماعة من الفرنسيين ، [١٦٠ - ١] فحمل في عدد من الكفار ودقت أعناقهم جميعاً . كما أعملوا السيوف في رقاب الكثير والكثير ممن ظفروا به فيما دار من معارك . وتلطف عثمان بغزاة الموحدين وألان لهم جانبهم وعين الجراحين للجرحى واهتم بما يأكلون وما يشربون وأجزل العطاء لكل من أظهر ضرورياً من البسالة ، ولم يفتر لحظة عن الاهتمام بأمر من تلك الأمور ، وامتد القتال على هذه الحال ثمانية أيام بلياليها وشيئاً فشيئاً حمى القتال واشتد النزاع ، وعابن القبط والأروام قوة شكيمة أهل الإسلام وبسالته في القتال ، فلم يأتسوا في أنفسهم القدرة على الصمود ، فولوا الأذيال ، ومنهم من قصد الجيزة ومنهم من لاذ بجموع الفرنسيين التي تعقبت الجيش الهمايوني خارج القاهرة .

وثبت من في القلاع والأبراج وبيت الألفى بك من الفرنسيين على القتال . غير أنهم أدركوا أنه لا قبل لهم بالصمود في وجه المجاهدين

وحدهم ، ولا يزالون يحاربون مترقبين عودة جيشهم ، حتى كر راجعاً في ثامن أيام القتال ، فأحاطوا بالقاهرة من كل جانب ، ومنعوا الدخول والخروج وقطعوا الإمدادات والنجادات عن المحاصرين ، وأطلقوا مدافعهم على القاهرة ووالوا الضرب من الأبراج والقلاع وأنفذوا جندهم لمهاجمة المتاريس في شتى الجهات ، [١٦٠ - ب] وأرسلوا الرسل خفية في طلب الصلح على أن يضمنوا خروج العساكر العثمانية من مصر ومنحهم ما يحتاجون إليه من المؤن والميرة ، ويمنحوا الأمان كذلك إلى أهل القاهرة.

ولما اتصل ذلك بنصوح باشا وعثمان أفندي وسائر الأمراء وقادة الجند ، اجتمعوا يتشاورون ويأتمرون فيما بينهم وأصبحوا على وشك الركون إلى الصلح والمسالمة ، غير أنهم خافوا من وقوع الفتنة بين الجند إذا ما شاع ذلك بينهم ، فثبتوا على القتال آناء الليل وأطراف النهار وخاب الفرنسيون في دعوتهم للصلح ولم يظفروا بطائل .

وبعد مرور عدة أيام أرسل سر عسكر الفرنسيين سراً ومجدداً إلى نصوح باشا وعثمان أفندي في الصلح ، فأرسل الباشا والكتخدا إليه يقولان : " أنهما يرضيان على أمر الصلح ، غير أن العساكر لا يرضون بذلك وليس في مقدورهما حملهم على قبول الصلح " . فأرسل سر عسكر الفرنسيين الرد يقول فيه : " كيف يكون القادة قادة على عساكر لا ينقادون لهم ولا ينفذون أمرهم فيهم ؟! وكيف لمثل أولئك العساكر الذين لا يطيعون قادتهم أن يثبتوا في وجه خصم شديد البأس مثلنا ؟! " .

وأخذ الفرنسيون للحرب أهبتها ولم يألوا جهداً كذلك في أمر المصالحة ؛ هذا في حين فترت همم عساكر الإسلام ووهن العزم منهم .

وبينما كان مراد بك يستجيش الدولة العلية ويسألها العون ، إذا به فى الوقت ذاته يصالح الفرنسيين سرا على أن يولوه على الصعيد ، [١٦١-١] وأصبح واضحا أنه هو وأتباعه أصبحوا كمن يشاهدون ما يقع ولكن من بعيد . وما إن بلغ السردار الأكرم ياقا ، حتى سير نحو ألفين من الأرناؤوط والديوانكان وسائر طوائف الجند لنجدة عثمان أفندى ونصوح باشا ، فبلغ هؤلاء الجند (بركة الحج) ، غير أنهم ما استطاعوا إلى مصر دخولا على أية حال ، وما وجدوا ثغرة ينفذون منها إليها فما وسعهم إلا العودة أدراجهم ، ونما نبا ذلك إلى نصوح باشا وعثمان أفندى ، وفيما كانا محصورين وليس لديهما من زاد منذ بداية أيام الحصار ، هلك كثير ممن معهما من الفقراء والمساكين جوعا ، فاشتد الكرب وعظم البلاء .

وبدا التخاذل والفتور رويدا رويدا على أغلبية أهل القاهرة وقهروا على السلم والمصالحة ، كما أنه بسبب ما نزل بهم من أهوال وشدائد ، لانت شكيمتهم وضعفت عزائمهم ؛ وعليه وبعد واحد وثلاثين يوما من القتال والنزال وبعض الشروط المسبقة خرج من القاهرة نصوح باشا وعثمان أفندى وحسن أغا — أمين النزل — وطوسون أغا — رئيس الجبجية — والأمراء المصريين وكافة فرسان المسلمين ومشلتهم ، ونقيب الأشراف عمر أفندى ، وأحمد المحروقى والكثير من الموحدين المصريين وذلك فى غرة ذى الحجة بعد أن زودهم الفرنسيون بما يحتاجون إليه من الميرة ، ورافق أحد قادتهم ، فى عدد وافر من جندهم وعتادهم ، [١٦١-ب] العساكر المسلمين حتى الصالحية ، حيث افترق عنهم نصوح باشا وعثمان أفندى بمن صاحبهما من المسلمين ، وطسوا

المراحل ، إلى أن التقوا بالجيش الهمايوني في صحراء يافا في ٥ من ذي الحجة .

عزل عمر أغا من أغوية الإنكشارية ووفاته بعد ترقيته إلى (مير ميران)

عندما استشار السردار الأكرم رجاله في الصالحية في أمر العودة إلى القاهرة أو المضي إلى غزة ، تجرأ عمر أغا - أغا الإنكشارية - وتجاسر في كلامه إذ قال : " لا بد لنا من القبول إلى غزة . هذا رأي كافة العساكر ومطلبهم " . وأثار اللفظ والقلقل بين الجند ، مما استوجب عزله وعقابه ، فعزل من أغوية الإنكشارية ونفى إلى قلعة العريش ، وبعدها صدرت الأوامر بمنحه رتبة (مير ميران) ، وتعيينه محافظاً على العريش .

ومنح كذلك المدعو طاهر بك - من بكباشية الأرناؤوط - في عدة شجعان من جنده - رتبة (طورناجي باشي) ، ثم (زغرجي باشي) ، ثم (قول كتحدا) ، وكذلك قاسم أغا من رؤساء الطورنجية .

وسير في معية الباشا سابق الذكر عدة كتائب من الجند ونصب نعمان أفندي - من كديكليان الباب العالي - أميناً للنزل ، واستكمل اللازم من العتاد الحربي والمؤن والذخائر وأحكم الثغر المذكور بقدر الكفاية .
غير أنه لم يمض طويل زمن حتى حل الأجل الموعود لعمر باشا وانتقل إلى رحمة الله تعالى ، فأسندت محافظة العريش إلى إسماعيل باشا

الجزائري الذي كان قد عزل من الوزارة من قبل حينما كان المرحوم حسن باشا الجزائري واليا على المورة . [١٦٢-١]
وسير المأمورون سالفو الذكر في معيته ، وأحيل كذلك منصب
أغا الإنكشارية - الذي خلا بوفاة عمر باشا - إلى قول كتخدا أحمد
أغا.

حركة عزل ونصب جزئية

علاوة على ما قد بدر من نصوح باشا العظم من جبن وتخاذل ،
فقد أبدى تقاعسا وفتورا عندما تم تكليفه ببعض المهام ، فجرد من
الوزارة وخلع من إيالة مصر ، دون التعرض مطلقا لأمواله ، وأرسل إلى
حلب الشهباء ، وتحدثت أقامته بها ، وظفر إسماعيل باشا محافظ العريش
بإيالة مصر .

ولما كان ظاهر بك - من بكباشية الأرناؤوط الذي عين منذ سنة
على العريش - يتفانى ويخلص في أداء كل ما يكلف به ، ويظهر ضروبا
من البسالة فيما يخوض من حروب ، وجب أن ترفع منزلته ويرقى ،
فجادت عليه العواطف العلية الشاهانية برتبة (مير ميران) مع لواء
(آقشهر) . وأبقيت محافظة العريش في عهدة إسماعيل باشا المذكور .

وفيما كان محمد راشد أفندي يؤدي مهمته وكيل لدفتر دار أول
- على أكمل وجه - بحكمة الله تعالى نالته شدة واعتلت صحته ، فأذن
له المسردار الأكرم بالسفر إلى الآستانة ، ووكّل مكانه
(كيسه دار الدفتر دار) تحسّين أفندي .

تقلد سعد الله أفندي منصب دفتر دار أول وتقلد رائف محمود أفندي رئاسة الكتاب

من قبل سافر رشيد مصطفى أفندي إلى السلطنة السنية بإذن من أمير الجيوش، [١٦٢-ب] شريطة العودة ثانية . ولقد أدى المشار إليه المهمة المكلف بها ، وفيما كان على أهبة الرجوع إلى الجيش الهمايوني ، إذا به تُسند إليه رئاسة كتاب الركاب الهمايوني ويستبقى بالآستانة .

ولما اغتم راسخ مصطفى أفندي واضطربت أحواله ، استأذن السردار الأكرم العتبة العلية السلطانية في عودته إلى الآستانة ، فسمح للأفندي المذكور بالمضى إليها ؛ وبذلك بات منصب دفتر دار أول ورئاسة الكتاب شاغرين في الجيش الهمايوني ولما أصبح من اللازم إرسال رجلين قديرين جديرين بالمنصبين المذكورين ، كان فرمان تعيين سعد الله أفندي — الذي كان مكتوبى دفتر دار أول ، ثم ناظرا للرجعية — دفتر دار أول ، وتعيين محمود رائف أفندي — بكلجى الديوان الهمايوني فى العتبة العلية الهمايونية — رئيساً للكتاب منوطاً بعلم الصدر الأعظم . وعليه عندما وصلا فى غرة ربيع الأول إلى ميناء يافا ، استقبلا استقبالاََ حافلاً وأنزلا فى فيسباطين أعدا لهما خصيصاً ، حتى إذ ارتفع النهار ، دُعيا للمثول بين يدى حضرة السردار الأكرم ، وشرفا بتقديم فروض الطاعة والولاء له ، [١٦٣-١] وأسند إليهما المنصبين المذكورين وخلق عليهما.

وقد سمح السردار الأكرم كذلك لحسن تحسين أفندي — وكيل
الدفتار دار — بالرحيل إلى الآستانة ، وبسفر عبد الشكور أفندي
التشريفاتي مستأذناً إلى الآستانة ، ظفر سيد سالم أفندي (تذكره جى
المالية) بمنصب تشريفاتي ، وأسند منصب (تذكره جى المالية) و(باش
خليفة المكتوبي) إلى ماهر أفندي ، وتقلد ديوركلى أحمد أفندي زاده
تحسين أفندي — الذى أرسل إلى الجيش الهمايوني من دائرة المكتوبي —
منصب كاتب الجبجية.

ورود خط الاستقلال الهمايوني والتشريفات إلى السردار الأكرم

شاعت المقادير أن يعود الجيش الهمايوني من مصر خائباً
خاسراً ، فرأى الخليفة الأعظم بالمعية ذهنه وإشراق نفسه أنه قد تشيع
بعض الأراجيف ويكثر القيل والقال بشأن السردار الأكرم ، ولذا ومن أجل
نفى تلك الإشاعات وإنكارها ، ومن أجل تطيب خاطر السردار الأكرم ورد
خط همايوني ينص على استقلاله وإطلاق يده فى شتى أمور الحل والعقد ،
كما ورد خنجر مرصع بالجواهر وذلك مع أحد خواص حضرة السلطان ،
فاستقبل بموكب حافل ، وفتح الخط الهمايوني الشريف وقرأ على مرأى
ومسمع من الجميع ، ولما شاعت مضامينه السنية ، [١٦٣ - ب] امثل
كل أهل الجيش لأوامر الخليفة وأذعنوا لها .

قدوم القبودان حسين باشا إلى الجيش الهمايوني وعودته إلى الآستانة

بناء على الاتفاق المبرم مع الفرنسيين من قبل ، أبحر الوزير حسين باشا من الآستانة بأسطول عظيم وذلك لنقل جيوش الفرنسيين من مصر إلى بلادهم ، وعندما بلغ المياه القبرصية ، سمع بنقض الفرنسيين للمعاهدة ، وعودة الجيش الهمايوني منكسراً إلى يافا ، فحول شراع عزمه إلى جهة يافا ، وعندما انتهى إلى الميناء المذكور ، دعاه السردار الأكرم للمجيء إليه عجلًا ، فمضى إليه سريعاً في مركب وسر بلقائه ، ولبث معه يوماً للاستراحة ووعده ببذل كل جهده لإرسال اللازم من المدافع وآلات الحرب والمؤن والعساكر والعودة بأسطول همايوني ضخم. ثم رفع مرساته وأسدل شراعه متجها صوب الآستانة .

رحيل أمين النزل حسن أغا إلى الآستانة وتعيين مصطفى بك — كتخدا باب عبد الجبار زاده — بدلا منه

منذ سنوات وحسن أغا — أمين النزل — يتفانى في إنجاز كل ما يُعهد إليه من مهام ، غير أنه بسبب طول السفر تغير حاله ، [١٦٤ - ١] وكان قد شهد ما وقع من معارك وملاحم داخل مصر إلى جانب كتخدا عثمان أفندي ، وبسبب دوام القتال آناء الليل وأطراف النهار وفي الغدو والآصال ، نالته شدة واعتري جسمه الضعف والهزال ولم تعد له قدرة على المكث بأى حال من الأحوال ، فاستأذن السردار الأكرم في الرحيل

إلى الآستانة ، فترفق به وسمح له بالسفر وأرسل إلى الباب العالي فـلى طلب مصطفى بك كتحدا عبد الجبار زاده - من رؤساء بوابى الباب العالي سابقا - لتولى منصب أمين النزل الشاغر ، فقدم المير المشار إليه يافا وبعد أن عفر جبينه فى تراب موطنه قدم السردار الأكرم ، بذل نـل جهده فى أداء مهمته أمينا للنزل وفاقته همته همة أسلافه فى ذلك المنصب .

مقتل القائد الملعون كليبر فى القاهرة على يد سليمان الحلبي

اتفق ذات يوم أن كان كليبر سر عسكر الفرنسيين مع كليبر المهندسين يسيران فى البستان الكبير بقصر الألفى بك ، فأراد رجل دين فى زى أزهرى الدخول عليه فى البستان المذكور فمنعه الحراس وحاولوا بينه وبين الدخول ، فأوهمهم أنه صاحب حاجة وهو ملهوف واستنـاع بطريقة ما الإفلات منهم ، وقصد كليبر ، ولما دنا منه سألـه عما يريد ، [١٦٤ - ب] فمد إليه يده بمظلمة ، فمد إليه الآخر يده ، فقبض عليها وبقر بطنه بثلاث طعنات ماضية بخنجر كان قد أعده فى يمينه ، فخر على الأرض صريعا ورآه رفيقه كبير المهندسين ، فذهب إليه وطعنه أيضا عدة طعنات وهرب ، فسمع الحرس صرخة المهندس الملعون ، فدخلوا أسرعين ووقفوا على ما حدث لكبيرهم وكبير مهندسيهم ، وحملوهما إلى القصر وظنوا أن ما حدث من فعل أهل مصر ، فأحضروا كبار مشايخها ووجهاءها وشددوا عليهم قاتلين :

" لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم " ، ولا يزالون يفتشون عن الجاني حتى وجدوه منزويا في البستان المجاور لبית السر العسكر ، فقبضوا عليه وأحضروه أمام عامة الناس وسألوه عن اسمه ودينه وبلده، ومنذ كم هو في مصر ؟ ومن بعث به وحرضه على ارتكاب فعلته؟ وعن أسر إليهم من أهل مصر وأخبرهم بحقيقة حاله وكشفهم بسرهم ؟ وهل يعرف الصدر الأعظم ؟ فأخبرهم أنه غريب عن مصر ، وأنه مسلم واسمه سليمان ومن حلب الشهباء ، وصنعتة طلب العلم والكتابة ، [١٦٥-١] وأنه حضر إلى مصر في السابق ، وله فيها هذه المرة خمسة أشهر ، وأن أحدا لم يبعثه ولا حرضه ولم يكشف أحدا من أهل مصر بسرهم ويخبره بحقيقة أمره .

وما زالوا يستجوبونه ويسألونه نفس الأسئلة ويدققون معه وهو يغالطهم ، فلما علموا منه المغالطة ، ضربوه وعذبوه حتى أقر لهم أنه حضر من غزة من نحو ثلاثين يوما وحضر على جمل في ستة أياما بقصد قتل سر عسكرهم وأن الذي أرسله هو أغا الإنكشارية .

وأخبرهم كذلك أنه أسر بنيته تلك إلى ثلاثة من أهل مصر وأخبر عن أسمائهم وأوصافهم ، فجاءوا بهم وحملوهم مرارا وتكرارا على الاعتراف على المشار إليه ، ثم شكلوا هيئة محاكمة من رؤسائهم ومديرهم ، وعملوا صورة دعوى وشهود ، وبعد إقامة الدعوى والفحص ، حكموا بإعدام الأبرياء الثلاثة المذكورين وخوذكوا سليمان الحلبي ، ووضعوا جثة كليبر في صندوق نحاسي .

والحق أن سليمان الحلبي هذا جاهد خير جهاد في سبيل الدين ، وبذل روحه في سبيل الإسلام ، [١٦٥-ب] فقال الشهادة وذهب له بعيد

صيت في الآفاق - ومن واجب الإخوان المؤمنين أن يترحموا عليه
ويدعوا الله له ويقرأوا الفاتحة على روحه .

ورود المدد وقدم الحاج قدسي أفندي

عندما علم الخليفة بعودة الجيش الهمايوني من مصر خالها
منكسرا ، أراد أن يشد من أزر الصدر الأعظم ، فبدل مزيدا من المهمة
بشأن إمداده بجيشين عظميين أحدهما برى والآخر بحرى ، وذلك بمعرفة
من لهم علم بتجيش الجيوش .

وبناء عليه صدر الأمر السلطاني بتهيئة ثلاثة آلاف مقاتل من
بواسل حلب الشهباء ، فتم تهيئة هؤلاء الجناد ، غير أنهم عجزوا عن
الغور على قائد كفاء شجاع له المقدرة على قيادة أولئك الجناد
وسياستهم ، فأنفق رب السيف والقلم ، قنود الدماء وأشدر الشهراء ،
الحاج قدسي أفندي ، معلم دار الحديث في المدرسة الصلاحية الموجودة
في حلب الشهباء ، ومفتيها السابق ، وقائم مقام نقيب الأشراف الآن ، كل
ما يملك ابتغاء إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله ، واشترى أعدادا وفيرة
من الخيام والدواب واصطحب الحساكن المذكورة في نفس من أعوانه
وأصاره وبسط عليهم رعايته وحمايته وخرج بهم من حلب الشهباء
متوكلا على الله الوهاب ولم يزل أربعون من الحظفة ونحو مائة من
الطلاب والمشايخ يتلون القرآن الكريم والأوراد المنيفة آناء الليل
وأطراف النهار ، وطووا المراحل على هذا الحال حتى وصلوا إلى الجيش
الهمايوني ، فابتهج أهله ابتهاجا عظيما بقدومهم ، [١٦٦-١] وحظي

الحاج قنسي أفندي بعثت وإحسان المصدر الأعظم ، الذي خلع عليه فروا
ثمينا لطيفا ، ورصد له ولجندة أرزاقهم اليومية ، وأفرد لهم مخيما .
وقد أسند المصدر الأعظم مجيء الأفندي المشار إليه في صفوة
من الجند إلى صحراء باغا ، فأرسل إلى العتية العلية السلطانية بتمس
توجيه قضاء أرزاقهم إليه ، فكان له ما أراد وأسند القضاء المذكور إلى
المشار إليه ، على أن يتولى ضبطه اعتبارا من غرة ربيع الآخر لعام
١٢١٦ هـ .

ورود رشوان زاده وبابيزيد زاده وأبى بلغة وأمير كمال صاغر زاده إلى الجيش الهمايوني

إن ثنائي رشوان زاده سيد عبد الرحمن باشا منذ زمن طويل
فيما شاعته من هروب الماطنة السيرة وجمالاتها ، [١٦٦٦ هـ] كان
أمرا توارثه عن آبائه وعائلته ، علاوة على أنه كان خرس يمين السردار
الأكرم وقائم قصبه (يهوسى) من مشاتل المناجم الهمايونية ، وقد
كثف بالمشور إلى مصر مصحبه ألف من صفوة الجند المشاة والفرسان ،
فخلع عليه ورصد له ولجندة وقرى العطايا والمؤن ، وأرسلوا إلى مخيم
أفرد لهم .

كما استدعى بأمر عال بابيزيد زاده سيد قلندر بك - من أعين
مرعش وأحرق عائلتها - إلى الجيش الهمايوني ، ولما كان المذكور
من المنتسبين للدائرة الآصفية للمصدر الأعظم ، فقد قدم في نحو سبعمائة
من صفوة جند التركمان ، وبعد أن أحصى جنده قنسي فسطاط المصدر

الأعظم ، خَلَع عليه ومنح العطايا والرزق ، وأنزل هو وجنده بمخيم أعد لهم .

وعندما كَلَف أبو بلطه إبراهيم أغا — ملتزم اللاذقية ومن رؤساء بوابى الباب العالى — بالاشتراك فى الحملة الهمايونية ، قدم فى نحو ألف من الفرسان والمشاة ، ويعد أن قام بعرض جنده على السردار الأكرم ، [١٦٧-١] خلع عليه فى فسطاط الصدر الأعظم ومنح السوزق وأنزل بمخيم أفراد له ولجنده .

كما كلف صاغر زاده تيمور بك محافظ قضاءى كماخ وكرجاتيس — من أقلام المناجم الهمايونية — بالالتحاق بالجيش الهمايونى ، حيث إن البك المذكور كان أحد خواص خدمة السردار الأكرم وقت توليه أمانة المناجم الهمايونية ، ولذا فقد وصل الجيش السهمايونى فى نحو خمسمائة من صفوة فرسان الأكراد ، وقدم فروض السولاء والإذعان للصدر الأعظم ، فحظى بخلعة فاخرة ومنح السوزق وأنزل بمخيمه.

٢٠٨ . قدوم الحاج إبراهيم أغا — عين خربرت — ومعه جند خربرت وملاطيا

كان الحاج إبراهيم أغا من أغوات خربرت الذين استخدمهم السردار الأكرم فى نواحى المناجم وأرضروم وما يلى بها ، فى منصب الكتخداوية وسائر المناصب الأخرى ، وكذلك من خاصة أتباعه إسحق أغا شقيق جوته لى زاده محمد أغا . وقد كلفا بالانضمام إلى الجيش

الهمايوني ، فقدم في نحو ألف من خيرة جند إنكشارية خربت ، إلى الجيش الهمايوني ، ولما عاينهم الصدر الأعظم تقبلهم بقبول حسن وسر بهم ، فخلع على إسحق أغا والحاج إبراهيم أغا ورزقا ، وأرسلت جند الإنكشارية إلى موضعهم في جيش الإنكشارية ونزل المشار إليهما في دائرة الصدر الأعظم .

ولما استعدت ألوية سردنكجديان ملاطيا المكلفين بالالتحاق بالجيش الهمايوني وتعبات ، اصطحبهم الحاج عبدی زاده معش أغا — من أشرف أغوات ملاطيا والذي كان نعم مربى وخير عائل للسردار الأكرم — ووصل بهم سريعا إلى الجيش الهمايوني ، [١٦٧ب] فخلع عليه وأنزل بدائرة السردار الأكرم .

ومن رؤساء الديوانكان الذين استخدمهم السردار الأكرم في مقاطعات المناجم الهمايونية صوبطاري موسى ، ودلي فتاح ، وعرب سليم ، فقدم هؤلاء كذلك في ستمائة من فرسان الديوانكان والنقوا بسادتهم في يافا ، فسعدوا بذلك وسر فؤادهم وخلع عليهم ووزعت عليهم العطايا والرزق ، ونال كل منهم مرامه وبلغ أربه .

قدوم بكباشي جبار زاده ، وسائر جند المتفرقة

لما كان إرسال ألف من خيرة الفرسان من قبل متصرف لواء (بوزأوق) عبد الجبار زاده سليمان بك مع أحد بكباشيته ، أمرا سلطانيا ، فقد أرسل دميرجي زاده عمر أغا — من خدمه القدامى — في ألف من صفوة الفرسان . وعندما وصل الأغا المشار إليه بمن معه من الجند إلى

الجيش الهمايوني ، شاع عليه ومنح الرزق والعطايا ، وأقرده واجنده موضع مناسب بمقيم الجيش الهمايوني .

وتواردت كذلك ألوية سردينجديان ترقاد وأماسيه وطوسيه ومرزيفون وقيصريه وأزمير وسائر الجهات والنواحي ، وخلع على ضباطهم ووزعت عليهم المون والرزق . [١٦٨ - ١] هذا في حين أنه قد صدرت أوامر عليّة متعاقبة بشأن تعبئة ألوية السردينجديان من نواحي ديار بكر والرقّة ، وإرسالهم إلى الجيش الهمايوني . وكان أهالي تلك البلدتين يمثلان كثافة سكانية عالية ، وعلاوة على أنهم من طائفتي اختلاف منازلهم من الغنى والفقر وتفاوت أعمارهم . كانوا على حد زعم الإنكشارية يتشيعون لفرقهم ، وفيما كان من المأمول أن يتوارد حشد عظيم من جند انكشاريتهم ، توارد منهم سبعة وعشرون جنديا من ديار بكر ، وسبعمائة من الرقة ، فأثار ذلك حنق السردار الأكرم وأغضبه غضبا شديدا ، فلم يخلع على ضباطهم ، كما أمر باعتقالهم ، ثم عاد يطلق سراحهم بعد عدة أيام بعد أن تشفع لهم الشفعاء .

قدوم شيخ زاده إبراهيم باشا إلى الجيش الهمايوني

خرج والي ديار بكر شيخ زاده إبراهيم باشا في حشد عظيم من خيرة جند دائرته وبينما كان في طريقه للحاق بالجيش الهمايوني ، [١٦٨ - ب] توفي الصدر الأسبق يوسف باشا والسّي جده ومحافظة المدينة المنورة . ولما بات من اللازم إرسال من يخلفه في منصبه الجليل

هذا ، صدرت الأوامر السلطانية بإيالة جدة والحبشة إلى إبراهيم باشا المشار إليه . وما إن وصلتته الأوامر الجليلة بذلك وهو في طريقه إلى الجيش الهمايوني ، حتى سمع بها خاصة أشياعه ، فاتفقوا من حوله في الوقت الذي كان لازماً عليهم المضي معه صوب المهمة التي كلف بها ، وأيقن إبراهيم باشا أنه سوف يصبح كالواعظ الذي انفضت من حوله جماعته وقل يكلم نفسه ، فاضطر إلى أن يصرف النظر عن المضي إلى تلك الأماكن المباركة بعدما امتنع أتباعه عن الخروج معه في رحلة مباركة كهذه تخلع على القائم بها شرف الدنيا والآخرة ، وأسرع إلى الجيش الهمايوني مختلفاً آلاف الحجج والمعاذير للاعتذار عن القيام بتلك المهمة ، وشرف بتقبيل ذيل ثوب أمير الجيوش ، وشكاه من صدور بعض الأحوال غير اللائقة من جنده ، وبسط إليه الرجاء بشأن إبداله ذلك المنصب بمنصب آخر ، فأسعفه الصدر الأعظم برجاله وخلع عليه ، ومنحه العطايا والرزق ، وأرسل إلى الركاب السلطاني ملتصقاً بإبداله منصب جدة بمنصب آخر .

قدوم إبراهيم باشا والي حلب إلى الجيش الهمايوني

لما كلف والي حلب الوزير المكرم الحاج إبراهيم باشا بالالتحاق بالجيش الهمايوني ، [١٦٩ - ١] قدم في صفوة من جند دائرته وعمل موكباً حافلاً أمام أمير الجيوش وشرف بجلسة يسيرة معه في خيمته الأصفية ، فبلغت به السعادة منتهاها . وبعد أن خلع عليه فو سموري

ثمين ، منح الرزق والعطايا وافية ، وأفرد له ولجندة موضع مناسب فى مخيم الجيش الهمايوني .

عزل أمين المناجم وتنصيب آخر

اقتضى الأمر عزل عبدى بك — من رؤساء بوابى الباب العالى ووكيل السردار الأكرم على المناجم الهمايونية ، والذى سعد بمصاهرة ذاته الآصفية — من الوكالة المذكورة وعين مكانه خلوصى أحمد أغا ، من رؤساء بوابى الباب العالى المعروفين بعلو الهمة وكان له منصب (خزينة دار) ، واستدعى عبدى بك إلى الجيش الهمايوني ، وأسندت (الخزينة دارية) الشاغرة إلى خيربختلى إبراهيم أغا الكتخدا السابق للسردار الأكرم والموجود معه الآن .

ولما كانت الأوامر السلطانية قد صدرت بإرسال عدد وأقر من الجند من جهة بلاد الأرناعوط ، فقد قدم هؤلاء الجند الذين أرسلوا بمعرفة تبه دنلى على باشا ، وإبراهيم باشا . وعلاوة على هذا قدم الجيش الهمايوني نحو أربعة آلاف من الجند المشاة من نواحى القدس ونابلس وخليل الرحمن وجنين وغزة والرملة وذلك بمعرفة متصرف لواء القدس الشريف الحاج محمد باشا ، فزود الجيش الهمايوني بشتى صنوف العساكر المنصورة . [١٦٩ - ب]

وعلى نحو ما بناه وبسطنا فيه القول آنفا ، اكتسب الجيش الهمايوني قوة إلى قوته بفضل توارد الوزراء العظام والميرميران الكرام

ورؤساء فرق عساكر الاسلام وجند الإنكشارية والارناؤوط الذين تواردوا
براً وبحراً ، وبات لزاماً التمهوض والزحف على الأعداء .
غير أنه لم يكن السلطان الهمام ليففل عن أنه فى حالة مهاجمة
أعداء الدين من جهة البر وكفى ، فإنهم سوف يكتلون قواتهم ويوجهونها
فى صوب واحد ويشقون بذلك عساكر المسلمين ؛ فسير القبودان دريسا
الوزير الغازى حسين باشا بأسطول بحري عظيم ، إضافة إلى أنه
استدعى الأسطول الإنجليزى بقصد الإعانة ، فقدم — رعاية لشروط
التحالف المعن بين الدولة العلية وإنجلترا — بحشود عظيمة من الجند ،
ورسا بميناءى (مكرى ومارماريس) . ولأن الموسم لم يكن موسم
البحر؛ فقد مكث هنالك عدة أيام وأصدر السلطان فرماناً — موافقاً للرأى
الصائب — بالتقاء الأسطول الإنجليزى بالأسطول الهمايونى فى أوائل
الربيع ، والتنسيق كذلك مع الجيش الهمايونى لشن هجوم مشترك على
الأعداء من البر والبحر ؛ [١٧٠-١] ومن ثم اضطر الجيش الهمايونى
إلى المكث بصحراء يافا لشهر أو شهرين ترقباً لذلك الموعد .

فى بيان المصائب المختلفة والنوازل المتنوعة التي نزلت بالجيش الهمايونى أثناء مقامه بصحراء يافا

أثناء إقامة الجيش الهمايونى — مضطراً — حيناً بصحراء يافا ،
بحكمة الله تعالى وبسبب تعفن الجيف والقاذورات والروائح الكريهة
المنبعثة من جثث الحيوانات ، تفشت عديد من الأمراض فى الجيش

الهمايوني ، من بينها طاعون غير مسبق المثال ، أعادنا الله . فتك فتكاً ذريعاً بالشيخ والشباب والقوى والضعيف ، فتساقطوا كسأوراق الخريف الذابلة .

ولقد ظهر الوباء أول ما ظهر في جيش الأرناعوط ، وكان يودى بحياة نحو مائة من الجند يومياً ، وشيئاً فشيئاً سرى من طائفة الأرناعوط إلى سائر أهل الجيش ، وأصاب الغنى والفقير على السواء ، ولم تنج خيمة من سهمه الفتاك ، [١٧٠ - ب] ولم يخل موضع في مخيم الجيش في ليلة من الصراخ والعيول . ولم تمر ساعة دون سماع صيحات وأنات يذوب لها الفؤاد تأثراً وكمداً . حتى أنه كان للسرदार الأكرم أربعون غلاماً يقومون على خدمته ، تحرروا واحداً تلو الآخر من قيد العبودية وارتحلوا إلى الفردوس ، ولم تكتب النجاة من سهم الوباء الفتاك إلا لسبعة .

ولقد ذكرنا آنفاً أنه قد جاء من قضاء خربرت نحو ألف من الجند ، عصمنا الله تعالى ، فتك الطاعون بثمانمائة منهم فسى غضون شهرين ونجا المائتان الباقيون ، كما كان يهلك يومياً نحو مائتين من الرجال في الأيام لافتحة الحر . وهذا مسجل في صحيح الصحائف .

ولقد أوقع هذا البلاء الإلهي الأمة المحمدية في شدة الحيرة ، هذا في حين أنه لم يكن ليافا ميناء يصلح لجلب السفن بمحاذاة برها ؛ وعليه كانت سفن الغلال ترسو في عرض البحر وتجلس حمولتها في القوارب الصغيرة . ولأنه لم يكن من الممكن إخراج غلال يومين برغم ما كان يبذل من فرط جهد وسعى ، لم يكن بالمخازن مخزون من الغلال . وبحكمة الله تعالى بسبب كثرة العواصف وشدة تلاطم أمواج البحر لم تحتل السفن الشبات في عرض البحر لتفريغ حمولتها ، وفرت كل منها

بحمولاتها إلى جهة من الجهات ، [١٧١-١] وذهبت بطوفان من
الدواهي والكوارث ، ورست كل منها في ميناء متكيدة كل الصعاب ،
فتصور نقص شديد في الخلال .

وعلاوة على أنه لم تكن الخلال متوفرة في بلاد الشام منذ
سنتين ، فقد مزج الجزار باشا حكومته لدى مجيء الجيش الهمايوني إليها
من بيع الخلال له ، إرادتها في إرضائه ، مما سد أبواب الأمل من كل جانب ،
وعم القسط وغلا السعر في شتى أصناف المأكول والمشرب ، وكانت كل
سلعة تباع وتشتري بثمنها أمتال سعرها ، وفاقت أزمة الأقوات طاقة
المهاجرين . هذا علاوة على أن الكوارث توالى وانهمرت السماء على
عزاة الموحدين مشرراً فما عادوا يحتملون .

ولما كانت أرض يافا حصباء ؛ لم يكن من الممكن إحكام أوتاد
الخيام ، وبسبب العواصف التي تهب على الدوام ، كانت تنهدم الخيام
عدة مرات في كل يوم وليلة . [١٧١-ب]

وهكذا بسبب الذل الذي نزلت بالجيش الهمايوني وهو مقيم
في الخيام تحت الأمطار المنهورة ليل نهار ، ساءت حال الجند كافة ، ولم
يكن ثمة من أحد يلونون به في تلك الصحراء الموحشة التي تكتنفها
المهالك والمخاطر ، وأقد شاطئهم حضرة السردار الأكرم كل هذه المحن ،
وقاسمت الأمة المحمدية كل المشاق وتمثلت بقول الشاعر الذي يصعد
شكواه قائلاً :

فأبى الله أن يخلصني من هذه المصائب لو أنها

كانت من المصائب التي لا تضرني لئلا

وقول الراجز :

ما مضت بنا لحظة دون أن نغرق في الدماء

ألم نغص بسمام المحنة في كل لحظة ؟

[١٧٢-١] وقول الشاعر :

سواء يلقى السمع في المقاهي للطنبور والربابة

وأنا بين مطر ينهمر، وريح تعصف، وطريق ينسد

ها أنا ذا أرى المسوت بأم عيني

فهل هذا من عجب ؟

ولم تعد لنا طاقة على المكث من تتابع المحن والكوارث التي لا

تنتهي ، واتباع الروائح النتنة والكريهة من جثث الحيوانات في أرض

المخيم الذي كنا نقيم فيه ، فنزحنا من ذلك المكان ونصبنا المخيم في

الجانب القبلي من يافا في أرض حصباء على شاطئ البحر . وهذا

الموضع هو الذي أعدم فيه الفرنسيون - على نحو ما أسلفنا ذكره -

ثلاثة آلاف من المجاهدين رميا بالرصاص .

بيد أنه مصداقا لقوله تعالى : { لا عاصم اليوم من أمر الله }^(١)،

استفحل الوباء واشتد الشتاء وتعاضم البلاء ، وفي حين تجلى معنى شطر

البيت القائل : (لا طاقة لبشر على احتماله حتى ولو كان جبلا شامخا) ،

مر بخاطرنا هذا البيت :

لا أقنط ولا أياس من رحمة الله

إذ أن رحمته وسعت كل شيء وفاقت مأمولى

١- هود : (٤٣) .

وفيما كنا نرده ، اتجلت الغمرة بحمد الله تعالى ، وعلم أرباب البصيرة
أن بعد العسر يسراً ،

[١٧٢-ب] وسوف نبسط القول في ذلك في حينه .

منح تيمور باشا زاده أسعد باشا رتبة المير ميرانية

لشدة تعلق تيمور باشا زاده أسعد باشا - محافظ (وان) -
بالسردار الأكرم ، وفرط محبته له ، خرج من بلدته تلك وفي معيته
مائتين من الفرسان على نفقته الخاصة ، وقدم الجيش الهمايوني ،
وشرف بالمثل بين يدي الصدر الأعظم ، فكان من الحتم إكرامه لقضاء
قدومه على نفقته الخاصة تطوعاً دون أن يطلب ذلك منه أحد ؛ ولذا
أنعمت عليه العواطف العلية السلطانية بلواء (قره حصار) ، ومنحته
رتبة المير ميرانية ، وهكذا تألق نجم عائلته الذي كان قد أفل.

وبسبب تدهور صحة سيد محمد سامي أفندي التشريفاتي في
الجيش الهمايوني ، سُمح له بالسفر إلى الآستانة وأسندت خدمة
التشريفاتية إلى عهدي بك كاتب الكتخدا .

رحيل كتحدا عثمان أفندي إلى الأندلسية وزيارته بالأمم القديسة التي أسندت لبعض رجال الجيش

إن تلماني عثمان أفندي كتحدا الصدر الأعظم ، و هو هو همته في
الاضطلاع بالمهام التي كلف بها في الجيش الأعظم في زمنه
عامين ، وعلى الأخص ما شهدته من معارك في الفترة بين دخوله مصر
 وخروجه منها ، وما كابد من مشاق فيما مضى من المواقف ، كما
ذلك كله سبباً فيما نزل به من مرض أقعده ، وقهر روحه ، و هو في رجاءه إلى
يستطيع على ذلك صبراً واحتمالاً بعد أن هو في حله ، و هو في رجاءه إلى
أمير الجيوش بأن يسمح له بالعودة إلى الباب العالي ، فرفع الأمر إلى
العتبة العلية السلطانية ، فسمح للأفندي المذكور بالرجوع إلى الباب العالي
بناء على رغبته ، [١٧٣ - ١] و هو في الصدر الأعظم أمر إمرأته بمنصب
الكتخداوية الشاغر إلى شخص آخر .

وركب عثمان أفندي البحر إلى الأندلسية ، وتلقى من الله أفندي
الدفتار دار بمنصب الكتخداوية ، واستقال كذلك رجع إلى أفندي
مكتوبى الصدر الأعظم من منصبه ، فتبوأ حميد أفندي ذلك المنصب
الذي تنوق إليه نفوس الكتاب ويتعلق به آمالهم ، كما رقى نعتين أفندي
— كاتب الجبجية — إلى باش خليفة .

تدمير قلعة يافا

تعد قلعة يافا مديراً ومرفأ هاماً لبلاد الشام والقدس الشريف على الأنهر، لا يتقلع عنها وفود التجار في صيف ولا شتاء، هذا إضافة إلى كون القدس الشريف قبلة أهل الكتاب وقرة عين الشيخ والشاب، [١٧٣-ب] فكان من المحتم بطل الوسع في تحصين الميناء المذكور. وقد صدرت الأوامر السلطانية بترميم قلعة يافا وزيادة استحکاماتها وإيقا الأصول فن الهندسة والمعمار، فكلف بالقيام عليها نظار بمعرفة كبير المهندسين الإنجليز الذين في معية الجيش الهمايوني، وفي زمن يسير وسعت مساحتها ورممت جدرانها وأسسها، وشحنت من الداخل بالمدافع وآلات الحرب.

وقعة جزئية للبيكتاشية

بسبب ما ملى به الجيش الهمايوني في صحراء يافا من اشتداد الحال وضيق المجال، أراد السردار الأكسرم أن يطيّب خاطر زمرة الإنكشاية، فاستدعى نحو ألف من مشاتهم المعروفين بمشاة الباب وأسكنهم بجوار فسبظاطه للخدمة في بابيه وأجزل لهم العطاء. والحق أن هؤلاء الجند ظلوا يقومون على خدمته ليل نهار، حتى حضرت ألوية السردنكجدية من كل صوب، ولما عظم جمع هذه الطائفة في جيش الإنكشارية وكثر عددها، حرض الحاسدون منهم الجند وأوغروا صدورهم بقولهم:

" أمن العدل أن نسد رمقنا في الجيش الإنكشارى بكسرة من خبز ، فى حين أن شردمة من المشاة فى باب الصدر الأعظم يتعمون برزق كاملة؟! " ، فاحتشد جند الإنكشارية ودهموا من فى باب الصدر الأعظم من الجند وحملوهم إلى جيش الإنكشارية ، [١٧٤-١] فتعلق رؤسائهم بأذيال الفرار وغابوا عن الأنظار ، ثم ألجأت الإنكشارية أغاها إلى الفرار .

ولما ارتفع النهار علم السردار الأكرم بما وقع وأدرك أنهم قد يركنون إلى العنف ، فقام بتسليح جند بابيه ومن اصطحبهم على نفقته الخاصة من الديوانكان والتوفكجية والأرناؤوط وعباهم أمام فسطاطه . فضلا عن أن رشوان زاده وبازيد زاده وأغوات خربرت وملاطيا ومحافظ كماخ وكرجاتيس صاغر زاده ، وسيوركلى فتاح زاده وسائر من خدموا فى باب الصدر الأعظم من قبل ، تسلحوا دون أن يطلب إليهم ذلك ، وتحلق أكثر من ستة آلاف رجل حول أمير الجيوش وفاء لحق نعمه عليهم طيلة سنوات عشر مضت ، [١٧٤ ب] ولما رأى البكتاشية ذلك منهم ، أرسلوا عدداً من ضباطهم للاعتذار بأن دعواهم كانت مع أفراد طائفتهم وزملائهم ، وأنه لا دعوة لهم على أحد سواهم . ولما التمسوا إرسال أغا الإنكشارية إلى جيشهم ، أرسل إليهم للتأليف بين قلوبهم والمشى بينهم بالصلح ، وكان تفريق جموعهم أمراً يسيراً .

وعلاوة على ما وقع فقد تحزبوا غير مرة من بعد بأسباب واهية ، وجدوا فى إشعال الفتن وإثارة الغلاقل ، غير أنهم فى كل مرة كانوا يتفرقون دون تحقيق أى طائل ، وذلك بفضل كثرة أعوان السردار الأكرم وأنصاره .

خروج الجيش الهمايوني من صحراء يافا إلى جهة مصر للمرة الثانية

ما إن حضرت أساطيل إنجلترا - التي عقدت حلفاً مع الدولة العلية - مشحونة بنحو خمسة وعشرين ألفاً من القوات البرية للقاء الفرنسيين ، حتى بذلت الدولة العلية اهتماماً فائقاً بإعداد المآكل والمشارب اللازمة لأولئك الجند المذكورين بأقل الأثمان من الأقضية المجاورة وتجهيز موانئ مكرى وقبرص ومارماريس لهم ، [١٧٥ - ١] وعُهد بالفعل بمهمة إكرامهم والحذب بهم إلى سيد مصطفى أفندي - من أركان الديوان المعلى - فسهل على رعايتهم وخدمتهم فى ميناء مارماريس .

ولقد لبث السردار الأكرم بصحراء يافا أكثر من شهر انتظاراً لحلول موسم البحر . وعندما هلت نسمات الربيع عقد النية على الزحف إلى غزة والعريش . ولشدة البرد القارص نفق نحو ثلاثة أرياع جياذ فرق الطوبجية والعرجية ، ولم يبق بحوزة (أغا الكراء) شىء من الجياذ المشتراة ، فأمر السردار الأكرم بأن تجر السراذين - التى تم شرائها سريعاً من نواحي دمشق - العربات والمدافع ، وإرسال سائر المهمات الحربية بحراً بالمراكب إلى العريش ، وتحميل خزائنة الميرى وباقي أمتعة الجيش الهمايوني على بعير العربان التى تم استكراؤها منهم بمعرفة محمد باشا متصرف لواء القدس الشريف .

وتشاور فى شأن التحرك من الغد ، فأظهر له بعض أرياب الرأى والمشورة أن التحرك سوف يجر عليهم صنوف الشدائد والمتاعب ،

ما لم يكن هناك القدر الكافي من الدواب ، فرد عليهم بأنه من اللازم وصول الجيش الهمايوني على أية حال إلى العريش قبل تحرك الأسطول الإنجليزي صوب مياه الإسكندرية ، [١٧٥-ب] فأبقينا الخيام ونقلنا المتاع بيافا وخرجنا مع السردار الأكرم مستعينين بالله تعالى من مشقاتنا في يافا تحت الأمطار المنهمرة ، وسرنا في الوحول وقطعنا مسافة ثلاث ساعات فحسب من الصباح إلى المساء ، وتكبدنا ما تكبدنا من شتالاد حتى أقمنا المخيم في منزل (جسر روبيل) .

وعقب نزولنا بالمرحلة المذكورة ، توارد الخبر مع سفير مخصوص بإقلاع الأسطول الإنجليزي من ميناء مارماريس في طريقه إلى الإسكندرية ، فلم يعد لنا طاقة على الصبر على التوقف ولو لساعة ، ووضع غزاة الموحدين صوب أعينهم التعجيل من أجل مجابهة العدو .
غير أنه علاوة على العجز الذي ظهر في الحيوانات ، وما ترتب على ذلك من الفت في عضد الجند ، فإنه بحكمة الله تعالى ، هبت ريح صرصر وهطل المطر مدراراً ، [١٧٦-أ] فتكونت بحيرات أحاطت بخيام العساكر وأغرقتهم في بحر من الاضطراب والحيرة واستحال عليهم السير عدة أيام في المرحلة المذكورة .

ولم يزل الحال على هذا المنوال أحد عشر يوماً لم ينقطع فيها هطول الأمطار ، فخرجنا من تلك المرحلة وحصل لنا غاية المشقة ، وقطعنا مرحلتين حتى أقمنا المخيم بصدر غزة .
وفي تلك الأثناء وبأمر الله وقعت الجفوة بين الجزار باشا ومن في خدمته من فرسان الديوانكآن ومشاة الأرناعوط والمرترقة الترك ،

فاتفوضوا من حوله ومضوا إلى السردار فرقة فرقة يعرضون عليه خضوعهم وعبوديتهم له . ولأن الوقت كان وقت الحاجة إلى مثل هؤلاء الجند ، فقد خُلع على رؤسائهم ومنحوا ما يلزمهم من الأرزاق .

ومن جهة أخرى جُدَّ الحاج محمد باشا متصرف القدس في اكتراء الدواب من العربان بالقدر الذي يفي بحاجة الجيش الهمايوني ويعينه على مهمته ، وعباً ما كلف بتعبئته من مشاة القدس ونابلس وخليل الرحمن ، فتوارد منهم ثلاثة آلاف من جند المشاة ، علاوة على نقاطر جند الأناضول من الفرسان والمشاة وبعض أتباع السردار الأكرم من نواحي المناجم الهمايونية وما يليها ، برأ وبحراً ، فتحصل للجيش الهمايوني من ذلك قوة فتية ، [١٧٦-ب] وأصبح بعدد نجوم السماء ، وتعطش جميع العساكر لدماء العدو ، فعجل السردار الأكرم المضى صوب مصر .

غير أن أزمة الخزانة كانت قد تفاقت وبلغت ذروتها ، وتراكمت مرتبات الجند أربعة أشهر ، وعليه طالب الفرسان والمشاة كافة برواتبهم ، فأجبيوا بالرفق والملاينة ، لكن ذلك لم يقد بأية حال فقالوا للصدر الأعظم :

" إنه من الحماقة أن نطالبكم برواتبنا في الوقت الذي تعاني فيه خزانة الميرى الأزمة ، لكن ما لم تتكرموا بمنحنا نصيباً مما تراكم لنا من رواتب نتقوت به ، لن يصبح في مقدورنا التحرك ولن نستطيع ادخار ميرة تسد رمقتنا في هذه الصحارى القاحلة " .

عندئذ لم يجد ما يقوله لهم ، ولأنه لم يكن يتوافر في خزانة الميرى ولا في خزانة السردار الأكرم ولا مبلغ خمسة آلاف قرش ،

ولأنه لم يكن في الإمكان الاستدانة المحلية فقد ظلت تلك المشكلة مثاراً للجدل والنزاع ، ولم يزل الحال هكذا حتى انضم الجند الذين انفضوا من حول الجزار باشا ، وسائر الجند المتحزبين إلى الجند المذكورين ، [١٧٧-١] وتناصروا جميعاً وتعصد كل بالآخر ، وأخبروه أنهم مالم يمنحوا نصيباً من رواتبهم المتراكمة ، فلن يسعهم إلا أن ينفضوا من حوله جميعاً ، فلم يطق أمير الجيوش صبراً ، وترتب على ذلك أن اجتمع رجال الدولة وكافة خدمهم وأتباعهم وأخذوا ما تبقى في قعر الخزانة من مال وما في المخازن من غلال ، وبلغ إجمالي ما أخذوه مائة ألف قرش ، ولما علم الجند بذلك هدأت ثائرتهم وتراضوا .

وبعد أن لبثنا سبعة أيام بغزة خرجنا منها قاصدين مرحلة (خان يونس) على مسافة ست ساعات ، وفي اليوم التالي نزلنا بالشيوخ زويد على مسافة سبع ساعات ، وفي اليوم الذي يليه الموافق (١٥) من ذي القعدة ، حططنا الرحال بصحراء العريش .

ولما كانت سفن المهمات والمؤن المرسلة من جانب يافا ، قد وصلت إلى سواحل العريش ، سعى الجند إلى تفريغها ، وفيما كانوا منهمكين في ذلك العمل تلك الليلة ، فاجأتهم ريح صرصر ، شتت السفن الراسية في البحر وألجأت كل منها إلى ميناء فأسف أربعون ألفاً من العساكر الموحدين لذلك أسفاً شديداً ، وسادتهم الحيرة والوله في تلك الصحراء القاحلة ، واستحال عليهم الحصول على حبة قمح واحدة زيادة على ما ادخر خفية في قلعة العريش من قمح وفول يكفى لثلاثة أيام فحسب ، [١٧٧-ب] وجاعت حيواناتهم ونال منها الظمأ .

وفيما كانت الحيرة مستبدة بنفوس كل من شاهد تلك الحالة من الأصدقاء، لم تكن أوتاد الخيام محكمة في رمال صحراء العريش الناعمة، وكانت تنهدم رأساً على عقب بين الساعة والأخرى وتتفرق في الصحراء، حتى أن السردار الأكرم قد تعثرت قدماء وسقط عليها غير مرة بسبب اهتزاز فسطاطة واضطرابه.

ولم يزل الحال على هذا المنوال أربعة أيام والجند على اختلاف منازلهم ورتبهم يتضورون جوعاً ، والحال ذاتها بالنسبة لحيواناتهم ، فتحزب كافة الوزراء العظام والمير ميران الكرام ورجال الدولة وضباط الفرق وسائر الموظفين ونحو ألف من رعوس الجند واجتمعوا في فسطاط الصدر الأعظم يأتمرون ويتشاورون ، غير أن مداولاتهم لم تسفر عن نتيجة وانتهت مشاوراتهم إلى ما بدأت به ؛ مما حدا بالسردار الأكرم إلى أن يقف ويخطب فيهم قائلاً :

" وضح للعبان استفحال أمر أعداء المسلمين وقوة شوكتهم ، [١٧٨-١] وما لحق بنا من انكسار وعار في العام الماضي بقضاء الله ، وما قاسيناه من أهوال وشدائد في صحراء يافا ، والدواهي التي دهيانا بها من عجز مصروفات الدولة العلية أبدية الدوام ، وبات كل ذلك في غنى عن البيان والتعريف . هذا في حين أن أسطول الإنجليز حلفاؤنا قدم سواحل الإسكندرية وسوف ينزلون الجند إلى البر بين عشية وضحاها ، ولا شك أنهم سوف ينتظرون منا أن نعينهم ونعضدهم ، وما نحن الآن ليس لدينا حبة قمح واحدة ، وتشتتت سفننا التي قدمت تحمل الغلال والأقوات من شدة العواصف . حتى ولو سكنت الرياح فسوف يستغرق تفريغ تلك الغلال عدة أيام ، وبعد ما تكبدناه من مشاق طيلة

الأيام الأربعة الماضية ، لم يعد لنا طاقة على التحمل أكثر من ذلك ، وهناك سبع مراحل متعين علينا قطعها ، وهي صحارى قاحلة موحشة ، وجند أعداء الدين فى قلعة الصالحية المتاخمة لصحراء العريش بمدافعهم وعنادهم متأهبين لملاقاة جند الموحدين المكذوبين المتضععين .

لم يعد لى الآن كلمة أقولها لأخوانى من المجاهدين ، فكل ما قلته قد شل تفكيرى ، وها أنا ذا أبيح لكم دى واستحلفكم بالله أن تطلقوا على رصاص بنادقكم .. بعدها أيا كان رأى كبيركم نفذوه " . [١٧٨ - ب] وما إن فاه السردار الأكرم بكلامه هذا وقد علا نحيبه ، حتى قام الأرناءوط والأدلاء وصغار الجند المشاة جميعاً على قدم وساق وقد نجع فيهم الكلام ، فثبت فيهم الحمية والغيرة وبدأت عليهم آثار الحماسة وصح منهم جميعاً العزم على الزحف على الأعداء وقالوا : " لنسرع فى المضى الى الجهاد فى سبيل الله ولنمت فى الصحراء حتى يحسن لنا الله تعالى مثوبة يوم الجزاء ، ولنجد بالنفس فى سبيل دينه الحق حتى نحقق لنا مجداً فى دنيانا له الخلود إلى أبد الأبدىين " .

وعقد مجلس للشورى ، نُصب فيه طاهر باشا - من المير ميران - أميراً على طليعة الجيش ، وصحبته جند الديوانكان ، وعمر أغا بيكباشى عبد الجبار زاده ، وجند الحواري بحيث وصل إجمالى من معه خمسة آلاف من خيرة الجند ، وأملت عليهم الوصايا اللازمة ، ومنح الباشا المشار إليه خمسة مدافع خفيفة الحركة وسائر ما يلزمه من عتاد ومؤن تكفيه يومين مما ادخره الجند فى داخل قلعة العريش ، [١٧٩ - ١] وسير إلى جهة مهمته .

قصبۃ القرن ، حيث انضموا إلى من بها من بنى جلدتهم ، ووافوا قلعة بلبيس ونسفوها وسوها بالتراب ، وواصلوا هروبهم صوب مصر .

وليلة هروبهم على هذا النحو ، [١٨٠-١٨١] أخبر المشايخ هذا الخبر طاهر باشا أمير طليعة الجند فى مرحلة رأس الوادى المتقدم ذكرها وقت السحر ، وسرعان ما أعلم السر عسكر المتأخر بذلك ، ثم خف إلى الصالحية وبذل الوسع فى إخراج الغلال التى خزنها الفرنسيون بالقلعة المذكورة وإطفاء المشتعل منها وإخراج ما وقاه منها من ألسنة النار ، وجد فى ذلك حتى هبط المساء .

وفى اليوم التالى وصل سر عسكر باشا بدوره إلى الصالحية وأرسل الهجاة إلى الجيش الهمايونى حاملين (المعروضات) متضمنة زف البشرى بالنزول بقلعة الصالحية مجاورين جيش طاهر باشا .

وبعد أن مكث جيش طاهر باشا وجيش محمد باشا وكافة من صاحبهم من عساكر الموحدين ثلاثة أيام بالصالحية ، نفذ مخزونهم من الغلال وأدركوا أنهم سوف يعانون فى جلب المسيرة ، فنهضوا عن الصالحية وساروا إلى قصبۃ القرن ، ثم إلى صحراء بلبيس حيث نصبوا مخيمهم وحفروا حوله الخنادق ونصبوا مدافعهم فى شتى الاتجاها ، وأقلم الإنكشارية متاريسهم وجعلوا فى استطلاع تلك النواحي واستخبارها .

محاربة الإنجليز الفرنسيين ثلثة بالقرب من (أبو قير) ، وانتصار الإنجليز على الفرنسيين

عندما أخبر جواسيس الفرنسيين سر عسكرهم (مينو) ببءء
زحف الجيش الهمايونى عهد للقائد (رينيه) بالقيادة فى الشرقية وأمره
بالمضى سريعا إلى الصالحية فى وفرة من العدة والعتاد لمجابهة
المجاهدين [١٨٠ب]

وبينما كان ذلك الجيش فى طريقه إلى الصالحية ، إذا بالأساطيل
الإنجليزية الضخمة تبلغ ميناء (أبو قير) فى (١٠) من ذى القعدة قادمة
من ميناء (مارماريس) ، وتدفع الجند إلى البر ، فتحلقوا حول القلعة
وضيقوا الخناق على من تحصن بها من الملاعين ، غير أنهم لم يلقوا
بالألحصار قلعة صغيرة كتلك ، فعينوا عدداً من الجند يكفى لضرب
الحصار عليها ، وصح منهم العزم على استخلاص الإسكندرية .

ولما أخبر (مينو) بما وقع من قبل محافظ الإسكندرية ، أيقن
سقوط قلاع الإسكندرية و(أبو قير) سريعا فى يد الإنجليز ، ما لم يهيب
لنجذتها ، فحشد من تبقى فى مصر من جنوده ، والقبط والشوام
والفلاحين والأروام وخرج بهم براً ونهراً لنجدة الإسكندرية . ولما كان
يجبن عن التوضى بمفرده لمجابهة الإنجليز ، أرسل الهجانة إلى قائده
(رينيه) — الذى سيره من قبل إلى جهة الصالحية لمجابهة الجيش
الهمايونى — يطلب إليه العودة على جناح السرعة من هناك ،
[١٨١ - ١] ما لم يكن الجيش الهمايونى بلغها بعد .

ولم يزل (مينو) يتفاحس ويشاقل فى سيره حتى عادت الجواسيس التى بثها ربنيه لاستطلاع أمر الجيش الهمايونى ، وأخبروه بدخوله العريش منذ يومين ، غير أنه بسبب عدم تعبئة الجياد والجمال التى اكتروها من البدو لحمل أنقالهم وأمتعتهم ، فإنه من المؤكد أن يمكنوا بالعريش من ثلاثة إلى خمسة أيام . وإذا ما خرجوا منها ، فإن بلوغهم الصالحية منوط بقطعهم خمس مراحل فى الصحراء ، وعليه فإنهم سوف يبلغونها فى عشرة أيام على التقريب .

أدرك ربنيه أن لديه متسعاً من الوقت ، فرجع عن الصالحية فى التو والحال وأسرع ميمماً شطر (مينو) ، وشحذا المهمة لنجدة الإسكندرية ، وتخابرا مع الفرنسيين المحاصرين فيها ، واحتشدوا جميعاً فى موضع يسمى (بركة القيطاس) ، وحملوا بكل ما لديهم من عتاد على القوات الإنجليزية التى كانت هى الأخرى متأهبة للقتال ، [١٨١-ب] ودار القتال بين الفريقين ، فهرب من ساند الفرنسيين من القبط والفلاحين والأروام والشوام ، وأصبح جيش الفرنسيين وجهاً لوجه مع جيش الإنجليز ، وفى النهاية دارت الدائرة على الفرنسيين وقتل أربعة من كبار قادتهم فى جم غفير من جندهم ، وفر الباقون واعتصموا بقلعة الإسكندرية . وما إن نما نبأ ذلك إلى الفرنسيين المحصورين بقلعة (أبو قير) ، حتى بادروا إلى تسليم القلعة سلماً ، فأمنوا على أرواحهم .

وفى الوقت الذى كان فيه الجيش الهمايونى لا يزال فى صحواء العريش ، وجيشا طاهر باشا أمير جند الطليعة ومحمد باشا السر عسكر فى بلبيس ، إذ بلغهم هذا النبأ ، فأطلقت المدافع والبنادق ابتهاجاً ودقت الطبول وامتلات قلوب الأمة المحمدية فرحاً .

وفي تلك الأثناء رسا الوزير سمير المكارم قيودان دريا حسين
باشا بأسطول همايوني ضخم في ميناء (أبو قير) ، وأنزل ستة آلاف من
خيرة الجند إلى الشاطئ وأمر عليهم كتحذاه خسرو أغا ، وصحبه مثل
ذلك القدر من جند الإنجليز ، [١٨٢ - ١] وشحن جزءاً من ذلك
الأسطول بالأسلحة والعتاد وسيّره على بركة الله لاستخلاص رشيد من
الفرنسيين .

خروج السردار الأكرم من العريش

وصل نبأ استخلاص (أبو قير) من الفرنسيين ودحرهم إلى
الجيش الهمايوني وهو لا يزال بالعريش ، كما وردت الأخبار بنسف
الفرنسيين لقلاعهم وحصونهم في الصالحية والقرين وبلبيس ، وفرارهم
إلى مصر وتعقب سر عسكر وجيشه لهم ومرابطته بصحراء بلبيس ،
فظن السردار الأكرم أن نفس الفرنسيين لقلاعهم وفرارهم إلى مصر
ضرب من ضروب خدعهم ومكائدهم ، فأرسل إلى سر عسكر باشا يشدد
عليه بعدم التحرك قيد خطوة واحدة ما لم يصل إليه بنفسه ، وخرج من
العريش سريعاً تاركاً وراءه إبراهيم باشا - وإلى حلب - وشيخ زاده
إبراهيم باشا والدفتر دار أفندي وسائر كتّاب الأقلام ، على أن يلحقوا به ؛
وقطع مرحلتين وخيم بالصالحية ولبث بها يوماً أو اثنين للتزود بالميرة ،
حتى لحق به بقية الجيش ، فعين إبراهيم باشا وإلى حلب قائداً على جهة
دمياط ، وأرسل معه حشداً عظيماً من الأرنؤوط ، كما ساق معه ممش

أغا - أغا السلام - [١٨٢-ب] إذ إنه فى الأصل كان من طائفة الأرناعوط وذا جدارة وكفاية فى ضبط جند الأرناعوط وربط أمورهم . وبعد أن أنفذ السردار الأكرم إبراهيم باشا بعد أن زوده بالالتزم من الوصايا ، خرج بالجيش الهمايونى من الصالحية ، وعندما نزل بقصبة القرين فى ٤ من ذى الحجة ، أخبره سر عسكر باشا بانتشار اللغط والأراجيف بين صفوف جنده فى بلبيس ، فترك الصدر الأعظم الجيش الهمايونى ووافى سريعا بلبيس لاحتواء الموقف ، فبر بالجند واستمال خواطرمهم ، ثم امرهم بتعميق ما حفروه من خنادق ، وإرسال الجواسيس لاستطلاع قوات العدو ، وأدى مهمته كقائد أعلى للجيش الهمايونى على أتم وجه .

فترة جزئية بين طائفة الأرناعوط

على نحو ما تقدم بيانه ، حدث أن تراكمت مرتبات الجنود وعطاياهم عدة أشهر . ولما لم تكف أكياس الأقجة الألفين التى أرسلتها السلطنة السنية منذ بضعة أيام سداد ما تأخر للجند من مرتبات ، منحوا نصف مستحقاتهم ، وأرجىء صرف النصف الآخر ، وعندئذ احتشد الأرناعوط عن آخرهم ، وبإيعاز من اثنين من بيكباشيهم من مشيرى الفتن ، تنابعا إلى خيمة السردار الأكرم مطالبين بمستحقاتهم ، فتصدى لهم خدمه وسائر من استخدمهم من الأغوات والأمراء فى مناطق المناجم الهمايونى وما يليها وقدموا معه ؛ إضافة إلى ما يربو على خمسة آلاف من أعوانه وأنصاره من جند الديوانكان والتوفكجية والمرترقة الترك ،

[١٨٣-١] غير أن السردار الأكرم أغلظ اللائمة على كافة أتباعه وأمرهم بالعودة إلى خيلمهم . واتفق أن كان على وشك تناول طعام، فدعا عددا من بيكباشية الأرناؤوط إلى مجلسه دون أن يكثر بتجمهرهم ، وعاتبهم عتابا رقيقا ، واحتوى غضبتهم ، وهذا من ثائرتهم وفي النهاية صالحهم على منحهم شهرين من متأخر مستحقاتهم .
والحق أن عدم اكتراث السردار الأكرم بهجوم ستة أو سبعة آلاف من الأرناؤوط على خيمته واعتباره ذلك كأنه لم يكن ، [١٨٣-ب] وإخماده تلك الفتنة بسهولة ببضع كلمات رقيقة دون أن يصد عن تناول طعامه ، لأمر يستحق كل ثناء وإطراء .

خروج الفرنسيين لملاقاة الجيش الهمايوني ونشوب القتال بالقرب من قرية (منير) واندحار الفرنسيين

وقف من بالقاهرة من الفرنسيين الملاعين على كافة دقات أحوال الجيش الهمايوني ، وذلك بفضل من بثوه من جواسيس غادية ورائحة ، فعينوا قواتهم العائدة من الصالحية والقرين وبلبيس والسويس ومصر العليا وسائر الجهات ، ومن كلف منهم بالحراسة في مصر ، ومن والاهم من أسافل الشوام والأروام والقبط بعدة وعتاد قويين :
ولما بلغ نبا ذلك أمير الجيوش استدعى على الفور الوزراء والميرميران ورجال الدولة ورؤساء الفرق العسكرية خافة إلى فسطاطه

وأخبرهم بزحف الأعداء عليهم ، ولما شعر كل منهم بأنه مأذون بأن يقول كل ما يعرفه في هذا الصدد ، ابتدأ كتحدا العبيد الكلام فقال :

" من غير الجائز أن نخرج لمجابهة الفيالق الفرنسية ، والله الحمد أن الجهات الأربع لمخيم الجيش الهمايوني محصنة بالخنادق والمتاريس ، وعتادنا ومدافعنا في أتم وأكمل حال ، وجيوشنا معبئة خير تعبئة ولذا لا ينبغي لنا التزحزح عن مخيمنا قيد خطوة واحدة ، ولو خرجت علينا فيالق المشركين ، [١٨٤-١] من المناسب لنا والأفضل أن نحاربهم من وراء المتاريس "

وعندما قال كتحدا العبيد هذا ، وافقه بعض البلهاء وأقروا تدبيره ، غير أن السردار الأكرم سفه ذلك التدبير وقال :

" بئس الرأي ما قال ، قلو تحلق الكفرة حول مخيمنا والعياذ بالله ، وركنا إلى حرب المتاريس ، فإن الجياد المربوطة بأرض مخيمنا ، بمجرد أن تسمع نوى المدافع والبنادق التي سيطلقها الطرفان ، سوف تجفل وتجمع يمينا ويسارا وتعيث بخيامنا تمزيقا وتهشيما ، فيضطر كل أحد منا إلى أن يعمد إلى حيواناته وأمتعته لحراستها والحفاظ عليها ، فيترتب على ذلك حتما هزيمتنا شر هزيمة ؛ وعليه أرى من الأصوب أن يتقدم طاهر باشا بطليعة الجيش ويعقبه سر عسكر باشا بجنده وعتاده القويين ، فيلاقون فيالق الفرنسيين على مسافة خمس أو ست ساعات ونكون نحن متأهبين لنجدتهم إذا ما دعا الأمر وبذلك نفوت على الفرنسيين فرصة مباغتتنا . "

ولما قال السردار الأكرم هذا وقد أحسن الختام ، أقر كافة الوزراء العظام ورجال الدولة ذوي الاحترام تدبيره هذا وأثنوا عليه .

[١٨٤-ب] وفي الحال منح طاهر باشا — أمير طليعة الجيش — خمسة مدافع وبعد أن تم على اللاتم من الأسلحة ، قدم وفي معيته نحو خمسة آلاف من مشاة الأرنأوط وفرسانهم وكافة جند الديوانكان وأمرأء الممالك ، ومن خلفه السر عسكر محمد باشا كذلك ومعه عشرة مدافع كانت فى حوزته أصلا ، وصحبه نحو سبعة آلاف من صنوف الجند وبيكباشية جبار زاده وسائر البيكباشية ، وبعد قراءة فاتحة النصر ، خلع على المشار وأسرع كل منهما إلى الاتجاه صوب مهمته ، ومعه من أمر بالسير معه .

أطعم طاهر باشا جياده بالقرب من قرية (منير) ، وكذلك فعل سرعسكر محمد باشا خلفه بمسيرة ساعتين ، وجعلوا يستطلعون الأرجاء حتى ارتفع النهار . ومن جهة أخرى كان الفرنسيون قد اجتازوا قرية الخاتكاه بحشودهم — المتقدم ذكرها — وخيموا على مقربة من قرية (أبو زعل) على مسافة ساعة ونصف فقط من طاهر باشا .

[١٨٥-١] وعلى السحر خرج الأعداء من الموضع الذى خيموا به ، وفى الوقت ذاته نهض طاهر باشا أمير طليعة الجيش بعد صلاة الصبح ، وسار سيرا بطيئا وأرسل الهجاة سريعة إلى السر عسكر باشا والسردار الأكرم يخبرهما بقدوم جيش الفرنسيين ، وقام هو بتعبئة جنده وجعل يناوشهم ، فدارت رحى حرب طاحنة دامت أكثر من ساعة ، وقتل من الفرنسيين الكثير ورغم هذا لم يأنس جند المسلمون فى أنفسهم القدرة على الصمود فى وجه الفرنسيين الذين كانوا عصبية مفرطة الكثرة ، فتركوا مدافعهم وولوا مدبرين ، فغنمها الفرنسيون وسدوا فالية اثنين منها ، فهز ذلك حمية طاهر باشا وأشعل حماسه ، وأعاد الكرة

بمن معه على أعداء الدين مباغتاً، واستمات فرسان الديوانكان وأبلوا في القتال بلاءاً حسناً واستعادوا مدافعهم من يد العدو وفي النهاية أخذ جند الإسلام يتفقهرون شينا فشيناً، [١٨٥-ب] وفي الوقت الذي كانت الهزيمة فيه على وشك اللحاق بهم ، إذا بالسر عسكر محمد باشا يأتى سريعا لنجدة ظاهر باشا وجنده ويبدلون جهدهم ويقاتلون بهمة وبسالة . إلا أن الفرنسيين كانوا يفوقونهم في العدد بكثير ولذا حالوا بين جند الموحدين وبغيثهم ، وصبوا عليهم قذائف مدفعيتهم من اليمين ومن اليسار .

وفيما كان الغزاة على وشك التزلزل والتضعع ، إذ بلغ السردار الأكرم نبأ ما حدث لظاهر باشا بواسطة هجان ، فسارع ينصب شيخ زاده إبراهيم محافظاً للجيش ، ويعين في معيته كتحدا الصدارة العظمى سعد الله أفندي ورئيس الكتاب رائف محمود أفندي وأغا الإنكشارية.

واستبقى مشاة الإنكشارية خلف المتاريس ، وخرج بنفسه بعتاد حربي عظيم وصحبه كافة من في المخيم من جند دائرته وجند الأرنؤوط وقادتهم ، ونودى بالتفجير العام في شتى الجهات ، [١٨٦-١] وأنشد غزاة المجددين :

نحن البواسل وجود منا بالروح كل أحد قاله واحد أحد
إنما نحن مهتدون لنا صفة حيدر والله واحد أحد
حياتنا والروح منا فدء الله الواحد الأحد
نحن مع الغزاة والله واحد أحد

نحن جميعا رجال الهـرجاء
الموت أمامنا ، لا تراجع عنه عندنا
نطلب المدد من جود معبودنا في تلك الهجاء
نحن الأبطال على جياننا الشهب والله واحد أحد
دقت صـنـوج الحـرب للعـسكر
إنها لحظة سعادة لفزاة المسلمين
إطلاق المدافع والبنادق من بعيد هو العار والشنار
فاليوم سيف الهمة مقترن بيد الشجاعة
مهما يكن من بأس العدو وبطشه
لن ينجو بنفسه من أنيابنا
لستنا نبالي بما للكافر من بنادق ومدافع
ليضرم العدو ناره مثل النمرود
فنحن ثابتون كالخليل في روضة الفيض والله واحد أحد
نسل سيوفنا البتسارة على عدونا
ونركض خيولنا على الكـفار
لنبذل أرواحنا لسلطان السلاطين

وكبر السردار الأكرم بنفسه أسوة بصحابة رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) ورفع رايات الجهاد في يوم السبت (٣) من
المحرم الحرام .

وبينما اعتري طاهر باشا وسر عسكر باشا شيء من فتور
الهمة ووهن العزيمة ، إذ نجدهما السردار الأكرم وأحمى وطيس القتال

بين الطرفين ، فتنفس المجاهدون الصعداء ودبت في قلوبهم الحمية ،
[١٨٧-أ] فحملوا على العداة من كل جانب وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ،
كما نصبوا عددا من المدافع الخفيفة وصبوا قذائفها على الملاعين
وشتتوا شملهم .

ومن جهة أخرى فإنه مع دوى المدافع التى أطلقها الطرفان لم
يكن ممكنا ضبط الإنكشارية المتترسين بالمتراس فتتابعوا من بلبيس إلى
ميدان المعركة وكأنهم أسود أفلتت من إسارها .

ولما رأى الفرنسيون ذلك عين اليقين ، أدركوا أنهم إذا ما بقوا
نصف ساعة أخرى بساحة الوغى ، فسوف تلحق بهم شر هزيمة
واتكسار ويحصدون بسيوف المجاهدين ويداسون بسنابك خيلهم ، فعمدوا
إلى نقل أكثرية قتلاهم ، وتركوا من لم يتأت لهم حملته ولانوا بجبال
(الرمالة) خلف شعب (الجوشى) ، ولم يزل المجاهدون يجدون فى
مطاردتهم ، حتى ضربوا أعناق جرحاهم ومن أقعده العجز منهم ، ولم
يفتروا عن تعقبهم حتى فى ظلام الليل الدامس ، وفى نهاية المطاف رجع
جيش الموحيدين أدراجه لما اقترب الفرنسيون من القاهرة ، وكانت
ملاحظتهم لا جدوى لها . [١٨٧-ب]

وأمرسى طاهر باشا وأمراء المماليك وفرسان الديوانتكان ومن
رغب من الجند فى قريتي منير وأبى زعل ، وأرسل السردار الأكرم
سبعين من شهداء الموحيدين ونحو مائة وخمسين من جرحاهم إلى مخيم
الجيش ، وأجزل العطاء لكل من جاء برأس من رؤوس الأعداء . ولما
سأل عن عدد ما نفق من جياذ الجند ، قيل له إنها تبلغ أربعمئة
وخمسين رأسا ، فبمنحهم خمسين عينا ، ونقدم ثمن الجياذ الأربعمئة

الباقية ، وعاد باليمن والظفر بالجيش الهمايوني إلى مخيمه . كما عين عدداً من الجراحين المهرة في معية كبير جراحى الجيش الهمايوني ، وأحسن إليهم بكافة نفقاتهم ، وأنعم على نائب المخيم رامي عبد الله أفندى — الذى أبان عن شجاعة فائقة في ميدان الوعى حتى أصابه طلق نارى — براتب كامل ، فطيب بذلك خاطره المخزون .

وكان المدعو (كاوير أمام) — من بكباشية الأرناءوط وهو الذى حرّض طائفته من قبل بحجة تأخير رواتبهم ، وكان السبب المباشر في وقوع الفتنة السابقة — قد عاد جريحاً من تلك المعركة ، [١٨٨ - ١] وتقاتى مهرة الجراحين في علاجه ، غير أن طبهم لم ينجع فيه ومات بعد أن ذاق وبال أمره ورأى عاقبة كفران نعمة ولى نعمته .

تنفيذ أوامر العزل والتعيين بالجيش الهمايوني

ما نُفذ من أوامر الديوان السلطاني فيما يتعلق بحركة العزل والتعيين بالجيش الهمايوني ، لم يتعد خلع عبدى بك من وظيفة تشريفاتى ، وإسنادها إلىّ أنا الذليل (عزت حسن) دون أن أكون مستحقاً لها . وما حدث من تغيير سوى ذلك ، وثبت كافة رجال الجيش كلّ في منصبه .

وكان دقتر أوامر العزل والتعيين قد جاء وما زال الجيش الهمايوني بالعريش ، بيد أنه بسبب ما نزل بالجيش من أزمات وشدائد ، لم يظفر أحد ببقاء التثبيت ولا بقاء التعيين . وعقب هذا النصر المبين ،

نُفذت أوامر التعيين والعزل، وليس كل واحد قبائه وانتشرت صدور
الجميع بحسن الأوامر السلطانية.

ورود رسالة البشري من عند إبراهيم باشا قائد سواحل دمياط

عندما بث والى حلب إبراهيم باشا - قائد الجيش الذى أنفذ إلى
جهة دمياط - وممشأغا - أغا السلام - الرهبة بنواحي دمياط
ووطأها بالرعب ، [١٨٨٨ - ب] لم يأنس من بها من قوات الفرنسيين
فى أنفسهم المقدرة على المقاومة والمقاتلة ، فلأذوا بالفرار إلى قلعة
(ايزبه) التى شادوها من قبل على ضفة نهر النيل عند خليج دمياط ،
فدخل إبراهيم باشا المدينة بلا مقاومة ، وساق جنوده على (ايزبه)
وبادروا إلى حصرها والتضييق عليها . ولما دنوا منها ركن من بها إلى
الفرار ، فركب بعضهم الزوارق الصغيرة والبعض الآخر فر برأ . غير أنه
لما كانت الطرق المؤدية إلى القاهرة موصدة كلها فى وجوههم ، فقد
اتجهوا إلى الإسكندرية ، فوقع من فر منهم بالقوارب فى أسير السفن
الهاميونية والإنجليزية ، وكذلك وقع أكثر من فر برأ فى يد غزاة
الموحدين ، ففتكوا ببعضهم وقيدوا البعض الآخر فى وثاق ، وفئة ضئيلة
جداً منهم تلتى لها بلوغ الإسكندرية .

وبعد فرارهم على هذا النحو من قلعة (ايزبه) ، دبر والى حلب
المشار إليه فرقة من رجاله للمحافظة على القلعة وضبطه . وقام
بتحصين هذا المعبر الهام وزاد من استحكاماته ووفر له عدداً وافراً من

الجنود ، وصادر ما اغتتم من مدافع عتاد حربى لصالح الميرى وأمر بتسجيله فى دفاتر .

واتفق أن صادف قدوم الساعة برسالة البشرى وخريطة قلعة (ايزبه) يوم الفتح المبين فى بلبس ، فأطلقت المدافع والبنادق ودقت الطبول ابتهاجاً بهذين الفتحين الجليلين ، [١٨٩-١] وأرسلت خلع التشرىفات إلى والى حلب إبراهيم باشا وممشأغا (أغا السلام) .

فتح قلعة رشيد على يد قبودان دريا حسين باشا والإنجليز

عندما قدم قبودان دريا الغازى حسين باشا (أبو قير) تشاور مع القائد الإنجليزى (آنشف) ، فأدركا أن شغل الجند بحصار قلعة لها منعة قلعة الاسكندرية وحصانتها لن يغن فتيلاً ما لم يطل حصارهم لها . ولما ظهر لهما أن جند الفرنسيين المحاصرين داخل قلعة الاسكندرية لن يجسروا فيما بعد على الخروج منها ، ترك حسين باشا قدراً وافراً من الجنود لحصار الإسكندرية ومضى بنفسه لاستخلاص الثغور والقلاع الواقعة على ضفتى نهر النيل واحدة تلو الأخرى ، فسير فى طليعة جيشه القوات البرية التى أنزلت من الأسطول الهمايونى ومعهم عدة آلاف من مشاة الإنجليز ، إضافة إلى كتخذه خسرو أغا ، ومضى هو فى أثرهم . ولما كانت رشيد — الواقعة على مسافة ساعة ونصف — تعد قفلاً حديداً لنهر النيل وحصناً حصيناً ببروجها الأربعة ، فإن فتحها — على أية حال — كان يعد فى مقدمة الأهداف المرجوة ، فأرسل عبد الله

أغا (صول أغا) فرقة اللوندية وعدداً من الإنجليز إلى تلك الجهات معهم مدافعهم وأدخل في بوغاز رشيد كذلك عشرة من سفن (الشالوبه) ، وتم استيفاء كافة أسباب الحرب والحصار ، [١٨٩ - ب] وأرسلت الرسل إلى الفرنسيين تدعوهم إلى التسليم وتأمينهم على أنفسهم ، غير أنهم احتوهم الغرور وركنوا إلى المكابرة والمعاندة فأخبروا الرسل أن تسليمهم القلعة ضرب من ضروب المستحيل حتى يفنوا عن آخرهم ، فأشعل ردهم على هذا النحو الحمية في قلوب الغزاة الموحدين ، وأثار شجاعتهم ، فأطلقوا عليهم مدافعهم ووالوا الضرب أربعة أيام بلياليها من البر ومن النهر ، فسلب الفرنسيون القدرة على الثبات والمقاومة ، وانخفض علمهم إلى الرغام ، ولم يعد لهم قبل بالصمود ولو ليوم آخر ، فاستأنفوا على بعض الشروط ، وبذلك أنقذوا أنفسهم من بطش كرامة الإسلام . وقد منحوا الأمان شريطة أن يسلموا جميعاً - فيما عدا ضباطهم - ما في حوزتهم من مدافع وآلات حرب باعتبارهم أسرى حرب ، ونقلوا جميعاً إلى سفن الأسطول الإنجليزي .

وفيما بعد بات من اللازم بذل الجهد وصرف الهممة لفتح الرحمانية ، إذ إنه لم يعد هناك ما يعوق سفن الشالوبه وحلت مشكلة قبفل النهر وتحصل المراد من رب العباد . فوافى قبودان دريا حسين باشا والقوات الإنجليزية بقيادة أنشف قرية (قوغة) على مسافة ساعة من الرحمانية وذلك في يوم ٢٥ من ذي الحجة ، فالتقوا بجموع الفرنسيين واقتتل الغريقان وأبدى الفرنسيون شجاعة وبسالة عظيمتين في ميدان النزال ، [١٩٠ - ١] بيد أن جند الموحدين وشجعان عساكر المجاهدين المتعظنين إلى دماء الكفار تجلدوا في القتال وأخذوا الكفرة

أخذاً وبيلاً واستشهد نحو خمسمائة ، كما جرح خلق كثير من الإنجليز
وهلك منهم كذلك الجم الغفير ، غير أن عدد القتلى من الفرنسيين كان
يربو على نصف عددهم ومضوا إلى بنس القرار ، ووقع كثير منهم فى
الأسر وفرت فلولهم تحت جناح الظلام إلى القاهرة ، واستأن من تبقى
متحصناً بحصن الرحمانية ، فأمتوا على أن ينقلوا إلى بلادهم آمنين
سالمين بشرط أن يسلموا جميعاً - فيما عدا ضباطهم - أسلحتهم
وعتادهم ويكفوا أيديهم عن القتال .

وفُتحت الرحمانية وغنم المسلمون مدافع الفرنسيين وعتادهم ،
وعم نور الإسلام البلدة المذكورة ، وزحف جند الإسلام من هذا المنزل
كذلك ورفعوا لواء نصرهم إلى جهة قصبة (نيكى) الواقعة على مسافة
ثمان عشرة ساعة من القاهرة ، [١٩٠ - ب] وفى يوم الخميس
(غرة) محرم الحرام عقدوا العزم على التوجه صوب القاهرة ، فأرسل
الفرنسيون - دون أن يكون لديهم علم باستيلاء المسلمين على الرحمانية
... حشداً من جنودهم لنجدة الاسكندرية والرحمانية ، فصادفوا قوات
القبودان باشا فتناوشوا معهم فى الحال وجرى بين الفريقين قتال شديد ،
واتصل ذلك بعلم القبودان المشار إليه ، فقام بإرسال المدافع بالقوارب
إلى طليعة جنده وأرسل فى أثرها عدة قطع من الأسطول النهري ، ثم
خرج بنفسه إلى الشاطئ وخف إلى ميدان المعركة وعندما بلغها أحصى
وطيس القتال وأخذ يحض غزاة الموحدين ويحثهم عليه إذ قال لهم :
" اليوم يوم الاستبسال والفداء فى سبيل الله والوطن .. اليوم يوم تحقيق
المجد والشهرة فى الدنيا " . فكان ذلك منه باعثاً على انتقاد حماسه
المسلمين ، فحملوا بغة على الفرنسيين حملة صادقة بكل شجاعة

وبسالة ، فما كان منهم إلا أن نكسوا أعلامهم بعد أن خارت قواهم ولم بعد لهم طاقة على الصمود ، فهلك منهم من هلك ، علاوة على أسر مائتين منهم ، حُمِلوا إلى الأسطول الإنجليزي ، وغنم المسلمون كثيراً من عتاد العدو .

ولقد استشهد في هذه المعركة ثلاثون من المسلمين وجرح (أندرون جوقدار) قبودان باشا جرحاً طفيفاً ، ومن بعد بهض حسين باشا عن الرحمانية . وفي الوقت الذي كانت قواته في طريقها إلى القاهرة ، نزل بضعة آلاف من الفرنسيين والقبط والفلاحين بموضع على مسافة خمس ساعات من جيش المشار إليه ، [١٩١-١] ولما أخبرت بعض الجواسيس القبودان باشا بأن أولئك يتأهبون للمضي لنجدة الاسكندرية ، نزل إلى الساحل وأنزل اللزم من المدافع وآلات الحرب وعبا جنده ونظم صفوفهم .

ولما كان خسرو أغا قد علم بذلك مسبقاً ، فقد أرسل إلى الجيش الهمايونى أيام تحرك قبودان باشا من الاسكندرية بمن معه من جند الغزاة الموحدين والإنجليز ، أنه وإن يكن لديه عدد وافر من الجند المشاة ، فإن الأمر يحتم إرسال مقدار من جند الفرسان إليه ؛ لذا أرسل إليه محمد أغا رئيس حوارى السردار الأكرم - من القادة الموجودين في معية سر عسكر الحاج محمد باشا - في ألف من صفوة الفرسان .

وفي تلك الأيام تعقب خسرو أغا ومن حضر إليه من الفرسان أولئك الملاعين الذكورين وناوشوهم القتال ، حتى دنوا من جيش القبودان باشا ، وما إن انبرى غزاة الموحدين يهاجمونهم من هذه

الجهة، حتى شعر الفرنسيون بعدم جدوى المقاومة ، [١٩١ ب] فسارعوا إلى إلقاء أسلحتهم على الأرض مطالبين بالأمان ، فأمنوا .
ولدى التحرر عن أمرهم اتضح أنهم نحو خمسمائة من الفرنسيين والباقي ألف وخمسمائة من الفلاحين والقبط ، كانوا قد قدموا معهم كرهاً لنقل الغلال والأقوات إلى المحصورين ونجدهم ، فحُمل الفرنسيون إلى الأسطول الإنجليزي ، وأُفرج عن باقي الفلاحين والقبط بعد أن غنم الغزاة الموحدون جمالهم وجيادهم .

التقاء الجيش الهمايوني بجيش قبودان باشا والقوات الإنجليزية بمنزل (شلقان)

لم يكن من المستصوب زحف الجيش الهمايوني من طريق الخانكاه ؛ ومن ثم شد السردار الأكرم الرحال وخرج من صحراء بلبيس وأقام المخيم بقرية (مشتهر) على مسافة أربع ساعات وذلك في اليوم السابع من شهر المحرم ، وفي اليوم التالي سار مع شاطئ النيل حتى حط الرحال بقرية شهيرة يقال لها (بنها العسل) على مسافة أربع ساعات .

وفي يوم قدوم الجيش الهمايوني بنها ، اتفق أن اشتعلت النار — لسبب لا يعلمه أحد — وسط بيادر القمح في فناء القرية واندلعت فيها الحرائق ، وعندما نما نأ ذلك إلى السردار الأكرم رُكب لفوره مصطحباً كافة رجال الدولة وبذلوا جُهدهم في إطفاء النيران التي لم تسر في أكثر من بيدر ، فاستجلبوا بذلك دعوات الفقراء .

وفى اليوم الذى يليه انتهى قبودان باشا إلى الجيش الهمايوني وشرف بتقبيل ذيل ثوب أمير الجيوش ، [١٩٢-١] وأبان السردار الأكرم عن روح الأب وتبادل التهاتى بالنصر مع القبودان باشا . ولما كان القائد الإنجليزي (آنشف) حاضراً معهم ، فقد لزم الاحتفاء به وإكرام وفادته . فأفردا له فسطاطاً عظيماً وجداً فى إكرامه ومن معه من القادة ثلاثة أيام متوالية بالأطعمة الشهية والأشربة البهية .

وبعد أن أداروا كنوس التدبير والمشورة فيما بينهم حول حصارهم القاهرة ، قر قرارهم على أن يزحف السردار الأكرم بالجيش الهمايوني من الضفة الشرقية للنيل ، ويزحف القبودان باشا والقوات الإنجليزية كذلك من الضفة الغربية له ، فيضرب الأول الحصار على القاهرة من بولاق حتى جبل الجوشى ، ويشدد الثانى الحصار عليها من إمبابة والجيزة .

وبما أن قوات القبودان باشا لم تزل تخوض القتال ، فقد رجع أدراجه لنقلها لتقاء الجيش الهمايوني فى (شلقان) .

وتحرك السردار الأكرم بالجيش من بنها العسل وأقاموا المخيم بشلقان حيث خلدوا إلى الراحة ريثما يصل جيش القبودان باشا . [١٩٢-ب] وحضرت قوات القبودان باشا والقوات الإنجليزية وخيموا فى الضفة المقابلة للجيش الهمايوني ، وخرج الجيش الهمايوني من شلقان ، فاكتظ الموضع من قرية دمنهور — على مسافة ثلاث ساعات من القاهرة — حتى ساعة منها يخلق كثير من الوزراء العظام والميران الكرام ورجال الدولة وخدمة السلطنة وقادة جيوش المجاهدين

وشاويشية الغزاة الموحدين وطوائف الإنكشارية والأرناؤوط والديوانكان وكافة المشاة والفرسان .

وفى البر الآخر كذلك أقامت القوات البرية للقبودان باشا والقوات الإنجليزية جسراً محكماً ومتيناً على نهر النيل ، نصبوه من عدة منات من سفن الشالوبه وزوارقهم الخفيفة التى كادت تسد جريان النيل ، وذلك بهدف تسهيل نجدة كل من الجيشين للآخر .

واستراح العساكر عدة أيام يترقبون وصول المدافع الكبيرة التى لها القدرة على تدمير القلاع ودك الحصون والتى كان من المتعين جلبها من الأسطول بالزوارق عبر النيل .

وبتوارد المدفعية وسائر آلات الحرب أصبح العساكر على أهبة الاستعداد ، فتحرك الصدر الأعظم بالجيش الهمايوني من المكان المذكور ، وحضروا إلى شبرا وابتدروا إلى حصار القاهرة من كل الجهات من بولاق حتى جبل الجوشى ، وباشروا حفر المتاريس بقصد هدم واستئصال كافة ما أقامه الكفرة حول البلاد من حصون واستحكامات وخنادق عميقة وعريضة لإمداد بعضهم البعض ، [١٩٣-١] وتترس شجعان الإنكشارية بها ، وثبتوا مدافعهم على نقاط مناسبة منها واستفرغوا فى ذلك وسعهم وطاقتهم وزحف القبودان باشا هو الآخر بقواته والقوات الإنجليزية من البر المقابل وخيموا تلقاء الجيش الهمايوني .

زحف الصاكر على حى الحسينية دون إذن أو تصريح

فُطن إلى أن الاستيلاء على الجزيرة - وهى موضع حصين على ملتقى طرق الإسكندرية والصعيد ويقع غرب القاهرة وبمحاذاتها - سوف يسهل من مهمة القضاء على الكفرة واستئصال شأفتهم ، فابتدأ القبولان باشا والقوات الإنجليزية حصارها ، وبينما كانوا يجدون ويجتهدون فى التضيق عليها وحصرها بمدفيعيتهم ومهماتهم الحربية القوية ، حدث أن اتفق عددٌ من شجعان الإنكشارية المتترسين تلقاء حى الحسينية - الذى يقع فى قلب القاهرة ولصق أحيائها الأخرى ويضم ما يربو على ألف بيت - على مداومة الأعداء .

وعلى الرغم من وجود حشود عظيمة من مشاة العدو بمدافعهم وأسلحتهم بالحصنين العظيمين اللذين أقاموهما على جانبيه الحى من الخارج بهدف المحافظة عليه ، أبان ثلة من الإنكشارية عن شجاعتهم وفدائيتهم بقولهم :

" لو اقتحمنا هذا الحى واستشهد منا من وافاه أجله ، وغلب الباقون على الحى ، وبسطوا سيطرتهم عليه ، نكون بذلك قد أسدينا خدمة جليلة فى سبيل الدين والدولة ، وحققنا لفرقتنا المجد العسكرى " . [١٩٣ - ب]
وعندما قالوا هذا من كلامهم شايعهم (دلى محمد) و (جائق أحمد) وآخرون ، واحتشد كذلك نحو ألفين من الشجعان من سائر الفرق ومن طائفة الأرناؤوط والمرترقة الترك ، وانفقوا معهم على الزحف على حى الحسينية مهللين مكبرين ، وعندئذ فُتِح من فى

الحصنين الواقعين على جناحي الحى المذكور من الكفرة المعاندين نيران مدافعهم وبنادقهم عليهم ، غير أن المولى سبحانه وتعالى أعان المسلمين وحفظهم ، فلم يستشهد منهم سوى قرابة خمسة أبطال ودخل الباقون الحى آمنين سالمين ، فخرج لاستقبالهم أهالى الحسينية رجالاً ونساءً وقد ملأ الفرح قلوبهم بمقدم الغزاة الموحدين ، فرفعوا أصواتهم قائلين : " الله ينصر السلطان " ، وبالقوا فى إكرامهم والحدب بهم ، وأطعموهم وسقوهم .

ولما بلغ ما حدث ضباط الإنكشارية أدركوا أن وقوع مثل هذه التصرفات دون إذن من أمير الجيوش ، [١٩٤-١] سوف يتسبب فى تعنيفه وتوبيخه لهم فذهبوا إلى الحى المذكور خفية فى جوف الليل لإعادة العساكر المذكورة ، وبذلوا لهم النصيح والإرشاد ، فما كان منهم إلا أن ثاروا عليهم وكادوا يفتكون بهم ، فاضطروا إلى تركهم والتسلل بالأمر الواقع ، ووالوا إمدادهم بالمؤن والذخيرة سرا واستحصلوا الأسباب اللازمة لتقوية عضدهم ومؤازرتهم .

وبات الفرنسيون الموجودين فى حصنى الجناحين محصورين بين المسلمين ، وعلاوة على ذلك دنا غزاة الموحدين من أبواب القاهرة وحاولوا اختراق أسوارها ، فرأى ذلك منهم الملاعين وعلموا أن قبودان باشا قد ضرب حصاراً وبيلاً على الجزيرة ، فلم يسمعهم إلا أن أسرعوا فى إرسال مبعوثيهم سراً إلى القائد الإنجليزى (آنشف) ، يعرضون عليه تسليم القاهرة لقاء تأمينهم على أرواحهم ، ويلتمسون تعيين مفوضين عن السلطنة السنية للتفاوض فى الجلاء عن مصر ، فأخبر القائد آنشف

القبودان باشا بذلك ونقل له رغبة الفرنسيين جميعاً في تخليّة مصر ،
فأنهى القبودان باشا بدوره الخبر إلى السردار الأكرم .

اجتمع السردار الأكرم بأرباب الرأي والمشورة وبحثوا الأمر
برمته فعين كتحدا البوابين مفوضاً عنه ، [١٩٤ - ب] كما عين القبودان
باشا والإنجليز مفوضيهـم ، وتحدد مكان مناسب للتفاوض ، ثم كانت
المفاوضات .

ومع أنه كان من الواضح وضوح الصباح سقوط أمر الفرنسيين
وأقول نجمهم فإنهم قد طالبوا بثلاثة آلاف كيس (أقبـه) ، لتعويضهم
عما سوف يتركوه في مصر من مال الجمهورية ، فرفض مفوضو الدولة
العلية إجابة هذا الطلب بقولهم :

" حمداً لله تعالى ، فقد أحاط عساكر المجاهدين بالقاهرة من كل جانب ،
وبفتحهم لها بين عشية وضحاها ، سوف يصبح في أيديهم الحل والعقد
في كل أمورنا ، ومن الواضح أن ما سستركونه وتسمونه مال
الجمهورية ، وكل ما في حوزتكم ، ورقاب كافة رجالكم ونسائكم سوف
تتمه غزاة الموحدين طوعاً أو كرهاً . وعليه فإن مطلباً كهذا علاوة
على أنه يعد من قبيل المظل وإضاعة الوقت ، لن يقنكم فتيلاً " .

ولما قالوا هذا من كلامهم ، أخذ الفرنسيون بالحجة وشحب
لونهم ، وانطبق عليهم قوله تعالى { فبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } ^(١) ولانت
شكيمتهم وزايلهم تشددهم . وكتبت أسطر الاتفاق بما يتفق مع المصلحة ،
[١٩٥ - ١] وصدق الطرفان على وثائقه وتبادلوها .

١ - البقرة : (٢٥٨) .

ونصت شروط الاتفاق على أن يخلي الفرنسيون مدينة مصر ،
على أن يتم انسحاب الجند بأسلحتهم وعتادهم ومدفعيتهم وذخائرهم إلى
رشيد عن طريق البر بحذاء شاطئ النيل الغربى ، حتى إذا انتهوا إلى
رشيد حملتهم سفن الدولتين المتحالفتين إلى الموانئ الفرنسية على البحر
الأبيض .

ونصت المواد التالية على أن يكف الطرفان عن الحرب بدءاً من
تاريخ التصديق على الاتفاق ، ويتم تسليم قلعة (سولفوسكى) قبالة
أهرام الفراعنة فى الجزيرة إلى جيوش الحلفاء بمجرد التصديق على
الاتفاق ، وتنسحب قوات الطرفين حتى الحدود الأمامية من متاريسهم ،
وإذا يتجاوزون الحدود المذكورة ، ويتم التنبيه على عساكر الطرفين بعدم
التعرض لبعضهم البعض ، وإذا ما حصل نزاع ، يحل بالطرق الودية
بمعرفة مفوضى الطرفين ، وأن يتم إخلاء مصر والقلعة وحصون بولاق
من الفرنسيين بعد اثني عشر يوماً من تاريخ التصديق على الاتفاق ،
وبعد أن يعبروا إلى ناحية الجزيرة ويلبثوا بها خمسة أيام ، يركبوا السفن
تحت الحراسة حتى يبلغوا ميناء رشيد .

ولما كان تحرير تلك الشروط كافياً ، فقد ضربنا صفحاً عن
تحرير بقية الشروط والمواد ، [١٩٥ - ب] إذ إنها تعد من قبيل غير
اللازم معرفته .

وحتى انقضاء المهلة المتفق عليها للتخاذه والتي تحدت باثني
عشر يوماً، ترك السردار الأكرم راحة النوم ليل نهار ، وأكد على قادة
جيوشه وضباطه ونبه عليهم بعدم اتخاذ أى إجراء يتنافى مع شروط
الاتفاق ويكون سبباً فى إحداث أى نوع من أنواع النزاع والشجار ،

ووصاهم بعدم تجاوز الحدود المعينة أمام المقاريس حتى ولو لخطوة واحدة . وكان كل يوم على السحر يمتطى صهوة جواده ويصطحب معه سر عسكر محمد باشا والى مصر وإبراهيم باشا وثلة من جنود بابه ، فينزلون بقرية قريبة من الحدود الفاصلة ، ويتنقذ المشار إليهم كل إلى جهة لضمان عدم حدوث أى تصرف موحش من الجنود ، كما عين دوريتين من أغوات الأندرون تصحبهم قوات الشرطة لضبط وربط الجنود كل ليلة من أولها حتى مطلع فجرها .

وبما أنه قد أرسل فى استدعاء قائد أو اثنين من كبار قادة الفرنسيين للمثول بين يدي الحضرة الآصفية ، فإنه لكى لا ينالهم أى سوء على أيدي الجنود ، تم تعيين المدعو (لك أوغلو إسماعيل أغا) - [١٩٦-١] من أغوات أندرون السردار الأكرم - مضيفاً لهم ، فلما قدموا فى معية المذكور إلى مخيم الجيش الهمايونى ، شربوا القهوة فى الفسطة العالى لأمر الجيوش ، وخلع على كل منهم قرأ سمورى ولدى عودتهم التمسوا من السردار الأكرم أن يسمح لهم بإطلاق مدافعهم - على ما جرت عاداتهم - اليوم التالى وذلك لنقل جثة كليبر ، وألا يحمل ذلك معنى آخر بين الجنود . فأجابهم الصدر الأعظم إلى ذلك المطلب ، وأعادهم أدرأجهم إلى القاهرة برفقة الأغا المذكور .

وفى اليوم التالى أرسلوا علماء مصر وأشرفها إلى الجيش الهمايونى لتقبيل بساط أمير الجيوش ، وأثناء إطلاقهم المدافع بحجة إخراج رمة اللعين كليبر ، اتفق أن شرف السردار الأكرم جيش القبودان باشا ، فأطلقت مدافع القبودان باشا ومدافع الإنجليز كافة تحية لقوميه ، [١٩٦-ب] وطعم السردار الأكرم فى فسطة القبودان باشا وعند

عودته خلع على كل مشايخ مصر ومن قدم في عقبهم من مطمي القبط والأروام كل على حسب منزلته ودرجته ، وأعادهم كذلك إلى داخل القاهرة .

وفي اليوم التالي الموافق (٢٩) من شهر صفر الخير انتهت مهلة رحيل الفرنسيين وانسحابهم من القاهرة مصر وهي حصن الأولياء ومجمع الأتقياء ، وفي منتصف ليلة ذلك اليوم خرجوا أجمعين منها ولم يتخلف بها أحد منهم ، ومضوا إلى الموضع المعين لمخيمهم في جهة الجزيرة وأخبروا الإنجليز ليلاً بذلك ، فنقلوا الخبر إلى قبودان باشا ، فأبلغه بدوره إلى السردار الأكرم ، فاصطحب عدداً من جند دائرته وأغا الإنكشارية ، ودخلوا القاهرة من باب النصر ، ولما كان القبودان باشا والقائد الإنجليزي آنشف قد جاءوا من الباب المفتوح على جهة الجزيرة ، فقد تلاقى الجميع بقلعة مصر ونزلوا بمنزل واحد .

وعهد إلى أغا الإنكشارية بمهمة حراسة القلعة المذكورة ، وأنشئ نحو سبعين مخفراً للمحافظة على المدينة والأمن بها ، وأرسل كتبة أعلام الجبجية لتسجيل ما خلفه الفرنسيون في قلاع القاهرة وحصونها من مدافع وعتاد وذخائر، وازدانت كافة الحصون والقلع والأسوار بالأعلام والرايات العثمانية ، وانقشع ما نزل بالمسلمين من أهل مصر منذ سنوات ثلاث من صنوف البلاء ، [١٩٧-١] وكُشف عنهم ما لاقوه على أيدي أناس يخالفونهم في الملة من ضروب التحقير والإذلال، وتحقق لهم ما كانوا يتشوقون إليه ليل نهار ، وقام الناس رجالاً ونساءً في جلبه وصجيج ورفعوا أصواتهم بقولهم : " الله ينصر السلطان "،

وتجمع الشيوخ والصبيان وجأروا بالدعاء قائلين: "الله يقهر العدو اللئيم".

وبعد أن أوصى الصدر الأعظم بالأخذ بالأسباب اللازمة لضبط البلاد وربطها ، صلى الجمعة بالجامع الأزهر ، وزار المشهد الحسيني المبارك ، وأنعم على العلماء والصلحاء وكافة المشايخ والفقراء وغطف بإحسانه إليهم ، حتى إذا حل وقت العصر عاد أدراجه إلى فسطاطه .

ولما بات من اللازم إرسال بشير إلى السلطنة السنية بمفاتيح قلاع مصر وبشرى رحيل الفرنسيين وكشجهم ، طلب قيودان دريا حسين باشا إلى السردار الأكرم أن ترسل المفاتيح مع مهر داره ، [١٩٧ب] فأجابه صاحب الصدر فسيح الصدر إلى طلبه هذا رعاية لخطره وتقديرًا لسمو قدره ، وأرسل مفاتيح القلاع وبشريات الفتح مع مهر دار قيودان باشا خير الدين أغا إلى جهة حضرة السلطان ، ليملاً قلبه وقلوب كافة المسلمين فرحاً بتلك الأخبار السارة .

ولما فطن إلى أن فرار من خالط الفرنسيين من القبط والأروام عند غزوهم للديار المصرية واحتلالهم لها ، تاركين ديارهم قاصدين بلاد الأعداء ، سوف يتمخض عنه الضرر ، تم استدعاء المعلم جرجس الجوهري كبير القبط ، وسائر رعوس طوائفهم ، ومنحوا جميعاً الأمان هم وكافة الرعايا الذميين الذين لعبت بهم الوسواس والهواجس ، وأسكنوا في ديارهم كما كانوا في السابق .

وبعد أن أقام الفرنسيون بالجيزة عدة أيام لقضاء أشغالهم وتسوية أمورهم ، تحركت جحافلهم في (٤) من شهر ربيع الأول . ولما كان واضحاً للجميع أنه ليس من المستبعد — بحكم ما جلبوا عليه — أن

يعمدوا إلى الخيانة والغدر إذا ما سنحت لهم الفرصة لذلك ، إذ إنهم كانوا يبلغون عشرة آلاف بأقوى مدفعيتهم وأسلحتهم ، فقد مشى في خفارتهم ، علاوة على قبودان باشا ومن معه من جند المسلمين ، صنديد يقال له (الحاج بهرام) بك و عدة آلاف من مشاة الأرناؤوط وفرسانهم .

[١٩٨-١]

وسار كافة فرسان المسلمين في الميمنة ، وفرسان الإنجليز في الميسرة ، ومن وراء سار القبودان باشا والقائد الإنجليزي وكافة الجند المشاة ، وكانوا يتحرون أحوال جيش الفرنسيين من حين لآخر حتى انتهوا إلى رشيد نهراً والله الحمد دون أن ينالهم أى مكروه ، فحملتهم السفن المهيأة لذلك الغرض إلى ميناء طولون بالبحر الأبيض في خفارة أساطيل الحلفاء .

دخول الجيش الهمايوني القاهرة

بعد أن حملت جيوش قبودان باشا والإنجليز الفرنسيين ورحلتهم، صدر فرمان عال بدخول والى مصر وسمر عسكريها الحاج محمد باشا القاهرة والإقامة بقصر الغورى الخاص بالولاة بداخل القلعة ، وبذل السعى والهمة لإعداد التكنات اللازمة للجيش الهمايوني ، [١٩٨- ب] فدخل المشار إليه القاهرة في موكب حافل ونزل بداخل القلعة . غير أن قصر الغورى هذا كان قد لحق به الدمار والخراب أثناء غزو الفرنسيين واحتلالهم البلاد ؛ ولهذا عين كتحده محافظا على القلعة فى عدد والفر من الجند ، وسكن هو بالقرب من المشهد الحنفى وأرسل

(القوناقجى) حافظ باشا — من المير ميران — إلى المشايخ والأشراف يطلب إليهم التعريف عن البيوت الخالية وكافة المواضع .

[١٩٩-١] وبعد يومين أى فى يوم الجمعة ٥ من ربيع الأول

المبارك ، اصطف موكب حافل تصدره أمراء الممالك بكافة خدمهم وحشمهم ومن خلفهم نائب مصر وعلمائها ومشايخها وسائر وجهائها وأشرافها ، ثم بيكباشى عبد الجبار زاده ومن بعده محافظ كماخ وكرجانيس ، ثم سيد قلندر بك متسلم مرعش ، ثم كافة فرسان الديوانكان ، ثم فرسان الأرناعوط ، ثم جند أمير الطليعة طاهر باشا ومن خلفهم جند رشوان زاده عبد الرحمن باشا وأحمد باشا متصرف (ايچ ايلى) ، ومن خلفهم واليا مصر وطلب كل بصحبة كتخداه ، ثم خدمة الباب وأرباب المناصب وضباط الفرق العسكرية . كل ذلك بموجب دفتر التشریفات .

وعلاوة على كل هؤلاء ، فقد اصطف مشاة الأرناعوط والمرتزة الترك بدءاً من مخيم الجيش الهمايونى وحتى باب النصر على جانبى الطريق كسدين من الحديد ، وتراصت كذلك صفوف الإتكشارية على يمين الصدر الأعظم ويساره من باب النصر حتى القصر الذى سوف يشرف بنزوله به ، وزينت الجياد والجنائب ، وشق الحاج إبراهيم باشا المدينة ومعه محمد باشا — من الوزراء — وطاهر باشا وعبد الحمين باشا وأحمد باشا — من المير ميران — ورجال الدولة وكافة أهل المناصب ورؤساء البوابين وأغوات الجنائب مثنى مثنى فى موكب ذى أهبة وعظمة . ولم يبق مكان بقدر كف اليد خالياً على جانبى الطريق فى

الصحارى الخالية والمقابر والمزاريات من بولاق إلى قصر السردار الأكرم.

ولما دنا الموكب العظيم من باب النصر ، توالى إطلاق المدافع من القلاع والحصون تحية وترحيبا حتى أنه قد تهدمت عدة مواضع من تلال الأهرام من صدمات البارود ، [١٩٩-ب] وكل من شاهد هذه الأمور وقف مشدوها واحتواه الذهول. ولما انتهى الصدر الأعظم إلى باب النصر ، حياه أغا الإنكشارية ، وتقدمه صف من شجعان البيكباشية والجوخذارية ، وعند مرور الصدر العالى من باب النصر إلى القاهرة ، رفع المتفرجون من أهلها أصواتهم بخير الدعاء بنصرة السلطان وقهر أعداء الله اللئام ، كما تعالت أصوات النساء بالزغاريد مهنئين بالقدوم ، فعمت المسرات قلوب الموحدين واقتشعت أبدانهم وانجست ينابيع الدموع من أعينهم فرحا وطربا . وسار الموكب فى بطء وتؤدة ولم يزل فى السير من الضحى حتى وقت العصر ، [٢٠٠-١] والسردار الأكرم يحفن الدنانير والدرهم عن يمينه وعن يساره إلى أن وصل إلى قصره على البركة والذي كان ملكا لأحد البيكوات يسمى (رشوان بك) ، ونزل كل واحد فى الموكب فى الدار التى خصصت له بموجب الدفتر ، وحطت السهام وارتخت الأقواس ، وحصل المراد من رب العباد ، { فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين }^(١) ، وحمد الله الجميع أن أذهب عنهم الكرب ، ورفعوا أكفهم بالدعاء للصدر الأعظم منصور اللواء .

١- الأنعام : (٤٥) .

وحمداً لله الجميع أن أذهب عنهم الكرب ، ورفعوا أكفهم بالدعاء
للصدر الأعظم منصور اللواء .

وقد وقع الاختيار على القصر العظيم لكتخدا الشاويشية الواقع
قبالة القصر الذي نزل به السردار الأكرم ليسكنه رجال بابيه وبعض كتبة
الأقلام ، وعين لكل شخص مسكن بحسب الدائرة التابع لها . [٢٠٠ - ب]
ومع أن الحديث عن جسامه القصر المذكور وضخامته يعد من
الأمور الغريبة ، فقد توفرننا على الاستفاضة في وصفه فيما يلي :

كان هذا القصر للمدعو على أغا كتخدا الشاويشية الراحل ، وقد
اقتسموا حرمه ، فنزل كافة معاوني خازن الصدر العالي وأغسا المفتاح
ومعهم كافة جنائب السردار الأكرم وجياده بجهة ، وبالجهة الأخرى من
ذلك الحرم كان هناك باب يقضى إلى سلامك (بهو استقبال) يضم أكثر
من دائرة ، فنزل كتخدا الصدر الأعظم بأتباعه وخدمه وحشمه بإحدى
جهات ، وفي جهة أخرى نزل رئيس الكتاب أفندي وكبيه داره وأتباعه
والمكتوبى أفندي والنشريفاتى وكاتب الكتخدا وموظفى قلم الديوان
والدفتر خاتنه وترجمان الديوان ومير آخور الصدر العالي والبيككجى
أفندي والآمدجى أفندي . كل واحد من هؤلاء نزل بحجرة مستقلة بهـ ،
وبعد كل ذلك تبقت خمس عشرة حجرة شاغرة .

[٢٠١ - ١] وإذا ما لاحظنا أن لكل دائرة من دوائر
(الأندرون) والحرم ، حديقة كبيرة خاصة بها ، اتضح لنا وضوح
الصحيح إلى أى مدى بلغ إسراف أولئك الأمراء الذى كان كتخدا
شاويشيتهم يمتلك قصراً ضخماً كهذا.

نصب ناظر للضربخانه

مع أن الفرنسيين لم يمسوا سكة ضربخانه مصر ، وضربوها باسم الخليفة ، فقد ظهر غش تام في عيارها ؛ ولهذا سعى الصدر الأعظم سعياً مشكوراً في تصحيح نظام السكة ، فأمر بالاهتمام بجودة طغرائها الغراء وصفاء عيارها من الذهب والفضة ، وعين كاتب دفترداره مصطفى شجاع أفندي ناظراً على الضربخانه ، وأوصاه بتحري النزاهة والاستقامة .

كما عين أمناء أكفاء على الجزية والجمارك وذلك بمعرفة دفتر دار شق أول خليل رجائي أفندي ، وبمعرفة معلمى القبط ممن كان لهم خبرة كبيرة ودراية بأمور الأراضى والمزروعات وضبط شئون الإقطاعيات ، بذل السعى والهمة لتنظيم أعمال روزنامجة مصر .
وبذل السردار الأكرم ودفترداره على حد سواء قصارى جهدهما في تحصيل الأموال والتحرى عن أحوال الملتزمين والعمال .

تعيين حافظ باشا محافظاً على الرحمانية ، ومحمد جاوش
أغا محافظاً على البرلس

لما صار من اللازم تعيين محافظ على حصن الرحمانية ، وآخر على بوغاز البرلس بعد استخلاصهما من أيادي الكفرة ، تم تعيين حافظ باشا — من المير ميران ومتصرف آقشهر وقوناغجي الجيش السهاميوني — محافظاً على الرحمانية ، [٢٠١-ب] ومحمد جاوش — كتخدا علوى

باشا ، من رؤساء بوابى الباب العالى - محافظا على البرلس ، وخلق
عليهما فى فسطاط أمير الجيوش وأخذوا اللازم من الوصايا . وسارا إلى
منصبيهما بعدة وعتاد قويين .

منح رتبة الوزارة إلى كتحدا القبودان باشا

اتصل بحضرة السلطان ما أبداه خسرو أغا كتحدا القبودان باشا
فيما دار من معارك فى رشيد والرحمانية والمواقع الأخرى من شجاعة
وبسالة ، فأنعم عليه بلواء (قوجه ابلو) ، ومنحه رتبة الوزارة السامية
وخلق على كتحده فى العتبة العلية السلطانية . ونما نبأ ذلك أيضا إلى
الجيش الهمايونى .

فتح قلعة الإسكندرية

ذكرنا فيما سبق خروج الجيش الفرنسى من الجزيرة متوجها إلى
رشيد فى خفارة قوات القبودان باشا والقوات الإنجليزية ، وقد طهروا
المراحل حتى بلغوا رشيد ، وعندما انتهوا إلى ميناء (أبو قير) منها ،
[٢٠٢ - ١] تم إرسالهم جميعا - بمقتضى بنود الاتفاق - إلى ميناء
طولون فى سفن ضخمة أعدتها الدولتان الحليفتان من قبل لذلك الغرض ،
ثم توجه القبودان باشا والقوات الإنجليزية إلى الإسكندرية وشمروا عن
سواعدهم لحصار العدو .

وقبل المعركة عرضوا عليهم التخليه لقاء الأمان ، غير أن الكفرة المعاندين ، أبوا إلا القتال اغترارا بمتانة القلعة وحصانتها وأملا فى وصول نجدات وفيرة وسريعة إليهم من جهة فرنسا ؛ مما أشعل الحمية فى قلوب غزاة الموحدين .

وانقسمت قوات المسلمين والإنجليز إلى فرقتين ، وابتدرتا الحصار ، وأبلى الأسطولان فى القتال من جهة البحر . [٢٠٢ - ب] إضافة إلى أنه تم إدخال عدد من سفن الشالوية داخل بحيرة (مريوط) — التى فتحت لنورها — وأعمل ما تم تعبئته فيها من المدافع والقذائف ، وحمل المسلمون على السفن الفرنسية الموجودة فى البحر والبر وسائر المواضع الأخرى ، فأغرقوا أكثرها ، وغنموا الباقي . وبعد معارك عظيمة استولوا على الطوابى الواقعة على ضفتى البحيرة المذكورة والطابية العظيمة المعروفة بـ (طابية العجمى) ، وأعملوا التفتيل فيمن داخلها من شياطين المشركين .

ودام القتال عشرة أيام وعشر ليال وقهر المشركون وذلوا ، وجزموا بأنه لو استمرت الحرب ليوم آخر فسوف تسقط قلعة الاسكندرية حربا وهنا لا ينجو منهم أحد لا محالة فى ذلك ، مما حدا بقائدهم مينو إلى أن يرسل فى ١٢ ربيع الآخر اثنين من ياورانه يطلب هدنة لمدة ثلاثة أيام يستعد فى أثناءها للتفاوض فى تسليم الاسكندرية والجلء عنها ، فأجيب إلى هذا الطلب وأعلنت الهدنة لمدة ثلاثة أيام ، وتم تعيين مفوضين من كلا الطرفين وبحثت الشروط التى أرسلها الفرنسيون ، فرفض بعضها وأدخل تعديل على البعض الآخر ، [٢٠٣ - ١] وأخبروا أن استئمانهم ثانية لن يعتد به إذا ما زادوا أية

فقرات أخرى فيما بعد ، وصادق الطرفان على اتفاق تخلية الاسكندرية
فى فترة لا تتعدى عشرة أيام .

وطلب الفرنسيون أن يعالج جرحاهم فى مكان مناسب ريثما
يشفون من مرضهم ويستردون عافيتهم ويلحقون بهم ، فأجيبوا إلى ذلك
الطلب ، وتم إيواء ما يربوا على ألف من مرضاهم وجرحاهم فى موضع
مناسب يعالجون فيه .

وقد نصت شروط الاتفاق على تسليم حصنى (ترك) و
(بوير) بكامل ذخائرها ومدافعهما إلى الدولتين الحليفتين بعد ثمان
وأربعين ساعة من تاريخ التوقيع على اتفاق الجلاء ، وتسليم مدينة
الاسكندرية وسائر قلاعها وحصونها وكافة مواضعها ومشتملاتها فى
ظرف عشرة أيام من التوقيع على الاتفاق . وعلاوة على هاتين المادتين
كان هناك ست عشرة مادة أخرى من شروط الاتفاق ، غير أنها لما كانت
من قبيل ما لن يتأتى لنا فهمه ، فقد سكتنا عنها ولم نوردنا .

ولما انقضت المهلة المتفق عليها ركب الفرنسيون السفن التى
أعدت لترحيلهم وأبحرت بهم إلى فرنسا . [٢٠٣ - ب]

ذكر ضم لفظ (غازى) إلى ألقاب السلطان

بناء على وقوع مصر فى قبضة دولة ذات بأس مثل فرنسا ، ووضوح أمر تغلب هذه الدولة على جميع دول العالم ، فإن تحرير القطر المذكور وفتحه عندما نقرانه بفتحه أول مرة على يد عمرو بن العاص ، وفتحه مراراً وتكراراً من قبل دول شتى ، وفتحه على يد السلطان الغازى سليم خان الأول (ساكن الجنان) ، يتضح لنا جليا رجحان كفة ذلك الفتح الجليل على كافة أسلافه من الفتوحات .

وإذا ما نظرنا نظرة انصاف على وجه الخصوص على السيفيين فقدان الفرنسيين لجزيرة (قورفو) وتوايها والتي كانت تسمى الجسر السبع ، اتضحت لنا مظاهر النفوق المتعددة لتلك الغزوة الفسراء عن أسلافها من الغزوات .

وعليه وبناء على رأى الصائب للسلطنة السنية بوجوب إضافة لقب (غازى) إلى الألقاب المباركة لحضرة السلطان فى الخطب والأدعية المقروءة على منابر الجوامع والمساجد فى الممالك الإسلامية المحروسة وإشاعة ذلك للجميع ؛ [١ - ٢٠٤] صدرت فتوى من شيخ الإسلام بذلك ، وعليه وبناء على الأمر الصادر فى يوم الجمعة ١٦ من جمادى الأول بشأن توشيح الاسم الملكى السامى بلفظ (غازى) على منابر الجوامع والمساجد الواقعة فى الآستانة العلية وغلطه واسكدار وحضرة خالد وسائر الأحياء الأخرى ، فقد صدرت الأوامر الجليل إلى كل الجهات فى سائر الممالك الإسلامية بأنه لدى ذكر الخطباء الكرام للاسم الملكى السامى والدعاء له يذكرونه على أنه (السلطان ابن السلطان غازى سليم

خان بن مصطفى خان ابن المرحوم غازى أحمد خان (خلد الله خلافته
إلى انقضاء الزمان وانقراض الدوران .

كما أدرك حضرة السلطان أن السردار الأكرم والقبودان باشا
كان ضلعين عظيمين فى هذه الفتوحات بما كان لهما من سعى مشكور
وجهد موفور فيها ، فخلع على حضرة الصدر الأعظم منصور اللواء فى
الخط الهمايوني الشريف الذى بعثه إليه لقب غازى كذلك ، إذ خاطبه
بقوله :

" ياوزيرى الغازى يوسف ضيا باشا " . [٢٠٤ - ب]

كما خلع على القبودان باشا نفس اللقب فى عنوان الخط
الهمايوني الشريف الذى أرسله إليه إذ خاطبه قائلا : " ياوزيرى الغازى
حسين باشا القبودان " . والحق أن هذين الوزيرين استقاما على طريق
الإخلاص له ، فكان لا بد من مكافأتهما .

ورود عثمان أفندى كتخدا الصدر الأعظم
وشريف أفندى دفتر دار مصر إلى القاهرة

ذكرنا فيما مضى أنه بسبب ما أسداه عثمان أفندى كتخدا الصدر
الأعظم من خدمات فى الجيش الهمايوني ، وطول مدة السفر وما خاضه
من معارك طاحنة مع الفرنسيين لدى دخول القاهرة ، أصابته شدة ألزمته
الفراش ، وبيئاً كذلك ذهابه مستأزناً إلى الآستانة وتعيين سعد الله أفندى
خلفاً له .

وبسبب شدة تعلق الأفندى المشار إليه بالصدر الأعظم ، وعظم ارتباطه بالقبودان باشا ، فقد كان همزة الوصل بينهما فيما وقع من اتصالات وتعاملات ، وظهر تفرده وإخلاصه على الدوام ، كما كان وثيق الصلة بالمصريين ، له علاقات وثيقة بهم . ولما كان حضرة السلطان يعلم ذلك فقد أصدر فرماناً بتوجه الأفندى المشار إليه إلى مصر .

[١-٢٠٥]

وفى (٢٢) من ربيع الأول خُلع عليه فى حضور القانمقام ،
وطلب للمثول بين يدى الحضرة العلية السلطانية ، ولقن بالوصايا اللازمة
ووضع على الطريق إلى جهة مصر .

وقد صرح العزم من العقلاء وأولى المنطق الحصيف واتفقت آرائهم على سن نظام جديد لمصر ، وحثمية تعيين دفتر دار كفاء وإرساله إليها ، وعليه في ٤ من الشهر المذكور خلعوا على شريف محمد أفندي — أمين الترسانة السابق — قباء دفتردارية مصر ، وأوصوه بالعمل وفقاً لورقة التعليمات التي منحوه إياها . وقد شغل المشار إليه من قبل مهام خطيرة مثل كتحدا الدولة ودفتر دار أول ، وكان رجلاً معروفاً بالصدق والاستقامة والنزاهة والكفاءة ورجاحة العقل ، يشهد له الجميع بذلك .

وركب الأفنديان المشار إليهما البحر متجهين إلى مصر ، وحدث أن ساعدت الرياح سفينتهما ، فرست على ساحل الاسكندرية بعد أربعة أيام من مغادرتها الآستانة . ولما كان القبودان باشا حاضرا بالشرع آنذاك ، فقد خف لاستقبالهما وأصاخ السمع لما حملا كل منهما على حدة من وصايا حضرة السلطان ، [٢٠٥ - ب] وفي اليوم التالي توجه المشار

إليهما إلى القاهرة عن طريق النيل ، فبلغا بولاق في أواخر ربيع الآخر . ولما علم السردار الأكرم بذلك فرح فرحا شديدا بمقدم رجلين كهذين خبرهما وجريهما من قبل . وعلى الفور أمر بتهيئة المسكن لهما ، وأرسل التشريفاتى بجواد مرصع السرج ، وكافة رؤساء الجند إلى بولاق لاستقبال المشار إليهما . ولدى وصولهما قابلهما السردار الأكرم بتسهل واستبشار وإكرام متواهما ، وخلع على عثمان أفندى خلعاً كتخدأوية مصر ، وخلع على شريف أفندى خلعاً دفترداريتها .

واضطلع عثمان أفندى بخدمة الكتخدأوية على أكمل وجه ، وبذل قصارى جهده فى أداء مهام منصبه كافة كبيرها وصغيرها ، وراعى خاطر الكبير وبسط عطفه ورعايته على الصغير ، فاستجلب بذلك دعوات الفقراء للسلطنة السنية .

وباشر خليل رجائى أفندى دفتردار أول الجيش الهمايونى مهمة تصحيح وتمييز الأوقاف والمقاطعات الموجودة بالديار المصرية ، وتحصيل إيراداتها ، وإسناد محلولاتها لمن يرغب بشروط مناسبة .

وقد أفردت فى مقره الخاص حجرات مستقلة للأقلام ، كالشأن فى إدارة الدفتردار فى الآستانة العلية ، كما أفرد كذلك أماكن لروضانه مصر وموظفى القبط ، وبذل الأفندى المشار إليه السعى الأوفى فى عمل دفتاتر مستقلة ، وذلك بالاستعانة بمهرة الكتاب الذين يرعوا فى المحاسبة .

[٢٠٦ - ١]

ومع أنه كان يسبغ اهتمامه على تمييز الأراضى وتحصيل إيراداتها ، ويتحرى الدقة فى صيانة الأموال الأميرية ، صدر أمر سلطانى بإحالة الإيرادات والمصروفات المصرية إلى عهدة شريف أفندى . ولهذا

كان يسلم إلى شريف أفندى صورة من الدفاتر الجديدة للأقلام والروزنامجة ورئاسة المحاسبة ، وفيما بعد صدر فرمان عال بإعفاء رجائي أفندى من مهمة الإيرادات التي كانت قد أسندت إليه ، وإحالتها إلى خلفه (شريف أفندى) . ولقد شغل رجائي أفندى بمناجزة الجند الأراذل ومناونتهم ، وانتقلت المعاملات المصرية إلى مقر دفتر دار مصر المشار إليه .

حضور شقيق شريف مكة إلى مصر

اشتهر استرداد مصر من أيدي الكفرة وطار صيت عدل السردار الأكرم في القطر المذكور وتلطفه بالعلماء والصلحاء والفقراء وحديه بهم غاية الحذب إلى شتى الجهات والأتحاء ، فحضر شقيق شريف مكة ، ومفتيها ، ونقيبها ، وكذلك مفتي المدينة المنورة شرفها الله إلى يوم القيامة ونقيبها وكتخدا شيخ الحرم إلى ميناء السويس ومنه قدموا القاهرة لرف التهانى لغزاة المجاهدين والدعاء برفعة السلطنة وعزها . [٢٠٦ - ب] وقد بلغت السعادة منتهاها بكل منهم بتقبيل ذيل ثوب أمير الديوش الذى أسبغ عليهم من كرمه وجوده وأجل قدرهم بما يليق بحرمة البقاع المقدسة التى يقيمون بها .

وبعد أن أقاموا عدة أيام بالقاهرة خلع عليهم وعطف بالإحسان إليهم فدعوا بدوام عمر الدولة وقوة شوكتها ، وأرسلوا إلى جهة الحرمين الشريفين شرفهما الله تعالى إلى يوم الساعة عبر السويس

ومعهم مكاتبات مفعمة بالود والمحبة إلى حضرة شريف مكة وحضرة
شيخ الحرم .

ورود التشريفات الهمايونية من جهة الخلافة الأعظم

عندما تواردت أنباء تلك الفتوحات الجليلة إلى عتبة السلطنة
السنية ، أرسل حضرة السلطان إلى السردار الأكرم ثوبا ثميناً من فرو
السمور وطررة مزدانة بالماس ، وسيفاً مرصعاً ، إضافة إلى ثمانية عشر
ثوباً سمورياً أخرى وثمانى طرر ذهبية مرصعة وخمس عشرة طررة
ذهبية لتوزيعها على من معه فى الجيش الهمايوني من الوزراء العظام
والميرميران الكرام وأغوات الفرق ورجال الدولة العلية . [٢٠٧-١]
وقد أرسل حضرة السلطان هذه التشريفات مع (ميرآخورأول) شمس
الدين بك ، مصحوبة بخط شريف مبارك يتضمن المديح والإطراء .

وقد أرسل كذلك إلى الوزير قبودان دريا حسين باشا ثوباً ثميناً
من فرو السمور وطررة ذهبية مرصعة بالجواهر وسيف ، وإلى خسرو
باشا ثوباً مخططاً بتمامه من فرو السمور وطررة مزدانة بالجواهر ، وكذلك
عشرة ثياب سمورية وعشر طرر بكل منها ماسة وخمسين طررة فضية
ذات نقوش وزخارف لتوزيعها على قادة جيش القبودان باشا وضباط
بحارته .

وأرسل كذلك ثوباً فضفاضاً من فرو وطررة مرصعة بالماس
وثرية مزدانة بالجواهر على شكل الشمس ، بداخلها نقوش ورسم هلال ،

وأسورة لليد مصنوعة من الذهب وتحمل طغراء السلطان وذلك إلى كل من أمير البحر الإنجليزي (كيث) وأمير لواء بحارته (ديجار بقرطون) ، وقائد القوات الإنجليزية البرية (آنشف) . إضافة إلى ثوب سمورى وثرية مزدانة بالماس وأسورة من الذهب تحمل طغراء السلطان لإهدائها للقائد (قوط) الذى أبان عن شجاعة وبطولة فى القتال . وثوبا فضفاض الكم وقطعة ذهبية مزدانة بنقوش لكل واحد من خمسة قادة إنجليز ، وثوبا سموريا وصندوقا مرصعا بالجواهر والماس لمن يدعى الكولونيل (لندا نفال) ، [٢٠٧-ب] ومثل ذلك للكولونيل (مدره) ، وفروا سموريا ووساما ذهيبا لكل من ثلاثة من قبانة الشالوبة فى الأسطول الإنجليزي ، ونجمتان من ماس ووساما على شكل هلال لإهدائها لمن يلى أولئك السالف ذكرهم فى الرتبة . وكذلك ألف وأربعمائة لوحنة نقشت عليها طغراء السلطان وذلك لكل من قبانة الأسطول الإنجليزي وملازميه و (دمايور) كولونيل القوات البرية الإنجليزية وسائر ياوراته . علاوة على ثوب سمورى ووسام مرصع بالماس لكل من يلى السابقين فى الرتبة وعددهم ستة جنرالات ، وفرو سمورى وأربعة عشر وساما ذهيبا لثلاثين من قبانة القليونات . وفرو سمورى ووسام لكل من خمسة عشر ياورانا .

وقد أرسلت تلك التشرifications مع ميرآخور ثانى أسعد بك وقد أخطر الصدر الأعظم بإرسال التشرifications إلى الجيش الهمايونى لتوزيعها فى مواضعها ، فبعث التشرifications أفندى وخزينة داره وعددا من أغوات الأندرون والبيرون الجنائب ومعهم جواد مرصع السرج ، لاستقبال الميرآخور ثان البك المشار إليه لدى بلوغه بولاق بالتشرifications

الهاميونية. وتراصت صفوف جميع الجند من المشاة والفرسان ، وجاءوا به فى موكب حافل مشهود وتسلم السردار الأكرم الخط الشريف فلثمه ورفعته إلى جبينه معظما ، ثم أمر بفتحه وقراءته على رعوس الأشهاد . وكان يتضمن المديح والثناء على السردار الأكرم وسائر الوزراء والميراميران وضباط الفرق ورجال الدولة وكل من تفاقى فى خدمة السلطنة السنية أدامها الله تعالى .

وزين السردار الأكرم رأسه بالطرة المزدانة بالجواهر ولبس قباء السمور الثمين وعلق السيف المرصع فى خصره ، [٢٠٨ - ب] ثم قلم بنفسه بتزيين رعوس كل الوزراء ورجال الدولة بالطرر وخلع على كل منهم رافعا من قدرهم معلبا من منزلتهم .

ذكر أحوال الأمراء من البداية إلى النهاية

عندما تم للسلطان سليم خان (رحمه الله) الاستيلاء على مصر من الجراكسة ، وبناء على ما فطن إليه من أمور لم يسلم أزمة حكومتها إلى واليها وحسب ، كاشان فى سائر الممالك ، بل وضع نظام أمراء الأكلوية والأوجاقات السبعة ليسيظروا على الحكومة بواسطتهم وأمر بأن ترسل غلال الحرمين الشريفين والكسوة الشريفة والصرة ونفقات أمير الحج ومرتبات والى مصر والأمراء والأوجاقات السبعة وصدقات العلماء والفقراء ورواتب قبائل البدو المعينين لخفارة أطراف الأفضية وحمايتها من هجمات اللصوص ، من إيرادات مصر ، على أن يرسل القدر المتبقى

إلى الباب العالى على هيئة (إرسالية سنوية) ، كما نظم السلطان سليم أمور الأوجاقات بقدر الكفاية ثم عاد إلى دار السلطنة العلية .

وقد خلف السلطان سليم الأول سلاطين ترسموا خطاه ، ومع وقوع حوادث من حين إلى حين تخل بالنظام والأمن ، فإنه بإعمال اللازم من التدابير الصائبة ، وردع المخلين بالنظام ، كانت الأمور سرعان ما تعود إلى سابق حالها ، [٢٠٩ - ١] ويستتب الأمن والنظام فى نصابهما . وترسل (الإرسالية المصرية) إلى الخزانة العامة فى كل عام .

وفى النهاية دار الزمان وتبدل الحال وظهر فى الأوجاقات قادة أسافل أراذل ، منهم من تعين كتحدا أوجاق ، ومنهم من صار (باش اختيار أوجاق) ، وتنافسوا فيما بينهم ، وكان كل واحد منهم يستكثر من غلمانه وخدامه للتغلب على نظرائه ومنافسيه . وعلى مر الأيام صار لكل واحد منهم عدة مئات من المماليك وبادروا إلى قتال بعضهم البعض ، وفى نهاية المطاف غلب البعض على البعض الآخر وقويت شوكرته واستفحل أمره وأقدم على الخروج على السيادة الكرام وتركزت أزمة الأمور المصرية والحل والعقد فى أيدي كتحداوات الأوجاقات .

وكان من أبرز أولئك الكتحداوات عبد الرحمن كتحدا ، ومصطفى كتحدا وإبراهيم كتحدا على التوالي ، وقد استبد هؤلاء وطغوا فى بلد وسيع رحيب الأرجاء مثل مصر وأحكموا قبضتهم عليه وسيروا دفة الحكم فيه وفقا لأهوائهم .

ولم تكن الدولة العلية فى تلك الأونة تنال كثيرا بالأنظمة فى مصر لانشغالها بغوائل الحملات والحروب الهمايونية ؛ ومن ثم تحصل

لكل كتخدا من الكتخداوات المشار إليهم مال قارون ، ورويداً رويداً
عمدوا إلى الاستقلال وصار كل منهم قائداً على عدة مئات من المملوك ،
[٢٠٩-ب] وتأتى لهؤلاء الممالك الخروج على كتخداواتهم وهم فى
الأصل أولياء نعمهم .

وعلى مر الأيام استحوذوا على بكويات الألوية طوعاً وكرهاً ،
وصاروا يعطون كتخداويات الأوجاقات إلى غلماتهم عندما يموت أغواتها ،
فأصبحت كل الأوجاقات يحكمها طائفة الممالك ، حتى ازداد نفوذهم
وبسطوا سيطرتهم على الحكم فى مصر وصار لكل بك من البكوات ما
يربو على ثمانمائة من الممالك واقتسم عدد من الأمراء كافة الممالك
المصرية فيما بينهم وتآلبوا على الولاة والأوجاقات .

غير أن الأمراء المذكورين ظلوا قائمين على إرسال غلال
الحرمين ودفع نفقات أمير الحج وصدقات العلماء والفقراء ودفع
الإرسالية المصرية ، كل عام بلا قصور إلى الخزانة العامرة ، حتى ظهر
لعين يقال له (على بك بولوت قبان) من الأمراء ، غلب على كافة
منافسيه من الأمراء وأعلن العصيان على السلطنة السنية وامتنع عن
دفع الإرسالية المصرية . ولم يزل يتجاسر على عدة تصرفات خرقاء
كتجريد حملة على الشام لفتحها ، وسك عملة باسمه ، حتى ذاق وبال
أمره ونال جزاءه بسيف محمد بك أبى الذهب .

ورغم أن محمد بك أبى الذهب هذا لم يحاول الاستقلال عن
الدولة ، فقد غلب على كافة الأمراء ولم ينزعه أحد ضبط أمور المملكة
وإدارة دفة الحكم فيها . [٢١٠-١]

ولما توفى المشار إليه تعاضد إبراهيم بك ومراد بك ، من عتقائه ، وتقلد الأول مشيخة البلد ، والثانى إمارة الحج ، وعملا على التغلب على سائر الأمراء . ولما لم يكن لأولئك الأمراء قبل بمناوئتهم ، فقد رفعوا الأمر إلى الباب العالى وأشاروا إلى أنه إذا ما عين وزير قوى حازم من قبل السلطنة السنية ، فإنهم سوف يساعدونه ويتفانون فى خدمته ويسعون كل السعى فى كسر شوكة المشار إليهما وإيقافهما عند حدهما ، فسيرت السلطنة السنية جيشاً بقيادة القبودان دريا جزائرى حسن باشا ، وأسندت إبالة مصر إلى عبدى باشا . وعندما وصل المشار إليهما برأ وبحراً إلى مصر فى جيش ضخم تصدى لهما مراد بك وإبراهيم بك بما لديهما من قوات ، غير أنهما لم يأتسا فى أنفسهما المقدرة على المقاومة ، فهربا مع أتباعهما من الأمراء والكشاف من القاهرة إلى نواحي الصعيد وأسوان ، ودخل القبودان حسن باشا وعبدى باشا القاهرة وأنفقا النفقات المصرية المعينة فى وجوها المشروعة ، واستوفيا ما تراكم من الإرسالية المصرية المعتاد إرسالها إلى الخزانة العامة .

وبعد أن احتوى حسن باشا ما شاء احتواءه من أمتعة أمراء الممالك وأموالهم ، وأوصى والى مصر عبدى باشا بالتخلص من الأمراء الفارين والقضاء عليهم ، غادر القاهرة عائداً إلى الآستانة بعد أن عين (إسماعيل بك) - الذى كان من خصوم مراد بك وإبراهيم بك - شيخاً للبلد ، [٢١٠ - ب] وبوأ كل واحد من الأمراء التابعين له منصباً لمعاونته وشد أزره .

وتولى عبدى باشا ومن معه من البكوات تصريف الأمور فى مصر نحو ثلاث سنوات وتناوشوا غير مرة مع الأمراء الفارين ، ومع

مرور الوقت تشتتت جنده وأصيب هو أثناء القتال . وفى تلك الآونة
وبسبب غوائل حروب الدولة العلية لم يكن هناك وقت لنجدة المشار إليه
فاضطر إلى مصالحتهم ووقع صلحاً معهم أوهى من بيت العنكبوت .

ولما عزل المشار إليه كذلك ، دخل الأمراء الفارون القاهرة
عنوة وغلبوا على خصومهم وفتكوا ببعضهم وفرضوا نفوذهم على
الولاية بتمامها ، وقبضوا على أزمة الأحكام فيها واقتسموا كافة إيرادات
ألويتها وجماركها فيما بينهم ، وأسندت الألوية إلى عتقائهم من الغلمان ،
واستقل كل منهم بأموره ، إضافة إلى أنهم إمتنعوا عن إرسال
(الإرسالية المصرية) المعتاد إرسالها كل عام إلى الخزانة السلطانية ،
وقطعوا غلال فقراء الحرمين ورواتب الأوجاقات ورزقهم المقررة لهم
وابتلعوا كل ذلك هم وعتقاؤهم اللصوص . [٢١١ - ١]

ولم يكتفوا بذلك ، بل كانوا إذا مات أحد من الأثرياء ، أنكروا
تماماً أحكام المواريث الثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ولم
يعطوا شيئاً إلى ورثة الميت واعتبروا أنفسهم الوارث الكبير والأوحد
للمسلمين والنصارى وصادروا أملاكهم وعقاراتهم وأمتعتهم ، وأكلوا
أموال اليتامى وبخلوا عليهم ومضوا فى طريق الغى إلى أبعد مدى
فأنكروا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واتخذوها هزوا ، فسلط الله
عليهم قوما دهرى المذهب ، كفره معاندون هم الفرنسيون ، وذلك
مصادفاً للحديث القدسى الذى جاء فيه : " إذا عصانى من يعرفنى أسلط

عليه من لا يعرفنى".^(١)

ولقد استلفنا من قبل فى تفصيل كيفية قنومهم مصر وترك
الأمراء المذكورين زوجاتهم وذرائعهم فى يد الفرنسيين القذرة بعد
مناوشتهم ، ووقفنا على فرار إبراهيم بك وأعوته إلى غزة والشام ،
ومراد بك كذلك مع أعواته إلى أرجاء الصعيد وأسوان .

ولما قدم الجيش الهمايوني مصر فى المرة الأولى ، قدم معه
أعوان إبراهيم بك ، ورغم قدوم أتباع مراد بك أيضاً ، إلا أنه أرسل إلى
الفرنسيين سراً يتوعد إليهم ويلتمس مصالحتهم ، [٢١١ - ب] شريطة
أن يولوه على الصعيد ويطلقوا يده فيه هو وأتباعه ، ولذا عندما عاد
الجيش الهمايوني منهزماً بأمر الله ، دخل أعوان إبراهيم بك القاهرة
وشهدوا إلى جانب نصوص باشا وكتخدا عثمان أفندى ما دار من معارك
ضد الفرنسيين — على نحو ما أسلفنا بياته — وعندما لحقوا بالجيش
الهمايوني بعد ما قاسوا من الأهوال والشدائد ، أرسلوا إلى مراد بك
يحثونه على الجهاد ، فما كان منه إلا أن وقف مكتوف اليدين يتفرج من
بعيد ، وفى النهاية باع دينه بديناه الدنيلة واستأمن الفرنسيين ولاذ بهم .
ولما كانت مسيرة الفرنسيين له — تبعاً للوقت والحال آنذاك —
من لوازم دساتهم ، صالحوه على تأميره على إقليم الصعيد هو
وأعواته ، فوثق بمواثيق من لا عهد لهم ولا ميثاق ، ومضى بحماقته إلى
الصعيد ومكث به زمناً مسروراً بحكم تلك الجهات ، ولمشايعته الفرنسيين
ناصرب الدولة العلية وهى ولى نصته العداء والخصومة .

١ - هذا الأثر أورده الإمام ابن كثير فى البداية والنهاية ج ١٣ ، ص ٨١ .

غير أنه إبان زحف الجيش الهمايوني على مصر للمرة الثانية أزهق الطاعون المبارك روح اللعين المذكور الخبيثة وأحله دار البوار ، فاحتوى عتاقؤه الخبيث تركته وفقاً لشرعية الممالك . [٢١٢ - ١]

هذا في حين أن أعوان مراد بك فطنوا إلى أن غزاة المسلمين على وعد بالنصر والظفر في هذا العام المبارك ، على اعتبار أن بعد كل ضيق فرجاً ، فتظاهروا بالعبودية للدولة العلية وزعموا أن ما أبرمه مراد بك مع الفرنسيين من صلح لم يكن برضاهم ، وإلى أن دنوا من القاهرة رويداً رويداً مترقبين ما سستمخض عنه الأحداث ، كان الجيش الهمايوني قد وطئ صحراء بلبيس وتقاتل مع الكفرة وألحق بهم الهزيمة والجأهم إلى العودة إلى مصر منكسرين ، واتفق كذلك لواء النصر للقبودان باشا والإنجليز فيما خاضوه من معارك ضد الفرنسيين ، وكفوا أيديهم عن قتال الكفرة .

ومع أن كلاً من حزبي إبراهيم بك ومراد بك كانا قد قويت شوكتهما وتسلطوا على كافة إدارات مصر ، فقد ظهر بينهما تنافس شديد. ولوجود حزب إبراهيم باشا في الجيش الهمايوني ، [٢١٢ - ب] لم يحدّ الحزب الآخر وهو حزب مراد بك الذهاب إلى هذه الجهة ، ومضوا يحتمون بالقبودان باشا .

وإن كان في الظاهر أن حزب إبراهيم باشا يقف إلى جوار الجيش الهمايوني وحزب مراد بك يوالى القبودان باشا ، فإن هؤلاء الأمراء كانوا يدركون أن ما اقترفوه من سيئات قبل وقوع الغزو الفرنسي للبلاد ليس من قبيل ما يغتفر ، وشاع بينهم أن الدولة العلية تتحين الفرصة للقضاء عليهم والفكك بهم ، ففكروا في سبل النجاة .

ولما كانوا من قبل قد تقربوا إلى الأميرال الإنجليزي (سميث) وتوددوا إليه ببعض الهدايا ، فقد خابروا الإنجليزي سرا ووعدهم بأنهم سوف يسدون إليهم العديد من الخدمات ، إذا ما حموهم وضمنوا لهم السكنى فى مصر والبقاء فيها ، فما كان من (سميث) إلا أن كتب إلى ملكه وقت التجاء الأمراء إليه واحتمائهم به ، أنه لما كان الأمراء المصرية يخشون الدولة العلية العثمانية ، فقد عمدوا إلى الاتكاء على الفرنسيين والاحتماء بهم ، ولئلا يصبحوا عوناً جديداً للأعداء ، لا بد من التشفع لهم لدى الدولة العلية لتصفح عنهم وتتجاوز عن سيئاتهم ، [٢١٣ - ١] ولا تقدم على الفتك بهم والقضاء عليهم ، وأنه لا بد من احتواء الأمراء المذكورين وحمايتهم . فأذن له بمرافقتهم والذود عنهم . ولما كان سميث - لدى عودته - قد أظهر الجنرال (آنشف) على الأمر ، أبان الثانى عن تعاطفه وانحيازه التام إلى جانب الأمراء .

وعندما تم إجلاء الفرنسيين عن مصر ، ورد خط سلطانى قطعى المفاد جاء فيه : " لما لم يكن فى الإمكان تطهير مصر بطرد الفرنسيين منها وحسب ، فلا بد من إبعاد الأمراء المصرية عن تلك البلاد وإحضارهم إلى الآستانة لإعطاء كل منهم رتبة ومنحه راتباً على قدر اعتباره وحاله ، فأتوا بهم من مصر وأرسلوهم إلينا " .

ولما ورد الأمر السلطانى على هذا النحو ، أدرك الجنرال (آنشف) المسألة خفية . ولما لم يكن فى الإمكان إلزام المذكور على أية حال والضغط عليه فقد عائد وأصر على تعاطفه مع المماليك ، فرقع الأمر مجدداً إلى الركاب السلطانى .

ولدى التباحث مع السفير الإنجليزي بالباب العالي ، تعهد بإرغام الجنرال (أنشف) على كف يده عن حماية الأمراء والتعاطف معهم ، وصدرت خطوط همايونية قاطعة إلى السردار الأكرم والقبودان باشا بحمل أولئك المماليك إلى الآستاق . فكتب السردار الأكرم إلى القبودان باشا ينبؤه بذلك ، وصدع الاثنان بما أمرا . [٢١٣ - ب]

وجه أمير الجيوش من الديلة محمد باشا متصرف القدس إلى الإمام الشافعي ، وأنفذ إبراهيم باشا وإلى حلب إلى جهة الشرقية ، وبث فرسان الأرناعوط والديواتكان حول البلاد ، وشحن قصره الآصفي كذلك بعدة آلاف من مشاة الأرناعوط ، وأرسل يستدعي إلى حضرته إبراهيم بك شيخ البلد ورجال حزبه مثل صالجلي عثمان بك ، وأمير الحج الأسبق أبو يوسف قاسم بك ومحمد بك وصالج بك ومرزوق بك ومن صناديد الكشف مفرجى سليم الكاشف وشاهين الكاشف ، ولبي هؤلاء الدعوة طمعاً فسى أن يكون لهم نصيب مما جاء من السلطنة السنية من خلع .

وبرغم أن عدد من قدم من أمراء المماليك وخدمهم كان يناهز الألف ، فقد نفذ فيهم الأمر السلطاني على خير وجه إذ قال السردار الأكرم لرجاله :

" خذوا الأمراء إلى حجرة الخزانة " ، فنفرك المماليك كافة وخدمهم كالجراد المبعوث ، وفي التو تم اعتقالهم في حجرة الخزانة ، غير أنه لما كان صالجلي عثمان بك رجلاً تقياً ورعاً ، وليس على شائكة أولئك الأمراء فقد حل ضيقاً هو وخدمه على طيفور آغا .

وكان قد تم التنبيه على آغا الإنكشارية من قبل بكبس بيوت الأمراء والكشاف والمماليك واحتواء أموالهم ، ولذا فبته ساعة احتجازهم

نودى بالأمان لكل الأهالى وعدم التعرض لأى شخص سوى أولئك المحتجزين . [٢١٤ - ١]

ولما كان ألفى بك متواجداً بداخل الصعيد فى مهمة تحصيل المؤن بناء على طلب الجنرال (آنشف) ، لم يقبض عليه فى هذه الحادثة . هذا فى حين أنه كان ثمة من يقال له دياب سليم بك ، وكان يقيم فى قرية المنيل على الضفة الأخرى من نهر النيل على مسافة ساعتين فى مائة من أتباعه ، ورغم أنه قد وجهت إليه الدعوة بالحضور ، فقد دخله الخوف ولم يطمئن له بال لتلك الدعوة ، فعد إلى التمارض واختلاق المعاذير لكيلا يلبىها .

ولما كان إحضاره بالقوة من شأنه أن يوقع الوحشة فى نفوس سائر الأمراء الآخرين ، فإنه لئلا يفلت ذلك القدر من الأمراء من أجل واحد ، ستر عليه طاهر باشا من المير ميران فى خمسمائة من الأرناعوط عندما انتصفت ليلة احتجاز المماليك .

ولم يأل المذكور ومن معه جهداً لتنفيذ المهمة المكلفين بها غير أن الوقت كان وقت فريضان النيل ، فأحاطت الغدران بالقرية المذكورة ، ولم يتأت للجند العبور إليها ، وفيما كانوا يفتشون عن معبر من الغدران المذكورة ، شاهد المير المذكور ذلك منهم فأمر رجاله الذين كانوا فى الأغلب من الفرسان ، باجتياز الغدران المذكورة بجيادهم من موضع يعرف أنه ضحل المياه . ولما شاع الخبر بفراره ، [٢١٤ - ب] انبث الرجال إلى النواحي والأطراف للبحث عنه .

غير أنه لقرب القرية المذكورة من الجيزة ، اتجه إليها ملتجئاً إلى القوات الإنجليزية المخيمة بها ، فترك الأمر على حاله ترقباً لما ستمحض عنه الأمور .

وإن يكن بعض أعوان مراد بك دخلوا القاهرة ، فإنه لما كانوا يرهيون بطش السردار الأكرم ويضمرون الحقد لأعوان إبراهيم بك ، فقد كان من المؤكد عدم اتفاقهم وتأييد بعضهم بعضاً ، ولذا أرسلوا إلى جهة القبودان باشا بعة إحضار والى مصر خسرو باشا إلى القاهرة فى جو من العظمة والأبهة ، والقضاء على بعض لصوص البدو أثناء الرحلة ، [٢١٥-١] وأظهروا المشار إليه على الأمر برسالة مفصلة أرسلت إليه . وبناء على ذلك دُعيت الأمراء المذكورون كافة فى يوم الخميس (١٤) من جمادى الآخرة بعة السير إلى الإسكندرية ، وبعد أن ركب الجميع الزوارق ، وفيما كانوا ينوون ركوب الغليون الراسى فى عرض البحر للذهاب إلى الاسكندرية من غدیر (مربوط) ولحظة وصولهم إلى الغليون ، لحق بهم رجل يحمل بعض المكاتبات من الآستانة — على نحو ما هيئوا له من قبل — فاستأذن القبودان باشا البكوات على أن يعود سريعا إليهم ، وركب الأمراء المذكورون الغليون وما زالوا فى طريقهم إلى الاسكندرية ، حتى اعترضهم الأسطول الهمايونى ، وأحاط بهم فقطن عثمان بك الجرجاوى إلى حقيقة الأمر وأحس بالشر ، فأطلق الرصاص فى الحال على أحد بحارة الغليون فأرداه قتيلا ، وجرح آخر ، وسل سائر البكوات سيوفهم ، فما وسع بحارة الغليون إلا أن قاتلوه ، فقتل عثمان بك الجرجاوى وملكواتى محمود بك ومراد بك الصغير وإبراهيم كتخدا ،

وحمل محمد بك الشرقاوى ، وكيلارى أحمد بك ، ومن الكشاف عثمان
وعلى وسليمان سالمين إلى الغليون الكبير المسمى (أوج أنبارلى) .
ولما اتصل ذلك النبأ بعلم الجنرال الإنجليزي (آنشف) استشاط
غضباً ، فاعتذر له القبودان باشا وأعلمه أن الدولة العلية لا تريد بأولئك
البكوات سوءاً ، وأنه قد صدرت أوامر سنية من حضرة السلطان بإقامتهم
بالآستانة ومنحهم رتب ومراتب جميعاً .

ورغم هذا لم تهدأ ثائرة الجنرال المذكور ، بل ازدادت اضطراباً
فأقدم على طرد عساكر الدولة العلية من الإسكندرية ، علاوة على أنه
أعلن أنه مكلف من قبل ملك الإنجليز بحماية الأمراء ، وجعل ييسر لساته
فيهم بقبيح الكلام إذ قال : " إن قتل الأمراء وحبسهم يوجب علينا
حربكم " ، ثم أردف قائلاً :

" ولقد أرسلتُ إلى رجالى فى رشيد كذلك لتخليص من قبض عليه من
الأمراء فى مصر لدى بلوغه رشيد ، ولن أدع الصدر الأعظم يمر فى
البحر ، وليمض إذن من حيث أتى ، ومن الآن فصاعداً لا شأن لكم بنا ،
وإذا ما قدمتم إلينا فسوف تنوبون وقد لطح العار وجوهكم . "

فرد حضرة قبودان باشا على القائد الإنجليزي المذكور بأنه
سوف يسلمه الأمراء السجناء على الصباح ، [٢١٥ - ب] إذ إن الوقت
لم يكن يتسع لذهاب رجل إلى الأسطول وعودته فى نفس الليلة ، وعاد
أدراجه بعد أن أرضاه إلى حد ما . ورغم هذا فقد أحاط الإنجليز بالجيش
الإسلامى . فتهياً عساكره لقتالهم ، فمنعهم القبودان باشا وأطلق سراح
الأمراء ، فسكتت الفتنة بين الفريقين . ولما أنهى هذا الأمر لحضرة

السردار الأكرم استنكره وأعظمه جداً ، وأرسل إلى (آنشف) يذكره بشروط التحالف ، محاولاً تهدئة ثأرته .

ورغم أن مسألة هؤلاء الأمراء كان من شأنها إلحاق العار بإنجلترا والنيل من سمعتها بين دول أوروبا كافة ، فقد ألح الإنجليز فى إرسال الأمراء المذكورين إليهم فى الجيزة لمخاطبتهم ومعرفة ما يضمنون وحقيقة حالهم ، وما إذا كان ذهابهم إلى جهة الدولة العلية طوعاً أم كرهاً ، [٢١٦-١] وعليه ، أحضر السردار الأكرم أولئك الأمراء ووعدهم خيراً بأنهم سوف يحصلون على مرتبات أعلى مما كانوا يطمحون إليه ، وأنهم سوف يكونون موضعاً لرعاية حضرة السلطان ، ثم أرسلهم إلى بر الجيزة برفقة الحاج يوسف أغا بلوكباشى البوابين وعندئذ تناسوا تلك الوعود الجليلة وجحدوا النعمة ، وأقاموا هناك فى حماية الإنجليز ، ورفضوا العودة قائلين : " إننا لم نعد نأمن الدولة العلية " . فما كان من الإنجليز إلا أن أعادوا بلوكباشى البوابين المذكور بعد أن قالوا له : " إن الأمراء مصرون على موقفهم ، إن استطعت نصحبهم ونثبهم عن موقفهم ، فافعل ، نرجعهم معك " .

ولما أنهيت كل هذه الوقائع بتفاصيلها إلى الباب العالى ، أرسل إلى ملك إنجلترا يخبره أنه لم يعد من الجائز أن يبقى أولئك الأمراء فى مصر لما سبق أن أبانوا عنه من الاستبداد والطغيان ، وأن الدولة العلية لا تريد بهم سوءاً ، وسوف توفر لهم كل أسباب العيش الرغد فى الآستانة أو فى أى ولاية أخرى من الولايات الشاهانية يرغبون فى الإقامة بها .

وفيما كان ذلك كل ما تريده الدولة العلية ، [٢١٦-ب] كفر
الأمراء المذكورون بنعمة السلطنة وفضلها عليهم ولاذوا بالكفار يحتمون
بهم . وأظهر الباب العالي أن تجاسر الأميرال الإنجليزي على حماية
البكوات والتصرف بما يتنافى مع التحالف بين الدولتين إنما كان طمعاً
منه في تحقيق غاية يسعى لتحقيقها .

ولقد أعرب السفير الإنجليزي لدى الاستانة عن عدم رضا
حكومته عن تصرفات الأميرال ، وعزمه المضى إلى الاسكندرية لتسوية
هذه المسألة ، غير أنه أحجم عن الذهاب بنفسه ، وأرسل رئيس كتابه ،
وحضر المذكور إلى مصر لشرح الأمر للصدر الأعظم وإخبار القادة
الإنجليز بذلك ، وأثناء تفاوضه في المسألة ، حضرت فلول البكوات من
الاسكندرية ولحقوا بنظرانهم في الجزيرة ، وفروا جميعاً ليلاً قاصدين
الصعيد .

وفي اليوم التالي أشاع الإنجليز نبأ فرار الأمراء على هذا النحو،
فأرسل الصدر الأعظم جنده للحاق بهم ، غير أن هؤلاء الجنود أخفقوا في
مهمتهم تلك ، وهكذا تأتى للأمراء بلوغ الصعيد ، وبات في حكم المؤكد
أنهم سوف يفرون إلى نواحي أسوان والسودان إذا ما سُيِّرَت الجنود
لمطاردتهم ، فترك الأمر على حاله.

ذهاب سعد الله أفندي الكتخدا المعزول إلى الآستانة

لما كان سعد الله أفندي المعزول من الكتخداوية ، شخصاً عليلاً ،
فقد ترفق به السردار الأكرم وأذن له بالعودة إلى الآستانة ، فركب البحر
ويبلغها حيث خلد للراحة في داره السعيد . [٢١٧ - ١]

عزل رجائي أفندي دفتردار أول

كان المشار إليه في الأصل أحد مكتوبى الصدر الأعظم ،
واضطلع بخدمات كتابة الديوان في المناصب الخارجية للسردار الأكرم ،
وعندما نبأ الصدارة العظمى وخرج بالجيش الهمايونى ، صحبه المشار
إليه ، وبناء على طلب (المكتوبى) المتوفى صادق أفندي ، أصبح
(باش خليفة) ، ولما توفى صادق أفندي بدمشق ، أحرز رتبة المكتوبى
الجليلة .

وفيما بعد حينما كان الجيش الهمايونى معسكراً بيافا ، عاد
عثمان أفندي كتخدا الصدر الأعظم إلى الآستانة العلية مأذوناً ، فقلد سعد
الله أفندي - دفتر دار شق أول - منصب الكتخداوية ، ولما لم يكن هناك
أجدر ولا أليق من الأفندى المذكور بشغل منصب (الاستيفاء) الذى
شغره ، فقد أعرب كل من عثمان أفندي ، وخلفه سعد الله أفندي ، ورئيس
الكتاب رائف محمود أفندي للسردار الأكرم عن أن رجائي أفندي هو
الأجدر والأولى من الجميع من كلفة الوجوه ، فقلده منصب دفتردار أول .

ورغم صغر سن المشار إليه وافتقاره إلى الخبرة فى مسائل الاستيفاء ، فإنه بفضل ما كان يتمتع به من ذكاء متقد أحسن التدبير زمن الأزمة التى مر بها الجيش الهمايونى . [٢١٧ - ب] وما أسداه من خدمات على الأخص إبان زحف الجيش الهمايونى من العريش ، فاق خدمات أقرانه ونظرائه . وبعد دخول مصر استفرغ الوسع فى صيانة الميرى ، غير أن استشاطته فى تحصيل بقايا ما فرضه الفرنسيون على الأهالى من ضرائب ومكوس باهظة ظالمة ، إبان تخليص مصر القاهرة من ظلمهم ، ومماطلته فى دفع الرواتب المستحقة للموظفين والجند ، واستخدامه الشدة والعنف فى جباية الضرائب فى وقت كان يستلزم أن يكون رقيقاً ورحيماً بالأهالى الذين تخلصوا من الاحتلال لتوهم ، كل ذلك لم يكن يتفق مع سماحة السردار الأكرم ورفقه ، فبادر إلى إنكاره ومحو آثاره ، وعزل رجائى أفندى وعين مكانه تحسين حسن أفندى ، وركب الأفندى المعزول البحر مستأذناً وعاد إلى الآستانة ليستقر به المقام بداره .

منح سيد قلندر باشا بايزيد زاده رتبة " ميرميران "

منذ زمن بعيد وبايزيد زاده سيد قلندر بك - من أشرف أعيان مرعش وأعرق بيوتها - متعلق بالسردار الأكرم . وعلاوة على هذا فإنه بمقتضى تكليفه بأمر السلطان بالاشتراك فى الحملة الهمايونية أثبت وجوده فى الجيش الهمايونى بمن حضر فى معيته من صفوة فرسان العساكر والبالغ عددهم نحو سبعمائة فارس . ولما فتك الطاعون بثلاثى

رجاله فى كارثة يافا ، بذل هو ومن تبقى من رجاله ما فى حوزتهم وأنفقوا أموالهم ، فكان ذلك منه محل تقدير السردار الأكرم. [٢١٨ - ١]
وعندما تجبر إسماعيل باشا وأعلن عصيانه ، تصرف السردار الأكرم بناء على تقرير المشار إليه (سيد قلندر بك) ، وبمعرفة أخيه يوسف بك متسلم مرعش والقبائل والعشائر الموالية له ، أعمل السيف فى عساكر إسماعيل باشا وألجأه إلى الفرار وحيداً إلى جبل (كاوير) .
ولما كانت خدمات سيد بك فى هذا الباب ماثلة لعين الذات الأصفية ، فقد أنعم عليه الصدر الأعظم بالميرميرية ، وخلع عليه ليكون ذلك حافزاً له ولغيره على المدوامة على الاستقامة ، كما أحييت قائمقامية مرعش إلى المشار إليه بأمر عال ، حينما صدرت الأوامر السلطانية بتوجيه إيالة مرعش لشخص آخر .

توجيه إيالة مصر إلى الوزير خسرو باشا

سبق أن منح خسرو باشا رتبة الوزارة السامية وأسند إليه لواء (قوجه ايلي) ، كما وجهت إيالة مصر والقيادة العليا لجيشها إلى سيد محمد باشا متصرف لواء القدس . [٢١٨ - ب] غير أن المشار إليه لم يقتدر على إيالة مصر . ولما أنهى إلى الآستانة أنه لا بد من تعيين وزير مستنير البصيرة له القدرة على القبض على زمام الأمور فى الإيالة المذكورة ، تواردت الأنباء بصدور أوامر سلطانية بصرف ذلك المنصب من عهدة محمد باشا وتوجيهه إلى خسرو باشا ، وألبس كاتب كتخداة القباء .

وقد أمر المدعو حسن أغا - الذى كان أغا طابية ومن مستحفظان قلعة (أغريبوز) - بمرافقة الأسطول الهمايونى ، فشهد المعارك التى وقعت إلى جانب القبودان باشا ، ونال إعجاب القادة بما كان يأتیه من ضروب الشجاعة وشدة البأس .

ولما لزم إرسال باشا جسور من المير میران إلى نواحي جرجل أعلى قدر المشار إليه برتبة (ميرمیران) وسبق إلى نواحي الصعيد بعدة وعताد قویین للقضاء على الممالیک الفارین إلى هناك.

رحيل القبودان دریا حسین باشا إلى الآستانة

بحلول الخريف انقضى موسم البحر ، ولم يعد بإمكان سفن الأسطول الهمايونى الرسو ، علاوة على هذا لم يعد هناك ما يستدعى مكثه ، فأقلع قبودان دریا من ثغر الإسكندرية ، واتجه إلى الآستانة .
[٢١٩-١]

ولما كانت الريح معه ، فقد بلغ الصوب المصود فى زمن يسير وكسب الافتخار بتمرغ جبهته فى تراب موطن قدم الحضرة العلية السلطانية ، ورست سفن الأسطول الهمايونى كذلك فى ساحة الترسانة العامرة .

توجيهه إيالة (آدنه) إلى شيخ زاده إبراهيم باشا

بينما فيما تقدم إسناد إيالة (جدة) إلى شيخ زاده إبراهيم باشا وعدم استطاعته المضى إلى مأمورية بسبب الخلاف الذى شجر بينه وبين جنده ، وانفضاضهم من حوله ، وقدمه الجيش الهمايونى .

وكان السردار الأكرم قد وعده بمبادلتة المنصب المذكور بمنصب آخر ، ولازم المشار إليه الصدر الأعظم فى السراء والضراء وبذل قصارى جهده فيما كلف به مهام ، ولما بات من اللازم تكريمه على أية حال ، دعاه إلى بابه وقلده إيالة (آدنه) وخلع عليه .

وفى غضون أيام أعد المشار إليه العدة وعزم على المضى نحو منصبه برأ عبر الصحراء من جهات غزة ودمشق . [٢١٩ - ب] غير أنه فى الوقت الذى كان فى طريقه صدر أمر سلطانى بخلعه من الوزارة ، فاتصرف عن التفكير فى المنصب المذكور ومكث يخلب ، ثم طلب الإقامة بديار بكر وطنه الأصلى ومسقط رأسه ، فأسعف بطلبه ومضى إليها حيث ركن إلى الراحة فى داره السعيد .

توجيهه رتبة الوزارة إلى طوسون باشا

من قبل لما توفى الصدر الأسبق يوسف باشا وانتقل إلى جنّة المأوى ، وجه منصب والى إيالة (جدة) الذى شغر إلى شيخ زاده إبراهيم باشا ، شريطة المحافظة على المدينة المنورة ، وما إن اتصل نبأ ذلك بالمشار إليه وهو فى طريقه ، حتى انصرف عنه جند بابه ، ولم يعد

بمقدوره المضى إلى مأموريته ، فلم يسعه إلا المضى إلى الجيش الهمايوني ، ومثل بين يدي السردار الأكرم في صحراء يافا ، وبناء على إحجابه عن المضى إلى منصبه المذكور بسبب رجاله المشنومين ، وعده الصدر الأعظم بأن يبده ذلك بمنصب آخر ، وظل مع الجيش الهمايوني على نحو ما أسلفنا بيانه.

وبعد أن دخل الجيش الهمايوني مصر ظافراً منتصراً ، لم يكن بإمكان إبراهيم باشا المضى إلى إيالة (جدة) و (المدينة المنورة) ، فأنهى أمير الجيوش الأمر إلى العتبة العلية السلطانية والتمس الإتمام برتبة الوزارة السامية [٢٢٠-١] على طوسون محمد أغا الذي كان من أخلص عبيد الدولة العلية منذ زمن ، وكان قد أظهر استقامة ونزاهة في الاضطلاع برئاسة (الجبجية) في الجيش الهمايوني ، وتوجيه إيالتي (جدة) و (الحبشة) إليه شريطة المحافظة على المدينة المنورة ، فوصل خط شريف بتوجيه إيالة (جدة) ورتبة الوزارة السامية إلى طوسون محمد أغا وفقاً لما أنهى أمير الجيوش إلى العتبة العلية السلطانية .

وأرسل السردار الأكرم يطلبه إلى مجلسه ، ولما مثل بين يدي حضرته وجه إليه إيالتي جدة والحبشة مع رتبة الوزارة السامية شريطة محافظته على المدينة المنورة شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة ، وأمر له براتب ستة أشهر لخمسمائة من الجند من خزانة الميرى ، [٢٢٠-ب] ومنحه من المال ما يمكنه من القيام بحاجة إدارته ، ثم أنفذه صوب مأموريته ببحر السويس .

وكان المشار إليه شخصاً تقياً ديناً مستقيماً ، لم يؤخذ عليه أى مأخذ سوى تشوقه إلى حمل وزر الوزارة الذى كان بلاء عظيماً فى أيامنا تلك . وبحكمة الله تعالى تمت له أمانيه بمقتضى الحكمة القائلة : " من طلب شيئا وجداً وجد " ولأنه كان فى ذات الوقت من حاملى رتبة وزير ، كان من المأمول أن يقوم بأعمال لها حسن وقع فى القلوب ، غير أنه مصداقاً لقول :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن

حينما وصل المشار إليه إلى منصبه وافته المنية فجأة بعد أن قام بزيارة بيت الله الحرام . وكان رحمه الله وزيراً يشوش الوجه حلو الفكاهة شهى الأحاديث على الهمة .

وعند نياله الوزارة مثلت معه بين يدى الحاضرة العلية الآصفية بحكم كونى تشريفاتى الديوان الهمايونى آنذاك ، واتفق أن وجه السردار الأكرم خطابه إلى فقال : " اذهب إلى الكتخدا وقل له لينظم الدفتر دار أفندى حلوان سكبانية محمد باشا والى جدة " . [٢٢١ - ١] وهنا قبل المشار إليه ذيل ثوب الصدر الأعظم فى خشوع وتفكه قائلاً : " وعليه ألا ينسى يا سيدى أهو محمد باشا وحسب ؟ أم أن هناك لفظة طوسون أخرى ؟ " ؛ فأحسن السردار الأكرم جوابه قائلاً : " نسميك من الآن فصاعداً أرسلان محمد باشا " . وكان ذلك منه مزحة مقبولة . وأخيراً كان رحمه الله رجلاً دمث الخلق حليماً .

حضور خسرو باشا إلى مصر

حينما كان قبودان دريا غازى حسين باشا باسطاً ظلال حمايته على السواحل المصرية ، لازمه والى مصر خسرو باشا كذلك لقضاء السلازم قضاؤه من الأشغال . وبما أن موسم البحر كان قد انقضى ، أفلح قبودان باشا ، وعزم على المضى صوب الآستانة العلية بالعز والإقبال وعندئذ مضى خسرو باشا قاصداً القاهرة ولما بلغ قصبة (بولاق) فى أواسط شعبان المعظم ، أرسل السردار الأكرم رجاله لاستقباله ، فجاعوا به فى موكب حافل وأنزلوه بقصر الألفى بك فى حى (الأوزبكىة) ، وفى اليوم التالى سعد خسرو باشا بتقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم ، فعهد إليه بكل ما يتعلق بإيالة مصر وواليتها من أمور جزئية وكلية ، وأسند إليه كذلك أمور دفتر دارية مصر ، وخلع عليه فرواً جميلاً ، فأعلى من قدره ورفع منزلته . وصُرِفَت ضربخاته مصر من عهدة مصطفى شجاع أفندى ، بلش خليفة مكتوبى الدفتر دار ، وأحيلت إلى كتخدا خسرو باشا يوسف أغا من رؤساء بوابى الباب العالى . [٢٢١ - ب]

ولما سُمح لمكتوبى الدفتر دار يوسف أفندى بالرحيل بجرأ إلى الآستانة عين (الباشا خليفة) المذكور (شجاع أفندى) وكيلاً للمكتوبى - ريثما يصل إلى الآستانة .

خروج الجيش الهمايوني من مصر قاصداً الآستانة العلية

لما لم يعد ثمة ما يستدعى مكث الجيش الهمايوني ، أحييت كافة الأمور المتعلقة بالأنظمة المصرية إلى خسرو باشا بناء على التعليمات الواردة من جهة الباب العالي ، كما أحييت كذلك كافة الأمور المتعلقة بدفتر دار مصر إلى الأفندي المشار إليه ، [٢٢٢ - ١] وبعد أن زودا باللائم من الوصايا ، جاء خط همايوني مبارك من السلطان إلى أمير جيوشه يدعو فيه إلى العودة بالجيش إلى الآستانة .

وعلاوة على أن أمراء الممالك كانوا بالفعل مشتتين في صحراء التيه يهيمن على وجوههم فيها تارة بنواحي أسوان وتارة أخرى بأرجاء السودان ، وجه حسن باشا - الذي أنعم عليه بالمرير ميرانية من قبل فيما كان كتحدا باب خسرو باشا - بعدة وعناد قويين إلى الصعيد لمطاردتهم واستئصال شأفتهم وذلك نزولاً على رغبة خسرو باشا .

وانخرط كل من في صفوف الجيش الهمايوني من مشاة وفرسان فرق الديوانكان والتوفكية والأرناؤوط ومرتقة الترك في خدمة خسرو باشا فعضدوه وشدوا من أزره ، وبنت الأوامر الجليلة إلى شتى الجهات والأرجاء تستوجب القضاء على الأمراء الكفرة وإبادتهم وذلك بموجب الفتاوى المتعددة التي أصدرها مفتيو المذاهب الأربعة . ونزولا على رغبة حضرة السلطان توقف بمصر كتحدا عثمان أفندي لتسيير الأنظمة المصرية ووضعها حيز التنفيذ .

ولما استقر العزم من السردار الأكرم على مغادرة الديار المصرية لم يكن هناك من السفن ما يستوعب الجيش الهمايوني بأكمله ، [٢٢٢-ب] وحتى ولو كان هناك عدد كافٍ من السفن ، فإن شدة تلاطم الأمواج كان يحول دون الرحيل. ولما كان هذا واضحا وجليا ، استعد كتحذا الجبجية وضباطها وضباط الطوبجية والعربجية المقرر مصاحبتهم للجيش الهمايوني ، وتعبأت المدافع والمهمات الحربية اللازمة ، وأخذ الجميع فى أهبة الرحيل برأ.

وركب (أحمد اغا) أغا انكشارية الباب العالى ومن بقى من رجاله وسائر فرقته ، و (عثمان بك) رئيس الجبجية وجميع فرقته كذلك ، وأغوات فرق الطوبجية والعربجية واللغمجية وسائر عساكرهم وضباطهم ، النيل من بولاق ومعهم ما سوف يرسل بحراً من المهمات الحربية ، فبلغوا دمياط ، حيث صعدوا إلى السفن التى هبات لهم فيها وأقلعوا متجهين صوب السلطنة السنية .

أرسل السردار الأكرم سيد محمد باشا متصرف لسواء القدس الشريف من القاهرة فى (٨) من شهر رمضان المعظم وذلك لاستحصال ما يلزم الجيش الهمايوني من الميرة من حدود العريش حتى دمشق ، وأوصى المشار إليه بعدم الإثقال على كاهل من تحت يده من الرعايا الذين هم وديعة الله فى أرضه وتهينته الشعير والخبز بالقدر الذى يسد رمق العساكر فحسب . [٢٢٣-أ]

وبعد عدة أيام من ذلك زار المشهد الحسينى ومحمد بن إدريس الشافعى والشيخ عمرو بن الفارض ومحمد الحنفى والإمام الشعترانى والسيدة نفيسة والسيدة زينب رضى الله عنهم أجمعين وسائر المزارات المباركة والأماكن الميمونة ، واستمد العون من روحانياتهم حتى إذا كان يوم الاثنين (٥) من شهر شوال برح القاهرة بعد أن خلع على كافة علمائها وصلحاتها وأتمتها وأعيانها ، وأسبغ إحساناته وعطفه على فقرائها ومساكينها ، ثم أقيمت مراسم الوداع وتحرك الركب فى موكب عظيم حافل ، فقام فى أهالى القاهرة شيباً وشباباً جلبة وصياح ورفعوا أصواتهم بقولهم : " الفراق الفراق يا شيخ الوزراء ، الوداع الوداع يا صدر الأعداء " ، وردد الغنى والفقير : " أحرق يوم الفراق قلبى ، أحرق الله قلب يوم الفراق " .

ونزل الصدر الأعظم بسرادق نُصب له خارج القاهرة فى موضع يقال له (قبة العذاب) ، ولبثنا معه خمسة أيام فى ذلك المكان لاستكراء البعير من عربان البادية من أجل نقل أمتعة الجيش الهمايونى وأثقاله ، وتدبير الميرة اللازمة للصحارى الجرداء الواقعة من القرين حتى العريش .

وقبل استئناف السير بيوم قدم إلى مخيم الجيش الهمايونى (خسرو باشا) والى مصر ودفتر دارها (شريف أفندى) والكتخدا (عثمان أفندى) وسائر من بقى فى القاهرة ، ولثموا طرف ثوب السردار الأكرم ، فخلع على كل منهم خلعة فاخرة ، وأعادهم أدراجهم . وفى يوم (١٠) من الشهر المذكور أفلطنا مع السردار الأكرم وخيمنا بالخانتكاه على مسافة ست ساعات . ولاستقالة الكتخدا عثمان

أفندى — على النحو المتقدم ذكره — نُصَّب بالفعل رئيس الكتاب رائف محمود أفندى وكيلاً للكتخدا وخُلع عليه . وبعد أن لبثنا يوماً بالخانكاه للاستراحة ، سرنا قاصدين بلبس على مسافة خمس ساعات ، وأقمنا يومين آخرين بها لاستكمال أسباب الارتحال .

وفى (١٧) من شوال قطعنا مسافة ست ساعات ، فأنتهينا إلى قصبة (القرين) ، فنصبنا بها مخيمنا ولبثنا بها يوماً حسبما دعت الضرورة .

وعند متابعة المسير من القرين أخبرنا (الشيخ صقر) محافظ العريش — وهو رجل ثقة يؤخذ بكلامه ، وكان قد أبان عن إخلاص وتفان فى خدمة الجيش الهمايونى — أننا إذا سلكننا الطريق التقليدى المعهود عبر منازل الصالحية والقناطر وبنر دويدار ، [٢٢٤ - ١] فسوف يحصل لنا مشقة وعناء عظيمين بسبب ندرة الماء فى مرحلتى القناطر وبنر دويدار ؛ فتحتم علينا الانحراف عن الطريق الرئيسى المعهود والنزول بـ (رأس الوادى) على مسافة سبع ساعات ونصف .

وقد ألفينا ذلك الموضع عبارة عن بحيرة مستطيلة تكونت من جريان وتراكم الترع والشعب وقت فيضان النيل ، على جانبىها يسكن عربان البادية فى خيامهم ، إضافة إلى بعض ما أقاموه من أبنية ، وبما أنه لم يكن فى المكان العثور على ماء عذب زلال فيما وراء (رأس الوادى) ، أى عندما سندخل إلى صحارى التيه الجرداء ، فقد أفضنا قربنا ، ونهضنا عن المرحلة المذكورة ، وتابعنا المسير إلى أن نزلنا بموضع يقال له (أبو العروق) على مسافة ست ساعات ، وقمنا باحتفار العديد من الآبار فى المحل المذكور ، وسقى الجميع حيواناته ،

حتى إذا ارتفع نهار اليوم التالي ، سرنا ست ساعات وحططنا الرحال بالمنزل المسمى (أم العراس) ، وحفرنا كذلك به عددا من الآبار وفيرة المياه .

ولما كانت مياه تلك الآبار صالحة للشرب بالقياس بمياه آبار (أبو العروق) ، فقد سقى كل واحد حيواناته بلا مشقة أو عناء .

وفي اليوم التالي نزلنا بد (قطيا) على مسافة خمس ساعات بعد أن لقينا الأمرين في اجتياز بحر الرمال . [٢٢٤ - ب]

ولكثر آبار المياه في المرحلة المذكورة ، سقينا حيواناتنا بلا عناء ، وأقمنا الليلة للراحة ، وفي اليوم الذي يليه حصل لنا شدة وعناء في سقاية حيواناتنا في (بئر العبد) على مسافة ست ساعات ، وفي اليوم التالي أقمنا المخيم بصحراء مهولة موحشة على مسافة ثمان ساعات تسمى صحراء (برقت) .

ومثلما ذكرنا فيما مضى في فصل القدوم إلى مصر ، أن العثور على قطرة ماء في الأراضي المذكورة كان يعد ضربا من ضروب المستحيل ؛ ومن ثم لم نقدم قطرة ماء واحدة إلى حيواناتنا ، وجرى لنا عين ما جرى في مأساة شهداء كربلاء .

وموجز القول أنه لم يعد هناك حديث منذ ذلك اليوم يجرى على سائر الألسنة في الجيش الهمايوني ، سوى الحديث عن الماء ، حتى أن الإمام أفندي تلا قوله تعالى : { وجعلنا من الماء كل شيء حي } (١) ، كما أن خلقا كثيرا ممن لم يحمدوا الله ولو لمرة واحدة في حياتهم وقاتلوا كانوا يشربون مرارا وتكرارا من الماء الزلال لميزاب الفروسية ، ومصيف رمضان وجبال أركند ، كانوا يحمدون الله مرة بعد مرة ويشكرون نعمته كلما تجرعوا جرعة من الماء الذي أسن منذ أسبوع في قريتهم المبطنة من الداخل بالقار قائلين [٢٢٥-١] : " إن نعمة الماء أسمى وأغلى من سائر النعم الجليلة الأخرى لذى الجلال " .

وتحركنا من مرحلة (برقت) ، وتابعنا المسير حتى حططنا الرجال ونصبنا المخيم بصدر قلعة العريش على مسافة سبع ساعات ، فاستقبلنا كتحدا محمد باشا متصرف القدس في المنزل المذكور بمقدار من القلال وعدد من رعوس الأغنام ، وتقوتنا كذلك بما أعده الشيخ صقر سالف الذكر من أقوات وأغنام .

وفي اليوم التالي نزلنا بمرحلة الشيخ (زويد) على مسافة ست ساعات ، وفي تلك المرحلة استقبل متصرف القدس محمد باشا السردار الأكرم وشرف بتقبيل الأرض بين قدميه ، وفي اليوم الذي يليه واصلنا المسير حتى بلغنا أطلال حصن (خان يونس) على مسافة خمس ساعات، فنصبنا فيها المخيم .

١- الأنبياء : (٣٠) .

وبما أن الضعف والفتور كان قد بدأ يعتري الحيوانات التى اجتازت الصحراء ، وينال منها، فقد لبثنا ثلاثة أيام بغزة للراحة . وفى تلك الأيام ، دعا متصرف القدس المشار إليه السردار الأكرم وإبراهيم باشا والى حلب ورجال الجيش إلى حمام ، وبسط لهم حافل اللواتم ، وأهدى التحف إلى كل منهم ، كل على حسب مرتبته ، [٢٢٥ - ب] كما لم يأل جهدا فى تدبير الميرة اللازمة للجيش الهمايونى .

وبعد أن أقمنا ثلاثة أيام بغزة ، نهضنا عنها فى يوم الاثنين (٤) من شهر ذى القعدة ، وقطعنا مسافة سبع ساعات ونزلنا قرية (سدوس) ولبثنا بها يوما ، ثم غادرناها واجتزنا قسبة (الرملة) على مسافة خمس ساعات ، وتابعنا المسير حتى نزلنا بصدر قسبة (لوط) على مسافة نصف ساعة من الرملة .

وبينما كان السردار الأكرم يود المضى من غزوة إلى خليل الرحمن ومنه إلى القدس الشريف للتشرف بزيارة المراقدة العطرة للأتقياء الكرام المدفونين بتلك البقاع المباركة ، إذ أخبره بعض العقلاء أنه إذا ما نزل بتلك الأراضى المباركة ، فالأمر يستدعى مكوث الجيش أربعة أيام أو أكثر فى اللواء المذكور . وفضلاً عما سيترتب على ذلك الأمر من الإثقال على كاهل الفقراء والرعية ، فإن العساكر سوف يأتون على زراعات الأهالى لا محالة فى ذلك .

وهنا لم يسوغ السردار الأكرم ارتكاب شر كل من أجل اكتساب خير جزئى ، وأرسل عطاياه إلى علماء القدس الشريف و خليل الرحمن وفقرائها ومساكينها بالقدر الذى يقوم على تحقيق آمالهم ، واستمددنا العون من روحانيات الأتقياء العظام المشار إليهم بختم القرآن الكريم من

بعيد ، [٢٢٦-١] وعندما ينس علماء القدس ووجهاتها من قدمه تتابعوا إليه فى (قصبة لوط) وظفروا بتقبيل طرف ثوبه الآصفى ، فخلع عليهم وعطف بإحسانه إليهم وأعادهم أدرأجهم من هذه المرحلة .
حتى إن أبأ السعود أفندى — من عظماء المشايخ الكبر — ودع السردار الكرم فى هذه المرحلة وعاد إلى يافأ محملاً بالكثير من الوصايا لمحمد باشا متصرف القدس .

وفى ذات اليوم الموافق السبت (٩) من ذى القعدة ، خرجنا مع السردار الأكرم من المنزل المذكور وخيمنا بين قرية (رأس العين) على مسافة خمس ساعات ، وقرية (جلجولة) . وفى اليوم التالى تابعنا المسير حتى بلغنا قرية (قلنسوة) على مسافة ثلاث ساعات ، حيث حططنا الرحال . وفى اليوم الذى يليه نزلنا بمنزل (عين أسادر) على مسافة خمس ساعات ونصف ، ثم سرنا أربع ساعات ، فبلغنا خان (لجونه) .

وفى اليوم التالى نزلنا بقصبة (جنين) على مسافة ثلاث ساعات ، وبعد أن أتينا مواضع الكأ فى هذا المكان ، نهضنا عنه ، وقطعنا مسافة خمس ساعات ونصف ، فبلغنا (خان الأحمر) ، ولدى رحيلنا عنه عبرنا نهر طبرية من الجسر الأحمر وخيمنا بفضاء تربية الشيخ (ميعاد) على مسافة خمس ساعات ونصف . [٢٢٦-ب]

وفى اليوم التالى عاودنا المسير ، حتى وافينا موضعا تكثر به أشجار البلوط بالقرب من قرية (طيبة) ، حيث أقمنا الفسطاط .

وكان متصرف القدس قد قدم الميرة اللازمة من العريش حتى لوط ، وقدم كذلك متسلم نابلس طوقان زاده الميرة من لوط حتى

(الجنين) ، وجرار أوغلو شيخ يوسف من (الجنين) حتى قرية (طيبة) هذه . وفي القرية الأخيرة حضر كل من ممش أفندى وحسن أفندى وحسن أفندى دفتردار دمشق — من رؤساء بوابى الباب العالى — بميرة دمشق .

وفى اليوم الذى يليه نهضنا عن تلك المرحلة وخيمنا بمشارف قرية تسمى (باب الهواء) ، ثم غادرناها إلى قلعة (مزيرب) على مسافة خمس ساعات .

ومزيرب تلك قلعة صغيرة ، مربعة الشكل ، تضم بداخلها نحو مائة بيت يسكنها البدو ، ويتوارد إليها الحجاج ذوى الابتهاج بعد تحركهم من دمشق ، ويسلم أمير الحج ما يحمله فى تلك المرحلة للبدو مؤجرى البعير ، ويتبادل معهم الصكوك بذلك على نحو ما جرت به العادة. [٢٢٧-١] ولكثرة معاملات البيع والشراء والمقايضة التى تتسم بين الحجيج وسكان تلك القلعة من البدو ، فإن أمر حراستها والحفاظ عليها موضع اهتمام دائم .

وفى اليوم التالى خرجنا من قلعة (مزيرب) ، وعاودنا المسير ثلاث ساعات حتى بلغنا قرية (دلة) ، فأقمنا بها ، وفى اليوم الذى يليه وافينا قرية (صنامين) على مسافة أربع ساعات ونصف ، ثم غادرناها إلى (خان طارخانه) على مسافة أربع ساعات ، ولدى نزولنا بهذا المنزل، خرج كافة أعيان دمشق لاستقبال موكب السردار الأكرم ، ثم عادوا أدرأجهم فى اليوم التالى بعد أن شرفوا بتقبيل طرف ثوبه .

وزينت رءوس العساكر بالطرر وأعملوا أنهم سوف يدخلون دمشق فى موكب عظيم مشهود. وفى اليوم التالى الموافق يوم الجمعة

(٢٢) من شهر ذى القعدة بلغنا دمشق - على مسافة ثلاث ساعات - فى صحبة السردار الأكرم وفى موكب عظيم من أبطال الفرسان والمشاة واحتشدت الجماهير رجلا ونساء على جانبى الطريق - بمسيرة ساعة - وكان اليوم هو يوم الحشر ، وقد تعالت أصواتهم حتى بلغت عنان السماء وهم يهتفون "خير مقدم .. خير مقدم".

ومدت الأسطة الحافلة فى موضع الطعام الذى أعد فى ساحة تربة أحمد باشا الواقعة على حافة دمشق ، ثم تراصت صفوف الموكب من جديد ، وظل السردار الأكرم يلوح بالسلام للمتفرجين على جانبى الطريق من التربة المذكورة وحتى قصر الإمارة ، [٢٢٧-ب] ونثرت الدراهم والدنانير عليهم ، وأطلقت المدافع من الحصون والقلاع ترحيبا به وابتهاجا بقدومه .

ونزل السردار الأكرم فى أبهة عظيمة فى القصر المخصص للأمرء ، كما هيأت ثكنات مناسبة لرجال الجيش الهمايونى وعساكره ، ولم يعمل أى شخص هم السكنى مطلقا .

وبرغم أن والى دمشق عظم زاده عبد الله باشا كان وزيرا مستائرا بالوزارة كابر عن كابر ، كان رجلا به شىء عظيم من الإهمال وبلادة الطبع ، بحيث إذا انتهب أعيان المملكة ورجال دائرة الإيالة المتصرف عليها ، وجعلوها قاعا صفصفا ، ظل غافلا عما يحدث حوله ؛ لذا فقد هان أمره وذهبت هيئته .

وبسبب تهاونه وتكاسله فى تحصيل مطلوبات الدولة العلية فى أوانها ، فقد تراكم فى ذمته هو وسائر الناس مال لبد ؛ ومن ثم تقررت الإقامة عدة أيام أخرى لتحصيل الأموال المذكورة بمعرفة دفتر دار شق

أول أفندي ، وتم تعيين المباشرين لتحصيل تلك الأموال المتركمة .

[٢٢٨-١]

ومع أن مضى الجيش الهمايوني من بين (بقرص) ، وقلعة (بيلاس) بطريق (أدنه) ، كان هو الطريق المستقيم والصحيح ، فإنه كان قد صدر من قبل غير مرة أوامر عليّة بشأن استئصال شأفة الشقى المسمى (كوجك على أوغلو) المتحصن بقلعة (بيلاس) ، غير أنه بحكمة الله تعالى حالت الظروف دون تحقيق ذلك ، إضافة إلى امتداد الحرب .

ولقد كان الطريق المذكور يعد معبر استراتيجي للحجاج ذوى الإبتهاج ، وكان لا بد لهم من المضى من داخل القلعة الحصينة التى يسيطر عليها ذلك الشقى ؛ ومن ثم كان من اللازم مساهمته والتغافل عن سيئاته وأخطائه ، أما الآن فقد بات فى حكم المؤكد أن يمر الجيش من الموضع المذكور ، وفطن الصدر الأعظم إلى أنه لا بد وأن يلوح للشقى المرقوم ما اقترب من سيئات ، فيتملكه الخوف والوهم ويلتجئ - قبل حضور الجيش الهمايوني - إلى حصنه المسمى (قاربياض) على مسافة ساعة ونصف أو أكثر والذي يقع وسط جبل عظيم ذى غابات لصق القلعة المذكورة ، ولا يحس بالأمان والطمأنينة ، فيحشد عدداً من المشاة ، ويعطى العصيان ، ويعيث فى البلاد قسداً وإفساداً ؛ وأنه إذا ما بادر إلى تنفيذ أوامر السلطان فيه ، [٢٢٨-ب] فإن ذلك سوف يتسبب فى تأخير الجيش الهمايوني خمسة أو عشرة أو عشرين يوماً ، سوف يحتاج خلالها إلى تدبير الميرة اللازمة ؛ وإذا ما غرض الطرف عنه

وتساهل في أمره والعياذ بالله ، فسوف يسرى شره إلى خلق كثير ، ويتسبب في وقوع خسائر فادحة .

ولما فطن الصدر الأعظم إلى كل ذلك ، ووعاه أرباباً أمر استئصال الشقى المرقوم إلى وقته المرهون ، واعتزم المضى بنا من حماة إلى نواحي (حلب) و (ملاطيا) . ومن ثم أمر بتهيئة الميرة اللازمة بحيث تكفي الجيش من دمشق حتى الآستانة ، وأرسل المباشرين على جناح السرعة لإتيان ما يمكن ابتياعه من الشعير والبقسمات والأغنام .

ولقد بيعت تركه (محمد اغا) ، أغا العبيد المطوعة الذي توفي من قبل ، ولما كان المتوفى درويشاً زهيد العين ، فإنه لم يعقب شسيناً ذا بال ، وسُلم إلى جانب الميرى ما استحصل من أثمان زهيدة . ولبننا والسردار الأكرم خمسة عشر يوماً لقضاء الأشغال المذكورة .

وبعد أن زرنا سيدنا يحيى عليه السلام وابن عربى وسائر البقاع المباركة ، خرجنا من دمشق في يوم الأحد (٨) من ذي الحجة ووافيننا خان القصير على مسافة ثلاث ساعات ونصف حيث نصبنا خيامنا .

[٢٢٩ - ١]

وفي اليوم التالي نهضنا عن (خان القصير) ، وعادونا المسير فانتبهنا إلى قرية (قطيفة) على مسافة خمس ساعات . ورغم أننا قد وصلنا إلى تلك القرية في أول أيام عيد الأضحى المبارك ، لم يكن يتوفر من الميرة ما يكفي تلبث الجيش بهذا المكان ، فرحلنا إلى قرية (نيك) على مسافة سبع ساعات . وفي هذه المرحلة صار في متناولنا الماء البارد النزال الذي افقدها منذ سنة وأكثر ، فمرغ الجميع الجباه في

التراب حمداً لله عز وجل وشكراً لنعمته ، ثم برحنا هذا المكان بعد أن شربنا حتى الغصة وأفضنا القرب ، وقطعنا مسافة أربع ساعات ، حتى نصبنا الخيام بصحراء تسمى (عين علق) على مسافة ساعة ونصف من قرية (قره لر) .

ولما كان المرحوم (على القارى) مدفوناً داخل مزارات المسلمين فى تلك القرية ، فقد زرناه ، وفى اليوم التالى ، نزلنا بقصبة (حمص) على مسافة ست ساعات ، وفى اليوم الذى يليه غادرناها إلى جسر (بسطام) ، حيث خيمنا على جانبيه ، وكان هذا الجسر على مسافة أربع ساعات من حمص . ولشدة هبوب الرياح فى اليوم المذكور ، [٢٢٩ - ب] تهشمّت أعمدة أكثرية خيامنا وأوتادها ، ولما طلع علينا النهار بعد أن قاسينا الأهوال والشدائد صنوفاً وألواناً ، تابعا المسير فى حالة من التشّت والتضعع ، حتى خيمنا فوق تلة بأذخة شمال مدينة (حماه) .

وإذا ما ذكرنا نبذة عما أقدم عليه متسلم تلك المدينة المدعو عثمان أغا من أنواع الظلم والتعدي على الفقراء وبسطاء الناس ، لشعرنا أنها تكرر لقصة الحجاج بن يوسف . وما رفعه أهالى تلك البلاد من شكاوى وتظلمات ، حرك سخط أمير الجيوش وأثار ثائرتيه ، فعزل المتسلم المذكور ، وأمر به فقيد فى وثاق .

إضافةً إلى أنه أمر باعتقال المدعو ملك إسماعيل — من رؤساء الديوانكان — ودرويش على وتموز أغا من رؤساء الأدلاء ؛ إذ إنهم كانوا ضالعين فى اعتداءات الشقى المذكور ، والترويج لها . غير أن والى حلب إبراهيم باشا تشفع لهم عند السردار الأكرم وأخبره أنه مشغول البال

فى تلك الأيام بالقلقل فى نواحي (شغور) ، وأوضاع إنكشارية حلب ، وأنه فى حاجة إلى عدد وافر من الديوانكان ، ولم يكن هناك من رؤساء الأتلاء من هو أقوى وأفضل من المرقومين ؛ فما كان من السردار الأكرم إلا أن صفح عنهم وتجاوز عن سيناتهم شريطة ملازمتهم إبراهيم باشا ومأزرتهم له ، وعين على حلب متسلماً يرضى عنه الجميع يدعى (عبد الله أغا) ، [٢٣٠ - ١] وعين كذلك المدعو (قره عمر) رئيساً للديوانكان والأتلاء وذلك نزولاً على رغبة الجميع .

ولما كان قد صدر أمر عال بشأن تحصيل ما تبقى من ابتياع الغلال المرتبة من لواء حماه ، فإنه لدى فحص صالح أغا - من كديكلوية الباب العالى - سجلات المحاسبة التسي أعدت بمعرفة المحاسبين ، تبدى له عجز جسيم فى سداد ديونهم ، فأمر السردار الأكرم عندئذ بتخفيض قدر منه بغرض تخفيف الأعباء عن كاهل الفقراء واستجلاب دعواتهم لحضرة الخليفة ، ودفع الباقي فى ظرف يوم أو يومين .

وفى رأس الجبل الشامخ الواقع قبالة مدينة حماه ، هناك مقام زين العابدين ، رضى الله عنه . غير أنه بسبب بعد المسافة فقد اكتفينا بإهداء الفاتحة لروحه من بعيد .

وبعد أن لبثنا بحماه أربعة أيام ، غادرناها فى (٢١) من ذى الحجة ، وسرنا حتى انتهينا إلى سهل (خان شيخون) على مسافة ست ساعات ونصف .

ويروى أنه كان يتصدر الخان المذكور بركة عظيمة ، تبلغ فى العمق عشرين ذراعاً ، وفى الطول أربعين ذراعاً ، ومثلها فى العرض ، وكانت

تستلئ من مياه الأمطار في موسم الشتاء ، [٢٣٠ - ب] وكان سكان
الخان يشربون من تلك البركة طوال السنة على الدوام .
وعلاوة على هذه البركة ، هناك بعض الينابيع بالخان المذكور
على مسافة نصف ساعة . حتى أنه إبّان رحيلنا عنه ، مضى سقائنا
وجاعوا بالماء من تلك الينابيع .

وفي اليوم التالي غادرنا الخان المذكور إلى (معرة النعمان)
على مسافة أربع ساعات ، وفي ذلك اليوم قدم بلاكلى مصطفى باشا
لاستقبال السردار الأكرم ، ونال شرف تقبيل طرف ثوبه في صدر حماه .
ولما بلغنا هذا المصير ، أذن السردار الأكرم للمشار إليه بالعودة بعد أن
خلع عليه خلعة فاخرة .

وفي اليوم الذي يليه عاودنا المسير ، فنهضنا عن المعرة
وتناولنا الطعام بـ (خان سبيل) ، ثم قطعنا مسافة خمس ساعات
ونصف حتى خيمنا في صدر قصبية (سلمين) العتيقة ، وفي اليوم التالي
استأنفنا المسير ، وحططنا الرجال بساحة (خان طومان باي) على
مسافة ست ساعات ونصف . وفي تلك الليلة بحكمة الله تعالى هبت ريح
صرصر وهطل المطر مدراراً وطغت السيول وكأنه طوفان نوح عليه
السلام ، وهب الجميع يلتمسون النجاة متمثلين قوله تعالى :
{ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء } (١) .

١ - هود : (٤٣) .

ولما كانت كل خيامنا قد بليت وفنيت من كثرة الترحال في سرد
وحر صحارى يافا ومصر ، وتمزقت أظنابها وحبالها ، [٢٣١-١] لم
تعد هناك خيمة قائمة إلا الخيمة السامية لحضرة السردار الأكرم . حتى
أن الخيمة العتيقة البالية التي كانت تأوينى انهدمت فوقى أنشاء تلك
العاصفة ، وبقل ما جارت بالاستغاثة بالخدمة والعكامين ، لم يكن هناك
من مغيث يأتى إلى من أى جهة . ولكنى عندما سمعت صرخات الاستغاثة
تنبعث من كل جانب حولى ، سلمت بأنه لا مناص لى ورضيت بقضاء
الله . غير أنه بعد عناء ومشقة شديتين ، جاعنى العكامون سابحين فى
لجة الطلين وأخرجونى من تحت أنقاض الخيمة حاسر الرأس ، حافى
القدم ؛ فإذا بى أرى أن جميع الصاكر قد تشوش نظامهم جميعا وأختلط
حابلهم بنابلهم بعد أن تهدمت خيامهم ، وانشغل كل واحد بتخليص نفسه ،
ولم يتأت لأى شخص أن يغيث الآخر . [٢٣١-ب]

ولما تحققت الأمر فيما بعد ، وجدت أن أهل الجيش عامة
نالهم ضعف ما نالنى ، فتهللت ثيابهم وقبحت هيلتهم .

وفى اليوم التالي الموافق (٢٥) من ذى الحجة قطع السردار
الأكرم ونحن معه مسافة ثلاث ساعات ، فبلغنا حلب الشهباء ، وتناول
حضرتنا الطعام فى جوسق ينشرح له الصدر على مسافة نصف ساعة من
البلدة المذكورة ، وفى موكب حافل عظيم يماثل موكب دخول دمشق ،
لوح السردار الأكرم بالسلام لمن اصطفوا على جانبى الطريق من المحل
المذكور إلى مخيم الجيش فى ساحة تكية الشيخ (أبى بكر) ، ونشر
الدنانير والدرهم عليهم . وأطلقت المدافع من القلعة احتفاءً بقُدومه ،
ووصل بالعدة والعتاد إلى خانقاه الشيخ أبى بكر (قدس سره) المدفون

فوق تلة بأذخة خارج سور حلب ، ونزل بالقصر الذى فرشاه وأعداه له
والى حلب إبراهيم باشا فى التكية المذكور ، [٢٣٢ - ١] وأفردت كذلك
عدد من الجواسق المناسبة لرجال الدولة ووجهاء دائرة السردار الأكرم ،
وأقام باقى طوائف العساكر فى الخيام حول تكية الشيخ أبى بكر .

ترتيب عقاب دلي حسين متسلم عينتاب

كان الشقى المرسوم ابنا طالحا للمدعو نورى على أغا - من أهالى عينتاب - نشأ وترعرع فى خدمة المرحوم عينتابى بطال زاده نورى محمد باشا الذى كانت تربطه به صلة قرابة من بعيد .

وعندما استشهد نورى محمد باشا محصوراً فى قلعة عينتاب على يد كوسه مصطفى باشا ، اتسل المرقوم من ثغرة فى القلعة المذكورة وفر ، وبعد أن أستوفى فترة فى نواحي بيره جك والرها ، عاد إلى عينتاب فى ثلثة ممن على شاكلته من البطالين ، وسلك طريق الغى والضلال ، ولم يزل على هذه الحالة ، حتى شاعت الأقدار أن يصبح داود زاده حاجى بطال أغا - سليل عائلات عينتاب - متسلماً بناء على رغبة كافة الوجهاء والأشراف .

وكان الأغا المومىء إليه رجلاً حليماً ، خيراً ، صوفى الطبع ، فاستعان برجل شجاع من الشرفاء من أجل الوقوف فى وجهه أشقياء الإنكشارية القارين ، ورئيس الأدلاء المسمى (قوللقجى أوغلو) الذى تسلط على عينتاب فى تلك الآونة . [٢٣٢ - ب]

وفى الوقت الذى كان يعد فيه العدة لذلك ، عثر على دلي حسين المرقوم، فقلده رئاسة توفكجيته ، ووجدها المذكور فرصة ذهبية وجمع حوله عدة منات من الأسافل والأوباش فى غضون عدة أيام ، وتتلوش (دلي حسين) القتال مع قوللقجى أغلو وظفر به وقتله . ومنذئذ تألب على سيده الحاج بطال أغا وغلب على سائر أهالى عينتاب .

غير أنه في تلك الأيام كان درويش حسن باشا متصرف مرعش يتأهب للزحف على عينتاب ، ففطن المرقوم إلى أنه سوف يقضى عليه إن بقي في عينتاب ، وأدرك أنه لم يكتسب القدرة بعد على مجابهته ومصالته ، وعليه اعتزم دخول قصبة (بيده جك) لعدم استطاعته دخول الرها التي كان يتواجد بها في تلك الآونة وإلى الرقة ، وأرسل رسالة مخصوصة مع أحد رجاله سراً إلى جهة علوى باشا المحاصر في بسيره جك ، يعرض عليه أن يأتي لمظاهرة في حشد من مشاته إن أراد .

وما أن اتصل ذلك النبا بعلم علوى باشا ، حتى أرسل إليه فى التو والحال ، فقدم إليه على رأس عدة مئات من مشاته ، وحاربوا عدة أيام حتى ينسوا من دخول بيده جك . وفى هذه الأثناء ، قدم متصرف مرعش المومىء إليه ودخل عينتاب ، [٢٣٣ - ١] ومن ثم اعتزم القضاء على علوى باشا الجبار العتى ، فأرسل يدعو إليه نيابة عن فقراء عينتاب . غير أنه أساء التدبير ، فجاء علوى باشا في حشد من أسافل الناس ورعاعهم وتمكن من القبض على متصرف مرعش ومتسلمها (بطال أغا) وحبسهما حبساً إنفرادياً ، وأجاب دلى حسين إلى كل ما طلب ، فمكث لديه فترة . ولقاء ما أبرزه دلى حسين من خدمات وعبودية له على حساب عباد الله ، تضرع إلى الباب العالي لتعيينه متسماً على عينتاب وسلمه فرماناً بذلك وألبسه الخلعة .

ومضى علوى باشا إلى منصبه فى الأناضول ، فصفى الجو لـ (دلى حسين) وخلت له الساحة وقويت شوكتة واستفحل أمره وأصبح له نحو ألف من الفرسان والمشاة وأرسل الرسل إلى الآستانة يخطب ودها ويلتزم بلواء عينتاب . واجتهد فى الدعاية لنفسه فى كل

الجهات ، وكاتب الوزراء العظام والمير ميران الكرام ، واستطاع فسي غصون سنة أن يتغلب على الأقضية المجاورة له والعشائر والقبائل المحلية والرحل ، إضافة إلى عينتاب .

وقد بينا فيما مضى أنه فيما كان يتم تعبئة العساكر من شتى الجهات للدفع بهم إلى نواحي عكا ويافا بعد أن وردت الأخبار الموحشة بخروج الفرنسيين إلى بلاد الشام بعد استيلائهم على مصر سمع السودار الأكرم بما لـ (دلي حسين) من شجاعة ، [٢٣٣-ب] فبادر إلى استصدار فرمان من حضرة السلطان بمنحه منصب رئيس بوابين فسي الباب العالي مع رتبة (مير آخور) ، على أن يمضى بألف من صفوفه عساكره لنجدة عكا .

وما إن وصله فرمان بذلك حتى مضى دلي حسين فسي التسو والحال بألفين من العساكر إلى دمشق ومنها إلى عكا . غير أنه لم يتسأت له فعل شيء بسبب سوء تدبير الجزار باشا ، فعاد أدراجه . ومن بعد لدى وصول الجيش الهمايوني إلى ضواحي (أنطاكية) متوجها إلى مصر ، حدث أن أرسل متسلم (كليس) نى ذلك الوقت (محمود باشا طالطبان أوغلو) رجلا سرا لاغتيال زعيم عشيرة (جوم) المدعو (عمو أوغلو ايبش أغا) ، مما حدا بأكراد جبل (كاور) إلى أن أحشدوا وهاجموا (كليس) وقتلوا عددا من أتباع (طالطبان أغا) من بينهم ابن عمه ، وانتهبوا داره ، ففر عاريا حافيا إلى حلب ، وقبض أحد بكوات الأكراد وهو المدعو (شباب) على أزمة الأملد فسي كليس ، وأرسل الرسل إلى الجيش الهمايوني يلتمس منحه متسلميتها .

[٢٣٤-١] ولا يزال يجد فى التماس ذلك حتى قدم (دلى حسين) الجيش الهمايونى .

واعتذر عن أنه لم يتأت له عمل شيء حينما مضى بقدر من الجند بسبب سوء تدبير الجزار باشا ، وتعهد بأنه إذا ما منح لواء كليس ، سوف يطير لمصاحبة الجيش الهمايونى بثلاثة آلاف من العساكر من لواءى عينتاب وكليس .

وأدرك السردار الأكرم أنه إذا ما أسند لواء كليس إلى شباب هذا والعياذ بالله ، فسوف يكون سبباً فى وقوع ما لا يحمد عقباه ، وإذا ما أرسل متسلماً آخر غيره ، فسوف يمنعه شباب من دخول اللواء ، وبذلك يلحق العار بالحكومة ، وينال من هيبتها وحرمتها ، فآثر إسناد لواء كليس بفرمان إلى (دلى حسين) بغض الطرف عما فى ذلك من محاذير ، وألبسه الخلعة وأعادة أدرجه شريطة أن يصحبه إلى الحرب بثلاثة آلاف من العساكر .

وعندما انتهى دلى حسين إلى كليس ، عاث فيها ظلماً وعدواناً ، وخاس بعهدده ولم يرسل جندياً واحداً من اللواعتن المذكورين ولا من جنده . إضافة إلى هذا ، عمد إلى المعاطلة والتسوير فى أداء ما فى ذمته من أموال ميرية واحتوى بطريق غير مشروع كافة المقاطعات والتيمارات الموجودة فى لواء عينتاب ، ولم يمنح أصحابها شروى نقير ، وعليه كلف إبراهيم باشا - والى كليس - بالقضاء على الشقى المرقوم . وبحكمة الله تعالى حدث أن غلب عليه الشقى المرسوم فى معركتين بظاهرة كليس ، فقوى شأنه وعلا نجمه . [٢٣٤-ب] وكان

ضروريا إرجاء أمر القضاء عليه إلى وقتـه المرهون والتغافل عن
سيناته.

ولم ينفك ذلك الشقى عن إرسال المعروضات إلى عتبة الصدارة
العظمى يعتذر فيها ويرجو الصفح ويلتمس العفو . بيد أنه لم يكن يأبه
برد الجانب الأصفى أيا كان .

وهذه الكرة لما تحتم عودة الجيش الهمايوني إلى الآستانة بعد
أن استخلص مصر القاهرة من أيدي الكفرة ، وأعاد الأمور إلى أنصبتها
فى القطر المذكور ، وتعين عليه كذلك الارتحال برا بسبب إنقضاء موسم
البحر ، فإنه مصداقا لقضية : " الخائن خائف " ، فر دلى حسين إلى جبل
(كاور) المجاور .

ولدى تحرك الجيش الهمايوني من القاهرة وردت رسالة منه
يزف فيها التهنأتى بالفتوحات المصرية ، ويعرض تنحيه عن منصبه ،
ويطلب الأمان ، فرد عليه السردار الأكرم بأنه قد صفح وتجاوز عن
سيناته وطلب إليه الحضور لاستقبال الجيش الهمايوني فى حماه وتكليفه
ببعض المهام. [٢٣٥ - ١] وعليه عندما وصل الجيش الهمايوني إلى
دمشق ، تواردت رسالة من الشقى المذكور مع أحد خاصته، فحوأها
الامتثال لأمر ولى نعمته ، والتعهد بأنه سوف يمضى فى التو والحال
لاستقبال الجيش الهمايوني فى ضواحي حماه و حمص ، وعمد السردار
الأكرم إلى التحيل ونصب الفخاخ له ، وأرسل إليه يشبعه إطراء وثناء
بمعسول القول وزخرف الكلام .

وفى اليوم المبارك الذى أنيخت فيه بعير الجيش الهمايونى بظاهر (العصرة) ، حضر الشقى (دلى حسين) فى عدة منات من فرسانه ، وأرسلت فرقة الديوانكان حشدا من ضباطها وفرسانها لاستقباله ، وأنزلوه بجوار خيمة عبدى بك صهر السردار الأكرم ومن رؤساء بوابى الباب العالى واحتفوا به وأكرموه ، ثم حمل بمعرفة عبدى بك للمثول بين يدى الحضرة الآصفية ، وصحبه رؤساء الديوانكان . وعندما مرغ جبينه على موطن قدم الصدر الأعظم ، لم يبد حضرتة أى تصرف من شأنه بعث الريبة فى نفسه ، ويش فى وجهه ولاطفه وطمانه .

وطوى الشقى المذكور المنازل لعدة أيام فى صحبة الجيش الهمايونى . وفى يوم دخول حلب تجمهر عدد من علماء لواء عينتاب وصلحاؤه وأئمة ومشايخه وكافة قرائه وأهله فى عدة مواضع يبسطون شكاياتهم وظلاماتهم ، [٢٣٥ - ب] ويلتمسون العدل والنصفة ، بيسد أن السردار الأكرم طعن على هذه الدعاوى وقال : " لما كنت قد خبرت غش أهل عينتاب وتزويرهم ، فأننى أرى أن هذه الظلمات والشكاوى محض كذب واقتراء واضح " ، وطرده المشتكين من البلاد .

وفى أيام إقامته بحلب الشهباء ، كلف نائب الجيش بالمرافعة عن حسين أغا أمام الكتخدا بك ضد عدد من المشتكين من الوجهاء ومعهم مفتى عينتاب ، فأبطل كافة الدعاوى المرفوعة عليه ، وبمثل هذه الحيل بثت الطمأنينة فى نفس ذلك الشقى واستغفل لعدة أيام .

وفى تلك الأثناء ، وجه أمير الجيوش رئيس الأدلاء (صويطارى موسى) فيما يزيد على خمسمائة من خيرة فرسان الديوانكان على رئيس التوفكجية الذى كان بعث فسادا فى أرى عينتاب

فى عدة مئات من رجاله ، وكان كذلك مشايخا لدلى حسين ، لا يقل عنه طغيانا وعتوا ، كما وجه صالح أغا — من كدكلوية الباب العالى — إلى عينتاب بأمر عال إلى قاضيها ووجهائها بالقبض على (لامج مصطفى أفندى) ، [٢٣٦-١] شقيق رئيس التوفكجية وأحد خاصة سلاحشورية متسلم عينتاب ، وختم على منزله .

وذات يوم دعى دلى حسين إلى قصر إبراهيم باشا وإلى حلب ، وبمعرفة تلقى القبض على الشقى المذكور فى نفر من رجاله وسجنوا فى القلعة ، ثم أمر بهم فأعدموا ، وسعد بذلك المظلومون وطلبو العدل والنصفة من أهل عينتاب وهم الذين ينسوا من عقاب ذلك الشقى على ما ارتكب من جرائم ، وامتألت قلوبهم فرحا .

ولم يكن يخفى أن دلى حسين كان شخصا ظالما غاشما ، فاسد الخلق ، يتلذذ بقتل الناس وسفك دمائهم . [٢٣٦-ب] وليسوا كسان — والعياذ بالله — فعلن إلى أنه سوف يقبض عليه ، وتأتى له الهرب من معسكر الجيش الهمايونى بمن معه من الأوباش الذين كانوا يبلغون عدة مئات وعلى جيادهم ، لما أمكن الإمساك به ثانية ولكانت كارثة محققة ليس على أهل عينتاب وحسب ، بل على النواحي والأرجاء المجاورة كافة . إلا أنه بفضل حسن تدبير السردار الأكرم ، أوقع به فى الفخ على نحو من السهولة واستوصلت شافته من البلاد بالمكر والخدعة .

وتناوش (صويطارى موسى) — رئيس الأدلاء الذى أنقذه السردار الأكرم من قبل — القتال مع رئيس التوفكجية المذكور ، وظفر به وقتل نفرا من رجاله ، وحمله إلى الجيش الهمايونى وحوكم فى يوم مغادرة عينتاب ، ومضى اسمه من سجل العالمين .

غير أنه لما كان لابن أخيه (لامع مصطفى أفندي) عدة منات من الأوباش ، لم يكن بمقدور أحد القبض عليه . ولما سمع المذكور بنزول صالح أغا بالمحكمة ، نفرس الأمر وفر بأعوانه إلى جبل (كاور) ، وأحجم الأهالي عن مطاردته ، وبذلك تخلصوا من شروره . وصودرت كافة أموال وممتلكات كل من لامع مصطفى أفندي ورئيس التوفكجية .

غير أنهم لما كانوا قبلا من العيارين والذهابين ، فقد أسالوا دموع الفقراء وانتهبوا أموالهم وبددوها في سبل غيهم وفسادهم ، وبقي حسابهم على الله يوم القيامة حسابا عسيرا . وانفض شيعة لامع مصطفى أفندي من حوله ونشئت شملهم ، فاختلفت لفترة مع اثنين من خدمه في جبل (كاور) ، ثم لاذ بـ (ديوركلي كوسه مصطفى) باشا .

نظام إنكشارية حلب

فر إنكشارية حلب الشهباء عن آخرهم على إثر ما صدر منهم من أحوال بشعة ، [١-٢٣٧] وصدر أمر عال بالقضاء على رؤسائهم والنفو عن الباقيين وتأمينهم على أرواحهم . واتخذت نذر قوية بعدم دخول أي ممن صدر بشأنهم أمر عال إلى داخل البلدة ، وتوقيع أقصى العقوبة على من يقبض عليه منهم .

وأثناء الأيام العشرة التي مكث فيها السردار الأكرم بالجيش الهمايوني لقضاء الأشغال وتسوية كافة الأمور المتعلقة بإعادة الأمن في المملكة إلى نصابه ، وتسديد الأمور وإصلاح أحوال الرعية، دعا وإلى

حلب السردار الأكرم ورجال الدولة العلية إلى قصره وهياً لهم حافل
الولائم وأهدى الهدايا إلى كل منهم على حسب درجاتهم .

وفيما بعد لما بات من اللازم مغادرة حلب مع السردار الأكرم
والجيش الهمايوني ، نهضنا عنها ونزلنا ببوغاز (خيلان) على مسافة
ثلاث ساعات . وفى اليوم التالى عاودنا المسير فنزلنا بموضع يقال له
(العبيد) على مسيرة ثلاث ساعات ، ثم غادرناه إلى موضع ينشرح له
الصدر بـ (تل الشعير) على مسافة ست ساعات . وفى اليوم التالى
لبثنا بصدر قرية (سازغين) إحدى قرى عينتاب على مسافة ست
ساعات. [٢٣٧-ب]

وفى اليوم الذى يليه الموافق (١٤) من شهر المحرم ، قطعنا
مسافة ثلاث ساعات ، فبلغنا صدر مدينة عينتاب ، ويوم دخولنا المدينة
المذكورة ، استقبل سيد قلندر باشا متصرف مرعش ومعه عدة مئات من
فرسانه ، الجيش الهمايوني، وبلغوا الأرب بتقريب ذيبيل ثوب السردار
الأكرم .

وكان الباشا المذكور قد استحصل الميرة المطلوبة من إيالة
مرعش على أتم وجه ، وأهدى الجياد المسومة إلى السردار الأكرم
ورجال الدولة العلية ، مما كان له حسن الوقع لدى الجميع ، فأعاد
السردار الأكرم الباشا المشار إليه ومن قدم معه من علماء مرعش
ووجهاتها إلى بلدهم بعد أن خلع عليهم واستمال خواطهم .

وفى الوقت الذى كان فيه نحو ألفين من البدو لا حل من تركمان
(ريحان) يصيفون فى جبال (دارنده) ، ناعمين بالراحة والأمن
والطمأنينة فى الظلال الهمايونية لحضرة السلطان ، وقد حصل لهم شئ

عظيم من الثراء والافتقار ، عمدوا إلى المماطلة والتفاعس عن أداء ما عليهم من أموال ميريّة بسيطة ، واستطالوا على من جاورهم من أهالي البلاد القريبة من مصيفهم ، وعسفوا بهم .

ولقد كان السردار الأكرم يعلم ذلك في الأصل ، وكان أكبر همه بعد ردع تلك العشيرة واستئصال شافتها ، [٢٣٨ - ١] هو إسكانهم في لواء (بوز أوق) إذ إنها كانت تتبع محافظة (يكي إيل) . غير أن حضرة السلطان كان يريده أن يصل بالجيش الهمايوني إلى الباب العالي سريعا ، وعليه أرجأ ردع تلك العشيرة واكتفى بأخذهم بالمغارم بأخذ عدة آلاف من أغنامهم بمعرفة (قلندر باشا) لصالح المطايخ السلطانية .

وبعد أن لبثنا مع السردار الأكرم سبعة أيام في تحرى تركة دلى حسين المقتول وبعض أعوانه ، وتسوية الأمور الواجب تسويتها في اللواء المذكور ، عاودنا التحرك من البلدة المذكورة في يوم (٢١) من المحرم ، ونزلنا بـ (آق) ، و (كرمان) على مسافة ست ساعات . وفي اليوم التالي اجتزنا جبلا وعر المسالك يعرف بـ (قره طاغ) يسكنه تركمان (قزيق) على مسافة ست ساعات وقطعنا مسافة في كثير من مواضعه على النعلين وبعد عظيم مشقة ومعاناة ، خيمنا بصدر قرية (أردل) في معمر العربان .

ولما أنهى إلى السردار الأكرم الخبر بأن زعيم قبيلة (قزيق) القاطنة بـ (قره طاغ) شقى يسمى (جبرجى أوغلو محمد) من قطاع الطرق ، قتل خلفا كثيرا ، فجرد عليه من قبل تجريدة من مرحلة عينتاب . غير أن الشقى المذكور اعتبر مما جرى للمقتول (دلى حسين) ولاذ بالفرار قبل أن تصله تلك التجريدة ، فهدمت داره وأحرقت وجلبت مواشيه

وحبواناته وبيعت من قبل الحكومة وأحقت حقوق العباد . [٢٣٨ - ب]
وفى اليوم الذى يليه أقلنا مع السردار الأكرم من القرية المذكورة وقطعنا
مسافة أربع ساعات وخيمنا بمنبت البلوط على مسافة ساعة ونصف
أسفل قرية (الجريد) ، ثم عاودنا المسير فنزلنا بموضع قبالة قرية
(بيل ويران) ، وفى اليوم التالى قطعنا مسافة ثلاث ساعات وخيمنا
بمرج أخضر يعرف بـ (كول باشى) وهو فضاء واسع ، متراهب
الأرجاء .

ولما كانت أكثر أنهار (خرده) التى تجرى من قمم الجبل
الشامخ المعروف بجبل (نور الحق) ، تصب فى هذا الموضع ، فقد
تكونت به بحيرة مستطيلة يخيم البدو الرحل على ضفافها لعدة أيام ،
عند ذهابهم إلى مشاتهم ومصايفهم وإيابهم منها ، طلبا للراحة
والاستجمام .

وهذا الجبل المسمى جبل (نور الحق) ، جبل شامخ ينطاح
الفلك ، وفيما كنا نجتاز الهضبة المفضية إلى عينتاب من (عزاز) ،
كان الجبل المذكور ظاهرا لنا ، وإلى أن بلغنا (كول باشى) بقطع مسافة
أربع أو خمس ساعات لم يكن يغيب عنا . وعلاوة على هذا فقد قطعنا
مراحل ملاطيا وآرغون وحكىمى خاتى وحسن جلبى وآلاجه خاتى ،
[٢٣٩ - ١] وإلى أن انتهينا إلى (ديكلى طاش) كان ذلك الجبل لا يزال
ظاهرا لنا لم يختف . وعند إجالة النظر من خلف (ديكلى طاش) ، كان
يبدو وكأنه موضع يمتد ساعة أو اثنين أو ثلاث ساعات .

مجمل القول أنه جبل يقع بين لواء (بهسنى) وقضاء
(بستان) ، ولا ينقطع الجليد عن قمته صيفا وشتاء . ويبعدو اللون

الأبيض بدءاً من ثلثيه العلويين ، ويصطاف فى سفحه الكرد والتركماني
الرحل وغير الرحل ولا يتخطون إلى نصفه العلوى بسبب برودته
القارصة.

وننهضنا مع السردار الأكرم عن (كۆل باشى) وسرنا خمس
ساعات واجتزنا قرية (برورا) ، وحططنا الرحال على جانبى الجسر
الكبير الذى أقامه رشوان زاده عمر باشا على النهر العظيم المعروف
بنهر (كوصو) .

وفى تلك المرحلة قدم رشوان زاده سيد عبد الرحمن باشا
قائمقام بهنسى وهو تربية السردار الأكرم وغرس يمينه ، وقبل الأرض
بين يدى أمير الجيوش ، وأهدى إليه الجياد المسومة وإلى سائر رجال
الدولة ، فقبلت هديته وقدرت خدمته:

وفى اليوم التالى عندما نزلنا بساحة واسعة تجاه قرية (أركند)
على مسافة ست ساعات ، نبه على سيد عبد الرحمن باشا بالاجتهاد
وتحرى الدقة فيما كلف به مهام ، وأعيد إلى بلده بعد أن خلع عليه خلعة
السمور .

وتقع قرية (أركند) تلك فى موضع صخرى يتوسط واد عميق .
وهى أرض كثيرة الينابيع التى تتبع من شوامخ الجبال المحدقة بالقرية ،
[٢٣٩ - ب] ومن بينها نبع عظيم حرى بالإفاضة فى مدح مائه الزلال
والثناء عليه يسمى نبع (صقال طوتن) ، وما يجرى من هذا النبع من
جداول وأنهار يمر ماؤها على صخرة صماء حتى يبلغ نهر (كبود) .
وعلى جانبى تلك المسافة التى تبلغ أربع ساعات تنمو أشجار
(الدلب) الضخمة وسائر الأشجار الأخرى ، فينطبق عليها

قوله تعالى : { جنات عدن تجري من تحتها الأنهار }^(١) ولم نشهد نظيرا لها في البلاد التي طفنا بها وجبناها .

وقبالة قرية (برورا) بساعة جدول لطيف ، ينبع من جبل (جنب) تحت أشجار الجوز ، ويقول رحالة العالم عنه أنهم لم يشاهدوا مثله في صفاء مائه وبرودته .

وعندما نهضنا عن قضاء أركند المذكور ، سرنا ست ساعات ، وخيمنا بأرض كثيرة الينابيع تعرف بـ (سورمه لو بكار) قبالة قرية (سوركي) بساعة . ثم عاودنا التحرك منها وخيمنا على المشارف الجنوبية لقرية (كوزنه) على خمس ساعات .

وفي اليوم التالي سرنا أربع ساعات ، ونزلنا بطرف البساتين السفلية لقصبة (جبر مقدى) ، وفي اليوم الذى يليه الموافق ٣ من صفر الخير قفلنا كذلك من القرية المذكورة وقطعنا مسافة ثلاث ساعات ، [١ - ٢٤٠] ونزلنا بمصيف (أسبوزى) الذى تشتهر به ملاطيا .

وبما أن أكثر أغوات ملاطيا وأهلها ، كانوا خاصة خدام السردار الأكرم منذ أمد بعيد وتربوا على يديه ، فقد بسطوا الرجاء إلى ولى نعمتهم ومن له الفضل عليهم كيما ينزل بجيشه ضيفا عليهم .

ولما كان الصدر الأعظم (منصور اللواء) قد نشأ وترعرع في تلك النواحي ؛ فقد نازعه الحنين والشوق إليها ، وهى مسقط رأسه ، وأراد الاستئناس بأهلها ، فأعد الثكنات لنفسه ولكافة رجال الدولة وأهل الجيش الهمايونى قاطبة ، واستراحوا جميعا فى مقصورات ذات بساتين

١- الفتح : (٥) .

ورباحين ، فصفا بالهم وسعدت أرواحهم .

كما قدم كل من أحمد أغا - وكيل المناجم - وأمرأ بالو وأكيل وجيرمن وأغوات خربرت وجارسنق ، وأمين آرغنى ، ومحافظو كماغ وكرجائيس وسيوره ، [٢٤٠ - ب] وصوباشية آغجه طاغ وسائر أعيان المناجم الهمايونية وأمنائها وضباطها ، وزعماء قبائل تلك الجهات وعشائرها ووكلاء عمال مناجم الفحم ، لاستقبال السردار الأكرم ، وسعدوا جميعا بتقبيل الأرض بين قدمه .

ولما كان قد فارق المناجم الهمايونية منذ عدة سنوات ، فقد أسف كثيرا منهم بحاجتهم ، وقضاها لهم ، وأنعم على العلماء والصلحاء والمشايخ والدراويش والضعفاء وعطف بإحسانه إليهم .

عزل خلوصى أحمد أغا من وكالة المناجم وإسنادها لعبدي بك

عندما تبوأ السردار الأكرم منصب الصدارة العظمى رفع اقتراحه إلى العتبة العلية السلطانية بصرف المناجم الهمايونية من عهده وإحالتها لشخص آخر . ولما لم يكن هناك إمكانية لصرفها من عهدة حضرته ، صدر إليه الأمر السلطاني بتصريف أمورها من خلال وكيل مناسب ، يعين بمعرفته ؛ وعليه فقد وجه صهره عبدي بك إلى المناجم الهمايونية وكلا عنه .

وفيما كان الجيش الهمايونى مقيما بصحراء يافا صدر من عبدي بك بعض التصرفات غير اللائقة التى أنكرها حضرة أمير الجيوش ؛ فقام

بعزله وعين مكانه خلوصى أحمد أغا - من رؤساء بوابى
الباب العالى - ، وأرسل فى التو والحال فى طلب عبدى بك لىأتى إلى
الجيش الهمايونى ، [٢٤١-١] فقدم الأخير وراعى استحصال رضاء
ولى نعمته فى الجيش الهمايونى ولم يقدم على أى تصرف غير لائق
يستوجب العزل أو التعيين .

إلا أن أغوات نواحى المناجم التمسوا عزل خلوصى أغا وتعيين
عبدى بك ثانية وكىلا للمناجم . كما أن حق القرابة كان يقضى بأن يعامله
السردار الأكرم على ذلك النحو ، فقام بعزل خلوصى أحمد أغا من وكالة
المناجم ، وخلع خلعة الوكالة على عبدى بك وأسبغ عليه بره وعطائه ،
وخلع كذلك فاخر الخلع على كل من حضر لاستقباله من نواحى ملاطيا
من الأبناء والحكام والمتسلمين والمحافظين والبكوات ، كل على حسب
درجته ، ونبه عليهم ببذل الجهد واستفراغ الوسع فى الاضطلاع بمهام
وظائفهم ، ثم أذن لهم بالعودة أدرأجهم .

ذكر أوصاف ملاطيا ومصيف (أسبوزى)

يذهب الفلاسفة الأقدمون وعلماء الهيئة فى كتبهم إلى أن مدينة
ملاطيا تلك كانت من بين أعرق المدن التى بنيت منذ فجر التاريخ .
[٢٤١-ب] ويوافقهم فى هذا رأى كذلك حكماء ملاطيا ويذهبون معهم
إلى نفس المذهب .

غير أننا لم نصادف كتابا أو رواية تتناول أحوال ملاطيا
وتاريخها قبل قيام الإسلامية . وقد جاء فى بعض الكتب التاريخية

الموثوقة والتي لها الذبوع والانتشار بين الناس ، أن البلدة المذكورة قد فتحت حربا من قبل العرب في صدر سلطنة بني أمية ، وقتل خلق كثير من أهلها وأسروا خلق آخر ، وهدمت أسوارها وقوضت مبانيها وعمها الدمار والخراب . ونقل من تبقى من سكانها وأسكنوا في موضع آخر .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز ، أعيد تعمير البلدة المذكورة بتوطين بعض السكان فيها . ولما كانت تمثل ثغرا فاصلا بين كفرة الروم والمسلمين ، فقد أحكم بناء أسوارها وقلعتها ، وشحنت بالعساكر والحاميات وظلت تمثل ثغرا للممالك الإسلامية على مدار عهد خلفاء الأمويين وخلفاء العباسيين على السواء ؛ ولذا كانت من الممالك الإسلامية ذات الشأن والخطر . ولم تخل يوما من أبطال المجاهدين في سبيل الله ، وكان أهلها دائمي الإغارة على ديار الكفر ، ويقال أن (سيد بطل غزى) كان قد ولد بها وغزا عدة مرات أقاصى بلاد الروم .

وفي نهاية المطاف ، استولى السلاجقة عليها وبسطوا نفوذهم في أواخر عهد سلطنة العباسيين ، وصارت حاضرة لعروش سلاطينهم أمثال (كيكاس) ، و (كيكسرو) و (علاء الدين كيقباد) . [٢٤٢ - ١] وآثارهم الباقية إلى يومنا هذا ، تنهض دليلا على ما أسبقوه من إهتمام على تحصينها وإحكام أسوارها وتقوية مبانيها .

وبسبب غزو التتار للأناضول واجتياحهم له بعد ضعف الدولة السلجوقية واضمحلالها ، انفرط عقده بين طوائف الملوك ، وتناوب حكم ملاطيا تارة أمراء (الداشمندان) وتارة أخرى (ذو القدرية) بمساعدة سلاطين أنجرا كسة في مصر . وفي تلك الغزوات ظهر تيمور واستولى عليها ودمر قلعتها وسام أهلها الخسف والتنكيل . وبعد أن انطفأت شرر

شر تيمور فى الأناضول ، آل ملك ملاطيا إلى سلاطين العثمانيين أيـدالله سلطنتهم إلى آخر الزمان ، ويستظل أهلها جميعا إلى الآن بالظلال الهمايونية لحضرة السلطان ، وينعمون بالأمن والأمان وصفاء الحال ، وقد أشرف سورها القديم على الاتهيار اليوم ، وتبدو بعض آثارها المتهدمة فى أماكن متفرقة .

ويحف بملاطيا الجبال الشاهقة من شتى الجهات ، وفى إحدى تلك الجهات جبل (نور الحق) المتقدم ذكره ، وفى جهة أخرى جبال (بولام ، وطوجاق) ، ويتوسط تلك الجبال الأربعة سهل فسيح مترامى الأطراف يسمى سهل (ملاطيا) ، مروجـه وفيرة المحاصيل ، [٢٤٢-١] وجميع أشجاره ذات ثمار .

ويأتى نهر الفرات من مسافة ساعة تقريبا من شمالها ، ويأتى نهر (طوخـمه) كذلك من ساعة تقريبا من شمالها الغربى ، وبعد التقاء النهرين بصدر ملاطيا ، يجرى الأول إلى جهة بغداد .

ويمضى أهالى (ملاطيا) شهور الشتاء الستة بها ، وينزحون فى شهور الصيف الست إلى مصيفهم فى مروج (أسبوزى) على مسافة ثلاث ساعات .

ويتخلف بالمدينة عدد من الأهالى للحراسة . وليس منهم من يعاود الرجوع إلى المدينة طيلة شهور الصيف الست ، ما لم تمس حاجتهم إلى ذلك . أما مروج (أسبوزى) فهى إحدى المنتجعات الشهيرة فى العالم والحرية بالإطراء والمديح.

وينتشر بملاطيا الجوامع والمساجد والمدارس والمعابد ، علاوة على أن ما بها من حمامات وخانات وأسواق ووكالات ليس بالقليل . وأسواقها رائجة ، ومن ثم يؤمها الأكراد والعشائر من شتى النواحي . وفي الجهة العلوية من منتجع (أسبوزى) ، توجد قرى (تجده ، وكلاسك ، وبانازى ، وجيرمقدى ، وكوندوبك) ، لصق بعضها البعض ، لا يفصل بينهم فاصل .

ويجوار أعظم تلك القرى وهى قرية (كوندوبك) ينبع نهر عذب ، صاف يسمى نهر (دير المسيح) ، [١-٢٤٣] يكفى كافة عباد ملاطيا .

وعلى جانبى ذلك النهر من منبعه حتى نهاية مروج (اسبوزى) ، لا يخلو قدر شبر من أرض من الأشجار المثمرة وغير المثمرة متشابكات ، ويجرى النهر من تحت ظلال الأشجار حتى إذا بلغ مروج (أسبوزى) ، تفرع أفرعا شتى ، تيار كل منها يكفى لإدارة طاحون مائى .

وقد بنت على ضفتيه بيوت لطيفة ، تعمروا الروح ، ومن النادر أن يوجد بيت منها بلا نافورة أو فسقية . وسكانها ليل نهار فى الشوارع والمنزهات وعلى ضفاف النهر يتمتعون بالبهجة والصفاء .

إضافة إلى أن بساتين سروها وصنوف فاكهتها لا تدخل تحت حصر ، وقد نظم الشعر فى تفاحها على وجه الخصوص ، وهو يصدر إلى باقى نواحي المملكة .

مجل القول أن كوندوبك تلك بلدة كالفرديوس ، نادرة المثال .

خروج الجيش الهمايوني من ملاطيا

[٢٤٣ - ب] لم يعد هناك من حال يستوجب مكث الجيش الهمايوني ، علاوة على صدور العديد من الخطواط الهمايونية تستعجله الوصول إلى الباب العالي .

وبعد عشرة أيام من الاستراحة والاستجمام في مسروج (أسبوزي) ، ألقنا مع السردار الأكرم في اتجاه الآستانة ، وحططنا الرحال على جاتبي الجسر العظيم المعروف بـ (قرق كوز) ، والسذي يمتد فوق نهر (طوخمه) على مسافة ست ساعات . وينبع ذلك النهر من الطرف العلوي لقصبة (كرون) ويجري مخترقا بساتين قرية (دارنده) التي تفضل ملاطيا بطيب نسيمها وعذوبه مائها ، ويلتقي ذلك النهر ، بنهر آخر يسمى نهر (باللاغى) وهو السذي يتجمع من جداول (اوزون يايلا) أسفل دارنده بثلاث ساعات ، ويمضي من حواشى (آججه طاغ) ، ويمر من تحت جسر (قرق كوز) ، فيلتقي بنهر الفرات على مسافة ساعة جنوبا .

إنه نهر عديم المثال ، يفوق نهر الفرات عذوبة . ولقد عاودنا التحرك من المنزل المذكور ، وأقمنا بخصن البطريق على سبع مسافة ساعات ، ثم نزلنا حول حصن (حكيمى خاتى) ، وهو من آثار المرحوم كوبريلى محمد باشا ، يسكنه عدد لا بأس به من السكان ، يقومون على خدمة السابلة لقاء أجر . ثم عاودنا المسير من ذلك المنزل ونزلنا بـ (حسن جلبى) بعد مسيرة خمس ساعات ، ومنه بلغنا حصن ميناء (آلاجه خاتى) على

مسافة ست ساعات ونصف ، وهناك أقمنا المخيم . [٢٤٤ - ١]
 (و آلاجه خان) كذلك من آثار سلاطين السلاجقة ، ولم تزل بلا أنبئة ولا
 سكان اللهم إلا خان عتيق ، حتى أرسلت السلطنة السنية فى عام
 (١١٥٠ هـ) من أقام بها حصنا عظيما ، وأسكن بهذا الحصن سيد
 هاشم بك أمير جماعات (أستورلى وشماغه لى) من سنىي إيالة
 طاغستان الذين لانوا بالممالك العثمانية إبان اجتياح (طهماس نادر)
 بلادهم ، وعين الأمير المذكور أغا للخان ونصب من معه حماة له ،
 وبذلوا السعى الأوفى فى حماية السابلة وخدمتهم .

وإن يكن قد تشتت شملهم إلى حد ما من جراء هجمات شرانم
 السطاة والمغبرين ، فإن محافظتها الحالى عبد الغنى بك زاده سيد هاشم
 بك يبذل قصاراه بحماسة متفدده لحماية أبناء السبيل والذود عنهم .

ولقد تابعنا المسير كذلك من (آلاجه خان) وقطعنا مسافة سبع
 ساعات ونصف ، وخيمنا على أطراف قرية خربة تعرف بقرية (قنقال) ،
 ثم نهضنا عنها ، وتابعنا المسير ونزلنا أرضا كثيرة الجداول تجاه
 (ديكلى طاش) على مسيرة ست ساعات . وفى تلك المرحلة استقبلنا
 ديوركلى كوسه مصطفى باشا والى سيواس وقبل الأرض بين قدمى
 السردار الأكرم .

ولما كان مصطفى باشا هذا وزيرا غريب الأطوار ، به شىء
 من تصوف ، [٢٤٤ - ب] يتحرى العدل والنصفية ويرعى حقوق
 الرعية ، فقد قبل السردار الأكرم هديته وكانت عبارة عن عدد من الجياد ،
 وأغدى عليه العطاء بأكثر مما كان يتوقع وخلع عليه فروا سموريا ثمينا ،

كما خلع كذلك على كافة وجهاء سيواس الذين قدموا لاستقباله ، وأذن لهم جميعا بالتصريف إلى حال سبيلهم .

ثم نهضنا مع السردار الأكرم من تلك المرحلة ، وانتقلنا إلى صدر قرية (طونوس) على مسافة سبع ساعات ، وهناك استقبلنا عبد الفتاح بك نجل عبد الجبار زاده سليمان بك ، وكاتبه الحاج مصطفى أفندي ، ومرغ الاثنان جبينهما في تراب موطن قدم أمير الجيوش ، وجدا في خدمه الجيش الهمايوني .

ومن قرية (طونوس) تلك وحتى جبال كرون ، ودارنده وبستان هناك مصايف نادرة الوجود تبلغ مساحة كل منها أربعين ساعة ، وتنتشر بها الجداول والينابيع ، وتكثر بها أزهار (اللثة) و (الناردين) ، ويتوافد عليها أربع وعشرون عشيرة من نواحي (بوز اوق) و (كسكين) ، و الأكراد والتركمان الرحل من حواف الجزيرة العربية ، و (جقور آباد) لقضاء الصيف بمصايفها ، [١-٢٤٥] ثم ينتقلون إلى مشاتهم في أوائل الشتاء .

وتبلغ عشائر الرحل تلك نحو عشرين ألف أسرة ، وإذا ما أدركنا أن الضواحي المذكورة تفي بحاجة دواب ومواش هذا القدر من الأسر والعائلات ، لوضح لنا جليا إلى أي مدى هي واسعة ومتراصة الأتحاء .

غير أن تلك البقاع كانت موطن قدم العشائر والقبائل على النحو المذكور في الذهاب والإياب ؛ فلم تشغل في أي وقت من الأوقات ، وإن بقيت خالية من العمران .

ولقد عاودنا التحرك مع السردار الأكرم من (طونوس) ،
ونزلنا بجوار قرية (شابلو) على مسافة خمس ساعات ، ثم انتقلنا إلى
(شارقشلا) على مسافة ست ساعات . وصادفت أيام المضى إلى
(شارقشلا) تلك طقسا شديدا الحرارة ، وكان بتلك الجهات نوع من
الكلاب الضخمة الضارية تسمى (كوين) ، أزعت أفراد الجيش كافة
وسببت لهم متاعب جمة ، فوق أنها أزعت البعير وأهلكت اثنين أو
ثلاثة منها ، ورأى أهل الجيش هذا رأى العين .

ومن (شارقشلا) انتقلنا إلى قرية جمرک ، على مسافة ست
ساعات ومنها سرنا إلى قرية (جابر شيخى) ، ثم قرية (وذيلى) على
مسافة ست ساعات ، ثم انتقلنا بامتعتنا وأنقلنا إلى قرية (يازيلو طاش)
على خمس ساعات ، وفي اليوم التالى بسطنا فرش الاستراحة فى قصبة
(يوزغارد) التى يسكنها بنو عبد الجبار على مسافة سبع ساعات .
[٢٤٥ - ب]

وفى ما كان باقيا مرحلة على وصول قصبة (يوزغارد) تلك ،
أرسل حضرة المصدر الأعظم إلى سليمان بك ، يستعجله للقدوم لاستقباله
الجيش الهمايونى . وبعد أن حظى المذكور بتقبيل الأرض بين قدميه ،
مثل (يوزغارد) برفقة الذات السنية ، ونزل بالفسطاط الآصفى الذى
نصب فى الساحة الواسعة بصدر القرية ، وانتجعا مواطن انكلاف فى
المرحلة المذكورة ثلاثة أيام لإراحة دوابنا وفى الأيام الثلاثة تلك دعا
سليمان بك السردار الأكرم ورجال الجيش الهمايونى جميعا إلى قصره ،
وبالغ فى إكرام والحدب بهم ، وهيا لهم أفخر الموائد ، وقدم لهم التحف
والهدايا على حسب مرتبة كل منهم ، وأدى حق السردار الأكرم عليه

على خير وجه ؛ فخلع الصدر الأعظم (منصور اللواء) عليه ثوبا سموريا ثمينا كان من متعلقاته الشخصية ، كما خلع على نجله الكريم عبد الفتاح بك ؛ إضافة إلى أنه جاد عليه ببعض من رعوس الجياد المصرية والعربية الأصيلة ، وأغدق النفحات على خدمة دائرته كبيرا وصغيرا .

وبعد أن أقمنا مع السردار الأكرم أياما ثلاثة في تلك المرحلة ، أقتلنا عنها ، وانتقلنا بأثقالنا إلى قرية (طوباج) على ثلاث ساعات . [٢٤٦-١] ومع أن جبار زاده سليمان بك كان قد التمس مرافقة السردار الأكرم لعدة مراحل ، لم يأذن له على أية حال ، وأعادته إلى داره . وفي اليوم التالي برحنا قرية (طوباج) ونزلنا بقرية (أرسلان حاجيلر) على ست ساعات ، وانتقلنا منها إلى قرية (طفاصلى) على أربع ساعات ، ومنها إلى قرية (حسن على أوغلو) على مسافة خمس ساعات ، ثم قرية (حاجيلر) على ست ساعات ، فقرية (مالجيلر) ثم خيمنا بصدر مدينة (أنقره) وتلبثنا ثلاثة أيام أخرى بالبلدة المذكورة للراحة والاستجمام ، وإراحة دوابنا كذلك ، وأغدق السردار الأكرم نفحاته وصدقاته على علمائهم وصلحاتهم ومشايخهم وفقرائهم بأكثر مما كانوا يأملون ، وخلع على متسلمها ووجهائها .

ثم تابعا المسير معه من أنقره ، ونزلنا بمنزل (جابر) ، [٢٤٦-ب] ثم انتقلنا منه إلى قصبة (عياش) على مسافة ست ساعات . وقبل وصول الجيش الهمايوني إلى (عياش) تلك بمرحلتين ، كان محافظها مسعود قد أدى اللازم من الخدمات للجيش الهمايوني خير أداء ؛ فحاز على بركة رضا أمير الجيوش عليه ، وأثنى على حسن

معاملته لسكان البلاد ، فزين كتفه بفرو سموري ، وثبته في منصبه كما في السابق .

وفي اليوم التالي نزلنا بصدر (بك بازاري) على ست ساعات .

قتل الحاج (كل حسن أوغلو) محافظ (بك بازاري)

كان ذلك الشقي من أهالي (بك بازاري) ، استطاع بطريقة ما أن يصبح محافظا على هذا القضاء ، ولما كان في مسقط رأسه لم يكن يكف عن العبث فلما وفسادا في تلك البلدة . وفيما كان حقا عليه بذل السعي في الضرب على أيدي المجرمين والأراذل والسهر على راحة الرعايا والعباد ، استطال على سكان البلدة المذكورة وفرض عليهم عددا من المكوس والضرائب ، فأذل الغنى والفقير بشتى صنوف الحيف والجور والأذى ، وجوع فقراءهم وجعل ثراتهم لا يملكون شروى فقير . وإبان وصول السردار الأكرم بالجيش ، استولى الخوف والفزع على الشقي المذكور مصداقا لقول : " الخائن خائف " ، وغطن إلى أنه إذا ما مر الجيش الهمايوني بطريق (بك بازاري) ، فسوف يرفع أهاليها شكاياتهم إلى حضرة الصدر الأعظم ، [٢٤٧ - ١] مطالبين بالعدل والنصفة

ومن ثم جافى النوم عينيه ، ولبت متعازضا بداره التي بناها من الحجر وجعل لها مزاغل ومتاريس وأحكمها على شاكلة القلعة ، بحسبها عاصمة له ، وأرسل إلى السردار الأكرم يعتذر له عن عدم مقدرته على

القيام والحركة ، واصطحب عدة منات من (السكياتية) تحسبا لما يجد من ظروف .

وعلاوة على أن أمير الجيوش كان قد تحرى عن أحوال الشقى المذكور وتأكد من تصرفاته الظالمة والمتعسفة ، فباته في اليوم السعيد الذي مد فيه ظلال عدله على (بك بازاری) تلك ، قدم إليه عدد لا حصو له من الرجال والنساء ممن ظلمهم الشقى المذكور وجار عليهم ، يطلبون العدل والنصفة . فما كان منه إلا أن أرسل في التو والحال (ملاطيه لسي أوغلو) صوبانسي القرية المذكورة في عدة منات من الديوانكان لإحضار المذكور ، فجاءوا به وألقوه بين يدي حضرته ، وحقق معه ، ثم أمر به فقتل . وسر بذلك سكان المملكة سرورا عظيما وملأ الفرح قلوبهم ، [٢٤٧-ب] وعين الدفتردار أفندي المباشرين لمصادرة أموال الشقى المقتول وحواصله ، والتحفظ على كافة أملاكه لبيعها فيما بعد .

وقد شكر الفقراء والضعفاء للسردار الأكرم صنعهم بهم ؛ إذ خلصهم من ذلك الشقى الملعون ، ودعوا له وللسلطنة السنية بالخير .

وبعد أن بقينا مع السردار الأكرم يومين لاستئصال شأفة الشقى المذكور، نزلنا بقرية (صاريلا) على مسافة خمس ساعات ، وانتقلنا منها إلى قصبة (كيوه) على ست ساعات ، ومنها إلى قصبة (صباتجي) على تسع ساعات ، ثم طوينا المنازل وقطعنا المراحل ، فانتبهنا إلى صدر (أنكميد) على مسافة خمس ساعات . استقبل رجائي خليل زاده - الدفتر دار السابق - الجيش الهمايوني ، واستقبله كذلك سيد محمد أفندي كتخدا بابيه في صدر (أنكميد) وشرف الاثنان بتقبيل ذيل ثوب ولي نعمتهما وصاحب الفضل عليهما ، [٢٤٨-١] وطار خلق كثير لاستقبال الجيش

الهمايوني بصدر ازكميد تلك ، وسروا جميعا بلثم ذيل حضرة السردار الأكرم .

وبعد أن لبثنا مع السردار الأكرم يومين بذلك المكان ، رحلنا إلى (هرکه) على مسافة أربع ساعات ونصف ، ثم غادرناها إلى صحراء (مالديه) على مسافة أربع ساعات ونصف .

وبما أن استقبال القائمقام باشا لحضرة السردار الأكرم وكافة رجال الدولة العلية بعد أن أقاموا أياما عدة بـ (مال ديه) ، وتوصيله لهم في موكب عظيم حافل إلى ميناء (اسكار) الكبير وركوبهم جميعا البحر من ذلك الميناء ، وإطلاق المدافع إطلاقا غير مسبوق المثال احتفاء بعودة حضرة السردار الأكرم، وكيفية دخوله إلى الحضرة العلية للخليفة الأعظم واحتفائه به وتلفه معه ، بما أن كل ذلك مدون على وجه التفصيل في سجل وقائع الدولة العلية ، فقد سكتنا عن تفاصيل الوقائع المذكورة .

وبعد أن انتهت ملحمة رسالتنا في هذا الموضوع ، شرعنا في خاتمتها في الترجمة لوزراء الجيش الهمايوني ورجاله . [٢٤٨ - ب]
وفقنا الله تعالى لإتمامها بحرمة طه ويس .

الخاتمة

وحديثنا فى هذه الخاتمة عن تراجم الوزراء العظماء والميرميران الكرام أولا، ورجال الدولة ذوى الاحترام ثانيا .

الحاج إبراهيم باشا

من ضواحي حلب ، نشأ فى طائفة (أغوات الأندرون) ، لحق بخدمة الوزراء العظام فى الأتوية القصية ، ففضل أقرانه وطالهم ، وفى النهاية خرج للحج كأغا قطار فى إمارة المرحوم محمد باشا العظم ، ولذا اشتهر بالحاج إبراهيم (أغا القطار) ، ولدى عودته ، قدم حلب الشهباء ، واستقر بها ، وفى هذه الأثناء حدث أن نفى (جلبى أفندى) - كبير أعيان حلب الشهباء - إلى قبرص ، فصفا الجو لإبراهيم باشا وخلت له الساحة ، فدخل المحكمة والديوان وحظى بمنزلة عظيمة بين الوجهاء والأعيان ، وأخذ القدر يسوق له الفرص حتى نبه ذكره وذهب له صييت بعيد .

وبسبب من استقامته ونزاهته فى مباشرته لأعماله ، وتفانيه فى خدمة الدولة والولاة على حد سواء ، أسندت إليه (محصلية حلب) وقائمقاميتها على التوالى ، فصار منقطع النظر ، ليس فى حلب فحسب بل فيما جاورها من بلاد . ومن بعد ، حينما اقتضت الضرورة تعيين وال دمشق إبان استيلاء الفرنسيين على مصر ، نال إبراهيم باشا رتبة وزير ، ولم يمض ثلوىل زمن حتى خلع من الوزارة ، [١-٢٤٩] ثم

أعيد إليها من جديد دون أن يمضى وقت طويل . وبعد حين من الزمن قدم الجيش الهمايوني .

ولما كنا قد بينا آنفا على وجه التفصيل خروجه إلى مصر مع الجيش الهمايوني وبعضا مما كلف به من مهام ، وعودته أدراجه إلى حلب الشهباء في معية الجيش الهمايوني ؛ اكتفينا بهذا القدر من ترجمته.

شيخ زاده إبراهيم باشا

حفيد الشيخ يوسف أفندي — أحد كبار المشايخ والأولياء بديار بكر — والابن الرشيد لإسماعيل أغا عين ديارها . بعد أن لحق والده بالرفيق الأعلى ، صارت له الصدارة على الأعيان والأقربان ، وأصبح يشار إليه بالبنان ، وفي الوقت الذي كان الجميع فيه يغبطونه على منزلته حتى يرجع إليه الوزراء العظام الذين يأتون إلى الولاية ، لم يدرك قيمة راحة البال ، وتآقت نفسه إلى حمل عبء الوزارة الثقيل ، فسعى للوصول إليها ، وتقلد أولا قائمقامية الرقة ، ثم نال رتبة الوزارة ، وبعد فترة صار محافظا على أنطاكية .

وحينما كان الجيش الهمايوني في طريقه إلى دمشق ، أسند إليه السردار الأكرم ولاية ديار بكر ، ثم كلفه بالالتحاق بالجيش الهمايوني . ولما كان به شيء من التواني والتثاقل ، فقد أسندت إليه ولاية (جدة) . ولما كنا قد استفضنا في ذكر كيفية انفضاض جنده من حوله ، [٢٤٩-ب] وقدمه الجيش الهمايوني ، ومصاحبته له في الزحف على

مصر ، وتوليه ولاية (أدنه) ، وخلعه من الوزارة ورحيله وتقاعده ببيته ، اكتفينا بهذا القدر ولم نركن إلى الإسهاب .
والجدير بالذكر أن المشار إليه ، كان وزيرا ، كاتباً ، شاعراً ، منقطع النظير ، الملقب بـ (حفيد) في ديوانه الذي يلقي قبولا وذبوعا بين الظرفاء .

شريف باشا

نجل المرحوم سليمان باشا والى جلدز . بعد وفاة والده أسندت تلك الولاية إلى اسحق باشا ، وفي هذه الأثناء هاجم شريف باشا وأتباعه من البكوات ، التابعين له في الولاية وأتباع المرحوم والده (آخسخه) ، وحاصروا اسحق باشا وضيقوا عليه الخناق حتى طردوه عنوة من الولاية وغلبوا هم عليها .

ومن بعد تشيبت شريف باشا بالشفاعة ، وبفضل مساعدة الظروف له نال رتبة وزير بسهولة غير أنه جحد نعمة امتلاكه ولاية مثل آخسخه وتوليه عليها نحو عشر سنوات ، فصدرت منه بعض التصرفات غير اللائقة والتي استنكرتها السلطنة السنية ؛ ومن ثم في الوقت الذي كان فيه السردار الأكرم باسطا حمايته ومهابته على ولاية أرضروم صدر أمر سلطاني قاطع بإسناد ولاية أدنه إلى شريف باشا وإلحاق ولاية جلدز بأرضروم ، وإخراجه من آخسخه على أية حال ، فخرج إليه السردار الأكرم من أرضروم ونما نبأ ذلك إلى المشار إليه ، ففر أول الأمر ، ثم منح الأمان ، [٢٥٠ - ١] وأرسل السردار الأكرم في طلبه وأرسله إلى

منصبه فى ولاية (آدنه) لتسيير دفة الإدارة بها ، ثم رحل إلى ولاية حلب .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف قدم دمشق وإلى أيسن سرت به المقادير ؛ ولذا لن نخوض فى تفصيل ذلك هنا .

رجب باشا

هو نجل زاره لى زاده محمد باشا ، وفى الوقت الذى كان فيه المشار إليه رانبا البحر من محافظة (ودين) ، متوجها إلى ولاية (سيواس) ، ولد له رجب هذا على صفحة البحر ، ولذا لقب به (رجب البحرى) .

وبعد وفاة والده نشأ وترعرع فى بلدة سيواس ، وفاق الأعيان والأقران فى الجود والكرم ، [٢٥٠ - ب] وأرسل الرسائل غير مرة إلى السردار الأكرم يخطب وده ويتذلل إليه ، حتى لجأ إلى بابه وزعم إخلاصه له ، وعندما آلت الصدارة العظمى إلى السردار الأكرم ، التمس منح المذكور الوزارة ، فأجابه حضرة السلطان إلى ذلك ومنح رجب باشا رتبة وزير وأسند إليه إمالة سيواس .

وبعد بضعة أشهر من إقامته بها ، مضى للحاق بالجيش الهمايونى وصحبه إلى مصر . وحيث أننا أسلفنا ذكر عودته من مصر ، وخلعه من الوزارة وتقاعده فى (توقاد) ، اكتفينا بإجمال القول فى ترجمته .

الحاج محمد باشا

هو نجل المدعو (أبو مرق) متسلم غزة . بعد وفاة والده لحق بخدمة الحاج إبراهيم أمير الحج ، ولم يزل يحقق شهرة وبنه ذكره فى مناصب أغوية العجم فى طريق الحج ، وأمانة الشعير ووكالة الخرج بالرها وأذنه ومرعش ، حتى صدر فرمان بالقضاء عليه^(١)، فزحفت عليه جملة أخرجه من ماله وملابسه ، فاحتفى بباب السردار الأكرم عاريا حافيا وانخرط فى سلك عبيده ، فأكرمه وأظهر له بالغ الحفاوة وولاه أمانة الشعير ، ثم وكالة الخرج بأرضروم ، فضلا عن بعض المهام الجليلة الأخرى .

ولما تبوأ السردار الأكرم منصب الصدارة العظمى ظفر محمد باشا مجددا بأمانة الشعير ووكالة الخرج . [٢٥١-١] ومن بعد عندما زحف الجيش الهمايوني على بلاد العرب ، عاهدت إليه مجددا المهام المنقمة ذكرها ومضى فى معية الجيش السهاميوني . وفى منزل (جسر يعقوب) وبينما كان الجيش متجها من دمشق إلى يافا ، رقى عن جدارة واستحقاق إلى ميرميران ؛ وذلك بناء على استعداده الفطرى وإعجاب كل من السردار الأكرم ورجال الدولة كافة به على حد سواء . وعندما فتحت قلعة العريش رقى إلى وزير . وكنا قد استفضنا فى ذكر منحه رتبتي ميرميران ووزير ، وما أسداه من خدمات للجيش الهمايوني ، وعليه رفعا القلم فى هذا الباب .

١- لم يذكر المؤلف ما بدر من محمد باشا حتى صدر ذلك فرمان ضده (المترجم) .

ذكر منجى زاده مصطفى باشا^(١)

كان رئيس توفكجية المرحوم علوى باشا وأحد رجاله ، أسدى
 جليل الخدمات فى وزارته فأصبح كتخداه ، ومن بعد ونزولا على رغبة
 سيده المشار إليه نال رتبة وزير . ولما أعدم علوى باشا من بعد أسند
 إليه منصب مناسب لاستمالاته ، ثم منح مرعش شريطة خروجه إلى
 مصر ، فمضى من الروملى إلى مرعش فى حشد من جنوده حسبما دعت
 المهمة التى كلف بها ، وبعد أن لبث بتلك القرية بضعة أيام لحق بالجيش
 الهمايونى فى يافا . [٢٥١ - ب] ولما كانت تصرفاته وأحواله محل
 تقدير السردار الأكرم وإعجابه ، فقد حظى منه بكل العطف والإحسان .
 ولما كنا قد ذكرنا آنفا ما أظهره من ضروب البسالة إبان فتح
 قلعة العريش ، وكيفية استشهاده فى آخر الأمر عندما انفجرت به
 القلعة ، اكتفينا بهذا القدر من ترجمته .
 كان رحمه الله وزيرا ، شجاعا ، هاما ، وقورا .

١ - تنطق بالتركية : داير منجى (المترجم)

فندق زاده حسين باشا

ولد باحدى قرى (جوروم) لشخص يقال له (فندق أوغلو) . عمل أول أمره بخدمة حرم مقداد باشا ، ثم انخرط فى سلك (اغوات الأندرون) فى أبواب الوزراء العظام ، إلى أن أصبح (جوقدارا) لعوى باشا ، ثم (سلاحدارا) لـ (شينك زاده مصطفى) باشا ، وأثناء مأمورية الأخير فى (طاغلى) ، أبدى حسين باشا هذا قدرا من البسالة ، فالتمس له رتبة سير ميران . وبعد أن علا قدره بها ، نال رتبة وزير فى زمن يسير .

ولما كان قد أسند إليه ولاية (آدنه) — إبان هجوم الفرنسيين على مصر — شريطة المضى مع الجيش الهمايونى ، مضى من جهة الروملى إلى جهة منصبه وصحبه حشد من جنده ، وبعد أن مكث بها بضعة أيام ، خرج سريعا للحاق بالجيش الهمايونى . [١-٢٥٢]

ولما كنا قد ذكرنا تفصيلا فيما تقدم لقاءه بالجيش الهمايونى وإصابته فى المعركة التى وقعت بمصر وما بدر منه من عنف لدى العودة إلى يافا ، ورحيله فى حشد من الرعاع والأوباش إلى جهة الرقة وديار بكر لما أسندتا إليه ، وذكرنا كذلك إقدامه على البغى والعدوان وظلم الناس بشكل غير مسبوق المثال ، وخلعه من ولاية ديار بكر لهذا السبب، والتحيل لاستدعائه إلى نواحي سيواس بحجة إسنادها إليه ، وتكليف طيار محمود باشا وكوسه مصطفى باشا وعبد الجبار زاده سليمان بك باستتصال شافته ، وانهزام جنده وتشتت شملهم بعد بضع مناوشات وقعت بقرية (يكى خان) ، ووقوعه فى أسر فرسان عبد الجبار زاده،

وأعمال السيف في رقبتيه ، فقد ضربنا عنه صفحا ففى هذا الموضوع تحاشيا للتكرار .

لقد كان وزيرا شجاعا ، جريئا ، منقطع النظير ، إلا أن قتله كان واجبا لإراحة البلاد والعباد .

نصوح باشا

من بنى العظم ، تولى عددا من الولايات فى بلادى وزارته . غير أنه لم يفلح فى كسب رضا الدولة العلية ، فخلع من الوزارة وألزم بالإقامة فى موضع مناسب وعندئذ ذهبت به بعض الظنون والهواجس — التى لم يكن لها أساس — مذهبها ففر إلى بلاد المغرب ، ثم لجأ إلى مصر . وفى هذه الأثناء غزاها الفرنسيون واستولوا عليها ، فاضطر إلى الفرار منها إلى الجزيرة العربية ، وفى اليوم الذى استقلت فيه دمشق بظلال الجيش الهمايونى، [٢٥٢ ب] قدم نصوح باشا وعفر الجبين على عتبة الصدارة العظمى ، فأُسندت إليه ولاية مصر وأعيد إلى الوزارة .

وبعد أن عاد الجيش الهمايونى خائبا منكسرا ، بقى نصوح باشا مع كتحدا عثمان أفندى بمصر ، وخاض إلى جانبهِ معارك المقاومة التى وقعت ، غير أنه لم يكن من الأشخاص الذين يسدون ثلمة للدولة العلية ؛ ولذا خلع مجددا من الوزارة عند العودة إلى يافا ، وأحيل إلى التقاعد فى حلب الشهباء .

إسماعيل باشا

من أهالي (عربكير) . كان كتحدا المرحوم دكرمنجى زاده مصطفى باشا وعندما استشهد سيده أسندت الوزارة إلى كتحده بإجماع الآراء كيلا يتشتت شمل إدارته . ولما كنا قد ذكرنا فيما تقدم كيفية نياله الوزارة ، وسائر أحواله ، فقد اكتفينا بهذا القدر من ترجمته تحاشيا للتكرار .

طوسون محمد باشا

كان أحد رؤساء الجبجية فى الجيش الهمايونى ، ولما كنا قد ذكرنا على وجه التفصيل كيف أسندت إليه ولاية جدة لمادعى الأمر تنصيب وزير عليها وإرساله إليها ، [٢٥٣ - ١] وذكرنا كذلك مضيئه لمباشرة مهام منصبه وما وقع له حتى لحق بالرفيق الأعلى ، اكتفينا بهذا القدر من سيرته .

حافظ باشا من (الميرميران)

من أهل أدرنه ، شغل زمنا منصب (آغا السلام) عند سليم باشا ، ثم أصبح ميرميرانا فى البوسنة ، وبعد أن جابها بضعة أيام ، التقى بالجيش الهمايونى فى قونيه ، فأنفذ إلى مصر فى عدد من خدمه .

عمل المذكور بالجيش (شونا قجيا) ، حينما ، و (يساقجيا) حينما آخر ، ولدى عودة الجيش الهمايوني عين محافظا على الرحمانية ؛ ومن ثم لم يتأت له اللحاق بالجيش الهمايوني . وهو إلى الآن قائما فى منصبه .

رشوان زاده سيد عبد الرحمن باشا من الميرميران

هو حفيد عمر باشا — من بنى رشوان — إحدى العائلات العريقة التى استحوذت على الوزارة والإمارة فى الدولة العلية منذ أربعة قرون من الزمان ، اصطفاه السردار الأكرم حينما كان قائما بأمر المناجم الهمايونية من بين أمراء بنى رشوان ، [٢٥٣ - ب] وتوسط له لدى الباب العالى حتى منح رتبة ميرميران ، فضلا عن تعيينه على قضاء (بهسنى) وما يليه ، ولم يكن يرفض له طلب .

ولما كنا قد ذكرنا آنفا قدوم المشار إليه بقدر من صفوة المشاة والفرسان لمؤازرة الجيش الهمايوني عندما عاد من مصر منكسرا ودخله إليها ثانية ، ثم عودته إلى داره مستأنفا ، وذكرنا جميع أحواله وما وقع له ؛ لم نبال بتكرار تلك التفاصيل .

طاهر باشا وقلندر باشا (من الميرميران)

لما كانت أحوال المشار إليهما ووقائعهما في الجيش الهمايوني - قبل وبعد منحهما رتبة (ميرميران) - في غنى عن التفصيل والبيان؛ فقد رفعنا القلم في هذا الباب .
وحتى هذا الموضع أوردنا جملة وتفصيلا تراجم الوزراء العظم والميرميران الكرام ، ومن بعد ذلك سوف يكون حديثنا عن تراجم أحوال رجال الدولة العلية على قدر وقوفنا عليها .

عثمان أفندي كتحدا الصدر الأعظم

هو ابن المرحوم مورده لى سليمان أفندي ، لشغف والده بالعلم والمعرفة حض ابنه على تحصيل شتى العلوم ورغبة في ذلك ، فصار - وبحق - سعد الدين التفتازانى الثانى وأصبح له ما للعلامة شريف الجرجاني من فضل . [١-٢٥٤] عمل المذكور بقلم مكتوبى الدفتردار وجد في ذلك واجتهد حتى صار في زمن يسير قدوة أصحاب القلم وزبدة أرباب القلم ؛ ومن ثم أسندت إليه عن جدارة واستحقاق وظائف جليلة عدة ، منها مثلا وظيفة مكتوبى الدفتردار وكتب الكتحدا . كما قد أمانة الترسانة حيناً ، ففاق أقرانه وأصبح ملء السمع والبصر، يشار إليه بالبنان بين رجال الدولة . ظل فترة قابعا بداره السعيد عاطلا ، حتى آل منصب الصدارة العظمى إلى السردار الأكرم ، فأنكر إقامته في بيته عاطلا في زمن صدارته ، ورفع قدره برئاسة الشايشية .

وبما أننا استقضنا فيما تقدم في ذكر توليه منصب كتخدا الصدر الأعظم ورحيله مع الجيش الهمايوني إلى مصر ، وذكرنا كذلك كافة أحواله أثناء تلك الرحلة وعودته إلى الباب العالي بعد أن استأذن الصدر الأعظم ، ثم رجوعه إلى مصر وتوليه منصب كتخدا من جديد ، اكتفينا بهذا القدر من ترجمته .

كان الأفندي المشار إليه وبحق من أساطين رجال الدولة العلية ، نأمل ألا نكون قد بخسناه حقه .

رشيد مصطفى أفندي

هو صهر الصدر السابق أمين باشا رحمه الله الذي اشتهر بـ (جلبي أفندي) . بعد أن لحق بزمرة سادة الدبوان العالي تولى عددا من المناصب ، مثل كاتب الكتخدا ، [٢٥٤ - ب] كما تقلد منصب كتخدا الصدر الأعظم .

ولما ظهر إخلاصه وسداده فيما كلف به من مهام ، وحازت تصرفاته رضا السلطان ، قلد بإجماع آراء مريدى الخير من رجال الدولة منصب دفتر دار الصدر الجديد ، ولم يزل يبذل السعى في القيام بمهام منصبه حتى رجل الجيش الهمايوني قاصدا مصر ، فمضى معه وتفانى في الاضطلاع بما عهد إليه من مهام .

وبعد أن عاد الجيش إلى يافا مهزوما تالت المذكور شدة ، عاد على إثرها إلى الآستانة بعد أن استأذن الصدر الأعظم ، ففضى هناك بضعة أيام مسترسلا في تفكيره . وفيما كان عاقدا العزم على اللحاق

بالجيش الهمايوني من جديد ، إذ بالأمر يقتضى استبقائه بالآستانة لتقليده منصب مرموق ، أفاض عليه السلطان من سوابغ أفضاله كيلا يناله ما ناله من مشقة وعناء فى رحلته إلى بلاد العرب [٢٥٥-١]
كان رشيد أفندى رجلا حميد السجايا ، كريم الخصال ، أسمى الذهن ، مشرق النفس ، حسن الظن بكل الناس ، رحما بهم .

راسخ أفندى

من أهل استانبول ، لا علم لنا بأوائل أحواله ، منح رتبة ميرميران إبان ذهابه إلى روسيا سفيرا على أن يجرد منها لدى عودته ، اضطلع بمهمة السفارة وعند عودته إلى الباب العالى أسندت إليه بعض المناصب الرفيعة . وفى النهاية عندما اعتزم الجيش الهمايوني الخروج إلى مصر قلد رئاسة الكتاب . ولما كنا قد ذكرنا آنفا كيفية ذهابه مع الجيش الهمايوني وسائر أعماله وأحواله ، اكتفينا بهذا القدر الموجز من ترجمته .

كان المذكور شخصا حميد السجايا ، حاضر البديهة ، حصيف
الرأى .

سعد الله أفندى

دعت الضرورة لتقليد شخصين آخرين منصبى الاستيفاء ورئاسة الكتاب اللذين كانا قد شغرا بعودة رشيد أفندى وراسخ أفندى إلى الآستانة

بعد أن استأذنا الصدر الأعظم ، [٢٥٥ - ب] فأرسل سعد الله أفندي لتولى منصب الاستيفاء .

كان المذكور قد نشأ في قلم مكتوبى الدفتردار ، كما كان قد ظفر بمنصب (كاتب العربية) بعد أن أصبح مكتوبى الدفتردار منذ فترة طويلة ، وبعد أن تولى كتحدا عثمان أفندي الدفتردارية عدة أيام ففى يافا، اعتزم الرحيل إلى الآستانة ، وعندئذ آل منصب (مكتوبى دفتردار الصدر العالى) إلى رجائى خليل أفندي ، ونال سعد الله أفندي منصب كتحدا الصدارة العظمى ، غير أنه عزل من منصبه بعد أن دخل مصر فى معية الجيش الهمايونى عندما قلد عثمان أفندي (الكتخدأوية) من قبل السلطان ، فركب سعد الله أفندي البحر عائدا إلى الآستانة وإلزم داره .

ولما كان المشار إليه رجلا ذا عفة ونزاهة ، فقد تسأتى له أن يصل أسباب الود والصدافاة بكل الأشخاص زمن اضطلاعاه بالكتخدأوية والاستيفاء .

محمود رائف أفندي رئيس الكتاب

ولد باستانبول . اكتسب معرفة وخبرة فى إدارة المكتوبى ، ففارق أقرانه وبسق عليهم ولما اتفقت آراء أولى العقل على إرسال سفراء أكفاء من أهل الفطنة والذكاء للوقوف على أحوال أوروبا ، أرسل محمود رائف أفندي سفيرا للدولة العلية بإنجلترا . [٢٥٦ - ١] وفى فترة مكثه بها والتي قاربت ثلاث سنوات ، لم يأل جهدا فى تعلم مختلف اللغات الأوربية ، وبذل فى ذلك جهدا جهيدا ، كما توفر على دراسة توارىخ

الإنجليز وسائر تقاليدهم ، وتأتى له الوقوف على أمورهم كافة وأمر دول أوروبا وأحاط علما بخفاياها ، وخبر حيل الأوربيين ومكائدهم . ولما كان الجميع يشهد له بذلك ، فإنه لدى عودته من تلك السفارة ، أسندت إليه نظارة الأسطول الهمايوني عندما لزم إرساله إلى (كورفو) على إثر غزو الفرنسيين لمصر .

وعندما عاد محمود رائف أفندى إلى الآستانة بعد فتح (كورفو) ، أسند إليه منصب (بككجى) مكافأة له على ما أسداه من خدمات للدولة . وبعد أيام من ذلك اقتضى الأمر تعيين شخص خبير بمنصب رئاسة الكتاب الذى شغل بعد عودة راسخ أفندى رئيس الكتاب من يافا . ولما كان محمود أفندى — على نحو ما أسلفنا تفصيله — واقفا على دقائق أحوال دول أوروبا ، كانت له الجدارة والأولوية دون غيره بشغل ذلك المنصب ؛ ولذا صدرت الأوامر السلطانية برفع منزلته بمنصب رئاسة الكتاب ، وهو منصب تتعلق به آمال الكتاب وتتوق نفوسهم إليه .

[٢٥٦ - ب]

وقد بذل المشار إليه قصارى جهده فيما نيط به من مهام ، ودخل مصر مع الجيش الهمايوني وباشى تسوية بنود اتفاق جلاء الفرنسيين عنها بما يتفق ومصلحة الدولة والدين . وعندما عاد الجيش من مصر استبقى بها كتحدا عثمان أفندى بأمر السلطان ؛ ومن ثم ألحقت وكالة الكتخداوية برئاسة محمود رائف أفندى ريثما يصل إلى استانبول ، ومن بعد رجوعه إلى الآستانة صدرت الأوامر السلطانية بتثييبته فى منصب رئاسة الكتاب عن جدارة واستحقاق ، فأجل قدره ، وأعلى شأنه .

خليل رجائي أفندي

تحدّر من سلالة الشيخ علوان نجل عاشق باشا — من الأولياء العظام المدفونين بقرية تعرف بقرية (تكية علوان جلبسى) فى لواء أماسيا ، وكانت ولاية الأوقاف حكرا على أولاد عاشق باشا ، وقد انتقلت فيهم من بطن إلى بطن حتى أفضت إلى والد رجائي أفندي ، وبعد وفاته آلت إليه هو ، وهذا هو عمدة السبب فى أن آباءه وأجداده — منذ فترة من الزمان — وهم يعرفون فى تلك النواحي بـ (آل المتولى) .

وفى النهاية نزعت الولاية من أسرته ، [٢٥٧-١] فزایل والده وطنه لبعض الأسباب ، ونزح إلى استانبول ومات بها بعد بضعة سنوات ، وكان رجائي أفندي آنذاك لا يزال طفلا فى العاشرة من العمر . وعندما ضاق العيش بأمه فى الآستانة ، اصطحبت أطفالها وعادت بهم إلى القرية المذكورة موطنهم الأصلى .

وكان رجائي قد استوفى زمنا طويلا فى خدمة أحد العلماء الأفاضل ودرس يديه ، فحذق عنه الكتابة والإنشاء ، ثم مشى فى ركاب فيضى سليمان أفندي وهو من كبار رجال الدولة ، فقلده منصب (كاتب الخزانة) لما منح رتبة وزير .

ولما خلع فيضى من الوزارة ، قدم رجائي أفندي الآستانة وعمل فى باب لاله محمود بك ، وانتفع من مصاحبته له انتفاعا عظيما . ولما أفل نجم حياة محمود بك ولحق بالرفيق الأعلى ، لازم رجائي أفندي قلم المكتوبى واشتهر بحسن خطه ، فعلا قدره وزاد اعتباره .

ثم اتجه المذكور صوب المناجم الهمايونية مكلفا ببعض المهام ، ولما كان السردار الأكرم قائما بأمرها آنذاك ، فباته لحسن حظ رجائى أفندى وسعد طالعه ، ارتبط بالسردار الأكرم - حاتمى الكرم - وفى نهاية المهام المكلف بها ، رغب السردار الأكرم فى أن قلده منصب (كاتب الديوان) ، ففارق رجائى أفندى ، [٢٥٧ - ب] على أن يمضى إلى الآستانة ويعود أدرجه سريعا .

وبعد بضعة أشهر قدم رجائى (أرضروم) ونهض بمنصب (كاتب الديوان) ، ولزم السردار الأكرم فى عملياته العسكرية فى أرضروم وأخسحه وجانكركر ، وفى تلك الغضون ولى منصب (وكيل الكتخدا) غير مرة ولم ينفك ساعيا فى إنجاز ما يكلف به من مهام . وفى النهاية عندما آل منصب الصدارة العظمى إلى السردار الأكرم قدم رجائى أفندى الآستانة فى معيته ، وحدث أن بدر منه من الأحوال ما أثار حفيظة السردار الأكرم وأسخطه عليه . وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه أن يسند إليه منصبا رفيعا ، عهد إليه بـ (كتابة السفن) المسماة (قليون) حطا من قدره ونيلًا من منزلته .

وفى هذه الأثناء التمس صادق أفندى - مكتوبى الصدر العالى - تعيين رجائى أفندى فى منصب (باش خليفة) وذلك إبان مضى الجيش الهمايونى إلى جهة مصر ، فما كان من السردار الأكرم إلا أن رفض ذلك رفضا باتا ، إلا أنه اضطر على إثر إلحاح الحاج صادق أفندى فى طلبه إلى إجابة ذلك الطلب ، ومضى رجائى أفندى إلى الجيش الهمايونى فى منصب (باش خليفة) .

ولما توفي صادق أفندى عند وصوله إلى دمشق ، لم يكن بين (الخلفاء) الموجودين فى قلم المكتوبى من هو أحق وأجدر من رجائى أفندى للقيام بمهمة المكتوبى الجسيمة . [٢٥٨-١] ولما أظهر رجال الدولة الصدر الوقور على ذلك واقترحوا عليه تقليد رجائى أفندى منصب المكتوبى أجابهم إلى ذلك .

ونهض رجائى أفندى بما كلف به من مهام على خير وجه زمن رحيل الجيش إلى مصر وعودته منها وزمن إقامته بيافا ، ولم يؤخذ عليه أى مأخذ ؛ ولذا أسند إليه منصب (الاستيفاء) الذى كان قد شغل عندما عزل سعد الله أفندى من الدفتردارية ، وقد كتخدأوية الصدر الأعظم رجائى أفندى بإجماع آراء رجال الدولة .

ولقد عانى المذكور الأمرين فى تسيير أمور منصبه ، وما من سبيل إلى إنكار ما بذله من سعى مشكور وتفان - على الأخص - حينما خرج الجيش الهمايونى قاصدا مصر ، ولما قدر له دخولها بعد ما جرى له من خطوب عظيمة بسبب تعديات الجند .

ولما كانت كافة إيرادات مصر متركزة فى يد دفتردارها ، فقد تحصل له أموال طائلة فى زمن يسير ، واستشاط فى جباية الضرائب ؛ مما أوغر صدور أهالى البلاد وأثار سخطهم عليه .

وفضلا عن فتور العلاقة بينه وبين الجند بسبب تأخر رواتبهم ومستحققاتها ، اشتد عليه حنق السردار الأكرم ، فعزله من الدفتردارية قبل خروج الجيش الهمايونى من مصر ، [٢٥٨-ب] وأذن له بالعودة بحرا إلى الآستانة ، فوافاه المذكور ، وقبع بدار أعدها لتوه .

وبعد أن وصل السردار الأكرم إلى الآستانة بالجيش الهمايوني ،
أحصى على رجائي أفندي عددا من المآخذ مما حدا به وبكافة أركان
الدولة إلى السعي لعزله من دفتردارية مصر بعد أن صدر أمر همايوني
بتوليته إياها من جديد ، غير أن مساعيهم قد حبطت ، ومضى رجائي
أفندي إلى مصر بحرا .

واستشهد الأفندي المذكور على أيدي عصاه الجند بتحريض من
أمراء المماليك المصريين الفراعنة ، وذلك بعد خروج خسرو باشا من
القاهرة على أثر الفتنة العظيمة التي اشتعلت بسبب نزاعه مع الجند على
رواتبهم المتأخرة .

والواقع أنه ليس لأى أحد أن ينكر ما كان لرجائي أفندي من
سعة كرم ، وهو وإن لم يكن ذا حظ من العلم والمعرفة ، فقد فاق أقرانه
وفضلهم فى الكتابة والإنشاء ، وكان يسهر ساعيا فى أداء ما يكلف به
من مهام ، وكان جديرا بالاضطلاع بأى مهمة تعهد إليه ، غير أن
المذكور لم تكن تأخذه شفقة بمن تحت سلطته من الفقراء والبسطاء ،
فتسبب فى ضيق الحال بهم وإفلاق راحتهم بحجة صيانة بيت المال
والحفاظ على المال الميرى .

كما كان المذكور سيىء الاعتقاد بالمتصوفة وأهل الحال ، رغم
أنه كان فى الأصل من بيت مشايخ وأولياء ، [٢٥٩ - ١] مما أثار
نقمتهم عليه وكان سببا فى هلاكه . تجاوز الله عن زلاته وسيناته .

تحسين أفندى

ولد باستانبول ، عمل بقلم (رئاسة المحاسبة) حتى أصبح قدوة
أرباب القلم وإمام أصحاب الرقم . وعندما خرج مع الجيش الهمايوني إلى
مصر ، حسن سمته في وظيفة (كيسه دار) دفتر دار أول رشيد مصطفى
أفندى ، وبعد أن تقلد (وكالة الاستيفاء) بضعة أيام عاد إلى الآستانة
مستأذنا ، وبعد أن دخل الجيش الهمايوني مصر ثانية صدرت الأوامر
بإسناد دفترداریة مصر إلى شريف أفندى ، فأنفذ في معيته تحسين أفندى
(دفتر دار ثان) وظل مضطلعا بمنصبه هذا في مصر حتى عزل رجائي
أفندى ، فأحيل منصب الدفترداریة الشاغر إلى عهده .

وقد خرج المذكور مع الجيش الهمايوني إلى الآستانة ، ولما
بلغها ثبت في منصب (الاستيفاء) ، ثم عزل بعد فترة ليتولى نظارة
الحبوب .

إنه رجل دمث الخلق ، عالى الهمة ، سريع القلم ، يبر الفقراء والمشايخ
ويكرمهم .

صديق أفندى المكتوبى

لما كنا قد تعرضنا لترجمته في ذكر وفاته بدمشق ، لم يعد بنا
من حاجة إلى تكرارها .

حميد أفندي المكتوبى

كان من خلفاء المكتوبى ، ولما كان رئيسا لخلفائه فى زمن
دفتردارية رجائى أفندى ، نال عن جدارة واستحقاق منصب المكتوبى
الذى شغل ، ولازم الجيش الهمايونى فى رحلته إلى مصر وعودته منها
وأظهر ضروبا من الإخلاص والتفانى . [٢٥٩ - ب] ولما انتهى الجيش
إلى الآستانة ، عزل من المكتوبية ، وقُلد منصب (تذكرجى ثان) .
إنه رجل قوي الخلق ، تقى ، زاهد ، ورع .

عبد الشكور أفندى

هو ابن راسخ أفندى رئيس الكتاب ، عمل فى قلم المكتوبى
ورحل مع الجيش الهمايونى تشريفاتيا ، وعندما عاد والده إلى الآستانة ،
رافقه مستأذنا ، فأل منصب التشريفاتى إلى سيد سالم أفندى .

سيد سالم أفندى

كان والده رجلا تقيا ورعا يدعى (آدنوى) أفندى - من
أصحاب الكرامات - وهو معلم رئيس الكتاب السابق (برى عبد الله)
أفندى ، وحينما كان سيد أفندى طفلا فى الثامنة من عمره ، توفى والده
فتولى (عبد الله أفندى) تربيته كرامة لأستاذه ورعاية لحقوقه عليه ،
فلقنه العلم والمعرفة ، وعلمه الإنشاء والكتابة وجعله يلازم قلم

المكتوبى. وبسبب من ذكائه الحاد وطموحه انصرف عن قلم المكتوبى ،
وطاف بين إدارات الباشا مشغلا بالكتابة ، فمضى إلى طرابلس الشام
كاتباً لديوان موسى باشا ، وشاعت الأقدار أن يفارق المذكور بعد فترة
قصيرة ، ليصل أسبابه بأسباب السردار الأكرم فى أرضروم ، ويمشى فى
ركابه .

وفى زمن اضطلاحه بالكتابة فى بابيه لأكثر من عام ، حدث أن
آلت الصدارة العظمى إلى السردار الأكرم ، فرافقه إلى الآستانة ، وألقى
بزمرة (سادة الديوان) . [١-٢٦٠]

وقد خرج سيد سالم أفندى مع الجيش الهمايونى إلى مصر ،
ولما رجع إلى الآستانة فى مهمة وعاد أدراجه إلى الجيش الهمايونى ،
صدر أمر بتقليده منصب (تشرىفاتى) الذى كان قد شغل بعودة عبد
الشكور أفندى إلى الآستانة ، غير أنه بسبب ما اعتراه من ضعف وهزل
لم يقو على السفر فى صحارى يافا ، ولذا عزل من منصبه بعد أشهر ،
وأذن له بالعودة إلى الآستانة ، فأل منصب التشرىفاتى إلى عبدى بك
كاتب الكتخدا .

عبدى بك كاتب الكتخدا

هو نجل المرحوم نورى بك ، اكتسب الخبرة والدراية فى قلم
المكتوبى وصار له باع طويل فى فن الإنشاء . قلد غير مرة عدد من
المناصب مثل كاتب الكتخدا والتشرىفاتى ، وفى النهاية صاحب الجيش
الهمايونى إلى مصر كاتبا للكتخدا ، ولما عزل سيد سالم أفندى — على
نحو ما تقدم ذكره — أسند إليه منصب (تشرىفاتى) فى يافا إلحاقا ، ثم
جرد فيما بعد من ذلك المنصب ، وقلد منصب كاتب الكتخدا فحسب . وبعد

عدة أشهر عزلت أنا نامق هذه الحروف من منصب (تشريفاتي) ،
وألحق هذا المنصب من جديد بعهدة عهدي بك . وقد تقدم ذكر عودته إلى
الآستانة متقلدا منصب (تشريفاتي) و (كاتب الكتخدا) .
إنه رجل كريم الخصال ، [٢٦٠ ب] جواد .

خليل ماهر مولوى أفندى

وصف بكمال معرفته وحنكته فى قلم المكتوبى واشتهر بوفرة
سهمه من الفنون والعلوم ، منح رتبة الأفندية إبان خروج الجيش
الهمايونى إلى مصر ، فصاحبه ضمن كتاب (قلم المكتوبى) ، ولما توفى
سيد صادق أفندى أفضى منصب (المكتوبى) إلى رجائى أفندى ، وصار
خليل أفندى (باش خليفة) ، وبعد أيام ظفر بمنصب (كاتب الجبجبة)
فى يافا ، ثم صار أفندى للاكشارية .
ولما توفى بليغ أفندى إلى (آمدجى) بمصر ، وقع الاختيار على خليل
أفندى ليخلفه فى منصبه فعاد إلى الآستانة متقلدا ذلك المنصب ، ثم تقاعد
من بعد وقبع فى داره .

إنه شخص كريم ، عارف ، زاهد ، متدين ، ورع .

صفى أفندى إلى (البكلكجى)

ولد باستانبول ، اكتسب الخبرة والمهارة فى قلم الديوان ،
وصحب الجيش الهمايونى فى منصب (بكلكجى) فحسنت مباشرته وحاز

على رضا أولى الأمر ، ثم عاد إلى الآستانة مع الجيش الهمايوني ، وثبت في منصبه لحسن سيرته وسريته وهو محل تقدير واحترام الجميع.

إنه رجل معدود الصفات ، كريم السمات .

تحسين أفندي رئيس وكلاء المكتوبى

هو الابن الرشيد لـ (ديوركل يازيچى أحمد) أفندى ، نشأ في قلم المكتوبى حتى صار له الباع الطويل في الشعر والكتابة والإنشاء ففائق أقرانه وفضلهم . [١-٢٦١]

وبسبب قلة الكتاب وكثرة المهام والأعباء فيما كان الجيش الهمايوني مرابطاً في باغدا ، تم استدعاء عدد من الكتاب من الباب العالي ، فسير تحسين أفندى هذا إلى الجيش الهمايوني ، ومعه واحد أو اثنين من الكتاب .

ولما أصبح حميد أفندى مكتوبياً ، ظفر تحسين أفندى بمنصب (باش خليفة) ، فاستفرغ الوسع في خدمة الجيش الهمايوني ، وبأشر مهام منصبه على خير وجه ، وعاد إلى الآستانة بصحبة الجيش الهمايوني ، ولا يزال يبين عن الجد والتفان في منصبه حتى الآن . إنه رجل متقد الذكاء ، راجح العقل ، صحيح الفهم .

رامز عبد الله أفندي

من أهل القرم ومن علماء ديارها ، نزح إلى الآستانة لما احتلت المنطقة المذكورة ، واشتغل بالعلوم العقلية والنقلية واكتسب فضلا وكمالا . وعندما زحف الجيش الهمايوني إلى مصر ، صار نائباً للمعسكر ، فأظهر تفانيا وسدادا واستقامة في أداء مهام منصبه . وكان يسترشد في عمله بأحكام الشرع الشريف ولما أرسل السلطان المدعو (حسن أفندي) قاضيا للجيش ، وكان به شيئا من تعصب ، صحبه رامز أفندي وصدرت بعض التصرفات الخرقاء عن حسن أفندي هذا ، بسببها عزل من قضاء مصر الذي كان قد وليه بعد دخول الجيش إلى مصر ، وبعد أن استتيب الحاج قدسي أفندي نحو ثلاثين يوما ، ولي رامز أفندي هذا منصب (قاضي مصر) ، [٢٦١ - ب] وضم إليه منصب (كاتب الميرى) ، ومن بعد عندما ظهر قاضي مصر ثانية ، قنع رامز أفندي بكتابة الميرى ، وعاد مع الجيش الهمايوني إلى الآستانة .

ولما انتهى المذكور إليها استنكف عن العمل بسلك التدريس والتمس الدخول في زمرة (سادة الديوان) ، فأجيب إلى ذلك وأسندت إليه روزنامة مصر ، وأرسل إليها مع خليل رجائي أفندي — فحلت به المصائب بدرجة فاقت ما حل بسيد على — قبودان السويس الشهير — وبعد مشقة وعناء عاد إلى الآستانة حافيا عاريا ، وحمد الله على نجاته بجلده .

إنه رجل فاضل ، معروف برشده وسداده وحسن استعداده وتضلعه في شتى العلوم .

أحمد أغا (أغا الإنكشارية)

خرج من الآستانة مع عمر أغا - أغا الإنكشارية - ولما منح
 الثانى - على النحو المتقدم ببيانه المير ميرانية ، شريطة تولية محافظة
 العرش - آلت أغوية الإنكشارية إلى كتخدا العبيد أحمد أغا وكنا قد
 بسطنا القول فى مير ميرانية عمر باشا وكيفية وفاته .
 وقد بذل أحمد أغا كذلك قصارى جهده فى مباشرة مهام منصبه ،
 وعندما عزم الجيش الهمايونى على العودة برا ، سمح لأحمد أغا بالرحيل
 بحرا ومعه كافة كتالبه ، فركب البحر ووافى استانبول حيث خلد إلى
 الراحة بجوسقى (تكة لى) .
 كان رجلا دمث الخلق ، أهل تدين وعفة وزهد . [٢٦٢-١]

عثمان بك رئيس الجبجية

عندما نال طوسون باشا رتبة وزير ، بوأ عثمان بك - من
 رؤساء بوابى الباب العالى - رئاسة الجبجية ، فبذل السعى الوفير فى
 الاضطلاع بمهام منصبه ، ولدى عودة الجيش الهمايونى ، عاد معه إلى
 الآستانة فى صحبة فرق الجبجية وسائر الفرق العسكرية .

حسن أغا أمين النزل

من أهل (سلاتيك) ، شاء القدر أن يستقر بالآستانة ، فحظى بمنزلة وحرمة برتبة رئيس بوابين في الباب العالي ، أخذ على عاتقه بعض المسؤوليات الجسام ، وخدم الدولة العلية واكتسب شهرة باضطلاع به بعض المهام الصعبة والشاقة منها على سبيل المثال جمرک استانبول. وإبان رحيل الجيش الهمايوني إلى مصر ، تحتم تعيين شخص أميناً للنزل على أن يكون حى الضمير ومن أولى الثراء والسعة ، فصدر الأمر بتقليد عثمان بك ذلك المنصب ، فأظهر إخلاصاً وتفانياً وهمة عالية في أداء مهام منصبه ، وتولى تدبير ميرة الجيش الهمايوني دون تقصير. وفضلاً عن ذلك ، عندما أسندت إيالة دمشق إلى عبد الله باشا العظم ، عين حسن أغا قائماً لدمشق علاوة على منصبه وذلك لتدبير أمور الجيش الهمايوني ريثما يصل عبد الله باشا . وحينما خرج الجيش الهمايوني إلى مصر ولحقت الهزيمة به ، أرسل حسن بك إليها ضمن طلائع الجند ، ولما دخل كتحدا عثمان أفندى — على النحو السالف بيانه — مصر ، مضى إليه حسن أغا المرابط بها أساساً وسائده في أمور شتى وأبرز بسالة فيما نشب من معارك . وفي النهاية بعد أن عاد عثمان أفندى إلى يافا صحبه المذكور ، وكانت قد نالته شدة واعتزته علل مختلفة من طول السفر ، فرق السردار الأكرم لحاله ، وأذن له بالعودة إلى الآستانة ، فعاد إليها ولبت بداره مشتغلاً بأمانة جمرک استانبول ثانية .

مصطفى بك أمين النزل

ولد بـ (آخسحه) . ولما كان والده من أهل الآستانة ، فقد قدمها في شرح شبابه ، وبعد وفاة والده ، علت منزلته وارتفع شأنه برتبة (سلاحشور) ، ثم رتبة (رئيس بوابين) في الباب العالي ، وتقلب في عدد من المناصب ، وفي النهاية تقلد كتخداوية باب عبد الجبار زاده سليمان بك متصرف (يوز اوق) ؛ ولذا اشتهر بـ (مصطفى بك كتخدا باب جبار زاده) ، وبعد أيام عزل مصطفى بك من منصبه لبعض الأسباب ، وحل محله (أوقاتي زاده سليمان بك) كتخدا لعبد الجبار زاده .

وفيما كان مصطفى بك يمضي وقته في داره منشغلا بحاله ، عاد حسن أغا أمين النزل من الجيش الهمايوني إلى الآستانة مستأذنا ، فألت أمانة النزل التي شغرت إلى (مصطفى بك) ، ومضى إلى يافا وأبان عن سداد وتفان فيما نيظ به من مهام سواء في زمن مكث الجيش الهمايوني بيافا أو إبان مضيه إلى مصر ودخولها ، وما أبداه من سعي مشكور في سائر المهام لدى خروج الجيش الهمايوني من العريش إلى الصالحية كان محل تقدير الجميع .

وفي نهاية المطاف بعد أن دخل المذكور مصر في معية الجيش الهمايوني ، نازعه حنين وشوق عظيمين لزيارة بيت الله الحرام ، فاستأذن في الذهاب إلى البقاع المقدسة ، وأجيب إلى ذلك ، ونصب زميرلي شريف باشا — من رؤساء بوابي الباب العالي — أمينا للنزل .

وفى التو والحال اتخذ مصطفى بك للسفر أهبطه ، وركب البحر
من ميناء القصير ، وكسب سعادة الدنيا وأحرز مثوبة الآخرة بزيارة
الحرمين الشريفين ، ثم قفل راجعا إلى الآستانة مع حجاج الروملى ،
ونزل بداره آمنا سالما ، وانتشغل بالدعاء بدوام عمر السلطان ودولته .
كان شخصا حميد السجيا ، أمارا بالبر ، [٢٦٣ - ب] ساعيا
فى الشهامة والمروعة .

ولقد اكتفينا بإيراد هذا القدر من تراجم العظماء فى الخاتمة ،
ورغم وجود الكثير والكثير من كرام سادة الديوان المعطى ، ورؤساء
بوابى الباب العالى ، وسائر خدام الدولة ، وضباط الفرق العسكرية ممن
ساهموا فى هذه الحملة الهمايونية وكان لهم عليها يد بيضاء ، فهذا
المختصر لا يتسع لإيراد مزيد من التراجم ، وأكثر هؤلاء ذكروا فى
مواضعهم بما أسبغوا من خدمات للجيش الهمايونى ، فكان هذا القدر
حسبنا . وعلاوة على عجزى أنا الفقير فى فن الكتابة والإنشاء لما أمرت
بكتابة هذه الرسالة بأسلوب فى مستوى فهم العوام والخواص ، نهجت
نهج (حمزة نامه) وكتبت رسالتى هذه بلغة تركية بسيطة عارية من
الفصاحة والبلاغة ، ولتقبل قرائى الكرام عذرى ولتغاضوا عن سهوى
وما ترديت فيه من خطأ . ومصادقا لقول الشاعر :

كتبت هذا كي يبقى أبـد الدهر
وأنا لا أبقي وهو يبقى إلى أـبـد الأبدن
أصبحت أنا تحت الثرى بأحزائي وآلامي
ولا يـري أحـد ما حـالي

سيبقى ما كتبته - أنا التمس - من بعدي في صحيفة الوجود ، فليدع لي
من يطالعـه من الكرام الفضلاء ، ويقرأ الفاتحة حسبة لله ترحما عليّ ،
والله الهادي عليه اعتمادي ، تمت الحروف بعون الله الملك الرؤوف .

كشاف بالمصطلحات التاريخية والعثمانية الواردة في (ضيا نامه)

— أ —

● آقجه

وحدة نقدية فضية كانت تستخدم في الدولة العثمانية .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٤٤

● أمير آخور

هو متولي أمور الأسطبلات السلطانية وكبير العاملين بها .

M.Sertoglu , (a.g.e), s. ١٥٣ / ١-٢

● أمدجي

هو الاسم الذي كان يطلق على رؤساء الكتبة العاملين في الأقسام
المختلفة للديوان السلطاني .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٥ .

● أمين الشعير

هو الشخص المختص بتدبير كلف الحيوانات من عشب
وشعير... إلخ .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٦ .

● أمين النزل

هو الموظف المختص بتجهيز أماكن معسكر الجيش وما تمس إليه حاجة الجند من مؤن ، ويُسمى أيضاً مفتش النزل .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) , c. ٢ , s. ٧١٠ / ٢ .

● أغا السلام

موظف في معية الصدر الأعظم وبعض الوزراء تتحضر مهمته في استقبال الزائرين وضرب مواعيد المقابلة للصدر الأعظم والوزراء .

M. Sert oglu , (a.g.e) , s. ٢٩٠ / ٢ .

● أغاي مستحفظان

المستحفظان : طائفة من الجند ممن بلغوا سن التقاعد (أربعون سنة) ، ويُناط بهم مهمة حراسة البلاد وحفظ الأمن بها وحراسه القلاع حين تخرج سائر فرق الجيش إلى الحرب ، وأغاي مستحفظان هو لقب من كانت له رئاسة هذه الطائفة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢ / ١٣٣٦

● أندرون — (خدمه الأندرون)

أندرون كلمة فارسية تعني داخل الشيء ، وخدمه الأندرون أو (أغوات الأندرون) اسم أطلق على طائفة من الخدم المختصين بالخدمة الداخلية للقصور السلاطين والصرر العظام .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣ / ١٧٥

M. Sert oglu , (a.g.e) , s. ١٥٠ / ٢ .

● الإنكشارية

اسم مركب من كلمتين : يكي " وتطلق يني " بمعنى جديد ،
وجرى " وتطلق تشري " بمعنى الجنود ، وتعني الجنود الجدد ، وهو اسم
أطلق على الجيش المنظم الذي استحدثه الأمير أورخان غازي في القرن
الـ ١٤ الميلادي ، وكان هذا الجيش يتألف من الأسرى النصارى الذين
ينشئون تنشئة إسلامية ويُعلّمون اللغة التركية ، كان لهذا الجيش دور عظيم
فيما حققتة الدولة إبان ازدهارها من انتصارات عسكرية ، ثم فسد نظام
الإنكشارية وكثرت تمرداتهم واعتداءاتهم على السلطان وأجهزه الدولة ،
وفشلت كل محاولات إصلاحهم ؛ فأبادهم السلطان محمود الثاني سنة
١٨٢٦م فيما عرف بـ (الوقعة الخيرية) .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٣٤١/١,٢ - ٤٣٢/١ .

● أوج أنباري (عنبرلي)

ضرب من السفن الشراعية الضخمة كان يتألف من ثلاثة طوابق
، بدأ تصنيعه في أواخر القرن الـ ١٧ الميلادي ، وكانت كل سفينة منه
تحمل على متنها نحو ١٢٠ مدفعاً ، وقرابة ١٠٠٠ من البحارة .

Ertugrul Düzdg : Gazavat - I Hayreddin pasa , Tercuman . ١٠٠١

Temel Eser , c.I , s. ٤٣ .

● أوده باشي

لقب أحد الضباط في أوجاق الإنكشارية تنحصر مهمته في تنظيم
مراسم السلام في المواكب والإشراف على أمور الانضباط في كتائب
الإنكشارية .

B. Sitki Baykal , (a.g.c) , s. ١٠٢ .

— ب —

● الباشا العالي

اسم أطلق على الإدارة المركزية للحكومة العثمانية وفيها مقرر الصدر الأعظم ، وأطلق هذا الاسم في بادئ الأمر في عهد السلطان عبد الحميد الأول ، وكان اسمها من قبل باب الباشا .

M. Sertoglu , (a.g.e) , s. ٢٦٣/١ , ٢٤/١ .

● باشا

هو اللقب الرسمي للوزراء وبعض كبار الموظفين وكبار القادة العسكريين ، كما أطلق على بعض العلماء ممن بلغوا مستوى رفيع من العلم والمعرفة .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٠٩ .

● باش باقي قولي

لقب أطلق على كبير مفتشي المالية في الدولة العثمانية .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٢٢ .

● الباش تبديل

موظف في القصر السلطاني يخرج متكرراً لأداء مهام يُراد لها التكنم والسرية .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) , c. ٣ , s. ٤٢٨ .

● بطرونة

وهي الرتبة التي تلي رتبة قائد الأسطول العثماني .

M. Sertoglu , (a.g.e) , s. ٢٦٤/١ .

● بكباشي

كلمة تركية بمعنى رئيس الألف وهي رتبة عسكرية في جيش (العساكر المنصورة) وهو الجيش الذي نظمها السلطان محمود الثاني عقب إبادة جيش الإنكشارية .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٤٥/٢ , ١٨/٢ .

● بلوكباشي

اسم مركب من كلمتين : بلوك " بمعنى كتيبة أو سرية " ، وباش " بمعنى رئيس " ، والياء ياء الإضافة وتعني رئيس الكتيبة أو قائدها ، وهو اللقب الذي أطلق على قادة الكتائب في الجيش الإنكشاري .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٣٣٢

● بكلكجي

لقب رئيس قلم الديوان السلطاني لدى العثمانيين .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/٢٩٩

● البوستنجية

فئة من الجند كانت تنحصر مهمتهم أول الأمر في الخدمة في حدائق القصر السلطاني العثماني ، ثم أسندت إليهم من بعد مهام الحراسة في قصر السلطان .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٣١٤

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٢٧ .

● بيرون

بيرون كلمة فارسية بمعنى خارج الشيء ، وخدام البيرون أو (أغوات البيرون) اسم كان يطلق على فئة من الخدم المختصين بالخدمات الداخلية بقصور السلاطين العثمانيين والصدور العظام .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٤٧/١ - ٢ .

— ت —

● تذكره جي

لقب كان يطلق على مديري الأقلام الخاصة للصدور العظام وسائر الوزراء ، وكانت مهمة هؤلاء تنحصر في تحرير ملخصات القضايا والمسائل وتقديمها للصدر الأعظم أو الوزير .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٣٩٢

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٣٩ .

● للترساة العامرة

اسم يطلق على دار صناعة السفن البحرية ومقر إدارة الشؤون البحرية باستانبول .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٣٩٧

● التشريعاتي

وظيفة استحدثها السلطان سليمان القانوني ، ويسمى القائم بها التشريعاتي أفندي أو التشريعاتجي أفندي ، وكان هذا الموظف على علم بكل المقابلات والزيارات الخاصة بالصدر الأعظم والوزراء ، وكان يضطلع بمهام وظيفته طبق ما لديه من سجل خاص بأصولها وقد ظل هذا الموظف

في القصر السلطاني حتى عهد السلطان أحمد الثالث ثم انتقل إلى ديوان
الباشا بعد ذلك .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٣١٥/١ .

● التوفكجية

طائفة من الجنود كانت مهمتها تقتصر على صنع البنادق
وصيانتها وحملها وقت الحرب .

B. Sitki Baykal . (a.g.e) , s. ١٤٢ .



● الجردة — فرق الجردة

طائفة من الجند مهمتها حماية طرق القوافل المتوجهة إلى الحج
وتأمينها .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٣٠ .

● الجبجية

فئة من الجنود المشاة مهمتها صناعه الأسلحة وصيانتها
وتجهيزها لاستخدام الجنود في المعركة .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٢٩ .

● الجوريجية

مفردها جوريجي ، وهو اللقب الذي أطلق على أحد ضباط جيش
الإنكشارية وكانت تعادل رتبته رتبة يوزباشي (رئيس الـ ١٠٠) كما
أطلق هذا اللقب على الوجهاء والأعيان .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٦٩/٢ .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٣٤ .

● الجوقدارية

فئة من الخدم كانت تقوم بالخدمة في قصور السلاطين والوزراء ، كانوا يلبسون ثيابا من الجوخ أو يقفون خلف ستار من الجوخ انتظارا لما يلقي عليهم من تعليمات وأوامر .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٥٢١

— خ —

● خاصكي

لقب أطلق بصفة عامه على قدامى الخدم في القصر السلطاني ممن حازوا رضا السلطان وثقته ، كما أطلق هذا اللقب على صغار ضباط أوجاق (البوستجية) الموكلون بمختلف الشؤون الداخلية بالقصر السلطاني

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ١٣٣/٢ .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٥٨ .

● خزينة دار

لقب أطلق على الموظف الذي كان يتبع الوزراء وكبار رجال الدولة ويختص بحفظ خزائنها وتدبير أمورهم المالية .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٥٨٠ .

● الخط الهمايوني

اسم يطلق عموما على كل ما يخطه السلطان بنفسه من أوامر ، ويطلق على الخط الهمايوني كذلك خط شريف وإرادة همايونية .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ١٣٦/٢ .

● خليفة

لقب كان يطلق على كتاب أو موظفي الطبقة الأولى في دوائر الباب العالي .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٥٧ .

● خوجه

كلمة فارسيه الأصل تعني كبير عائلة ، حاكم ، وال .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) , c. ١ , s. ٨٤٥/٢ .

— د —

● الدرہ بكوات

مفردها دره بك ، وتعني بك الوادي وهو اسم أطلق على فئة من موظفي الحكومة تعاضم نفوذهم حتى طغى على نفوذ الحكومة المركزية نفسها ، وقد بدأ هؤلاء الموظفون في التزايد منذ أواخر القرن الـ ١٧ ، وكان أغلبهم من المتسلمين والمحصلين واضطرت الدولة إلى مصالحتهم ومهادنتهم لفترة طويلة ، وأحياناً كانت تسمح الظروف فتجرد عليهم الحملات التأديبية ، ولم يأت القرن الـ ١٩ حتى وقع الأناضول بأكمله في يد هؤلاء (الدرہ بكوات) إلى أن تمكن السلطان محمود الثاني من استئصال شأفتهم والقضاء عليهم في النهاية .

M. Sert oglu , (a.g.e) , s. ٧٥/١ .

● الدفتردار

لقب كان يُطلق على كبير المحاسبين المتولي النظر في الشؤون المالية في الدولة العثمانية ومهمته مهمة وزير المالية الآن ، كما كان هذا

اللقب يطلق على متولي تدبير الشؤون المالية في ولاية من ولايات الدولة العثمانية .

M. Sert oğlu , (a.g.e) ,s. ٧٣/٢ - ٧٣/١ .

● الديوان الهمايوني

وهو بمثابة مجلس الوزراء في الوقت الحالي ، وكانت تنظر فيه في الشؤون المالية والإدارية والسياسية والشرعية ، كما تعرض فيه الشكاوى والظلمات ، وكان هذا الديوان يتشكل أساساً من الصدر الأعظم ووزراء القبة والقبودان باشا وقاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول ورئيس الإنكشارية ورئيس الكتلة ورئيس الشاويشية .

M. Sert oğlu , (a.g.e) ,s. ٧٩/٢ .

● الدلاء أو الأدلاء

فرقه من الفرسان استحدثت في (الروملي) في أواخر القرن الـ ١٥ الميلادي ، ولما كان هؤلاء من الشجاعة والجرأة بحيث يحملون على الأعداء بتهور غير مباليين الموت ليمهوا الطريق للجيش ، فقد حُرف اسمهم (دليلار) أي الأدلاء ليصبح (دليلار) أي المجانين .

M. Sert oğlu , (a.g.e) ,s. ٧٤/٢ .

● الديوانكان

مفردها ديوانه وتعني المجنون ، وهو لقب أطلق على طائفة الأدلاء المتقدم التعريف بها .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٦٤٦ / ٣

— ر —

● رئيس الكتاب

لقب كان يطلق على رئيس الكتاب في الديوان السلطاني إلى نهاية القرن الـ ١٨ الميلادي وكانت له مكانة عظيمة في الدولة ، ثم أصبح هذا الموظف يعنى بتحرير ما يتعلق بالشئون السياسية والاتصالات الخارجية والسفارات الأجنبية ، وتطورت مهمته فأصبحت مهمة وزير الخارجية الآن ، ألغي هذا المنصب في سنة ١٨٣٦ م .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ١٦٨/٢ .

● الروزنامجي

الروزنامه هي دفتر خاص بتسجيل الإيرادات والمصروفات اليومية ، والروزنامجي هو الموظف المسئول عن هذا الدفتر .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٦٧٤ .

● الروملي

اسم عام أطلق قديما على أقسام الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٢٧٠/١ .

— ز —

● الزغرجي

وتعني مربى كلاب الصيد ، وكان هذا الاسم يطلق على فئة من جيش الإنكشارية وكان منهم المشاة الفرسان ، وكان عددهم ٤٠٠ ، منهم ٣٠ من المشاة وكان رئيسهم يسمى (زغرجي باشي) .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/٦٥٨ .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٣٤٨/١ .

— س —

● السردار الأكرم

لقب كان يطلق على الصدر الأعظم حين يخرج على رأس الجيوش العثمانية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٧٣/٣ .

● سر چشمه

لقب الضابط المعني بتسوية أمور المؤن والمرتببات .. إلخ ، ويعد بمثابة وكيل قائد الفرقة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٧١٥

● سردنكجديہ (سردنكجديان)

فئة من الجند الفدائيين ، يناط بهم المهام الصعبة والخطرة في الحروب ، وكان يطلق عليهم كذلك (رجال الحرب) .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٧٠/٢ .

● السكباتية

ومفردها سكبان ، وهو متولي أمر كلاب الصيد ، وكان السكبان يخرج في مجموعة من زملائه مع السلطان أو الوزير للصيد ، وكان لهؤلاء كيان مستقل حتى سنة ١٤٥١م ، ثم ألحقوا من بعد بجيش الإنكشارية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٨٩/٢ - ٢٩٠/١

● سلاحدار

شخص من أهم أعماله حفظ أسلحة الوزراء والأمراء ، والسير وراء الوزير أو الأمير في الاحتفالات أو الموكب حاملا سيفه على كتفه الأيمن .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٧٣١

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٢٤ .

● سرعسكر

اسم مركب من كلمتين : سر الفارسية وتعني قائد أو رئيس ، وعسكر العربية ، ويعني هذا الاسم قائد الجيوش .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٧١٧

● سنجق

كلمة تركية تعني لواء أو راية ، ويطلق هذا الاسم كذلك على وحده إدارية في الدولة العثمانية تنقسم بدورها إلى عدد من الأقسام ، ويسمى المشرف على الأمور العسكرية والملكية في هذه الوحدة الإدارية سنجق بك .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٧٣٧

● سفن النار

ضرب من السفن الحربية المدمرة لسفن الأعداء صممت لتكون مكسدة بالمواد المتفجرة والمحرقه ، حتى إذا اقتربت من الهدف المراد تدميره نزل من على متنها من البحارة بقوارب تكون خف السفينة وهربوا قبل أن تنفجر بهم مدمره سفن الأعداء .

ẽrlugrul Duzdag : (a.g.e) , s. ٤٢ .

— ش —

● شيخ الإسلام

هو صاحب أعلى رتبة علمية في أوائل عهد الدولة العثمانية ، وكان يسمى قاضي العسكر وفي عهد السلطان محمد الفاتح كان يعرف بالمفتي ، وظل يعرف بهذا الاسم حتى أواخر القرن الـ ١٧ الميلادي ، ثم أصبح يعرف بشيخ الإسلام ، ولشيخ الإسلام الرئاسة على كافة العلماء والمدرسين في الدولة ، وهو عضو في الديوان السلطاني .

M. Sertoglu , (a.g.e) , s. ٣٠٤/١ - ٣٠٤/٢ .

● الشلوبة — (سفن الشلوبة)

ضرب من السفن الشراعية الحربية صغيرة الحجم نسبيا ، تستخدم في مهام التخابر ، وتحمل على متنها ٧٢ شخصا و ١٢ مدفعا .

Erlugrul Duzdag : (a.g.e) , s. ٤٢

— ص —

● الصدر الأعظم

هو رئيس الحكومة في عهد الدولة العثمانية ، وهو يلي السلطان في منزلته ويدون ما يصدر عن السلطان من قرارات ، وهو يرأس الديوان الهمايوني (السلطاني) ، وكان الصدر الأعظم حين يخرج على رأس الجيوش العثمانية يسمى (سردار أكرم) ، ويطلق على ديوانه اسم (باب الباشا) أو (الباب الأصفي) .

M. Sertoglu , (a.g.e) , s. ٢٧٣/١ - ٢ .

● الصوباشي

هو لقب أطلق على الشخص المكلف بحفظ الأمن والنظام في إحدى المدن أو القرى وخاصة للقرى .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٢٨ .

● الصول أغا

وهو بمثابة مساعد البكباشي الذي يكون له مساعدان ، أحدهما يسمى (صول أغا) والآخر يسمى (صاغ أغا) .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢٠١/٨٤١ .

— هي —

● الضريخانه العامرة

ضريخانه : اسم مركب من كلمتين ضرب العربية وخانه الفارسية ، ومعناها دار ضرب العملة ، والضريخانه العامرة هي دار سك العملة باستانبول .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٨٥٣

— ط —

● طويخانه

اسم أطلق على دار صفاعة المدافع التابعة للحكومة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٨٨٩

● الطوغ

خصلة من شعر ذيول الخيول كانت تعلق في صاري كالعلم ، وكانت تستخدم شعاراً عند أمراء الهند والصين والترك وحكامهم في الأزمنة السحيقة وكان يصنع من شعور (ثور التبت) وقد وجدت هذه

العلامة عند العثمانيين وكانت مميزه للحكام والوزراء والأمراء والولاة غير أنهم كانوا يصنعونها من ذيول الخيول ، وكان للصنق بك واحدة ، والوالي (الباشا) اثنتان ، وللوزير ثلاثة ، أما السلطان فكانت له ستة وتسمى الطوغ الهمايوني (السلطاني) ، وكان الصدر الأعظم وقت الخروج إلى الحرب على رأس الجيش العثماني يحمل معه الطوغ الهمايوني ، وكان هذا الطوغ يخرج قبل خروج الجيش العثماني بشهرين في حفل بهيج يشهده الصدر الأعظم وتقرأ فيه الفاتحة وتنحرف فيه الذبائح .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٣٢٢/١ - ٢ .

— ع —

● العربية

طائفة من الجند في الجيش الانكشاري يعهد إليها بنقل الأسلحة والمدافع على المركبات .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٤٠ .

— غ —

● الغازي

لقب من الألقاب السنية ، أطلق على الملوك والقادة المسلمين الذين حققوا انتصارات باهرة فيما كانوا يخوضونه من حروب وغزوات في سبيل الله والإسلام .

حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، النهضة ١٩٥٧م ، ص ٤١١ .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٥١ .

- ق -

● القانمقام

هو الوزير الذي ينوب عن الصدر الأعظم في حالة تغييبه عن العاصمة لأي سبب من الأسباب .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ٢٧٢/١ - ٢ .

● القبودان دريا

لقب القائد الأعلى للأسطول العثماني ، وهو عضو في الديوان السلطاني باستانبول واستمر هذا اللقب حتى عام ١٨٦٧ م .

M. Sert oğlu , (a.g.e) , s. ١٦٣/١ - ٢ - ١٦٤/١ .

● القليونجية

ومفردها قليونجي أو قلينجي ، وهو اسم أطلق قديما على البحارة العاملين على متن السفينة المسماة قليون ، وهي أضخم ضروب السفن الشراعية الحربية عند العثمانيين وكانوا يجمعون من بلدان بعينها كل عام في أزمنة الحرب .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٧١ .

● القوناقجي

ضابط يتقدم الجنود الخارجة للغزو لتهنئة مواضع استراحتهم .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ١٨١ .

— ك —

● الكتخدا

كلمة فارسية الأصل تعني وكيل أو نائب معتمد ، وكان للباشوات وكبار رجال الدولة العثمانية من ينوب عنهم في أعمالهم ويطلق عليه (الكتخدا) .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١١٤٥ / ٢

M. Sertoglu , (a.g.e), s. ١٧٣/٢ .

● الكديكلية

صنف من الخدام العاملين بالقصر السلطاني ممن يتمتعون بامتياز خاص يتعلق بالمهام التي يكلفون بها .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١١٥٢ / ٣

● الكرنتيلة

كلمة إيطالية الأصل بمعنى أربعين ، وكان الواردون من الخارج الذين يشتبه في مرضهم يحجزون في الحجر الصحي أربعين يوما حتى تثبت سلامتهم من الأمراض الوبائية .

أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص ١٨١ .

● الكلارجي باشي

الكلار كلمة تركية تعني مخزن الأطعمة ، والكلارجي باشي هو متولي أمر مخزن الأطعمة في قصر السلطان أو الباشا .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١١٧٤ / ٢-٣ .

● الكيسه دار

هو متولي أمر حافظة أموال وجيه أو وزير ، والإنفاق منها في الوجوه المستحقة (أمين الصندوق) .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٢٢٥

— ل —

● اللاز

شعب من الشعوب القفقاسية يسكن الساحل الجنوبي الشرقي من البحر الأسود ، اشتهر بالجرأة والشجاعة والمهارة في أنشطة الملاحة البحرية .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/١٢٣٣

— م —

● المباشر

موظف معني بإبلاغ أوامر الحكومة إلى موظفيها أو تحصيل الأموال الأميرية .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/١٢٦٨

● المتسلم

موظف مهمته تحصيل الأموال الأميرية .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٢٧٧

● المحصل

اسم أطلق على موظف مهمته تحصيل الأموال الأميرية .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/١٣٠١

● المعروضات

اسم اطلق على المكاتبات والمحركات التي كانت ترفع من جهة إلى جهة أعلى وعلى الأخص إلى السلطان .
شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١٣٧٤/١

● المهترخاته

فرقة الموسيقى العسكرية عند العثمانيين ، وكان من آلاتها الطبل والدف والمزمار .

M. Sertoglu , (a.g.e) , s. ٢٠٢/١ .

● المهردار

لقب حامل أختام كبار رجال الدولة والمكلف بختم الأوراق الرسمية اللازمة .

B. Sitki Baykal , (a.g.e) , s. ٩٧ .

● الميري — (الأموال الميرية)

الميري اسم أطلق على كل ما كان يعد ملكا للحكومة من أشياء منقولة أو غير منقولة أما الأموال الميرية فهي الضرائب المفروضة على الأراضي والتي تعود إلى الخزينة العامة للحكومة .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) , c.II , s. ٥٤٢/٢ .

- شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١٤٤٢/١ .

● الميرميران

لقب فارسي بمعنى أمير الأمراء وهو لقب كان يعطى للباشوات ذوي الطوعين ويعادل لقب (بكلمر بكى) ، وكان هؤلاء الباشوات يرسلون إلى الولايات كقادة عسكريين أو كولاة .

M. Sert oğlu , (a.g.e) ,s.

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١٤٤١/٣

— ن —

● ناظر

كلمة عربية الأصل كانت تطلق قديما على القائم بتدبير شؤون الوقف ، ثم أصبحت تطلق على أعضاء الحكومة ممن يتولون الوزارة وذلك اعتبارا من عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) فكانت بمعنى الوزير . بطل استخدام هذا اللقب بعد إلغاء السلطنة وسقوط حكومة استانبول .

M. Sert oğlu , (a.g.e) ,s. ٢٢٢/١ .

● نقيب الأشراف

وظيفة شرفية عرفت في أكثر البلاد العربية الكبرى منذ عهد الخلفاء العباسيين ، ويختار النقيب من بين أفراد سلالة الحسن حفيد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وتكون له مكانة مرموقة ، ومن واجباته الحفاظ على سجلات السلالة الشريفة وسمعة أفرادها .

الموسوعة العربية الميسرة ، ج ٢ ، ص ١٨٤٦/٢

— ه —

● همانيون — الجيش الهمايوني

الهمايون كلمة فارسية تعني السلطان أو الملك ، والجيش الهمايوني هو الجيش السلطاني .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٥١٠

— و —

● وكيل الخرج

هو متولي أمر المصروفات في أحد النزل أو المراحل .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٤٩٧

— ي —

● ياور

ضابط في معية القادة تنحصر مهمته في إبلاغ أوامرهم إلى ما دونهم من الضباط والجنود .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٥٣٨-١/١٥٣٩

● يساقجي

اسم أطلق على الحارس الذي يسبق إحدى الشخصيات الهامة أو الرسمية لإبعاد الجماهير عنه ، كما أطلق هذا الاسم على حراس السفراء والقناصل الأجانب في الدولة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/١٥٢٩

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات التركية :-

- ١- بربر زاده يوسف ، مصر قاهره تاريخي (نسخة مصورة من مخطوطة مكتبة جامعة استانبول موجودة بمكتبة مركز بحوث العالم التركي بالقاهرة) .
- ٢- عزت حسن أفندي الدارندلي : ضيا نامه ، (صورة مخطوطة مكتبة جامعة استانبول موجودة بمكتبة مركز بحوث العالم التركي بالقاهرة) .
- ٣- مصطفى رسمي أفندي : وقعه نامه ، (صورة مخطوطة مكتبة جامعة استانبول موجودة بمكتبة مركز بحوث العالم التركي بالقاهرة) .

ثانياً: المصادر والمراجع العربية :-

- ١- أمل بشور : حملة بونابرت إلى الشرق (مخطوطة نقولا الترك) دراسة وتحقيق ، دار جروس برس لبنان ١٩٩٣ م .
- ٢- الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤ أجزاء) بولاق ١٢٩٧ هـ .
- ٣- حسين مجيب المصري : بين الأدب العربي والفارسي والتركي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧ م .
- ٤- حسين مجيب المصري : في الأدب الشعبي الإسلامي المقارن ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١ م .

ثالثاً: المراجع العثمانية :-

- ١- أحمد جودت باشا : تاريخ جودت (ترتيب جديد) استانبول ١٣٠٩ هـ .
- ٢- أحمد حامد ، مصطفى محسن : توريكه تاريخي ، استانبول ١٩٢٤ م .
- ٣- بورصلي محمد طاهر : عثمانلي مؤلفلري ، استانبول ١٣٤٢ هـ .
- ٤- علي رشاد : قرون جديده تاريخي ، استانبول ١٣٣٣ هـ .

٥- قارصلي جمال الدين : عثمانلي تاريخ ومؤرخلري (آيينه* ظرفا) ، استانبول

. ١٣١٤ هـ

رابعاً : المراجع التركية الحديثة :-

- 1- Agah Sirri Levend Gazavat - Nameler Ve Mihal Oglu Ali Beyin Gazavat Namesi - Ankara 1954 .
- 2- Enver Ziya Karal . Fransa - Misir Ve Osmanli Impratoluĝn (1797 - 1802) Milli Mecmua Basimevi - Ist . 1938 .
- 3- Enver Ziya Karal : Osmanli tarihi , T.T.K. Ankara 1970 .
- 4- Hakki Dursun : Doguŝtan g n m ze B y k Islam Tarihi , Ist , 1989 .
- 5- Ismail Hami Daniŝmend : Izahli Osmanil Tarihi Kronolojisi , Ist . 1971 .
- 6- Ismail soysal : Fransiz Ihtilali Ve T rk - Fransiz Diplomasi M nasebetleri (1789 - 1802) T.T.K. Ankara - 1964 .
- 7 - Ismet Binark : Turk sefer Ve Zaferleri Bibliyrafyasi , Ankara - 1969 .
- 8 - Murad Sariga , 100 Sorunda Fransiz Ihtilali , Ist . 1970 .
- 9- Mustafa Nuri Pasa : Netayic  l-vukuat , sadeleŝtiren Neŝet  aĝatay , T.T.K. Ankara , 1979 .
- 10-Yilmaz Oztuna , Osmanli Devleti Tarihi Faisal Finans Kurumu , Ist . 1986 .

خامساً : المعاجم والقواميس العربية :-

- ١- أحمد عطية : القاموس الإسلامي (جزءان) ، النهضة المصرية ١٩٦٢ م .
- ٢- عمر رضا كحاله : معجم المؤلفين (١٤ جزء) ، دار إحياء التراث - بيروت

. ١٩٥٧ م

٣- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤م .

سادساً : المعاجم والقواميس العثمانية :-

١- شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، استانبول ١٣١٦هـ .

٢- شمس الدين سامي : قاموس تركي ، ١٣١٧هـ .

سابعاً : القواميس ودوائر المعارف التركية :-

- 1 - İslam Ansiklopedisi , Milli Eğitim Basımevi , İstanbul . 1941 .
- 2 - Küçük Hayat Ansiklopedisi , İstanbul . 1968 .
- 3 - M. Çatay Uluçay Bates Tarih Ansiklopedisi , İstanbul . 1979 .
- 4 - Midhat Sertoglu : Resimli Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi , İstanbul . 1958 .
- 5 - M. Z. Pakalın : Osmanlı Tarih Deyimleri Ve Terimleri Sözlüğü , Milli Eğitim Basımevi , 2.baskı , İstanbul . 1971 .
- 6 - Türkiye Gazetesi , Rehber Ansiklopedisi , İstanbul . 1984 .
- 7 - Yeni Türk Ansiklopedisi , İstanbul . 1985 .

ثامناً : الدوريات التركية :-

- 1- Ahmet Ugur : Selim - Nameler , İlahiyat Fakültesi Dergisi , c. XXII , Ankara 1978 .
- 2 - İsmail Hakkı Uzunçarşılı , Bonapart'ın Cezzar Ahmed Paşa'ya Mektubu , Belleten Tammüz 1964 , sayı III , c. XXVIII .
- 3 - Nigar Anafarta Napoleon Bonaparte'in Mısır'ı işgali , Hayat Tarih Mecuası sayı . mart 1970 .

ثبت باختصارات المستخدمة بالكتاب

* a.e	= aynı eser	المرجع نفسه
* a.g.e,	= aynı geçen eser	المرجع السابق
* a.m	= aynı makale	المقال نفسه
* T.T.K	= Türk Tarih Kurumu .	مجمع التاريخ التركي
* T.D.K	= Türk Dil Kurumu.	مجمع اللغة التركية

* ج	= جلد	: المجلد
* ع . ج	= عینی جلد	: المجلد نفسه
* ع . ك . أ	= عین کچن اثر	: المرجع السابق
* ق . ت	= قاموس ترکی	: القاموس التركي

تنويه

ثمة نقطة مهمة خاصة بنطق بعض الأسماء والمصطلحات التاريخية التركية العثمانية الواردة بالكتاب ؛ وهي أن نطق بعض حروفها يختلف في التركية عنه في اللغة العربية مثل :

١ - حرف (چ) : ينطق مثل حرفي (ch) في الإنجليزية
مثل :

چلدر تنطق (تشلدر) ؛ چلبى تنطق (تشلبى) .

٢ - حرف (ک) : ينطق مثل حرف الجيم في اللهجة المصرية ؛
مثل :

کنج تنطق (جننش) .

٣ - حرف (ک) ينطق كالياء في اللغة العربية ؛
مثل :

دکرمنجى تنطق (ديرمنجى) .

٤ - حرف (گ) ينطق كحرف النون في اللغة العربية ؛
مثل :

يگى تنطق (ينى) .

صدر فى هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤ .
- ٢ - على ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧ .
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧ .
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٨٧ .
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى،
علية عبد السميع الجلزورى، ١٩٨٧ .
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١،
لمعى المطيعى، ١٩٨٧ .
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي،
د . عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧ .
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية،
د . على بركات، ١٩٨٧ .
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د . محمد أنيس، ١٩٨٧ .

- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمود فوزى، ١٩٨٧.
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية،
شكرى القاضى، ١٩٨٧.
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير،
د . نبيل راغب، ١٩٨٨.
- ١٣ - أكنؤوبة الاستعمار المصرى للسودان: رؤية تاريخية،
د . عبدالعظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤.
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى إلى قيام الدولة
الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د . على حسنى الخربوطلى، ١٩٨٨.
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر: دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٨.
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨.
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،
د . على السيد محمود، ١٩٨٨.
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د . أحمد محمود صابون، ١٩٨٨.

- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد
زغلول وعبدالرحمن فهمى ،
د . محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨ .
- ٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج١ ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨ .
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨ .
- ٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج٢ ، إمام التصوف فى
مصر: الشعرانى ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨ .
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦) ،
د . نجوى كامل ، ١٩٨٩ .
- ٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب ،
تأليف: هاملتون جب وهارولد بويرين ،
ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩ .
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعيد إسماعيل على ، ١٩٨٩ .
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج١ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ، ١٩٨٩ .
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ، ١٩٨٩ .
- ٢٩ - مصر فى عهد الإخشيديين ،
د . سيدة إسماعيل كاشف ، ١٩٨٩ .

- ٣٠- الموظفون في مصر في عهد محمد علي،
د . حلمي أحمد شلبي، ١٩٨٠ .
- ٣١- خمسون شخصية مصرية وشخصية،
شكري القاضي، ١٩٨٩ .
- ٣٢- هؤلاء الرجال من مصر ج٢،
لمعي المطيعي، ١٩٨٩ .
- ٣٣- مصر وقضايا الجنوب الأفريقي: نظرة على الأوضاع الراهنة
ورؤية مستقبلية،
د . خالد محمود الكرمي، ١٩٨٩ .
- ٣٤- تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢،
د . يونان لبیب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠ .
- ٣٥- أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة،
عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٠ .
- ٣٦- المجتمع الإسلامي والغرب ج٢،
تأليف : هاملتون بووين، ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠ .
- ٣٧- الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية في
ربع قرن،
تأليف : د . سليمان صالح، ١٩٩٠ .
- ٣٨- فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني،
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠ .
- ٣٩- قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧)،
د . جميل عبيد، ١٩٩٠ .

- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د . عبد المنعم الدسوقي الجميلى ، ١٩٩٠ .
- ٤١ - محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية،
د . رفعت السعيد، ١٩٩١ .
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور،
محمد شفيق غريال، ط ٢، ١٩٩٠ .
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية،
إبراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠ .
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر، فى العصر العثمانى،
د . محمد عفيفى، ١٩٩١ .
- ٤٥ - الحروب الصليبية ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتقديم: د . حسن حبشى، ١٩٩١ .
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧) ،
ترجمة: د . عبدالرؤوف أحمد عمر، ١٩٩١ .
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١ .
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى .
د . زبيدة عطا، ١٩٩١ .
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦-١٩٥٤) ،
د . سهير اسكندر، ١٩٩٣ .

- ٥١- تاريخ المدارس في مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، في
إبريل ١٩٩١)،
أعدها للنشر: د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
- ٥٢- مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر،
د. إلهام محمد علي ذهني، ١٩٩٢.
- ٥٣- أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي، ١٩٩٢.
- ٥٤- الأقباط في مصر في العصر العثماني،
د. محمد عفيفي، ١٩٩٢.
- ٥٥- الحروب الصليبية ج٢،
تأليف: وليم الصوري ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، ١٩٩٢.
- ٥٦- المجتمع الريفي في عصر محمد علي: دراسة عن إقليم المنوفية،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٩٢.
- ٥٧- مصر الإسلامية وأهل الذمة،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢.
- ٥٨- أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة،
د. إبراهيم عبدالله المسلمي، ١٩٩٣.
- ٥٩- الرأسمالية الصناعية في مصر، من التمهيد إلى التأميم
(١٩٥٧-١٩٦١)،
د. عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣.
- ٦٠- المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،
عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٣.

- ٦١ - تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٣ ،
لمعى المطيعى، ١٩٩٣ .
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية ،
تأليف: د . سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح
عاشر، أعدها للنشر: د . عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان ، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣ .
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧-١٩١٧) ،
د . سهام نصار، ١٩٩٣ .
- ٦٦ - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣ .
- ٦٧ - مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ،
بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل
١٩٩٣) ، أعدها للنشر: د . عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٨ - الحروب الصليبية ج٣ ،
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٣ .
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦-١٩٥١) ،
د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤ .

- ٧٠ - أهل الذمة في الإسلام،
تأليف : أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، ط ٢، ١٩٩٤ .
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦) ،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤ .
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي
(٣٥٨-٥٦٧هـ) ،
د . أميدة أحمد إمام ، ١٩٩٤ .
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤ .
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني ،
د . سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤ .
- ٧٥ - أهل الذمة في مصر، في العصر الفاطمي الأول،
د . سلام شافعي محمود، ١٩٩٥ .
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د . سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥ .
- ٧٧ - الحروب الصليبية ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري، ترجمة وتعليق: د . حسن حبشي، ١٩٩٤ .
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السننورية (١٨٧٣-١٨٩٩) ،
نعيمات أحمد عثمان، ١٩٩٥ .
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر، في القرن التاسع عشر،
تأليف : فريد دي يونج، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال، ١٩٩٥ .

- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي (١٨٨٢-١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال، ١٩٩٥ .
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر
أكتوبر،
د . رمزي ميخائيل، ١٩٩٥ .
- ٨٢ - مصر في فجر الإسلام، من الفتح العربي إلى قيام الدولة
الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤ .
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ج ١،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤ .
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ج ٢ - القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥ .
- ٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمي أحمد شلبي، ١٩٩٥ .
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ -
١٩١٤) ،
د . أحمد الشربيلي، ١٩٩٥ .
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن، ج ٢، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
إعداد : تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د . عبدالرؤف أحمد عمرو ١٩٩٥ .
- ٨٨ - النذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٥ .
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني،
د . عبد الحميد حامد سليمان، ١٩٩٥ .

- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦ .
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمي الجمال، ١٩٩٦ .
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
ج ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦ .
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٧٤ - ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيبوي عبدالله، ١٩٩٦ .
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦ .
- ٩٥ - مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة
بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة
القاهرة) ،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤف أحمد عمرو .
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د. إيمان محمد عبد الملعم عامر .
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سيد محمد .

٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى -
الرومانى) ج ٢ ،

د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة ،

أ.د. عبد العزيز صالح، أ.د. جمال مختار، أ.د. محمد

ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحي،

أ.د. فاروق القاضى ، أعدها للنشر: أ.د. عبدالعظيم رمضان

١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،

اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير ، اللواء/ عبدالمجيد كفاوى،

اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ -

١٩٥٢

د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ - رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره

د. على بركات

١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢)

د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ - السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥ -

١٩٨٧ .

د. أحمد فارس عبدالمنعم

١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية

فى ربع قرن .

د. سليمان صالح

- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية.
تأليف: دليوب هيررو: ترجمة: عبدالحميد فهمي الجمال.
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤ .
سليم النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥ .
سليم النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ١ .
د. البيومي إسماعيل الشربيني.
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ١ . ٢ .
د. البيومي إسماعيل الشربيني.
- ١١٢ - إسماعيل باشا صدقي
د. محمد محمد الجوادى.
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري)
د. عز الدين إسماعيل.
- ١١٤ - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح
- ١١٥ - مذكراتى في نصف قرن ج ٣ .
أحمد شفيق باشا.
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية
عبد الرزاق إبراهيم عيسى (١٥١٧ - ١٧٩٨)

- ١١٨ - النظم المالية فى مصر والشام
د. البيومى اسماعيل الشربينى
- ١١٩ - النقابات فى مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس
- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج٦
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج٧
سليم. خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج٨
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم .
- ١٢٨ - معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوى.

١٢٩ - الدين العام (وأثره في تطور الاقتصاد المصري)
(١٨٧٦-١٩٤٣).

د. يحيى محمد محمود

١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين في مصر (١٩٨٧-١٩٩٧).
سمير فريد.

١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يولية ١٩٥٢م.
ترجمة/ د. عبدالرؤف أحمد عمر.

١٣٢ - دار المندوب السامي في مصر ج١. د. ماجدة محمد حمود.

١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر ج٢. د. ماجدة محمد حمود.

١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى
للدانديلي.

ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.

فهرس الموضوعات

٥٠.....	التقديم
٧.....	الإهداء
٩.....	المقدمة
١٣.....	التعريف بالمخطوطة
١٤.....	صاحب المخطوطة وعصره
٢٧.....	منهج عزت حسن أفندى فى مخطوطه (ضيا نامه)
٣٣.....	مصادر (ضيا نامه)
٤٠.....	أهمية مخطوطة (ضيا نامه)
٥١.....	مكانة عزت حسن أفندى بين المؤرخين العرب المعاصرين له
٥٩.....	الصفحة الأولى من المخطوطة
٦١.....	الصفحة الأخيرة من المخطوطة

مخطوطة ضيا نامه للدارندلى : الترجمة العربية

٦٥.....	ديباجة
---------	--------

المقدمة

٧٢.....	نشأة السردار الكرم منصور اللواء الحاج يوسف ضيا باشا الغازى
٧٤.....	إسناد إمارة كيان معدن الى حضرته
٧٧.....	واقعة قضاء خربرت وتأديب أغواتها
٧٩.....	القضاء على أشقياء الشيخ حسن فى لواء چمشكزك
٨٦.....	توجيه رتبة الوزارة السامية وإيالة ديار بكر الى حضرته
٨٩.....	إلحاق أمانة (كمشخانه) بـ (كيان) وقمع أوجنحى زاده
٩٢.....	توجيه إيالة أرضروم الى حضرته ومغادرته (كيان) بعد عدة اشهر
٩٧.....	تأديب شاه حسين أو غلو (من أشقياء أكراد الديسميين)
٩٨.....	توجيه إيالة چلدر الى حضرته وإخراج شريف باشا من آخسخه
١٠٦.....	مقتل آغا محمد خان فى قلعة شوش

- توجيهه إيالة طرابلسون ومحصلية جاتيك إلى حضرته ، وتحركه من أرضسوم وأحوال
الاستيلاء..... ١٠٧
- قسح أكراد ديسم وأكراد الشيخ حسن..... ١٢٠

الملحمة

- بدء قصة استيلاء الفرنسيين على الممالك المصرية المقدسة ١٣٠
- ورود هذه الرسالة الموحشة إلى مصر القاهرة ١٣٥
- المنشور اللعين باستثناء البسملة وعبرة التوحيد..... ١٣٨
- اعتراضى أنا الفقير على منشور الفتنة هذا وتحقيق عقائدكم الباطلة..... ١٤١
- واقعة مراد بك مع الفرنسيين وانهازمه ١٤٧
- وصول رسالة حجاج مصر..... ١٦٠
- زحف الفرنسيين على بلبيس..... ١٦١
- معركة (أبو قير) البحرية بين الأسطول الفرنسى والإنجليزى ولتقتسمار أميرال
الإنجليزى على الفرنسيين..... ١٦٤
- عودة الفرنسيين من بلبيس إلى القاهرة بعد رحيل مراد بك وأتباعه إلى الصعيد
وإبراهيم بك وأتباعه إلى غزة ١٦٧
- إنذراع الفتنة في مصر ومقتل القائد ديوى وطلب الأهالى الأمان بعد الحرب وانقراض
الصلح ١٧٢
- وصول خبر استيلاء الفرنسيين على مصر من جهة القاهرة إلى السادة السنية وعقد
المشاورات في ذلك الصدد..... ١٧٧
- قدوم يوسف ضيا باشا مقر الصدارة العظمى..... ١٨٢
- قدوم جبهة قورقو وتواجدها..... ١٨٨
- وصف قلعة قورقو..... ١٩٤
- توجيهه إيلالى مصر ونهشيق إلى أحمد باشا الجزائر..... ١٩٦
- استيلاء الفرنسيين على سواحل بلاد الشام..... ١٩٨
- كشف الممرات الأنبار يوسف ضيا باشا بالسفر إلى مصر وتفتيش الجيوش
الفرنسيين..... ٢٠٣

- استيلاء الأسطول الإنجليزي على السفن الفرنسية أمام ساحل الإسكندرية..... ٢٠٥
- ورود الخط الهمايوني مع التشریفات السنیة إلى السردار الأكرم يوسف ضوياً باشا
- وتأكد خروجه بالجيش الهمايوني..... ٢٠٧
- إخراج (طوغ النصر الاصفى) إلى صحراء حيدر باشا..... ٢٠٨
- خروج السردار الأكرم إلى جهة اسكدار..... ٢٠٩
- خروج السردار الأكرم من صحراء حيدر باشا متوجهاً إلى مصر..... ٢١٠
- ورود بشرى هزيمة الفرنسيين فى عكا فى حربهم مع الجزائر باشا..... ٢١٤
- شجاعة الجزائر باشا ودوره البطولى فى هذه الحرب..... ٢١٨
- قتل عين (سكود) ونفى نقيبها..... ٢٢٣
- وقعة الديواتكان فى سهل قونيه..... ٢٢٨
- تذليل عن أحوال الديواتكان..... ٢٢٩
- النزاع بين التوفكجية والأرنأعوط وطرد السردار الأكرم لـ (جتاق حسين) وكيفية قتله بعد عدة أيام عند المناجم الهمايونية..... ٢٣٤
- إلقاء إبراهيم باشا فى الوزارة..... ٢٣٧
- توجيه كتحداوية بوابى السلطان إلى سرورى محمد أفندي..... ٢٣٧
- قدوم كوجك على زاده خليل باشا إلى موطن قدم السردار الأكرم..... ٢٣٨
- إسناد إيالة ديار بكر إلى شيخ زاده إبراهيم باشا ، وإيالة حلب إلى الحاج إبراهيم باشا..... ٢٤٢
- حبس أبى بكر اغشا متسلم انطاكية ومصادر أملاكه..... ١٢١
- وقوع كوسه مصطفى باشا اسيراً فى يد الفرنسيين بعد الاستيلاء على قلعة (أبو قبر)..... ٢٤٨
- عزل الجزائر باشا من ولاية دمشق وإسنادها إلى عبد الله باشا..... ٢٥١
- قتل أبى حمزة وإشيعاه فى دمشق..... ٢٥٥
- فساد زمرة الديواتكان..... ٢٥٧
- قدوم الحاج على أغا رئيس الادلاء وتوليه منصب (سر چشمه)..... ٢٥٨
- فرار بونابرت من مصر إلى فرنسا..... ٢٦٠
- وقعة جزلية..... ٢٦٢

- زيادة بعض المزارات المباركة في دمشق ونبذة عن أوصافها..... ٢٦٣
- تعيين رجب باشا محافظاً على يافا وشريف باشا محافظاً على غزة..... ٢٦٤
- خروج الجيش الهمايوني من دمشق..... ٢٦٤
- منح محمد باشا - وكيل الخرج - رتبة ميرميران..... ٢٦٤
- مجئ حسين باشا ومصطفى باشا إلى الجيش الهمايوني..... ٢٦٨
- قدوم القائد سميث - من القادة الأنجليز - إلى الجيش الهمايوني وطلب الفرنسيين
- التفاوض بشأن الجلاء عن مصر..... ٢٦٩
- فتح واسترداد قلعة العريش..... ٢٧٠
- تاريخ فتح العريش..... ٢٧١
- عقد الصلح مع الفرنسيين..... ٢٧٧
- خروج الجيش الهمايوني من صحراء العريش ونقض الفرنسيين الاتفاق ، وهزيمة
- الجيش ورجوعه إلى غزة..... ٢٨٠
- أحوال وزراء الجيش الهمايوني..... ٢٩٠
- ذهاب رشيد مصطفى افندي إلى الآستانة..... ٢٩٣
- دخول كتحدا عثمان افندي ونصوح باشا القاهرة وخروجها منها بعد معارك تعاقبت
- مع الفرنسيين..... ٢٩٤
- عزل عمر أغا الإنكشارية ووفاته بعد ترقيته إلى (ميرميران)..... ٢٩٩
- حركة عزل ونصب جزئية..... ٣٠١
- تقلد سعد الله افندي منصب دفتر دار أول ، وتقلد رائف محمود افندي رئاسة
- الكتاب..... ٣٠١
- ورود خط الاستقلال الهمايوني والتشريفات إلى السردار الأكرم..... ٣٠٢
- قدوم القبودان حسين باشا إلى الجيش الهمايوني وعودته إلى الآستانة..... ٣٠٣
- رخييل أمين النزل حسين اغا إلى الآستانة وتعيين مصطفى بك - كتحدا باب عبد
- الجبار زاده - بدلا منه..... ٣٠٣
- مقتل القائد الملعون كبير في القاهرة على يد سليمان الحلبي..... ٣٠٤
- ورود المدد وقدوم الحاج قدسي أفندي..... ٣٠٦

- ورود رشوان زاده وبایرید زاده وأبى بلطه وأمير كماخ صاغر زاده إلى الجيش الهمايوني..... ٣٠٧
- قدوم الحاج إبراهيم أغا - عين خربرت - ومعه جند خربرت وملاطيا..... ٣٠٨
- قدوم بكباشى جبار زاده ، وسائر جند المتفرقة..... ٣٠٩
- قدوم شيخ زاده إبراهيم باشا إلى الجيش الهمايوني..... ٣١٠
- قدوم إبراهيم باشا وإلى حلب إلى الجيش الهمايوني..... ٣١١
- عزل أمين المناجم وتنصيب آخر..... ٣١٢
- فى بيان المناصب المختلفة والنوازل المتنوعة التى نزلت بالجيش الهمايوني أثناء مقامه بصحراء يافا..... ٣١٣
- منح تيمور باشا زاده أسعد باشا رتبة الميرميرانية..... ٣١٧
- رحيل كفتخدا عثمان أفندى إلى الآستانة وبيان بالمناصب التى اسندت لبعض رجال الجيش..... ٣١٨
- تعمير قلعة يافا..... ٣١٩
- وقعة جزئية للكتانية..... ٣١٩
- خروج الجيش الهمايوني من صحراء يافا إلى جهة مصر للمرة الثانية..... ٣٢١
- زحف سر عسكر محمد باشا صوب مصر..... ٣٢٧
- محاربة الانجليز الفرنسيين ثانياً بالقرب من (أبو قير) وانتصار الانجليز على الفرنسيين..... ٣٢٩
- خروج السردار الأكرم من العريش..... ٣٣١
- فتنة جزئية بين طائفة الارناؤوط..... ٣٣٢
- خروج الفرنسيين لملاقاة الجيش الهمايوني ونشوب القتال بالقرب من قرية (منير) واندحار الفرنسيين..... ٣٣٣
- تنفيذ أوامر العزل والتعيين بالجيش الهمايوني..... ٣٣٩
- ورود رسالة البشرى من عند إبراهيم باشا قائد سواحل دمياط..... ٣٤٠
- التقاء الجيش الهمايوني بجيش قبودان باشا والقوات الإنجليزية بمنزل (شلاقان)..... ٣٤٥
- زحف العساكر على حى الحسينية دون إذن أو تصريح..... ٣٤٨

- دخول الجيش الهمايوني القاهرة..... ٣٥٥
- نصب ناظر للضربخانة..... ٣٥٩
- تعيين حافظ باشا محافظاً على الرحمانية ومحمد جاووش أغا محافظاً على البرالس..... ٣٦٠
- منح رتبة الوزارة إلى كتخدا القبودان باشا..... ٣٦٠
- فتح قلعة الإسكندرية..... ٣٦٣
- ذكر ضم لفظ (غازى) إلى القاب السلطان..... ٣٦٣
- ورود عثمان أفندى كتخدا الصدر الاعظم وشريف أفندى دفتردار مصر إلى القاهرة..... ٣٦٤
- حضور شقيق شريف مكة إلى مصر..... ٣٦٧
- ورود التشریفات الهمايونية من جهة الخليفة الأعظم..... ٣٦٨
- ذكر أحوال الأمراء من البداية إلى النهاية..... ٣٧٠
- ذهب سعد الله أفندى الكتخدا المعزول إلى الآستانة..... ٣٨٤
- عزل رجلى أفندى دفتردار أول..... ٣٨٤
- منح سيد قلندر باشا بلزید زاده رتبة (ميرمیران)..... ٣٨٥
- توجيه ابالة مصر إلى الوزير خسرو باشا..... ٣٨٦
- توجيه ابالة (ادنه) إلى شيخ زاده إبراهيم باشا..... ٣٨٨
- توجيه رتبة الوزارة إلى طوسون باشا..... ٣٨٨
- حضور خسرو باشا إلى مصر..... ٣٩١
- خروج الجيش الهمايوني من مصر قاصداً الستانة العلية..... ٣٩٢
- ترتيب عقاب دلى حسين متسلم عينتاب..... ٤٠٩
- نظام انكشارية حلب..... ٤١٦
- عزل خلوصى أحمد أغا من وكالة المناجم وإسنادها لعبدى بك..... ٤٢٢
- ذكر أوصاف ملاطيا ومصيف (أسبوزى)..... ٤٢٣
- خروج الجيش الهمايوني من ملاطيا..... ٤٢٧

الخاتمة

- ٤٣٥..... - الحاج إبراهيم باشا.
- ٤٣٦..... - شيخ زاده إبراهيم باشا.
- ٤٣٧..... - شريف باشا.
- ٤٣٨..... - رجب باشا.
- ٤٣٩..... - الحاج محمد باشا.
- ٤٤٠..... - دكرمنجى زاده مصطفى باشا.
- ٤٤١..... - نصوح باشا.
- ٤٤٢..... - إسماعيل باشا.
- ٤٤٣..... - طوسون محمد باشا.
- ٤٤٤..... - حافظ باشا (من الميرميران)
- ٤٤٥..... - رشوان زاده سيد عبد الرحمن باشا (من الميرميران)
- ٤٤٦..... - عثمان أفندى كتحدا الصدر الأعظم
- ٤٤٧..... - رشدى مصطفى أفندى
- ٤٤٨..... - سعد الله أفندى
- ٤٤٩..... - محمود رائف أفندى رئيس الكتاب
- ٤٥٠..... - خليل رجلى أفندى
- ٤٥١..... - تحسين أفندى
- ٤٥٢..... - حميد أفندى المكتوبى
- ٤٥٣..... - عبد الشكور أفندى
- ٤٥٤..... - عدى بك كاتب الكتحدا
- ٤٥٥..... - خليل ماهر مولوى أفندى
- ٤٥٦..... - صفى أفندى البكلجى
- ٤٥٧..... - رامز عبد الله أفندى
- ٤٥٨..... - أحمد أغا (أغا الإنكشارية)
- ٤٥٩..... - عثمان بك رئيس الجبجية

- مصطفى بك أمين النزل..... ٤٦٠
- كشاف بالمصطلحات التاريخية والعثمانية الواردة بضيا نامه..... ٤٦١
- قائمة المصادر والمراجع..... ٤٨٩
- ثبت بالاختصارات المستخدمة بالكتاب..... ٤٩٣
- تنويه..... ٤٩٥
- الفهرس..... ٤٩٧

المصبرة العامة للكتاب

رقم الابداع بدار الكتب ١٩٩٨/١٧٠٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 6021 - 0

هذا الكتاب المهم عن تاريخ الحملة الفرنسية على مصر. كان في الأصل رسالة علمية من قسم لغات الأمم الإسلامية، قدمها الأستاذ جمال سعيد المدرس المساعد بآداب حلوان، ترجم فيها مخطوطة عثمانية أصلية بعنوان «تعيانامة»، تعد هي المصدر العثماني الوحيد الذي ظهر حتى الآن، وانفردت بتقديم وجهة النظر العثمانية في موضوع الحملة الفرنسية على مصر والشام، ودور الدولة العثمانية في إخراج الفرنسيين.

ومن هنا أهمية الكتاب، إذ يضيف مصدراً جديداً من مصادر تاريخ الحملة الفرنسية غير الجبراتي ونقولاً تركي، ويقدم بدأ جديداً كان غائباً.